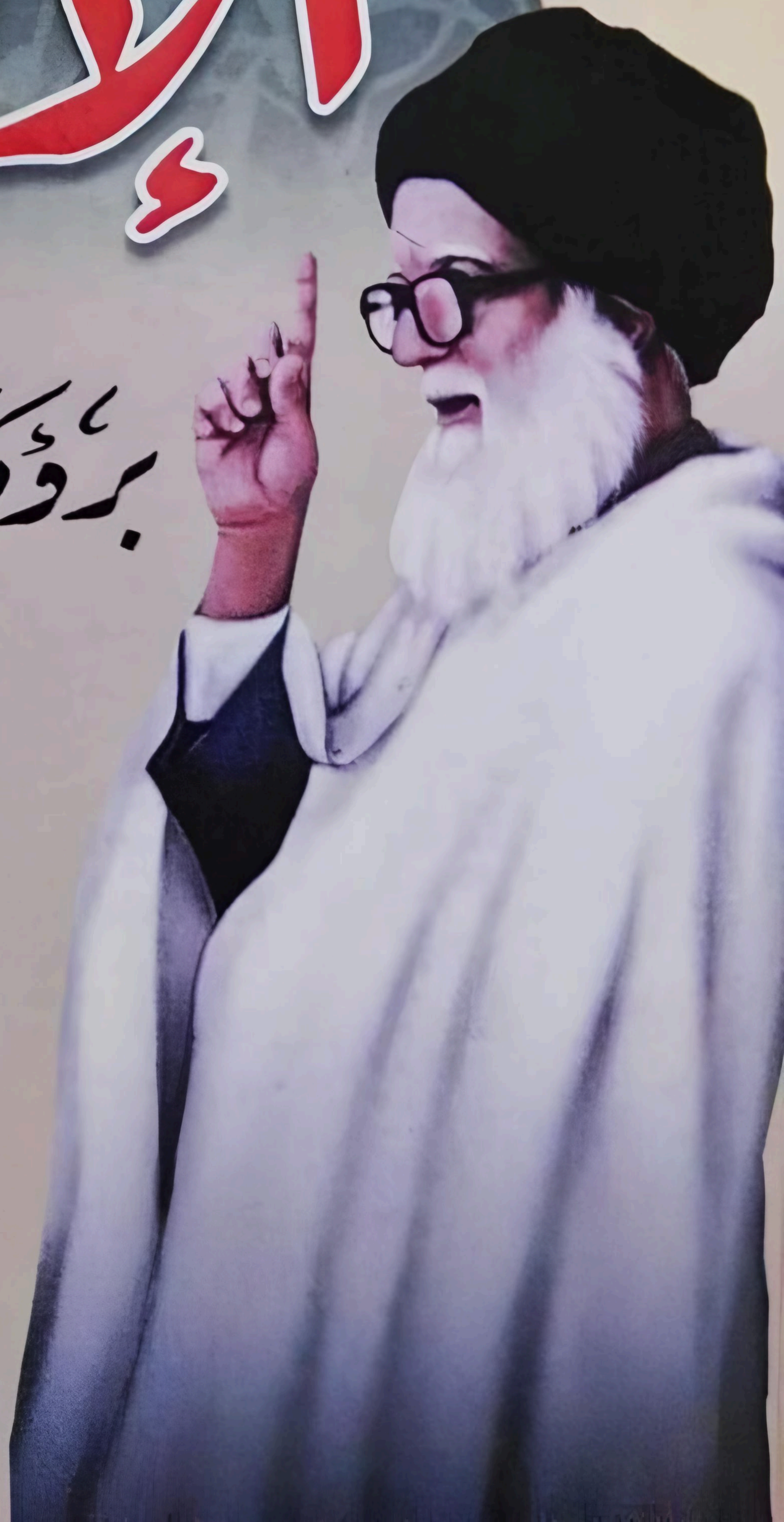
الإلحاد

برؤية السيد محمد الصدر



بقلم
مصطفى محمد البغدادي

الإلحاد

برؤية السيد محمد الصدر

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب:.............الإلحاد برؤية السيد محمد الصدر

المؤلف:..................مصطفى محمد البغدادي

المطبعة:..

الناشر:...

تاريخ الطبع:...

عدد النسخ..

الإلحاد

برؤية السيد محمد الصدر

بقلم
مصطفى محمد البغدادي

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

سورة إبراهيم آية ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعن الدائم على اعدائهم اجمعين إلى قيام يوم الدين وبعد...

عزيزي القارئ إن هذا الكتاب الذي بين يديك يتناول موضوع الإلحاد في منظور السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ ولا يخفى عليك ما يُضرب به مجتمعاتنا الإسلامية بين الحين والآخر من هجمات عقائدية وفكرية الغرض الأساس منها هو زلزلة إيمان المؤمنين من قلوبهم؛ لأن ذلك الإيمان ـ إن خالطه العمل ـ سيشكل قوة مدمرة لكل من يطمع في البلاد والعباد.

ومن هنا ـ ولكي تفرض قوى الشر تحكيم سيطرتها على كل العالم ـ فلا بد أولاً من زلزلة ذلك الإيمان الذي يحول دون تحقيق أهدافهم ومطامعهم، فكانوا تارة يشككون بالأنبياء وينسبون إليهم ما يندى منه الجبين، وأخرى يشككون في وجود البارئ تعالى، وثالثة يحاولون الإساءة لكل مقدس في الإسلام من علماء الدين والطعن بالحوزات العلمية الشريفة وغيرها، ويحاولون كذلك زعزعة ثقة الناس بكل ثابت في الدين، كل ذلك من أجل فرض سيطرتهم على بلاد المسلمين التي كانت منذ الزمن البعيد عثرةً في طريق سطوتهم ونفوذهم العالمي.

وقد أكَّد مراقبون في داخل الحوزة العلمية إن بعد زوال ما يسمى بـ«داعش» ستثار الكثير من المشاكل الدينية الفكرية وتروج موجة تشكيكية حول الدين

الإسلامي بشكل عام، وقد حصل ذلك واقعاً، فتارة تأتي موجة تشكك في وجود الله تعالى وفي جمعٍ من القضايا الإسلامية، وبعدها تأتي موجة لإبطال نظام المرجعية الدينية التي يقوم عليها أساس المذهب الشيعي بدعوى أنَّ التقليد الفقهي باطل، وبالتالي فالمرجعية باطلة بطريق أولى، وهذا هدمٌ واضح لمذهب أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه قطع لامتداد النبوة والإمامة، قال السيّد محمد باقر الصدر قدس سره:

«وقد امتدت الإمامة بعد عصر الغيبة في المرجعية، كما كانت الإمامة امتداداً بدورها للنبوة، وتحملت المرجعية أعباء هذه الرسالة العظيمة، وقامت على مرّ التأريخ بأشكالٍ مختلفةٍ من العمل في هذا السبيل أو التمهيد له بطريقة أخرى»[(١)].

وقد انبرى جمعٌ من أعلام الحوزة العلمية وفضلائها بالرد على تلك الشبهات جميعاً وصنفوا في رد موجة الإلحاد الكتب، جزاهم الله تعالى خيراً لذبهم عن حصن الإسلام المنيع.

وعزيزٌ علينا أن في زماننا هذا قد أنثلم الإسلام بشهادة آية الله العظمى السيّد محمد الصدر قدس سره فلم يكن موجوداً في عصر الفتن هذا لكي يشهر قلمه الفيّاض لدحض تلك الأباطيل التي تطل علينا من كل حدب وصوب حتى صرنا كما قال أبو الطيب المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتّى ... فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ ... تكسرت النصالُ على النصالِ

---

(١) الإسلام يقود الحياة ص ١٥.

إلا أنني نظرت في تراثه الثري وبحثت عن المواضيع التي ذكرهاقُدِّسَ سِرُّهُ في مؤلفاته والتي لها ربط في قضية الإلحاد فجمعتها وعلقت عليها وشرحت بعضها وقدمت لبعضٍ بعض المقدمات فصار هذا النتاج الذي تراه؛ وقد شرعت بهذا العمل لثلاثة أمور:

الأمر الأول: لرد تلك الشبهات المثارة حول الدين وقضية الإله الواحد الأحد التي بدأت ـ وبسبب قلّة الوعي ـ تأخذ مأخذها، سيما وإن كثير من الناس في الوقت الحاضر ينظرون إلى الدين ورجاله بنظرة ازدراء وذلك بسبب تلك المشاكل والشبهات التي تُطرح على كل الناس لا سيما في مواقع التواصل الاجتماعي فصار لكل إنسان رأي في أمور الدين وكل يكلم الناس برأيه دون علم ودراسة وبتجاهل تام لأصحاب الاختصاص.

إلا أنَّه وبحمد الله تعالى مع وجود كثرة من النموذج المذكور، يوجد في مقابلهم قلّة مؤمنة واعية لا تزيدهم هذه الإشكالات والشبهات إلاَّ ثباتاً وإيماناً ووعياً وقد جمعت هذه المعلومات في هذا الكتاب لهذه القلّة من المهتمين في الدفاع عن الدين، وهذه القلّة قد ذكرهم السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ إذ قال:

«من نتائج التخطيط الإلهي، بقاء قلة من المخلصين الممحصين المندفعين في طريق الحق. وأكثرية من المنحرفين والكافرين. ويكون لأولئك القلة المناعة الكافية ضد التأثر بالأفكار المادية والشبهات المنحرفة. بل أن هذه الشبهات لتزيدهم وعياً وإيماناً وإخلاصاً»[١].

---

(١) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٥٣٥.

ثم ذكرهم بكلمة تشد العزيمة وتقوي الروح الإيمانية ما تجعل الواحد منهم كالجبل الراسخ لو تأمل معناها وسعى لتحصيلها في نفسه إذ قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«ويبقى الأقلون عدداً صامدين مكافحين، تشتدّ إرادتهم وتقوى عزيمتهم ويشعرون باللذّة والفخر في مكافحة تيّارات الانحراف والفساد، وسيكون على أيدي أمثال هؤلاء تحقيق الهدف الإلهي الأسمى، وتطبيق الأطروحة الكاملة الشاملة»(١).

الأمر الثاني: وفاءاً للسيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ وعلومه المدثورة بين طيات كتبه الشريفة، فأنني أجد أن هناك تقصير واضح وجلي في قراءة آثاره وبدائع أفكاره؛ لذا فلا ينبغي أن اكتفي برمي الآخرين بالتقصير، بل وجدت من الأفضل أن أقدم شيئاً بسيطاً لتراثه الذي يناغم عصرنا هذا، مع إضافات بسيطة وشرح لمفردات كلامه قُدِّسَ سِرُّهُ ليكون فيها جرعة وعي إسلامي كبيرة لكل من يهوى قراءة آثار هذا العالم الجليل.

الأمر الثالث: تنبيهاً لأخواني المؤمنين من أتباعه ومحبيه، بأن إظهار المحبة له لا تكون في ذم مراجعنا الآخرين والانتقاص منهم، بل في نشر علومه وشرحها وإيصالها إلى الناس، بل إنّ ذم الآخرين من المراجع وغيرهم سيشكل جبهة معارضة ومضادة للسيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ بسبب سوء فعلنا وأساءتنا، وما هذا إلاَّ أتباعاً لمنهج آل محمد عليهم السلام حيث روي عن الإمام العسكري عليه السلام: **«اتقوا الله**

---

(١) الإمام المهدي المنتظر ص ٧٢.

وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، جروا إلينا كل مودة وادفعوا عنا كل قبيح»[١].

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**كونوا لنا زيناً ولا تكونوا شيناً، حببونا إلى الناس ولا تبغضونا**»[٢].

فهكذا ينبغي أن تكون دعوة المحب لمن يحب، لا بالعنجهية وسخيف القول وإعدام الأخلاق وعدم احترام الآخرين، يقول السيّد محمد الصدر قدس سره:

«**أننا جميعاً في الحقيقة نسعى إلى مصلحة الدين، وجميعاً نسعى إلى مصلحة المذهب وجميعاً نشعر بعداوة العدو وصداقة الصديق، بغض النظر عن الاتجاهات والآراء وعن الخلافات، فهذا مطلب دائم التحقق... الحوزة دائماً شغلها هذا ولا يمكن أن تتخلى عن عملها، غاية الأمر أنه يوجد هناك اختلاف في القناعات وفي الأساليب وفي التطبيقات ليس أكثر من ذلك، وإلا فالأمر المشترك هو أضعاف الأمر الذي نختلف فيه، وإنما نشعر بالاختلاف في داخلنا، لأننا أقرب إلى الأمور الخلافية منا إلى الأمور المشتركة**»[٣].

فليفكر كل شخص منا عن الهدف الرئيسي وهو نصرة الإسلام والمسلمين أمام هذه الهجمات المتواترة على ديننا الذي أوصانا به السيّد محمد الصدر قدس سره

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص ٤٨٨.

(٢) مستدرك الوسائل ج ٨ ص ٣١٤.

(٣) منهج الصدر ص ١٧٤.

وقال: «**الدين في ذمتكم والمذهب في ذمتكم**»[١].

فلماذا نحن لم نرعَ وصاياه وانشغلنا فقط بما يفرق كلمة المذهب ويشتته، الأمر الذي يضر ديننا ويقوي علينا عدونا.

وأنبه القارئ العزيز بأنّ ما تراه بين يديك لا يعد كل فكر السيّد محمد الصدرقدّس سرّه في شأن الإلحاد بل هو بمقدار ما اطلعت عليه بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

ورجائي من الأخوة الأعزاء تنبيهي على اخطائي إن أطلعوا عليها في هذه الأوراق فأنه خير هدية، وقد قال أهل العصمةعليهم السلام: «**أحب أخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي**»[٢]؛ وما ذلك إلاَّ تطلعاً لكمالهم إذ أنهم مع عصمتهم لا يبرئون أنفسهم من العيوب، فكيف يا ترى حال من ليس هو بأهل للعصمة، إلاَّ إن ما يهون الخطب عليَّ وعلى القارئ قوله عزّ من قائل: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[٣]، فأي كتابٍ ما سوى كتاب الخالق تعالى غير خال من الإختلاف... وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مصطفى محمد البغدادي ـ النجف الأشرف

١٦ شوال المكرم ١٤٣٩ هـ

---

(١) خطب الجمعة.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٦٣٩.

(٣) النساء ٨٢.

الفصل الأول

الإلحاد بين الشرق والغرب

تعريف الإلحاد:

يوجد هناك اختلاف أو تعدد في وجهات نظر البعض حول تعريف الإلحاد تبعاً لاختلاف الثقافات ووجهات النظر، لكن ثمة اتفاقاً بين الجميع على أن الإلحاد بالمعنى الواسع هو: «**رفض الإعتقاد بوجود الآلهة أو عدم الإيمان بوجود الله تعالى**».

وبالطبع فإن المعايير التي يحكم من خلالها الناس على الملحدين تختلف بين المجتمعات، حيث أن المجتمعات المؤمنة بالديانات السماوية ترى أنّ كل من لا يؤمن بالله الواحد ملحدٌ أو كافر، بينما تخفّ حدة ذلك لدى المجتمعات المؤمنة بديانات غير سماوية؛ إذ ليس هناك تناقض أو عناد مثلاً بين الإلحاد والدين البوذي فبعض البوذيين يعتنقون البوذية ولكنهم لا يعتقدون في وجود الله![1].

إلا أن السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يرى أن الملحد حقيقةً يُطلق على من أنكر الصانع ولا يعتقد بأي إله، لا بالله الواحد الأحد ولا بغيره، أمّا من يعتقد بغير الله الواحد الأحد فهو مشرك وليس بملحد إذ يقولقُدِّسَ سِرُّهُ:

«والشرك يمكن تقسيمه أولاً إلى قسمين: لأنه إما أن يكون الله سبحانه الذي يؤمن به المؤمنون احد الشريكين أو لا يكون. بل يكون هناك في معتقد الفرد آلهة من نوع آخر.

ولا يبعد ان يكون هؤلاء اعني من يؤمن بغير الله سبحانه تماماً مندرج تحت مفهوم الشرك كما يستفاد من بعض آيات القرآن الكريم كقوله

---

(١) مجلة الاستغراب، عدد ٧، ص ٢١.

سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ﴾[٢] ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ﴾[٣].

وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤] يعني حين يكون المدعى وجود الآلهة المغايرة لله‎ﷻ: (إلا الله) سواء كان واحداً أو متعدداً غيره. وأما قوله (لفسدتا) فضمير التثنية راجع إلى السماء والأرض لا إلى الآلهة.

وكذلك، فان الجمع في لفظ الآلهة لا يدل على أكثر من معنى الجنس. وهو ينطبق على الواحد والاثنين والأكثر. كل ما في الأمر ان اغلب هذه المعتقدات يقوم على التعدد ومن هنا جاء لفظ الجمع.

وان أوسع المفاهيم التي تمسك بها المعتقدون بهذا المسلك، هو التمسك بالأسباب الطبيعية. وهم الماديون قديماً وحديثاً. ونقل عنهم قولهم في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[٥]. حيث نفى وجود فاعل آخر غير الدهر. يعنون بذلك الأسباب الظاهرية.

---

(١) الطور ١٤٣: ٥٢.

(٢) النحل ٨٦: ١٦.

(٣) الأنبياء ٢٢: ٢١.

(٤) نفس السورة والآية ..

(٥) الجاثية ٢٤: ٤٥.

وكذلك الشيطان، حيث ان المنقول عن اليزيديين أنهم يؤمنون بـه ربّـاً. وهو المشار إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى على لسان الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[(١)].

وتقديسهم للشيطان مؤكد، إلاَّ ان نفيهم لما هو أعلى منه، بحيث يكـون هو المسيطر الحقيقي على الكون كله، غير مؤكد.

وكذلك الجن، في معتقدات السحرة والكهنة، الذين يعتبرونهم الأسـباب النهائية للحوادث وان لم يكونوا بدورهم أسباباً طبيعية. وهو المشار إليه بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

كذلك الفلك والقوانين الفلكية، التي كان يـؤمن بهـا بعـض المنجمـين الملحدين القدماء، على أساس أنها القوانين النهائية للعالم. ولم نجد لها بخصوصها إشارة واضحة في القرآن الكريم، ولكنها تندرج تحت آيات أخرى.

منها ما سبق كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أو قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أو قولـه تعـالى: ﴿مَـا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ﴾.

وأما عبدة الأصنام، فليس فيهم على ما يبدو من يقدس الصـنم كشـيء

---

(١) إبراهيم ٢٢: ١٤.

(٢) سبأ ٤١.

نهائي. وإنما يقدسه مع الاعتراف بوجود الخالق للعالم وهو قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾[(١)].

وكانت عبادتهم للأصنام تنشأ من مناشئ مختلفة، متسببة عن الجهل والتخلف في الثقافة والذكاء إلى درجة عجيبة»[(٢)].

فالمحصل: إن إنكار وجود الإله ـ سواء كان الإله الواحد الأحد، أو الإله الذي خلقه أوهام البشر كالاصنام وغيرها ـ كله يعتبر إلحاداً برؤية السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّه، أما من آمن بخالق ورازق سواء كان واحداً أو متعدداً فهو ليس بملحد بل هو مشرك أو كافر، والإيمان بالله تعالى الأحد الصمد يعتبر إيماناً وتوحيداً.

نعم من الملحدين الدهرية الذين يقولون: ﴿**مَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ**﴾؛ لأنهم لا يعتقدون بوجود إله مؤثر يميت ويحيي والدهر هو الذي يُبليهم ولم يتخذوا الدهر إلهاً بل قالوا بعدم وجود أي إله.

تقسيم الإلحاد:

ويمكن تقسيم الإلحاد من الناحية العلمية والعملية إلى قسمين:

القسم الأول: الإلحاد العلمي، وهو أن يبحث شخص عن أدلة وجود الله وينقضها حسب فهمه، ثم يعتقد بعدم وجود الإله كما هو حال بعض الفلاسفة

---

(١) الزمر ٣٩.

(٢) ما وراء الفقه ج ١ ق ١ ص ١٦٦.

الغربيين الذين سنرد عليهم فلسفتهم من فكر السيّد محمد الصدرقدّس سرّه في فصول هذا الكتاب.

القسم الثاني: الإلحاد العملي: بأن يعتقد الإنسان بأن الله موجود وهو الحسيب والرقيب، إلا أنه في مقام العمل يعمل وكأن الله غير موجود، نظير من يوحد الله بلسانه وعقله ويشرك في مقام العمل باعتماده التام على الاسباب الخارجية كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[(١)].

فأنهم علمياً وفكرياً يعرفون أن الله واحد أحد إلا أنهم عملياً مشركون. وقد ذكر السيّد محمّد الصدرقدّس سرّه في كلام له هذا القسم من الإلحاد العملي حيث قالقدّس سرّه :

«الشرك... الجلي هو عبادة غير الله، والشرك الخفي هو النظر إلى الأسباب والمسببات ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[(٢)] فإذا كان النظر إلى الأسباب والمسببات هو كل همنا وعلمنا يعني يعطي القيادة بيد الأسباب صرفًا ولم ينظر إلى سببية الله لو صح التعبير أو إلى توفيق الله ولا طرفة عين، هذا ماذا تستطيع أن تسميه هل هو مشرك بالشرك الخفي؟! لا، هذا عَزَلَ الله عن سلطانه، هذا ملحد بالإلحاد الخفي، ومعطل بالتعطيل الخفي.. لو كان حقيقة يؤمن بالله لأعترف له بشيء من

---

(١) يوسف ١٠٦، إن المشرك ليس كالملحد كما هو واضح فالمشرك يشرك مع الله سبباً أو إلهاً آخر أما الملحد فلا يعترف بوجود الله أصلاً، لذلك قلت أن هذه الآية نظير الإلحاد العملي وليست هي مثال عنه كما هو الواضح من كلام الشهيد السيد الصدر الآتي.

(٢) القصص ٧٨.

التأثير والتدبير... وهذا عين الإلحاد وليس فقط الشرك كأنه ناكر لله سبحانه وتعالى»[١].

وإنما اعتبره من الإلحاد الخفي لا من الشرك؛ لأن الشرك يعني الاعتراف بوجود إله ولكنه يشرك مع المسبب الحقيقي الأسباب الطبيعية الأخرى أو آلهة أخرى يزعمها، أما الإلحاد فهو عدم الاعتقاد بوجود مسبب آخر غير الأسباب الطبيعية[٢]. وقد ذكر قُدِّسَ سِرُّهُ أشخاصاً من الشيعة الجعفرية إلا أنَّهم يحملون في نفوسهم أفكاراً إلحادية عندما يؤثرون مصلحتهم الشخصية على مصلحة الدين الإسلامي إذ قال:

«لأنهم يحملون في نفوسهم وأفكارهم مبادئ إلحادية أو عقائد هدامة منحرفة»[٣].

فلا يظن الفرد نفسه أنه مبرئ من الإلحاد إذا كان يعترف بوجود الله سبحانه وتعالى فربما كان في فعله لا يختلف عن الملحد العلمي بحيث يجعل الله تعالى من أهون الناظرين إليه. وفي منّة المنان كذلك ذكر قُدِّسَ سِرُّهُ الملحدين بالإلحاد العملي عند تفسيره لمعنى «التكذيب بالدين» قائلاً:

«كثير من الناس _ولله الحمد_ يؤمنون بالدين ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأنَّ المعاد من أصول الدين، لكن يهملوه وينسوه ويسقطوه عن نظر الإعتبار في تصرفاتهم، فهذا وإن كان تصديقاً

---

(١) منهج الصدر ص ٣٤٩.

(٢) وسيأتي إن شاء الله أن هذا هو مذهب فلاسفة الملحدين.

(٣) الطائفية في نظر الإسلام ص ٥٤.

بالدين باطناً، إلا أنّه تكذيب بالدين ظاهراً؛ إذ لو كان مصداقاً لفعل، أي: لمشى على تصديقه، وبما أنّه لم يمشِ على تصديقه فهو والكافر على حدٍّ سواء. فهذا تكذيب بالمعنى اللغوي المجازي، ولكنه حقيقي بالمعنى الأخلاقي»[1].

وذكر قُدِّسَ سِرُّهُ أنه إذا انقطعت بالعبد الأسباب توجهت النفس الملحدة بالإلحاد العملي إلى الله تعالى عن طريق البلاء وتعلم عند البلاء بأنه لا منجٍ سوى الله تعالى؛ ومن هنا قال قُدِّسَ سِرُّهُ :

«إنَّ النفس الإنسانية تعرف الله عند البلاء، حتى ولو اعترضت عليه فهي تعرفه معرفةً جيدةً، ولكن هي ملحدة عملياً، لا تذكر الله إطلاقًا، لكنها عند البلاء تذكره»[2].

---

(١) منّة المنان في الدفاع عن القرآن ج ٤ ص ٤٣٧.

(٢) الكلمات القصار ص ١٦٥.

الإلحاد بين الشرق والغرب

تعتبر الدول الغربية الموطن الأصلي للإلحاد، بينما بلاد الشرق لم يصلها الإلحاد بالمعنى المعروف إلا بعدهم بسنين، ومن هذا المنطلق ندرس هنا الإلحاد في الدول الغربية وسبب حصوله، وكذلك ندرس الإلحاد في دول الشرق المسلم بالخصوص.

الإلحاد في الغرب الأوربي:

لما رأى الملاحدة الغربيون إن الدين المسيحي عاجز وغير صالح لقيادة المجتمع، لما فيه من خرافات وأساطير لا يمكن اعتناقها قرروا تركه.

ولما نَقَّبَ الفلاسفة الغربيون في أسس الديانة المسيحية ونشروا بعض الكتب الداعية للإلحاد وللربوبية واستهزئوا بالإنجيل حصلت النكبة الدينية وصار المجتمع المسيحي ينظر إلى الدين كخدعة وخرافة، يقول الدكتور رمسيس عوض:

«وفي مثل هذا الجو بدت الزراية بالدين شيئاً طبيعياً للغاية لدرجة أن المؤمنين آثروا الصمت أمام هذا السيل العارم من التحقير والسخرية

حتّى لا يظهروا بمظهر المتخلفين عن ركب الحضارة»[١].

وقال توماس بين «أحد المحاربين للمسيحية» :

«في جميع الأديان التي تم اختراعها لا يوجد دين أشد إهانة لله القدير ومدعاة لجهل الإنسان وأكثر عداوة للعقل وتناقضاً مع ذاته من ذلك الشيء المسمى بالمسيحية»[٢].

وكلامه فيه شيء من الصدق كما نحن نعتقد من ان الديانة المسيحية محرفة. ورغم الدعوة إلى نبذ الدين وتركه إلا أن الفطرة الموجودة في النفس الإنسانية تأبى أن يسير الناس دون قانون ودين ونظام اخلاقي يرتب حياتهم وسلوكياتهم، ففكرة الدين أمر فطري لا يمكن إنكاره.

وحاولوا ـ كعلاج ـ إيجاد بديل عن الدين المسيحي ومذهب يعتقدون به لتسيير الحياة إذ أنَّ الحياة دون دين لا تطاق ويبقى الإنسان مهما عاش يحن إلى العطش الروحي الذي لا يرويه إلا اعتقاده بالدين، ولذلك أسس الملحدون بعد انكار الدين المسيحي المذهب الإنساني «الهيومانيسم»، وهذا المذهب كان المصدر والأساس في استمداد الاخلاقيات عند منكري الديانات من الملحدين والربوبيين، إلا أنَّ هذه الأخلاقيات مبنية على المنافع الدنيوية وتهمل الجوانب الميتافيزيقية الماورائية كالاعتقاد بالآخرة والجنة والنار، كما وإن لهذا المذهب الإنساني آثار سلبية عديدة.

---

(١) الإلحاد في الغرب ١٦٢.

(٢) المصدر السابق.

سبب إيثار الإلحاد على المسيحية:

وقد اختاروا الإلحاد بسبب ظنهم أن الدين يناقض العلم ولا يحترم الإنسان فقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى تمثل السطوة والطغيان وكان كل من يخالفها الرأي العلمي يَلقي جزاءه من القتل، مضافًا إلى كره الناس للمسيحية بسبب كثرة الحروب التي قادها الصليبيون وظلم الناس والوقوف مع السلطات الظالمة. كما إنهم اختاروا الإلحاد ولم يختاروا أيّ دين آخر غير المسيحية بسبب شبهة التعميم ـ التي سيأتي شرحها ـ حيث ظنوا أن كل دين سوف لن يقل قباحة عن الدين المسيحي فآثروا الإلحاد على كل الأديان، وهذا ما أشار إليه السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ قائلاً:

«كل ذلك عن طريق هذا التعميم الباطل الذي استعمل في إطلاق كلمة الدين على المسيحية والإسلام»(١).

ويحدثنا السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ عن ذلك التحول الذي حصل آنذاك قائلاً:

«فقد كانوا قد ذاقوا من الكنيسة أنواعاً من الجور والتَّعَسُّف، وأنواعاً من الخرافات والمفاهيم الباطلة، هذه الخرافات وذلك الجور الذي تستعملهما الكنيسة بإسم الدين وعلى أساس أنه أمر إلهي منزل.

وذلك لأن الكنيسة ـ في عهود أوربا المظلمة ـ كانت منظمة إقطاعية تملك مساحات من الأراضي واسعة النطاق وتستخدم فيها أولئك الفلاحين الأقنان الذين يباعون مع الأرض ويُشترَون معها، تماماً كأي

---

(١) نظرة إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٠.

سيد إقطاعي[١].

كما أن رجال الكنيسة كانوا يكوّنون إحدى الطبقتين المتمتعتين بالإمتيازات دون الطبقة الثالثة، وهم عامة الشعب. كما أن الكنيسة كانت تناصر الإقطاع بما لها من قوة دينية ودنيوية، يقول جورج جرداق: أما رجال الدين _ويقصد رجال الكنيسة والدِّين منهم بُراء_ فقد كانت لهم يَدٌ في تبرير نظام التبعية هذا، وكانوا يلعنون كل تابع لا يخضع الخضوع المطلق لسيده ولو شِرِّيراً دنيئاً؛ ويصبُّون اللعنات الكثيرة بلهجة مقدسة، على رؤوس (المارقين) الذين كانوا يدفعون التابعين إلى ترك الطاعة المطلقة للأسياد، أو إلى التمرد على هذا الظلم القاتم)[٢].

كما أنها كانت تبثُّ بين أتباعها كمية ضخمة من الخرافات والتَّدجيل، هذه الخرافات التي غضب منها حتى المسيحيون أنفسهم كـ(مارتن لوثر) الذي انشق عن الكاثوليكية، واخترع لنفسه مذهباً جديداً سماه البروتستانتية.

من هذا وغيره نستطيع أن نتميز بوضوح، لماذا صبَّت الثورة بمجرد انبثاقها جام غضبها على الكنيسة، ولماذا حاربتها محاربتها للإقطاع والجهل، لأنها ـ في الواقع ـ تمثِّل الإقطاع وتمثِّل الجهل كما أنها حاربت فيها كُلاً من الجانب الديني والدنيوي، لأن الكنيسة استغلت

(١) أنظر إلى عنوان (التجربة الأندلسية) من هذا الفصل وستجد أن السياسة الإسلامية كانت مغايرة تماماً لسياسة الكنيسة آنذاك.

(١) علي والثورة الفرنسية ص ٣٨

الجانب الديني في سبيل الجانب الدنيوي أبشع استغلال[(١)].

فكان أول شيء عملته الثورة الفرنسية أن صادرت أموال الكنيسة وجعلتها مؤسسة خاضعة للدولة.

وجعلت الجمعية الوطنية، أملاك الكنيسة رصيداً للعملة الجديدة التي أصدرتها. ثم أصدرت دستوراً مدنياً لرجال الدين، فجعلتهم موظفين عند الدولة وأزالت عنهم صفة رجال الدين كطبقة وأصحاب نفوذ. ثم طلبوا إلى رجال الدين أن يُقسِموا على القانون[(٢)].

يضاف إلى ما مضى، بخصوص ـ أعمال الكنيسة ـ أن العقائد الأساسية التي تقوم عليها باطلة لا تقوم على برهان صحيح، كإيمان المسيحيين بالثالوث المقدس الذي أثبت الإسلام عن طريق العقل الذي لا شك في استحالته، وهو موجود في مواضعه من الكتب الإسلامية، وهذا نفسه ما التفت إليه جماعة من أنصار الثورة الفرنسية فعرفوا سخفه وبطلانه وتمردوا عليه، ومن ثم فقد قالت جماعة: (نحن نعبد الكائن الأعظم)، وقالت جماعة أخرى: (نحن نعبد العقل) واحتفلوا له بصورة رسمية في كنسية[(٣)].

ومثل هذه الكنيسة ذات هذه الأعمال وهذه العقائد هي أهلٌ لأن

---

(١) وهذا ما جعل بعضهم يطعن بالدين ويلتجأ إلى الإلحاد.

(٢) محاضرات في التأريخ الحديث (منه قدس سره).

(٣) محاضرات في التأريخ الحديث (منه قدس سره)

تُحارَب، وأهلٌ لأن تقف الثورة منها كما تشاء.

ولكن الغلط الفاحش الذي يقوم به دعاة الإلحاد المتأثرون بالفكر الحديث على أبشع صوره، وبالشكل الذي هم يفهمونه، وبالشكل الذي يمثِّل مصالحهم الخاصة، دون أن يعرفوا ما قصد إليه الفكر الحديث بالضبط.

إن الغلط الفاحش الذي يرتكبه هؤلاء هو إطلاق القول في الاعتراض على جميع الأديان، والدعوة إلى التخلِّي عنها جميعاً، كأن شرذمة معينة تنسب نفسها إلى دين من الأديان إذا تعسَّفت وأجرمت بحق شعبها ودينها، فكأن دينها مسؤول عما تفعل، أو أن الأديان كلها مسؤولة عن ذلك، وكأن ديناً من الأديان _ولو فرضاً_ إذا كان باطلاً وقد ذاق منه معتنقوه الوبال، فشددوا الخناق على رجاله، وتملَّصوا من عقائده، كأن كل الأديان يجب أن يُشدَّد عليها الخناق، وأن يتملص الناس من عقائدها.

وكأنهم لا يعلمون بأن أوربا إنما تمرَّدت على المسيحية، وإنما شدَّدت الخناق على رجال الكنيسة، تلك المسيحية المحرَّفة عن واقعها الذي نزل على عيسى بن مريم (على نبينا وعليه السلام)، وأولئك الرجال الذين أكثروا في البلاد الفساد. وإنما عنت أوربا بالدين، ذلك الدين الذي تمرَّدت عليه لأنه لم يكن بين ظهرانيها دين آخر حتى تستند عليه بعد خروجها عن المسيحية أو تستثنيه عن هجماتها، أو حتى لِتُشركه في هجماتها وتمرُّداتها»[١].

(١) نظرة إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ٩٧ ـ ٩٩.

الإلحاد في الشرق المسلم:

ويرى السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أنَّ الإلحاد في بلاد المسلمين لا يعدو عن كونه تقليداً للغرب أي أنّه غير ناشئ عن إشكالات موجهة ضد الدين الإسلامي وقواعده وبراهينه -كما هو الحال لمن ألحد من المسيحيين واليهود- أي هو أقرب ما يكون إلى الإلحاد العملي لا الإلحاد العلمي، ومن هذه الناحية قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«يا له من تقليدٍ أعمى، حين ينظر دعاة الإلحاد إلى أوربا فيجدونها تتمرد على المسيحية، فيتمردون في بلادهم على الإسلام. ويرونها تخرج على تعاليم دينها، فيخرجون عن تعاليم دينهم. ويرونها تحتقر رجالها، فيحتقرون رجاله»[١].

وبالحقيقة إن هذا واقع حال نعيشه حالياً فبعض الكُتاب يقرأ كتب المُلحدين الأوربيين فيحولون بعض كلماتهم على الإسلام فيضعون بدل مصطلح «الكنيسة» مصطلح «مسجد» وغيرها من الاصطلاحات، كما وينتقدون رجال الدين الإسلامي كما ينتقد المسيحيون رجالهم مع أن بينهما بون شاسع.

ولاحظتُ بعضهم من الذين ينتقدون الواقع الإسلامي يقتبسون كلماتهم من كُتَّاب غربيين ويضيفون على عباراتهم النزر القليل وينتقدون بها الإسلام.

وإن العبارات الشائعة في مواقع التواصل الاجتماعي وفي بعض الروايات القصصية ـ لأشخاص متأثرين بالفكر الغربي المعادي للدين ـ كالتي تدعو لهدم المساجد وبناء بيوت للفقراء إنما هي بالأصل عبائر لكتّابٍ مسيحيين قد ألحدوا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٠.

بالمسيحية وصاروا يكتبون جملاً بلاغية لانتقاد الواقع الذي كانوا يعيشونه.

وسبب هذا الانتقاد الشديد هو أن الكنيسة آنذاك كانت هي المتسلطة على رقاب الناس مالياً، وعسكرياً، وسياسياً، فإذا ظهر الجهل والحرمان والفقر فمن الطبيعي أن نجد مثل تلك العبارات تندد بالكنيسة.

أما نحن المسلمون وبالخصوص المذهب الإمامي الجعفري فأنه لم تكن له من السلطة ما كانت للكنيسة آنذاك ولم يفعل هذا المذهب ورجاله ما فعله القساوسة بالمسحيين حتى يمكن أن يُقال عن مساجده وشعائرِهِ بأَنَّها لو هدمت لكان أرتَقَ للفَتق!! بل تجد العكس من ذلك فإن الحوزات العلمية من ذاك الزمان وإلى الزمان الحالي كانت مضطهدة من قبل السلطات، بل ولا تقف إلى جنبها لا بالقليل ولا بالكثير، وإن معظم المساجد يتواجد فيها أناس خيرون يبذلون البِر للمحتاجين، ولم نجد أن عالماً أو مرجعاً أفتى بقتل شخص قد اكتشف نظرية كونية جديدة كما قتلت الكنيسة «غاليلو»، لذا قال السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ :

«وأمّا الحوزة فلم تمارس منذ أُسّست على يد شيخ الطائفة الطوسي (رضوان الله عليه)[1] أيّ نوع من أنواع الحكم، بل كانت ولا زالت تعاني من أنحاء الحكم المنحرف الذي يتولّى السلطة جيلاً بعد جيل

---

(١) هو أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، المعروف بشيخ الطائفة والشهير بالشيخ الطوسي، ولد في طوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ وهاجر إلى العراق فنزل بغداد سنة ٤٠٨ هـ وكان داره في مأوى الناس وقصد الوفّاد يأتونها لحلّ المشاكل وإيضاح المسائل، وقد تقاطر إليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه والحضور تحت منبره وقصدوه من كلّ بلد ومكان. وبلغ عدد تلامیذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة. أُنظر: أعيان الشيعة ٩: ١٥٩.

وفترة بعد أُخرى، حيث يستهدف فيما يستهدف إليه الضغط عليها وتقليص نشاطها والغضّ من قدرتها وحرمتها»[١].

أما الكنيسة فقد قال عنهاقُدِّسَ سِرُّه :

«حيث استطاعت ممارسة الحكم العامّ لقارّة أوروبا برمّتها قروناً متطاولة من الزمن، وقد أذاقت خلال حكمها شعوبها ألوان الهوان والتعذيب، وأسمعتهم أنواع الخرافات والتدجيل، ممّا سبب حدوث الثورة الفكريّة عليها، وإعلان فصل الدين عن الدولة في أوروبا برمّتها. وهي الآن لا تمارس الحكم الفعلي إلا في منطقة صغيرة نسبيّاً، هي جزء من العاصمة الإيطاليّة تسمّى بالفاتيكان[٢]»[١].

---

(١) مبحث ولاية الفقيه ص ١٥٨.

(٢) مدينة الفاتيكان (بالإيطاليّة:Citta del Vaticano المعروفة رسميّاً باسم دولة مدينة الفاتيكان(بالإيطاليّة:Stato della Citta del Vaticano ، هي أصغر دولة من حيث المساحة في العالم. وتأخذ شكلًا شبه إهليلجي في قلب مدينة (روما) عاصمة إيطاليا التي تحيط بها من جميع الجهات ويفصلها عنها أسوار خاصّة؛ تبلغ مساحة الفاتيكان ٠. ٤٤ كم مربع ويقارب عدد سكانها ٨٠٠ نسمة فقط، وتعتبر بالتالي أصغر دولة في العالم من حيث عدد السكان أيضاً.

ورغم كونها أصغر دول العالم سكاناً ومساحةً فهي تستقي دورها وأهميّتها من كونها مركز القيادة الروحيّة للكنيسة الكاثوليكيّة في العالم والتي يربو عدد أتباعها على ١،١٤٧ مليار نسمة، كذلك من كونها تحفظ في متاحفها وأرشيفها مجموعة من أجود المنتوجات الفنيّة للجنس البشري على مرّ العصور، فضلًا عن القضايا السلميّة والأخلاقيّة التي تدافع عنها.

وهذا ما أراد السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن يوضحه لكي لا نقلد ثورة عصر النهضة تقليداً أعمى إذ قال:

«إنَّ أوربا إنَّما عنت من الدين الذي وصفته بأنَّه مخالفٌ للنتائج العلميّة الواضحة، عنت دين الكنيسة، ولا أقول: الدين المسيحيّ الذي جاء به النبي عيسى بن مريمعليهما السلام عن اللهعزّ وجلّ، وإنما الكنيسة قامت بتحريف تلك الشريعة ومسخ تلك المفاهيم، ثمَّ تبنت هذا المسخ وجعلته مسلكاً رسمياً تدافع عنه وتقاتل في سبيل إثباته، وتحارب مَن ينفيه، فمن الطبيعي أن يظهر على مدى الزمان زيفه وأن تُثبت الحقائق كذبه»[(٢)].

وهذا واضح جداً لمن لاحظ كلمات الملاحدة الأوربيين، فإنهم كلما ينتقدون الدين يذكرون تعاليم الكنيسة بسوء، وفعلاً هي سوء؛ لأنها محرفة عن واقعها وغير رسمية وليست هي نفسها النازلة على السيّد المسيحعليه السلام.

هل الدين الإسلامي كالدين المسيحي؟

قلنا أن الدين الإسلامي مغاير للدين المسيحي الذي ألحد فيه الأوربيون في

لا تأخذ الفاتيكان بأيّ لغةٍ على أنَّها لغتها الرسميّة، لكن لغة الكرسي الرسولي الرسميّة هي(اللاتينيّة)، وتستعمل الإيطاليّة في الفاتيكان بشكلٍ واسع بحكم الأمر الواقع، كذلك حال اللغة الألمانيّة؛ وإلى جانب هذه اللغات يعترف الكرسي الرسولي بثمان وثلاثين لغة أبرزها: الإسبانيّة، الفرنسيّة، البولنديّة، البرتغاليّة، الإنكليزيّة، وتغطي هذه اللغات نسبة كبيرة من اللغات المنتشرة بين كاثوليك العالم. (موسوعة ويكيبيديا العالمية).

(١) مبحث ولاية الفقيه ص ١٥٧.

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٤.

عصر النهضة وعلى هذا الأساس نعقد هنا بحثاً يوضح بشكل مختصر الفرق بين الديانتين الإسلامية والمسيحية فنقول:

من الأسباب التي جعلت الإلحاد يتحكّم في الغرب هو قصور الديانة المسيحية وعدم صلاحيتها لخدمة الإنسان روحياً ومادياً، ويعود ذلك القصور إلى كونها ديانة مرحلية لا تصلح لكل زمان بخلاف الديانة الإسلامية الصالحة للانطباق على كل زمان ومكان؛ لذلك قال قدس سره:

«إنَّ الديانتين اليهودية والمسيحية في مفهوم الإسلام والقرآن... تعتبر ديانات مرحلية تتكفل تربية البشرية لحقبة معينة من الزمن، وقد انقضت تلك الحقبة. ولا يمكن للمناهج المرحلية أن تربّي الفرد أو المجتمع على العدل الكامل»(١).

فلما كانت هذه الديانة لفترة زمنية محدودة وخالف أصحابها تلك المحدودية إذاً فمن المتوقع حينئذٍ أن يحصل الانحراف فيها ويثور المتدينون بها عليها، هذا إذا كانت الديانة باقية على حالها، أما إذا كانت مُحرفة ـ كما نعتقد ـ فسيكون التأثير السلبي فيها أكبر يصل إلى درجة نكران الدين من أساسه بل إنكار الإله اصلاً.

ذلك لأن الدين لا بد ان يكون كله حق فإذا وجد فيه شيئًا باطلاً فقد انهار الدين كله في نظر المتدينين، ومن هنا تحدى القرآن الكريم بأن يكون فيه تناقض أو اختلاف كما هو موجود في كل الشرائع الإنسانية بل والالهية التي طالها

---

(١) اليوم الموعود ص ٦٤٦.

التحريف حيث قال: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[١].

وهذا ما حدث فعلاً حيث أن أغلب المسيحيين تركوا المسيحية بسبب كثرة الخرافات الموجودة في الإنجيل والتوراة فمثلاً الأمريكي «بنيامين فرانكلين» وغيره من المسيحيين قد أنكروا أن يكون المسيح إلهاً وبذلك أنكروا الدين المسيحي برمته وصاروا ربوبيين[٢] لا يعتقدون بأي دين[٣].

محل الشاهد: أن زمنية الديانة المسيحية قد كانت سبباً في عدم التزام الناس بها تماماً وذلك لكونها غير مناسبة لكل زمان، مضافاً إلى تحريفها بالأساطير والخرافات التي نفرت مثقفي الديانة المسيحية منها كما سيتضح ذلك فيما يأتي.

عصرية الدين الإسلامي:

أما الدين الإسلامي فهو صالح للانطباق على كل زمان وكتابه القرآن مصانٌ من التحريف والخرافات قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤].

وهذا ما جعله أكثر قوة من الديانات الأخرى، وفي ضمن هذا السياق يقول السيّد محمّد الصدر قدس سره:

---

(١) النساء ٨٢.

(٢) الربوبية وهم قوم يؤمنون بوجود الله تعالى إلاَّ أنه يقولون بأن كل الأديان باطلة وغير صحيحة ومبنية على الخرافة، ويسمون كذلك بأنصار الدين الطبيعي.

(٣) انظر : الألحاد في الغرب ١٨٧.

(٤) الحجر ٩.

«بل للإسلام أُسساً فكرية راسخة رسوخ الخلود، وتعاليم عادلة واسعة سعة الفضاء وليس للمسيحية من التعاليم والأُسس الفكرية ما يصلح لقيادة الإنسانية وللخلود»[1].

ومن هنا وقع الأوربيون في مأزق لا خلاص منه إلا بثلاث أمور: أما الإلحاد في الدين، أو ما يسمى بعصرنة الدين، أو الدخول في الإسلام، فأما الإلحاد في الدين فقد تحقق لدى بعضهم كما ذكرناه آنفاً، وأما عصرنة الدين فسنذكرها بالعنوان الآتي، وأما الدخول إلى الإسلام فسنتعرض له تحت عنوان «هل يصلح الإسلام كبديل عن الإلحاد؟».

عصرنة الدين المسيحي:

عرفنا أن للإسلام تعاليم عادلة تصلح لأن يكون قائداً لجميع الناس وفي مختلف عصورهم، بينما لا يوجد مثل ذلك في الديانة المسيحية، وبسبب ذلك احتاج المفكرون واللاهوتيون الأوربيون إلى «عصرنة الدين المسيحي» ليجعلوه صالحاً لقيادة كل عصر وزمان بينما الإسلام وحده بدون الحاجة إلى «العصرنة» صالح للانطباق على كل زمان ومكان[2].

توضيح ذلك: إنَّ فقدان النص الإلهي وتعارض تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) المعطيات العلمية والمتطلبات العصرية، دعا إلى التوجه نحو عصرنة الدين؛ لأنه لا يمكن التغاضي عن المعطيات العلمية الحديثة ومتطلبات العصر، ولا

---

(١) نظرة إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٠.

(٢) كما سنوضح ذلك تحت عنوان: «مميزات الدين الإسلامي».

يمكن التعايش مع هذا التعارض، وكذلك لا تتمتع النصوص المقدسة بذلك المستوى من الاعتبار والوثاقة والمضمون بحيث تتقدم على العلم.

ومن هنا يجب أما ترك الدين المعارض للعلم والعقل، أو يتمّ صبغ الدين بصبغةٍ معاصرة من أجل الجمع بين التدين والعيش في العالم المعاصر، وهذا الخيار هو الذي نال قبول بعض المفكرين الغربيين.

وليس المقصود من عصرنة الدين استبدال الدين أو الكتب السماوية الجديدة، وإحداث تغييرات متتابعة فيها بما يواكب التغييرات العصرية؛ بل تغيير الفهم وتقديم قراءات متنوعة للدين بما يناسب مع التغييرات الفكرية والثقافية والتاريخية[١].

وأمّا الإسلام، فالمسألة عكس ذلك تماماً؛ فإمكانية الوصول إلى نصّ الوحي، وشمولية الدين، وانسجام الإسلام مع العلم والعقل، ووجود الاجتهاد الحي والمتحرك، وانسجام الدين مع الفطرة الإنسانية الراسخة، ووجود القوانين الثابتة من أجل تلبية المتطلبات والاحتياجات الثابتة، وقوانين متغيرة من أجل تلبية المتطلبات المتغيرة، كلها عوامل أغلقت الطريق أمام الحاجة إلى عصرنة الدين والانفلات في تفسير الدين[٢].

إلا أنَّ الجهات المعادية للإسلام راحت تدس بين صفوف المسلمين أن الإسلام بحاجة إلى تجديد «وعصرنة» ويدعون إلى فقه جديد وتعدد قراءات

---

(١) وهذا ما يسمونه بالـ(هرمونطيقية).

(٢) لماذا الدين، لماذا الإسلام، لماذا التشيع ص ١٦٠ ـ ١٦٢ بتصرف.

للنص الديني، إلا أن ذلك كما يرى السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ[١] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٢].

أي أنهم يريدوننا أن نتبع ملتهم في تحديث الدين وتجديده، إلا أننا نقول لهم أن دينكم قاصر فاضطررتم إلى «عصرنته» أما الدين الإسلامي كما سيأتي وترى بعينك عصري بلا حاجة إلى عصرنة!

وقد يقول قائل: إذا كان الأمر كما تظنون فما بال البلاد الإسلامية تعاني من البلائات والتخلف الفكري والثقافي والسياسي مع أن بلاد الإلحاد تعيش السعادة والرفاه؟! ألا يدل هذا على أنَّ الدين الإسلامي كذلك غير صالح للانطباق على هذا الزمان ومن ثمَّ يكون حاله كحال الديانة المسيحية واليهودية وعليه فيجب عزله عن الحياة ليعم السلام والتقدم الصناعي والفكري؟

والجواب: إن الخلل ليس في الدين الإسلامي وتعاليمه ونظامه، بل في عدم تطبيقه في بلاد المسلمين فما يحصل عندنا من مأساة سببها نبذ الدين وإهماله لا العكس، وهذا ما صرح به قُدِّسَ سِرُّهُ إذ يقول:

«أما دعاة الإلحاد من أبناء شرقنا المسلم فلم يمروا بتجربة فعَّالة لدينهم القويم لتُريهم العدالة الإنسانية والرفاه الإجتماعي والصفات الخلقية والروحية السامية التي تسود المجتمع تحت لواء الإسلام»[٣].

---

(١) أنظر: نظرة في فلسفة الأحداث ص ٤٨.

(٢) سورة البقرة ١٢٠.

(٣) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٠.

وعندئذٍ كيف نحكم على الإسلام بالفشل وهو لم يُطبق أساساً بل الذي يحكم بلاد المسلمين حالياً هي القوانين العلمانية الملحدة فالمأساة تعود إلى ذلك النظام العلماني لا على النظام الإسلامي الذي لم يرَ النور بعد!.

بل إن النظام الإسلامي لما حَكَمَ حَصَلَتْ فيه نتائج مبهرة لم تحصل في أي نظام في العالم ففي كل الكرة الأرضية توجد نسبة من الفقراء والمساكين بدرجة واضحة

وحينما حكم أمير المؤمنين عليه السلام وطبق الدين الإسلامي ساد العدل، ولما رأى شيخاً مكفوفاً كبيراً يسأل الناس قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما هذا؟! قالوا: يا أمير المؤمنين نصرانيٌّ. فقال عليه السلام: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه أنفقوا عليه من بيت المال»(١).

فمأساتنا ليست بسبب دين الإسلام بل لعدم وجود تطبيق حقيقي للدين الإسلامي بمبادئه وأخلاقياته.

التجربة الأندلسية:

بل إن التجربة الفعَّالة قد حدثت فعلاً، وإن لم تكن بتطبيق تام للشريعة كما يفعل الإمام المعصوم عليه السلام ـ حسب معتقدنا ـ إلا أن التجربة التي حصلت في فتح الأندلس كانت تعتبر أكبر دليل على صلاحية الدين الإسلامي وأفضليته عن باقي الأديان، والنظام الإسلامي آنذاك وإن كان في يد الدولة الظالمة إلا أن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد خلقا جواً من العدل الاجتماعي قد ساد بين الناس ولا يمكن مخالفته جهاراً من قبل النظام الحاكم آنذاك، وقد شكل هذا الجو نوعاً من

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٦٦.

توفر العدالة الاجتماعية لعامة المسلمين لذا قال المؤرخ الإسباني «دوزي» عن الفتح الإسلامي للأندلس:

«لقد كان الفتح العربي نعمة لإسبانيا، فقد أحدثَ ثورة اجتماعية عظيمة، وقضى على جزء كبير من الآلام التي كانت البلاد تحت وطأتها منذ قرون...

كان العرب يحكمون وفق الطريقة الآتية: لقد تم تخفيض الضرائب إلى أبعد حد _قياساً إلى ضرائب الحكومات السابقة_ وصادر العرب أراضي الأغنياء التي كانت مقسمة إلى مقطعات اقطاعية مترامية الأطراف وكانت تُزرع بواسطة مزارعين أقنان أو أرقّاء ساخطين ووزعوها بالتساوي على الذين كانوا يعملون فيها...

وقد سمح القرآن للعبيد بأن يعتقوا أنفسهم بتعويض عادل، وقد ساعد هذا في استخدام طاقات جديدة. وكانت كل هذه الإجراءات تخلق حالة من الرفاهية العامة التي كانت سبباً للاستقبال الحسن الذي لقيه العرب في بداية السيطرة العربية»(١).

وفي تلك الاثناء التي كان الإسلام يرتقي بها كانت الدول الأوربية ـ وبسبب سوء تصرف أرباب الكنيسة ـ تعيش الفقر والجهل والحرمان، ومن أمثلة ذلك: ما قاله الدكتور الفرنسي «غوستاف لوبون» :

«أنه كانت كتابات أوربا في القرون الوسطى إلى مُدد طويلة على الجلود المدبوغة، وكانت قليلة جداً بحيث كان الرهبان الروم واليونان يجمعون

---

(١) الإسلام في الغرب ص ٢٢.

الكتب القديمة فيمسحون كتاباتها ليكتبوا عليها كتاباتهم الدينية! فلو لم يكن المسلمون اخترعوا الورق لكان هؤلاء الرهبان واليونان والرومان يفسدون كل الكتب القديمة التي يستولون عليها! فهذا الاختراع من المسلمين قدّم خدمة قيّمة ثمينة إلى عالم العلوم في الحقيقة»(١).

ولما اغتصبت أرض الأندلس من أيدي المسلمين تدهورت بشكل غير طبيعي يقول «غوستاف لوبون»:

«إن انحطاط الأندلس بعد إخراج المسلمين العرب منها كان من الشدة، بحيث لا يوجد في جميع صفحات التاريخ قوم انحطوا هكذا وإلى هذه الدرجة وبهذه السرعة: فقد غابت عن الأنظار فجأة كل ما كان من أسباب الرقي لأية دولة أو شعب: العلوم والفنون والزراعة والفلاحة والحرف، وبالتالي كل شيء...

انسدّت وأُغلقت المصانع والمعامل الكبرى، واختلفت أمور الزراعة رأساً، وبارت الأراضي الزراعية المثمرة، والمدن التي كانت بالطبع لا تبقى عامرة بدون زراعة وحرف، خربت وبارت، فقلّت نفوس (مدريد) التي كان أكثر من أربعمائة ألف إلى مائتي ألف! وفي (أشبيلية) التي كان بها ألف وستمائة معمل وكان يعمل فيها مائة وثلاثون ألف عامل، انحصرت في ثلاثمائة! يُعلم أن عدد نفوسها كانت قد بلغت الربع مما كانت عليه»(٢).

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢.

لذلك كان السيّد محمد الصدرقُدّسَ سِرّهُ يعتبر هذه البلدان المفتوحة إسلامياً والتي اغتصبت من قبل المستعمرين لا تقل أهمية عن فلسطين، إلا أن الإستعمار الغاشم حاول أن يثقف المسلمين على أن الدول المأخوذة غصباً هي فقط فلسطين لا غير، يقول السيّد محمّد الصدرقُدّسَ سِرّهُ:

«أنّه مما ينبغي أن نحمل عنه فكرة واضحة ومعمقة الآن هو:

أن الأهداف المنحرفة الكافرة جعلت من معاكسة إسرائيل والسعي ظاهراً إلى محاربتها هدفاً وحيداً ومركزياً، إلا أنَّ الجيش الإسلامي الفاتح في القرون السابقة دخل كثيراً من مناطق العالم كأسبانيا والبرتغال وقبرص وصقلية وما يسمى بالجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي أعني في الجنوب الآسيوي منها.

وكلها أراضي مغتصبة استطاع الكفر السيطرة عليها وسحبها من يد المسلمين، بل إن قسماً من أوربا الوسطى هو كذلك كالمجر ويوغسلافيا وجيكوسلفاكيا وبولندا، وإن قسماً من هذه الدول وغيرها كانت تحت الحكم الإسلامي التركي في أول عهده.

وليست إسرائيل هي الأرض المغتصبة الوحيدة ولا المجتمع الإسلامي الوحيد المحكوم للكفر، ولا هو أهم المجتمعات المسلمة أصلاً، كما هو واضح لمن استعرض المجتمعات المغتصبة لعل (الأندلس) هي الأهم على الأطلاق وتليها (الجمهوريات المسلمة)»(١).

---

(١) نظرة في فلسفة الأحداث ص ٢٧ ـ ٢٨.

وسبب هذا التوجه وهذه التعمية هو لأن تلك البلدان المغتصبة تحمل حضارة علمية وخدمية عظمى لا يريد الغرب أن يتذكرها المسلمون ويقولون أن هذه من نتاجنا.

وقد عدَّ شهيدنا الصدرقدس سره إنَّ حب الحضارة بالمعنى المعروف عند الأغلب أثر من آثار التهويد الاستعماري، وقالقدس سره عن آثار التهويد ما نصه :

«الافتخار بالحضارة السابقة كما حصل في العراق بالنسبة إلى الحضارات البابلية والسومرية وغيرها، مع إنَّها في الأغلب مجتمعات متخلفة دينياً ودنيوياً، ومجرد كونهم يبنون البيوت والمقابر لا يعني أن لهم حضارة بالمعنى المفهوم الآن.. وكما حصل في إيران قبل الثورة إذ حاول الشاه الإلتفات إلى (الملوكية) المستمرة في إيران خمسة آلاف سنة حتى إنَّه بنى التاريخ على ذلك»(١).

وقال السيّد محمد الشيرازيقدس سره عن ترك الافتخار بحضارة الإسلام والتمجيد بعصور ما قبل الإسلام:

«ترى في مدارس العراق يدرس تاريخ البابليين وفي إيران يدرس تاريخ الساسانيين وفي مصر تاريخ الفراعنة وهكذا بينما اللازم ترك كل تلك التواريخ بالمرة أو نذكرها كما ذكرها القرآن الحكيم، باعتبارها فاصلاً بين دعوة الأنبياء ودعوة الملوك»(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين ص ٩٩.

بل الحضارة الحقيقية هي الحضارة الإسلامية التي أحدثت ثورة علمية ودينية في المجتمعات كالأندلس وغيرها من البلدان الأخرى، فتعريف الحضارة كما يقول الريشهري:

«حضارة كل شعب هي عبارة عن مجموع معتقداته وأخلاقه وسلوكه الذي كلما أقترب به نحو المعايير العلميّة والمنطقيّة أصبح أقرب إلى المدنيّة، وكلّما ابتعد عن العلم والمنطق أصبح أكثر بُعداً عن المدنية»[(١)].

فعندما كان الإسلام ذا معتقد وأخلاقيات وسلوك راقٍ أزدهرت حضاراته، وليست الحضارة ببناء الحجارة أو نحتها بإستخدام آلاف الناس كعبيد يبنون القصور كالحيوانات، بل الحضارة في قيمة الشعب علمياً واعتقادياً وأخلاقياً، وهذا كله ونحن نرى إن التجربة الأندلسية لم تكن بمستوى حكم من له الحكم الحقيقي، والذي يحقق العدل التام، فإذا نشر لواء الإسلام الحقيقي وعاش الناس التجربة الإسلامية والأطروحة العادلة المتمثلة بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سوف لن يبقى أحد إلا وآمن بالله وبالإسلام.

وقد اعترف بعض الغربيين _الذين ثاروا على المسيحية_ بعراقة الحضارة الإسلامية، قال الفيلسوف الألماني نيتشه[(٢)] عن منع انتشار الحضارة الإسلامية في

---

(١) الحوار بين الحضارات في الكتاب والسنة ص ١١.

(٢) فريدريش فيلهيلم نيتشه (بالألمانية: Friedrich Nietzsche) (١٥ أكتوبر ١٨٤٤ – ٢٥ أغسطس ١٩٠٠) فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث. بدأ حياته المهنية في دراسة فقه اللغة الكلاسيكي، قبل أن يتحول إلى الفلسفة. بعمر الرابعة والعشرين أصبح أستاذ كرسي اللغة

الغرب بسبب عنجهية الصليبيين ما نصه:

«لقد حارب الصليبيون فيما بعد شيئاً كان أجدر بهم لو أنهم مرغوا أنوفهم بالتراب أمامه حضارة كان من المفترض أن يشعر حتى قرننا التاسع عشر بنفسه فقيراً جداً ومتأخراً للغاية مقارنة بها، وفي الحقيقة

في جامعة بازل في ١٨٦٩، حتى استقال في عام ١٨٧٩ بسبب المشاكل الصحية التي ابتلي بها معظم حياته، وأكمل العقد التالي من عمره في تأليف أهم كتبه. في عام ١٨٨٩، وفي سن الرابعة والأربعين، عانى من انهيار وفقدان لكامل قواه العقلية. عاش سنواته الأخيرة في رعاية والدته وشقيقته، حتى توفي عام ١٩٠٠. كان من أبرز الممهّدين لعلم النفس وكان عالم لغويات متميز. كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول الدين والأخلاق والنفعية والفلسفة المعاصرة المادية والمثالية الألمانية. وكتب عن الرومانسية الألمانية والحداثة أيضاً، بلغة ألمانية بارعة. يُعدّ من بين الفلاسفة الأكثر شيوعاً وتداولاً بين القراء. كثيراً ما تُفهم أعماله -خطأً أحيانا- على أنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية، لكن بعض الدارسين يرفضون هذه المقولات بشدة ويقولون بأنه ضد هذه الاتجاهات كلها. يُعدّ نيتشه إلهاما للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة في مجالي الفلسفة والأدب في أغلب الأحيان. روّج لأفكار اعتقد كثيرون أنها مع التيار اللاعقلاني. استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل أيديولوجيي الفاشية والنازية. رفض نيتشه المثالية الأفلاطونية، والمسيحية والأديان والميتافيزيقيا بشكل عام. ودعا إلى تبني قيماً أخلاقية جديدة، وانتقد الكانتية والهيغلية. سعى نيتشه إلى تبيان أخطار القيم السائدة، عبر الكشف عن آليات عملها عبر التاريخ، كالأخلاق السائدة، والضمير. يعد نيتشه أول من درس الأخلاق دراسة تاريخية مفصلة. قدم نيتشه تصوراً مهماً عن تشكل الوعي والضمير، فضلاً عن إشكالية الموت. كان نيتشه رافضاً للتمييز العنصري ومعاداة السامية والأديان ولاسيما المسيحية، لكنه رفض أيضاً المساواة بشكلها الاشتراكي أو الليبرالي بصورة عامة (موسوعة ويكبيديا العالمية).

كان أولئك الصليبيين يطمعون في الحصول على غنائم؛ فالمشرق كان غنياً، ولنكن صادقين الحروب الصليبية أكبر نوع من القرصنة ولا شيء غير ذلك...»[١].

وقال ايضًا مقارناً بين الإسلام والمسيحية:

«عندما يبدي الإسلام احتقاراً للمسيحية فإن معه ألف حق في ذلك فالإسلام يفترض فحول الرجال شرطاً لوجوده... لقد حرمتنا المسيحية من جني ثمار الحضارات العتيقة وفيما بعد حرمتنا مرة أخرى من جني ثمار الحضارة الإسلامية، لقد تم الازدراء في ذلك العالم الثقافي الموريسكي[٢] البديع الذي عرفته اسبانيا ولا أقول تحت أي نوع من الأقدام تم الدوس على تلك الثقافة والذي هو أقرب إلينا ويخاطب حواسنا وذوقنا أكثر مما تفعل روما واليونان، لماذا؟؟ لأنها من منزلة نبيلة ولأنها مشروطة في نشأتها بغرائز فحولية ولأنها تقول نعم للحياة مع زيادة في الرفاهية النادرة لبدائع الحياة الموريسكية»[٣].

وكان هذا الفيلسوف من المسيحيين الذين ثاروا على الدين المسيحي بسبب عدم صلاحية الديني المسيحي لقيادة الحياة، وألف كتاباً ينتقد المسيحية ويمجد الحضارة الإسلامية فيه وقد ذكرنا المقاطع الآنفة من ذلك الكتاب. وقال «جان جاك روسو» أيضاً:

---

(١) نقيض المسيح ص ١٤٣.

(٢) أي العالم الأسباني أبان الحكم الإسلامي.

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ – ١٤٢.

«كان محمد [ﷺ] يحمل أفكاراً سديدة، أسس بها نظامه بالشكل المطلوب، وكلما بقي هذا النظام معمولاً به من قبل خلفائه، كلما احتفظ بالتوفيق بين الحكومة والدين والدنيا، والشرع والعرف، وتدار البلاد على أحسن وجه»(١).

فهكذا كانت رؤية المفكرين المنصفين عن الإسلام وتعاليمه وأحكامه، ومن يتهم الإسلام بأنّه لا يحقق العدل ولا يقدم المجتمع ولا يرقيه فهو واهم؛ لأن الخلل ليس بالإسلام بل بتطبيقه وإذا ما رأيت ساسة مسلمين قد فشلوا فاعرض فشلهم على الإسلام هل تجده موافقًا له أم لا؟! فالإسلام بريء من الفشل.

وأما بخصوص التقدم العلمي فإنه إنما حُرم المسلمون منه بعد أن كانوا قادته ورواده فبسبب الإحتلالات التي جرت الويلات على بلدان المسلمين، وإلا فإن ما للغرب من تطور تعود بركاته إلى علماء العرب المسلمين. فذاك أبو القاسم الزهراوي رحمه الله(٢) الذي هو أحد سكان الأندلس الإسلامي، وأحد نتاج الحضارة الإسلامية، والذي لا زالت كتبه في الطب إلى لآن محط رعاية في الدراسات الغربية وهو يقول بعد بحثه الطبي «**والله أعلم بالصواب**» ولا زالت الآلات التي اخترعها هو بنفسه تستخدم إلى الآن في المستشفيات العالمية الحديثة.

فالإسلام لا يعارض التقدم والحضارة كما يصوره الجهلاء من دعاة الإلحاد بل هو أساس الحضارة والتقدم العلمي كما سيجده كل منصف غير متعصب.

---

(١) الدين دوره ومدياته ص ٣٩٢.

(٢) انظر ملحق رقم (١) آخر الكتاب.

اعتراف بعدم تطبيق الإسلام:

ومما يؤكد عدم الاشكال على الاسلام بما تقدم، هو أنه لم يُطبق باعتراف منا نحن الإمامية، فلو طبق لكان حقاً على أي أحد أن يعترض، وقد تطرق إلى هذا المعنى الشيخ محمد رضا المظفرقُدِّسَ سِرُّهُ وذكر المأساة التي عانى منها المسلمون بسبب عدم تطبيق دينهم، يقول الشيخ المظفرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«ولو طبقت الشريعة الإسلامية بقوانينها في الأرض تطبيقا كاملاً صحيحاً، لعَمَّ السلام بين البشر، وتمت السعادة لهم، وبلغوا أقصى ما يحلم به الانسان من الرفاه والعزة والسعة والدعة والخلق الفاضل، ولأنقشع الظلم من الدنيا وسادَت المحبَّة والإخاء بين الناس أجمعين ولانمحى الفَقرُ والفاقة من صَفَحةِ الوجود .

وإذا كنا نشاهد اليوم الحالة المخجلة والمزرية عند الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين، فَلأَنَّ الدين الإسلامي في الحقيقة لم يطبق بنصه وروحه، ابتداءً من القرن الأول من عهودهم، واستمرت الحال بنا - نحن الذين سمينا أنفسنا بالمسلمين- من سيء إلى أسوأ إلى يومنا هذا، فلم يكن التمسك بالدين الاسلامي هو الذي جَرَّ على المسلمين هذا التأخر المشين، بل بالعكس إن تمردهم على تعاليمه واستهانتهم بقوانينه وانتشار الظلم والعدوان فيهم من ملوكهم إلى صعاليكهم ومن خاصتهم إلى عامتهم، هو الذي شل حركة تقدمهم وأضعف قوتهم وحطم معنوياتهم وجلب عليهم الويل والثبور، فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنْفُسِهِمْ﴾[١]، تلك سنة الله في خلقه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٣] ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٤].

وكيف ينتظر من الدين أن ينتشل الأمة من وهدتها وهو عندها حبر على ورق لا يعمل بأقل القليل من تعاليمه.

إن الإيمان والأمانة والصدق والاخلاص وحسن المعاملة والإيثار وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، وأشباهها من أول أسس دين الإسلام، والمسلمون قد ودعوها من قديم أيامهم إلى حيث نحن الآن. وكلما تقدم بهم الزمن وجدناهم أشتاتاً وأحزاباً وفرقاً يتكالبون على الدنيا ويتطاحنون على الخيال ويكفر بعضهم بعضاً بالآراء غير المفهومة أو الأمور التي لا تعنيهم، فانشغلوا عن جوهر الدين وعن مصالحهم ومصالح مجتمعهم بأمثال النزاع في خلق القرآن والقول بالوعيد والرجعة وأن الجنة والنار مخلوقتان أو سيخلقان، ونحو هذه النزاعات التي أخذت منهم بالخناق وكفر بها بعضهم بعضاً، وهي إن دلت على شيء فإنّما تدل على انحرافهم عن سنن الجادة المعبدة لهم إلى حيث الهلاك والفناء.

وزاد الانحراف فيهم بتطاول الزمان حتى شملهم الجهل والضلال

---

(١) الأنفال ٥٣.

(٢) يونس ١٧.

(٣) هود ١١٧.

(٤) هود ١٠٢.

وانشغلوا بالتوافه والقشور، وبالأتعاب والخرافات والمجادلات والمباهاة، فوقعوا بالأخير في هاوية لا قعر لها يوم تمكن الغرب المتيقظ العدو اللدود للإسلام من أن يستعمر هذه البقاع المنتسبة إلى الإسلام وهي في غفلتها وغفوتها، فيرمي بها في هذه الهوة السحيقة، ولا يعلم إلا الله تعالى مداها ومنتهاها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وهناك فكرة سائدة في أذهان الكثير من الناس ويتغَّنون بمفردة «المؤسسة الدينية مقصرة» إلا أن هذا التقصير الحاصل في عدم تطبيق تعاليم الإسلام لا يرجع إلى الحوزة العلمية الشريفة فقط، بل يرجع إلى كل المسلمين بصفتهم مسلمين وإلى كل الشيعة بصفتهم شيعة، ومن هذا المنطلق قال السيّد محمد الصدر قدس سره:

«فإنَّ الفرد الاعتيادي وإن كان يضع ثقته الدينيّة العليا بالمرجع حين يختاره للتقليد، إلاّ أنَّه يعيش ـ مع ذلك ـ خضّم حياته الاعتياديّة التي يستوعبها التفكير بالمال والعيال والتيّارات المنحرفة والكافرة والعلاقات المشبوهة أحياناً، ولا يكاد يعيش من حمل هموم المرجعيّة وخدماتها في أداء مسؤوليّاتها العليا في الأُمّة، لا يكاد يعيش منها شيئاً مذكوراً، ما عدا نخبة معدودة لا تكاد تغني في العمل المتوقّع الجبّار شيئاً»[(٣)].

---

(١) هود ١١٧.

(٢) عقائد الإمامية ص ٥٦ – ٥٩.

(٣) مبحث ولاية الفقيه ص ١٥٩.

وقد أجاد من قال:

أبيت اللعن ما أدركت ديني ... ولو أدركته لرأيتَ دينا
وكم يُعزى إلى الإسلام ذنبٌ ... وكل الذنب ذنب المسلمينا

فالدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس من الواجبات على الحوزة الدينية ورجالها فقط، بل هو من الواجب على كل المسلمين، وإن الرجل المؤمن إذا رأى انحرافاً لا يلقيه على ظهور الآخرين، بل يقول من منطلق تحمل المسؤولية بأنني أنا جزء من هذا التقصير، وقد عدّ شهيدنا الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ إن هذه الفكرة من تلبيس إبليس إذ قال:

«إنَّ بعض الرجال يشعر كأنَّ الأمر بالمعروف خاصٌ برجال الدين وبالحوزة، والعوام ما عليها، فليصير كل ما يصير، كل هذا من تسويل إبليس عليه اللعنة ليس أكثر من ذلك»[١].

---

(١) مواعظ ولقاءات ص ٢٢١.

هل الإسلام يصلح كبديل عن الإلحاد؟

لو كان الدين فطرة أودعها الله في النفس الإنسانية، وصار الإنسان بطبعه متدينًا فكيف انحرف الملاحدة عن هذه الفطرة التي لا تتبدل بحسب تعبير القرآن الكريم؟.

والجواب: إنَّهم لم ينكروا ضرورة الدين عن طريق دليل وبرهان بل إن إنكارهم كان على أساس شبهة التعميم ـ سيأتي شرحها[1] ـ فهم ينظرون إلى الكنيسة الظالمة آنذاك بأنها هي الممثل الوحيد للدين دون غيرها، وإنكار الكنيسة لا يكون إلا انكاراً للدين! ومن هنا يقول السيّد محمّد الصدر قدّس سرّه:

«إن المجتمع الأوربي ككل، بجانبيه المتدين والملحد معاً، كان يرى الدين منحصراً بتعاليم الكنيسة بما فيها من تعصب وظلم ومشاكل عقائدية واجتماعية. فالمتدين كان يضطر إلى الرضوخ للكنيسة والرضاء بواقعها مهما كان والمتمرد كان يرى ببطلان الكنيسة بطلان الدين كله، وبظلمها ومشاكلها ابتناء الدين كله على المظالم والمشاكل... باعتبار

---

(١) تحت عنوان: «ما هي مغالطة التعميم».

كون الكنيسة هي الفرد الأمثل للدين في نظره.

مع أنه لو كان للشعب الأوربي درجة كافية من الموضوعية والتجربة في النظر والفكر، وكان في البلاد الإسلامية الإمكانية الكافية على إبلاغ أفكار الإسلام ومفاهيمه إلى أوربا كاملة غير منقوصة وصحيحة غير مشوبة[١].... لاستطاعت أوربا منذ أول عهد نهضتها أن تقرن تمددها على الكنيسة بالرجوع إلى حقائق الإسلام، وأن تعرف : أن الكنيسة لا تمثل كل الدين، بل ولا شيئاً من الدين بالمرة.

وإنما تمثل الجبروت والظلم والإثراء غير المشروع باسم الدين وباسم الدعوة الإلهية المقدسة. وليس شيء من ذلك في الإسلام موجودًا، مما ييسر لأوروبا الحصول على البديل الصالح عن الكنيسة في الإسلام، لا أن ترتمي في أحضان الإلحاد دون وعي.

إذن، فالنقص الأساسي الموجود في المجتمع الأوروبي، هو عدم محاولة استيعاب النظريات المعروفة في العالم بالبحث و التحليل، لعلها تجد في إحداها الحق المفقود و العدل الضائع ... بل وعدم النظرة الموضوعية تجاه أي فكر سوى ما خلقته أوروبا لنفسها من نظريات في تفسير الكون و الحياة.

وحين انعدمت محاولة الاستيعاب، كان من الواضح والطبيعي، أن لا

---

(١) نقل المستشرقون تعاليم الدين الإسلامي إلى أوربا ولكن دسوا فيها دسائسهم، ولم يظهروا منها إلاَّ ما يرونه الجانب المظلم، الأمر الذي نفّر الغرب من الإسلام واختاروا الإلحاد بدلاً من الرجوع إليه، وسيأتي في الفصل الآتي الكلام عنهم.

تصل أوروبا إلى الإسلام، وأن لا تتعرف على مفاهيمه، وأن لا تطلع على مصادره ومنابعه ... فتضطر إلى أن تتمسك بأي بديل آخر للكنيسة لمجرد أنه يحتوي على درجة من السعة والأهمية»(١).

وعدم إهتدائهم للإسلام الحق سببه عدة أمور:

الأمر الأول: عدم تبليغهم وتثقيفهم على الدين الإسلامي، فالحكومة الإسلامية كان شغلها الشاغل هو البحث عن المغانم والملذات الدنيوية، في حين كان الإسلام الأصيل المتمثل بخط الأئمة المعصومين عليهم السلام ذات امكانيات بسيطة لا تتعدى لنشر الدعوة الإسلامية إلى خارج حدود البلاد كما هي إمكانيات الدولة المسيطرة على الوضع، وكمثال للحكومات الإسلامية اللاسلامية قال قدس سره:

«أنتم ارجعوا إلى الطبري والكامل ومروج الذهب وإلى آخرين، ذهب فلان وغزا وحارب وقتل وسبى وغنم ورجع، أليس عندما تغزو تهدي الناس؟! تجعل فيهم حاكمًا عادلاً يدبر أمورهم؟!... الفتح الإسلامي ردحاً طويلاً من الخلافة الأموية والعباسية كان للتجارة لا أكثر ولا أقل»(٢).

وقال قدس سره عن الفتوح الإسلامية آنذاك:

«ولم تكن الدعوة إلى الاسلام قبل البدء بالقتال موجودة ولا متبعة، مع أنّ وجوبها من واضحات الشريعة. كما ان الاسرى كانت تقتل، خلافاً

---

(١) اليوم الموعود ص ٤٠ – ٤١.

(٢) منبر الصدر ص ٦٢.

لتعاليم الاسلام. كما ان البلاد المفتوحة لم تكن تدخل على اثـر الفـتح في مجموعة البلاد الاسلامية، بل كان القواد بمجـرد أنّ يحصـلوا علـى أرباحهم يتركون البلاد تنادي بالويل و الثبور، و يرجعـون، مـن دون ان يجعلوا عليها والياً اسلامياً، أو يطلبوا من أهلها الدخول في دين الاسلام أو دفع الجزية...»[(١)].

الأمر الثاني: كونهم ينظرون إلى الدين المسيحي بأنه الدين الأمثل والأكمل، فإذا ثبت أنه غير صالح لقيادة البشرية فكل ما هو دونه سيكون أسوأ حالاً، وقد ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن المسيحيين في الشرق كانوا يحبون ويحترمون المسيحيين في الغرب[(٢)]، وبطبيعة الحال حب واحترام الغرب للغرب سيكون أكثر ومن هذه الناحية فهم لا يرون أن الإسلام افضل من المسيحية.

الأمر الثالث: تعصب المسيحيين لديانتهم[(٣)]، فأن تعصبهم هذا أدى إلى عدم البحث عن دين آخر فبعضهم وإن كان في عداد الملحدين إلا أن واقعه مدافعاً عن الديانة المسيحية، بدعوى أنه يكن لها الاحترام!!

فهذا دوكينز كبير الملاحدة المعاصر يهاجم الدين الإسلامي ويعلن في أحد لقاءاته الإعلامية :

---

(١) تاريخ الغيبة الصغرى ص ٩٨_٩٩.

(٢) منبر الصدر ص ٤٧.

(٣) نذكر أشارة السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ إلى هذا في صورة الشرك الثالثة في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

«إن المسيحية قد تكون الحصن الأخير ضد شر أسوأ منه»(١).

إذن القضية لم تعد عداءً للدين على إطلاقه، بل عداءً وكراهة للإسلام بشكل خاص.

مميزات الدين الإسلامي:

ذكرنا سابقاً أن الديانة المسيحية وكذلك اليهودية لا تصلح لقيادة المجتمع وإنما هي تفي لفترة زمنية محددة او كما عبر عنها قُدِّسَ سِرُّه :

«تعتبر ديانات مرحلية تتكفل تربية البشرية لحقبة معينة من الزمن»(٢).

ولو شئنا الاستزادة أكثر نجد أن من أهم النقائص التي ترد على هاتين الديانتين السماويتين أنهما لا تتسمان بالشمولية ولا تتدخلا في مفاصل الحياة بينما نجد أن الدين الإسلامي قد أعطى لكل أمر حكماً معيناً حتى الخدشة والصفعة، وما من واقعة في الحياة إلا ولها حكم شرعي إسلامي، ومن تلك النقائص أنّه لا يوجد فقه في الديانة المسيحية قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه:

«الدين المسيحي أصلاً ليس فيه تعاليم شرعية، وليس فيه فقه إطلاقاً، لأن المسيح نفسه عليه الصلاة والسلام، كان في عصره في تقية مكثفة من الدولة البيزنطية التي كانت ملحدة في حينه وناصرةً لليهود في حينه فلم يستطع أن يؤدي للناس والمجتمع أية تعاليم وتشريعات والإنجيل بشكله الموجود خالٍ من ذلك تماماً ـ من التعاليم والتشريعات التي

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية ص ٤٦.

(٢) اليوم الموعود ص ٦٤٦.

نسميها باللغة الإسلامية الفقه والتشريع، لا يوجد إطلاقاً ـ وإنما اقتصر على بعض البيانات الإلهية المربوطة بعظمة الله، ووصف ما يسمى بعالم الملكوت، أو عالم الجبروت، وذكر بعض النصائح الأخلاقية المبسطة لا أكثر»[١].

أما عن الدين الإسلامي فقد قال قدس سره:

«أن الإسلام جاء بما أصطلح عليه بعض المفكرين بالأطروحة العادلة الكاملة، فهو يكفل بتعاليمه كل مكان، وكل زمان، وكل طبقة، وكل مجتمع، وكل ثقافة، حتى كان ذلك من معجزات النبي صلى الله عليه وآله»[٢].

فالشريعة الموسوية (اليهودية) قد قصرت أحكامها على الجوانب المادية من حياة الناس، وأهملت إهمالاً كلياً الأُسس الأخلاقية التي يؤمن بها الناس، والتي هي من ضروريات حياتهم.. وأمّا الشريعة المسيحية فإنّ تشريعاتها ناظرة إلى الحياة الروحية، ولم تعالج الجوانب المادية التي هي من شرايين الحياة[٣].

ونذكر هنا مثالين لشمولية الدين الإسلامي لكل وقائع الحياة.

المثال الأول: في الفقه الإسلامي في باب البيع حرم الشيخ الأنصاري قدس سره بيع الدم؛ لأنه كان في زمانه لا توجد فيه منفعة، فهو في زمان الشيخ الانصاري قدس سره

---

(١) منبر الصدر ص ٣١٤ – ٣١٥.

(٢) المصدر السابق ٣١٥.

(٣) الفقه الإسلامي، تأسيسه، أصالته، مداركه ص ١٢.

حرام، أما في زماننا فقد أفتى الفقهاء ومنهم السيّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه[(١)] بجوازه، لتحقق المنفعة به كما هو الحال في المرضى الذين هم بحاجة إليه.

فلاحظ: أن الشرع الإسلامي لم يجعل ملاك الحرمة في الدم لذاته بل لحكمة «عدم الانتفاع به» فإذا كان في زمان لا ينتفع به فهو حرام، وإذا كان في زمان ينتفع به فهو حلال، ولا يناقض هذا الأثر القائل:

«حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»[(٢)]؛

لأن الشرع لم يحرم الدم بخصوصه بل لكونه لا ينتفع به فإذا أنتفع به كان حلالاً في الشرع، وهذه من النقاط المهمة التي تنبأ عن شمولية الإسلام من ناحية أحكامه لكل زمان ومكان[(٣)].

المثال الثاني: ومن الأمثلة على سماحة الشريعة وكونها من أجمل الشرائع التي تتماشى مع كل العصور وبكل الظروف هو ما حصل مع المجدد الشيرازيقُدِّسَ سِرُّه حيث قدم على تحريم استعمال التنباك بسبب احتكار البريطانيين

---

(١) أنظر : مسائل وردود ج ١ مسألة ٢٣٤، مسائل حول البيع.

(٢) بصائر الدرجات ص ١٤٨، ب ١٣ ح ٧.

(٣) وأما عن عدم شمولية الديانة المسيحية لكل جوانب الحياة فذلك ظاهر عن طريق احتياجهم إلى (الهرمونطيقية) لتغيير بعض الاحكام المستندة إلى الإنجيل عن طريق تأولياها بشكل أو بآخر الأمر الذي دعاهم إلى عصرنة الدين المسيحي، وجعله موافقاً لجميع العصور، أما الدين الإسلامي فأحكامه بذاتها تتغير وفق المصالح والمفاسد ولا يحتاح إلى عصرنة أو (هرمونطيقية) لأتويل نصوصه كما تقدم الكلام عنه.

لهذا المنتوج.

وقد توسل الإنجليز بكل الوسائل الممكنة لإفشال التحريم، ومن جملة أساليبهم أنهم حاولوا إلقاء الفتنة بين العلماء الأعلام؛ حتى ينقض بعضهم فتوى المجدد، ويكون ذلك حجة لدعاية مضادة ضد المجدد ولإلقاء البلبلة في صفوف المسلمين.

فقد حاول الاستعمار البريطاني أن يشعل الفتنة بين المجدد الشيرازيقُدِّسَ سِرُّهُ وأحد كبار المراجع وهو الشيخ زين العابدين المازندرانيقُدِّسَ سِرُّهُ الذي كان له مقلدون كما كان للمجدد الشيرازي وكلمته مسموعة عند الناس، يومئذٍ كان الشيخ المازندرانيقُدِّسَ سِرُّهُ في مدينة كربلاء المقدسة، وبعث إليه السفير البريطاني رسالة خاصة، يبدي فيها رغبته في زيارة الشيخ، في الوقت نفسه اوعز السفير البريطاني إلى جماعة من رجالاته المرتبطين بالسفارة الحضور في بيت المازندراني وتأييد ما يقوله السفير.

وبالفعل حضر السفير في اليوم المقرر للزيارة إلى بيت الشيخ قائلاً له: إني سمعت أن هناك حديثاً عن رسول الإسلام محمد بن عبد اللهصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول فيه: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة» فهل هذا الحديث صحيح؟

قال الشيخ: نعم، مؤكد أيضاً. عند ذلك قال السفير منتهزاً الفرصة قائلاً: فهل التنباك حلال أم حرام، فإن كان حلالاً في الشريعة الإسلامية فكيف يُحرم اليوم،

وإن كان حراماً فكيف حلّل قبل ذلك؟[(١)]

فانبرى المرتزقة الذين أحضرهم السفير، فأيدوا كلام السفير؛ ليؤثروا في جواب الشيخ المازندراني قدس سره.

ولم تنطل الخدعة على الشيخ المازندراني قدس سره، فقد كان أذكى من السفير البريطاني، فقد أجابه بهذا الجواب:

إن الحديث صحيح، والتنباك كان حلالاً إلى ما قبل فتوى المجدد، أما بعد الفتوى فهو حرام، ذلك لأن هناك حديثًا آخر عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وهو «**لا ضرر ولا ضرار في الإسلام**»[(٢)]؛ فإذا صار الواجب أو الحلال ضرراً ارتفع حكمه.

ومثاله: إن الصوم واجب لكن إذا صار ضرراً، سقط وجوبه، والوضوء والغسل والحج كلها واجبات ما لم توجب الإضرار، والتنباك قبل الانحصار كان حلالاً، ولكن بعد منح الامتياز للبريطانيين صار مضراً للمسلمين، ولذا أصبح حراماً، وأفتى بذلك المجدد، ونحن نؤيده ومتى ما تم إلغاء الامتياز، عاد الحكم إلى حالته السابقة من الحلية.

وبهذا الجواب القاطع ألقم السفير ومرتزقته حجراً، وسكتوا ولم ينبسوا ببنت

---

(١) إنما أشكل بهذا الإشكال لأن عقليته مسيحية وفي شريعتهم لا توجد أحكام تتبدل وفق المصلحة والمفسدة والتي يعبر عنها في الفقه الإسلامي بالعناوين الثانوية، بخلاف الشريعة الإسلامية التي تحتوي على مثل هذه الأحكام.

(٢) وسائل الشيعة ج ٢٦ ص ١٤.

شفة[1].

فلاحظ: أنه في فقه الدين الإسلامي لا يوجد تعليم من تعاليمه ما يكون سبباً في استغلاله من قبل المستعمرين وإلقاء المسلمين في الذلة والهوان، بل تعاليمه سمحة وسهلة وفيها نوع من العزة في جميع الأحوال وأشد الظروف.

وهذا من الأدلة الواضحة على كون الشريعة الإسلامية سمحة ومنطبقة على كل الاجيال عكس الشرائع الاخرى التي تفتقر لمثل شمولية الدين الإسلامي، وفي هذا الصدد يقول السيّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«أن الشارع المقدس علم أن ستكون أجيال بعيدة عن الصدر الإسلامي الأول وستكون منقطعة عن تلقي التشريع من مصدره الأساسي، وهو أخذه من الإمام مباشرة ومشافهة. ولكن الإسلام باقٍ ما بقي الدهر و«حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة» إذن فماذا تفعل الأجيال الآتية. ولا يمكن إهمالها أو الإعراض عنها، ومن هنا جعلوا للناس طرقاً إلى فهم الحرام والحلال والتشريع والتطبيق مهمة وموسعة»[2].

ولم يكن هناك حاجة لعصرنة الدين كما فعل المسيحيون.

محل الشاهد: إن عدم شمول الديانة المسيحية وعجزها عن تغطية الحياة بالنظام العادل ولو على سبيل الوجود في الانجيل فقط ومن دون الوجود الخارجي

---

(١) لكيلا تتنازعوا ص ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) ما وراء الفقه ج ٢ ق ١ ص ١٠٩.

أي التطبيق الفعلي ليكونوا كما نعتقد نحن المسلمون، فإننا نعتقد أن ديننا كامل متكامل إلا أن واقعنا المأساوي حال دون تطبيقه وبسبب هذا فنحن لا نشكك في الإسلام، لأن ديننا واضح وعادل ويشمل كل سبل العدالة والرفاه بيد أننا نعزو التقصير للمسلمين دون الإسلام، أما المسيحيون فيعزون ذلك لدينهم لخلوه فعلاً عن نظام عادل يحكم سلوكيات الناس.

انحدار الكنيسة:

وبسبب هذا الفراغ الفكري والشرعي في الديانة المسيحية وبسبب الاتجاه الرهباني الذي كانت تسير فيه المسيحية فرَّ كثير من الناس منها وباتت الكنائس خالية من الطقوس إلا في أيام محدودة وبعدد قليل وبدأ الدين المسيحي بالأفول، وراح المسيحيون يبحثون عن الملذات والشهوات وغيرها.

ووقفت الكنيسة عاجزة أمام كل ذلك، وليتها بقيت واقفة فحسب بل راحت تنحرف وتُشرعن الانحراف الاجتماعي ومن هنا بدأ التَحللُّ الخُلقي، فقد نقل عن مجلة «الحوادث» البيروتية العدد ٧٧٩ :

«في الإحصاء الذي أجرته المجلات في الولايات المتحدة حول «الكنيسة والجيل الجديد» تبين أن ثمانين بالمائة من الشبان والشابات لا يذهبون إلى الكنائس لأنهم يبحثون عن أجوبة عصرية لأسئلة محرجة كالأسئلة التي تتعلق بالفضاء والهبيين وفيتنام والقنبلة الذرية والملونين»[١].

---

(١) الإسلام منهج الحياة ٣٧٠.

مع أنهم كانوا قبل ذلك من المحافظين، بل توجد صورة قبل ١٠٠ عام تقريباً في احد شوارع بريطانيا وكل النساء السائرات في ذلك الشارع محتشمات يلبسن كلباس الراهبات، أما بعد انتكاسة الدين فقد تغير ملبسهم بالتدريج وصاروا كما هم عليه الآن.

وبذلك صار اصحاب الكنيسة يقرون بأي عمل منحرف يقوم به المسيحيون وإن كان مخالفاً لتعاليم المسيح وسيرته، ويبررون ذلك بأنه لا يضر ما دام هؤلاء الشبان يذكرون الله!! فذكر الله مهم عندهم وإن خالطه ما يخالف تعاليم الإنجيل والاقتداء بالصالحين منهم.

ومن ذلك باركت الكنيسة دعوة انتشرت في أنحاء من الولايات المتحدة، وهي الدعوة التي تعمل لنشر المسيحية عن طريق موسيقى الجاز، والرقص الجماعي، وما شابه ذلك.

والمباركة جاءت هذه المرة من قداسة البابا بولس السادس عندما استقبل: فريق موسيقي البوب، وأثنى عليهم ذكرهم لله والدين في أغانيهم!! يقول أحد الكهنة في تبرير هذه السقطة الكنسية في مزالق الجنس:

«**المهم أن ذكر الله والدين عاد للظهور على ألسنة الشباب والشابات، وهذا مدينون به إلى الحركة نفسها!!**».

وأهم ما في هذه الحركة أن معتنقيها في غالبيتهم هم من الذين عرفوا بإدمانهم على تعاطي المخدرات ومن الذين تلاحقهم الشرطة بتهمة السرقة أو

الاغتصاب أو التخريب أو حتى القتل[(١)].

فالكنيسة ليس لها ما تقوم به لوعظ هؤلاء، ولا توجد تعاليم اخلاقية كافية لتربيهم عليها، ولا يوجد أمر بالمعروف ونهي عن المنكر يقاطعون به المسيء ويقتربون به من المحسن، حتى ينكر المنكر ويحب المعروف.

فبسبب قصور الديانة المسيحية لم يبحث رجال الدين المسيحي عن الدين الشامل لكل مفاصل الحياة، بل راحوا يدرسون الدين الإسلامي ويبثون التشكيكات في عقائد المسلمين وهذا ما سنبحثه فيما يأتي إن شاء الله.

ولما كانت الكنيسة في هذا المستوى من الانحدار لم يقف السيّد محمد الصدر قدس سره مكتوف الأيدي تجاه هدايتهم، سيما وأنه يرى أن المشركين من النصارى وغيرهم مكلفون بالفروع[(٢)]، فوجه إليهم سهم الهداية ليخرجهم من الضلال الذي هم فيه حيث قال لهم قدس سره :

«إن كل الاديان السماوية ـ الاسلام بكل مذاهبه، والمسيحية بكل مذاهبها واليهودية وغيرها ـ كلها تحرم السفور وتردع عنه، وكلها تحرم الزنا، واللواط، وشرب الخمر. وليس هناك أي دين يحلله أو يجيزه. وهذا ينبغي ان يكون واضحاً جداً. وعلامة ذلك عند المسيحيين وكذلك اليهود إننا نجد أن النساء المتدينات في دينهن، والراهبات منهن يلبسن الحجاب؛ فذلك دليل على أنهن يجدن مسئوليتهن تجاه الله أن يلبسن

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧١ – ٣٧٢.

(٢) انظر: ما وراء الفقه ج ٤ ص ١٨٢.

الحجاب. فلماذا نساء سائر المجتمع سافرات، حتى المسيحيات واليهوديات؟ هذا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر للمسيحيات، واليهوديات فضلاً عن المسلمات. والحكم منجز حتى في ذمتهن. أو بتعبير آخر منجز في ذمة كل البشر من أوله إلى آخره وفي كل الأجيال.

وما ذلك- أي لماذا يتحجبن- إلا لكونهن ممتثلات للحكم الشرعي في دينهن. بينما تكون الملايين من المسلمات، والمسيحيات وغيرهن عاصيات جهراً، وعازمات على الاستمرار بالعصيان- أي في ترك الحجاب طبعاً- فنساءهم كلهن سافرات، وكلهم يشربون الخمر، ويمارسون الزنا، ويأكلون لحم الخنزير. فنسألهم هل كان موسى الكليم عليه السلام يشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير؟ أو كان عيسى المسيح عليه السلام كذلك؟ وأنتم تقدسونهم أم لا؟ هم عبرة لكم طبعاً، فلماذا لا تكونوا مثلهم؟ سبحان الله!

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة   أو كنت تدري فالمصية أعظمُ

هل كان الحواريون كذلك يشربون الخمر، أو يأكلون لحم الخنزير؟! أو نساء الحواريين غير محجبات؟.

أو مريم العذراء غير محجبة؟. ماذا تقولون بالله عليكم؟! عجباً للفكر الممسوخ، والنذالة المتناهية!

فإذا كان السفور عندكم حراماً، وأنتم عصاة فيه، وملعونون عليه، وكل هذه المحرمات كذلك فكيف تريدونه لنا، وتحثوننا عليه؟ وما هذه الهدية الفاسدة المجرمة التي أدخلتموها في بلادنا، وربيتم عليها أجيالنا

وشبابنا؟

وإذا كانوا هم عاصين لتعاليم أديانهم، وشرائع انبيائهم؛ فلنكن نحن المطيعون لتعاليم ديننا الحنيف، وشريعتنا المقدسة العادلة الكاملة؛ فإن في ذلك الشرف كل الشرف، والهدف كل الهدف؛ وبذلك الوصول إلى الكمال، والجلال ورضاء الله- جلّ وعز- وأولياؤه (سلام الله عليهم أجمعين)»(١).

وقال لهم قدس سره :

«لا أطلب منكم تغيير أديانكم، أو مذاهبكم، وإنما أقول: كونوا طيبين (لاحظوا) ليس هناك مذهب ولا دين، يجيز شرب الخمر، والسرقة، والغش، والظلم، والاعتداء، وتحرير المصالح الدنيوية، وتفضيل الأنانية... حاشا لله، وحاشا لأديان الله كلها من هذه الأمور»(٢).

وكانت نتائج هذه الخطاب مثمرة جداً وروى هو قدس سره ثمرتها إذ قال:

«أروي لكم قصة بسيطة لها معاني كثيرة فقد نقل عن أسرة مسيحية، إن أفرادها يقولون: إن البابا ـ الذي هو أعلى مسؤول أو رجل دين في نظرهم ـ لا يقول لنا ذلك... فمن أين جاء السيّد محمد الصدر ليقول لنا ذلك... يعني حينما قلت: إن مريم العذراء عليها السلام ليست سافرة، وإن عيسى بن مريم عليه السلام لا يشرب الخمر، فلماذا انتم ملتزمون بالسفور وشرب

---

(١) أضواء على منبر الصدر ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧.

الخمر؟ والعياذ بالله. البابا لا يقول لهم فضلاً عن غيره من رجال دينهم، فمن أين جاء السيّد محمد الصدر يريد أن يهدينا.

وأضاف أفراد تلك الأسرة: أننا ذاهبون إلى السيّد محمد الصدر لكي نعلن إسلامنا بين يديه.. أهلاً بهم وسهلاً»[١].

هكذا كان قدس سره مرجعاً عابراً للأديان لا يرى سوى الله سبحانه وتعالى في كل البشر ولا يسعى إلا إلى هداية الناس أجمع بمختلف أديانهم واتجاهاتهم. وأكثر ما تكلم به في المقاطع السابقة إنما هو كلام عن سيرة الأنبياء الصالحين وألزمهم بسيرتهم لكونهم هم القدوة والأسوة.

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦٤.

مهاجمة الديانة المسيحية للإسلام

لا يخفى أنَّ حرب الديانتين اليهودية والمسيحية على الدين الإسلامي لم تكن جديدة بل بدايتها كانت منذ بداية الإسلام.

وهذا ما حاول أن يركز عليه سيدنا الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّه حتّى أنَّه جعل من يزيد مجرد آلة تنفذ التخطيط الذي رسمته دولة الاستعمار البيزنطية وجعل من (سرجون) هو القاتل الرئيسي للإمام الحسينعليه السلام.

محل الشاهد: أن كنائس أوربا قد عجزت عن رد الإلحاد ومواجهته فكرياً ذلك لأنهم إن لم يكونوا قاصرين فعلاً عن رد الشبهات الإلحادية أو الربوبية، فهم قاصرون عن جعل دينهم شمولي لجميع مفاصل الحياة[1]، فلما شاع الإلحاد ذهب الرهبان لدراسة الإسلام ويبدو أنّهم درسوا الديانات بشكل عام ودرسوا الإسلام على وجه الخصوص.

وبعد أن شاهدوا أن الدين الإسلامي يمتلك كل الحلول لمواجهة الإلحاد خشي كثير منهم انقراض الدين المسيحي وظهور الدين الإسلامي على الدين كله

---

(١) إلاَّ بالعصرنة التي هي نوع من أنواع التخلي عن التعاليم المسيحية وكل ما ورد في الانجيل.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١].

أيّها القارئ العزيز لاحظ أن انتشار الإلحاد في الغرب بدأ في القرن السادس عشر والسابع عشر، وإن دراسة الرهبان للإسلام بدأ في القرن الثامن عشر، وإن دراستهم له لا من منطلق الاهتداء به بل لأجل بث الشبهات فيه حتى يصرفوا الأنظار عنه بعد قصورهم عن الدفاع عن دينهم.

حتى أنّهم ذات ليلة بثوا من تلفاز الالمان استطلاعاً مصوراً عن البلد الإسلامي اليمن، ومنه عن أوضاع المساجد وأسلوب الصلاة والعبادات الإسلامية. وتحدّث المتحدث التلفزيوني حول حرمان الناس في تلك البلاد بالتفصيل، ثم وجّه بحملته الدعائية ضدّ الإسلام واستمر يقول:

«إن الإسلام قد أوجد دون تقدم هذه الأمة مشاكل كثيرة، فأخرهم عن قافلة الحضارة أكثر من قرنين من الزمن، فالتوقف والركود والجمود في المراحل البدائية والضعف والتأخير في الأوضاع الراهنة مظهر من مظاهر البرامج الإسلامية! وإن حرمان هذه الأمة عن التطور الذي حدث في مختلف شؤون الناس في العالم إنما هو مسبّب عن العقائد الدينية وتبعتهم لأحكامه»[٢].

إلا أنك قد قرأت في ما مضى تحت عنوان «التجربة الأندلسية» ما يبدد هذه

---

(١) التوبة ٣٣.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص ٤٣.

الشبهة التافهة التي عرضها أتباع الكنيسة لشعوبهم ليشوهوا سمعة الإسلام والمسلمين، لكي لا يفكروا يوماً من الأيام بوجود دين أفضل من دينهم.

ونحن هنا نذكر أربعة خطوات ذكرهما السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لمهاجمة الدين الإسلامي وهما كالآتي:

الخطوة الأولى: نشر الثقافة الغربية الهدامة

يعتبر السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن ما في الإسلام من حصانة فكرية يحول من أن ينتشر الإلحاد فيه، إلا أن الغرب الأوربي نشر في المجتمعات الشرقية نظرياته الهدامة التي هدمت الفكر المسيحي وراحت تسيس تلك المخططات على الإسلام، ومن هنا قبل الشرق المسلم تلك الشبهات، يقولقُدِّسَ سِرُّهُ:

«إنّ أوروبا لم تستطع نشر نظرياتها في الشرق الاسلامي، ماركسية وغيرها، إلا بعد أن استطاعت تزريق نقصها بنفسه هناك ففصلت بين الشعب ودينه، وأفرغت ذهنه منه، وملأت الفراغ باعتراضات على التكوين الديني وبالنظريات المبتدعة في المجتمع الأوروبي نفسه ... وتقبل الناس في الشرق الاسلامي، هذا التخطيط الهدام، بكل صفاقة وإهمال»(١).

وتم نشر تلك النظريات الهدامة من قبل المتشرقين الذين سنتحدث عنهم فيما يأتي، وهم كما سنبين هناك عملاء للدول الأوربية وأهدافهم من دراسة الإسلام هي أهداف هدامة، سنشير إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) اليوم الموعود ص ٤٣.

الخطوة الثانية: إشاعة التساؤل عن علل الأحكام

أول خطوة كانت هي أثارات الشبهات حول الأحكام الشرعية الإسلامية، وهذا ما تطرق إليه السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ حيث قال:

«فكانوا من جملة ذلك أن بثوا التساؤل وأشاعوا التساؤل عن الحِكَم والأسباب للأحكام الشرعية، وهم يعرفون أن أغلب الناس والعوام لا يستطيعون الجواب عليها، فيكفي أن تبقى الشبهة في النفس للطعن بحكمة الله وقدرته، ومن ثم تسبب الشبهات ارتداد الفرد والمجتمع عن دينه، فنكون نحن أسوأ حالاً من شعوبهم بكل تأكيد، فإنهم قد يتمسكون بدينهم، ولو من الناحية الشكلية[١]، وأما نحن فتكون النتيجة أننا براء من الدين واقعياً وشكلياً»[٢].

وهذا ما ذكره القرآن الكريم وحذر منه حيث قال: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾[٣].

نعم تبين لهم الحق لأن الله ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[٤].

---

(١) لأن العصرنة التي تحدثنا عنها سابقاً نوع من ترك الدين المسيحي والتمسك به شكلياً.

(٢) منبر الصدر ص ٣١٤.

(٣) البقرة ١٠٩.

(٤) التوبة ٣٣.

فإن اعداء الدين الإسلامي من الغرب هم أول من اشاع السؤال عن علل الأحكام بنحوٍ من التشكيك، ومواقع التواصل الاجتماعي ليست ببعيدة وانظر إلى كثرة الاشكالات والأسئلة عن علل الأحكام من قبيل: لماذا يصوم من في القطب الشمالي أقل ممن يصوم قرب خط الاستواء، ويجعلون القلة والكثرة سبباً لنسبة الظلم والنقص للشريعة الإسلامية.

بينما أن هذه القضية وأمثالها تعبدية لا يمكن أن نحكم فيها عقولنا، فإذا أمر الطبيب المريض بشرب علاج معين فهل للمريض أن يسأله لماذا هذا العلاج أنا لا أريده لأنك أعطيت فلاناً علاجاً غير علاجي!!

ومن قبيل ما سئلنا به أحد الأساتذة في مادة علم الأحياء عندما كنت في الصف الثالث المتوسط مستفهماً حيث قال: لماذا التبول مبطل للوضوء دون التعرق، مع أن السوائل الموجودة في جسم الإنسان إن لم تخرج بالتعرق خرجت بالتبول وكلاهما من مصدر واحد؟ وبعد مرور خمس سنوات تقريباً كنت اطالع بكتاب فقه الطب للسيد الصدر قدس سره فوجدته يقول:

«نجاسة الماء لا تعني كونه غير معقم او انه مضر صحياً، بل قد يكون معقماً ونجساً. لان النجاسة حكم شرعي تعبدي لا ربط لها بالتأثير الصحي»[1].

فعرفت الجواب من خلال هذه الكلمات، فأرسلت الكتاب إلى الأستاذ، **وحاصل الجواب:** أن الله تعالى لم ينظر في تشريعاته إلى مصادر الاشياء المادية

---

(١) فقه الطب ص ٣٩.

بل عبدنا بأن البول نجس والعرق طاهر، ولا علاقة للتشريع في أصل المواد، فقد تكون مادة واحدة طاهرة من جهة ونجسة من جهة أخرى كالدم، فإنه نجس، إلا أنه طاهر إذا كان مما تخلف في الذبيحة.

وقد كان ابو العلاء المعري الشاعر المعروف ذو نزعة تشكيكية وقد كتب بيتاً يعترض فيه على حكم قطع يد السارق قائلاً:

يد بخمس مئين عسجدٍ فُديت ... ما بالها قُطعت في ربع دينارِ

ومقصوده: أنّ مقدار دية اليد خمسمائة من الدنانير الذهبية، غير أن الإسلام يقطعها في سبيل سرقة ربع دينار! فأجابه السيّد المرتضى رحمه الله علم الهدى فقيه الطائفة في زمانه ببيت رائع قال فيه:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصه ... ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

ومقصوده: أن اليد إذا اتصفت بالأمانة فإن هذه الصفة توجب غلاءها، ولكنها إذا اتصفت بالخيانة فإن هذه الصفة ترخصها، وبتعبير أحد العلماء: «**لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت**»[1].

وسنذكر في الفصل السادس في الشبهة رقم (١٥) من هذا الكتاب جواب الشهيد الصدر قدس سره حول الغاية من عدم التساؤل عن علل الأحكام.

ووجدت مثل هذه الإشكالات في الوسط الأوربي كذلك فقد كان يتسائل بعضهم: ما الذي يستفيده الإله من عبادتنا له طوال عمرنا؟ وقد أجابهم الفيلسوف

(١) وجهاً لوجه بين الأصالة والتجديد ج ١ ص ٣٤١.

الألماني «لودفنشتين» الذي وضع الفلسفة الوضعية المنطقية «فلسفة الإلحاد» ثم تبرأ منها وفندها بنظرية اللغة والألعاب، أجابهم: إنّ قواعد المنظومة (أو اللعبة كما يقولون) يضعها الإله الخالق، وليس للعبد إلا الطاعة والالتزام، فأنت إذا شاركت في لعبة كرة القدم مثلاً عليك الالتزام بقوانينها، ولا تستطيع أنّ تطبق فيها قواعد كرة اليد! وفي كل الأحوال فإنّ طاعتنا لا تزيد في مُلك الله عَجَّلَ ولا تنقص شيئاً، والعبد هو المستفيد الأول والأخير[1]، فالذي لا يسأل عن علل قوانين الكرة ويعد السؤال عنها ومناقشتها سخفاً وبلاهة ويعتبر مخالفتها خرقاً لنواميس الأحكام التي اتفق عليها أصحاب تلك الألعاب كيف له أن يعترض على القوانين الكونية والأحكام التي شرعها الله تعالى وجعل نجاة العباد بها إنّ اطاعوه وهلاكهم فيها إن عصوه فلماذا لا يجري فيها كما يجري في تلك الألعاب مع شدّة الفارق الواضح بينهما؟ ولماذا مخالفة اللاعب لقوانين الكرة تصيره خارجاً عن الأعراف العقلائية الموضوعة لهذه اللعبة، ولا نكف نحن من نقد النواميس التي سن الله عليها كونه وتشريعاته، إنّ هذا محل للعجب!

الخطوة الثالثة: أثارة الانحلال الديني

يقول السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ :

«من فوائد المسلسلات الأجنبية... أنَّها أجنبية موضوعة وضعاً مؤكداً ومخططاً، لأجل اخراج الناس عن دينهم وعن عفتهم وعائلتهم وتقاليدهم وكل الاشياء يريدون أن يقلبوها إلى أوربا فاسدة...»[2].

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية ص ٣٣٦ بتصرف.

(٢) منهج الصدر ص ١٤٨.

فلما لم تستطع الديانات الأخرى المحافظة على دين أتباعها من الانحلال الأخلاقي بسبب سخط التيار الإلحادي الجارف على الكنيسة ـ كما تقدم ذكره ـ سكتوا عن نصح الناس والكلام معهم بما يخص أخلاقهم فظهر هذا الانحلال الخطير.

ولكي لا يكونوا هم وحدهم من يعانون من مشكلة نبذ دينهم، صدروا إلينا هذا الانحلال من خلال كل الوسائل الحديثة كالتلفزيون والانترنت وغيره. ونذكر هنا من جملة ما تحلل المسلمون عنه هو حلقهم لحاهم كنموذج لما صدره إلينا الغرب قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«أنَّنا رأينا من عالم اليوم والأمس، أنَّ حلق اللّحية ـ مهما كان تاريخه القديم ـ قد اقتبسه شرقنا الإسلامي من أوربا ذات الحضارة المادية المعادية لله، والمسيحية الصليبية المعادية للإسلام، وقد دَخَلَنا هذا المسلك منهم عن طريق الغزو الفكري الاستعماري من قِبل أشخاصٍ منّا اعتقدوا بعظمة أوربا وصواب رأيها وعدالة حضارتها، فانزلقوا بهذا المنزلق العميق، وانحرفوا هذا الانحراف المشين، وتسببوا شيئاً فشيئاً إلى انحراف جماهيرنا المسلمة السالمة قلبياً والفارغة عقائدياً، عن طريق استيلائهم على الدراسة ووسائل التعليم» [(١)].

ولا يقصد قُدِّسَ سِرُّهُ هنا حلق اللّحية بذاتها بل هي من جملة الأمور التي تدعو إلى الانحلال عن مبادئ الدين الإسلامي وتوقع الفرد المسلم بالإلحاد العملي تدريجياً وهذا ما ذكره قُدِّسَ سِرُّهُ إذ قال:

---

(١) الفكرة الحية في حكم حلق اللحية ص ١٢٦.

«إلا أن الفرد الواعي إسلامياً والملتزم دينياً، وخاصةً إذا كان داعياً للإسلام وعاملاً لرفع راية الحق، ودحر الانحراف والفساد الناتج عن الغزو الاستعماري الكافر؛ والمستنكر لأساليبه المنحرفة في إبعاد الأمة الإسلامية عن دينها القويم وإلقائها في أحضان العلمانيّة والإلحاد.... إنَّ الفرد إذا كان على هذا المستوى من الوعي، فضلاً عما إذا كان يفهم من التفاصيل ما هو أكثر وأعمق، لحريٌّ به أن لا يتخذ شعار الانحراف الذي فرضته الحضارة الأوربية عن طريق الطلائع المنحرفة من شرقنا الإسلامي»[١].

الخطوة الرابعة: إلهاء الشعوب وتعميتها

من ضمن الأمور التي يسعى إليها الغرب هو إلهاء الشعوب والمجتمعات بتوافه الأمور وسوافهها، كما أشار الفيلسوف الأمريكي المعاصر «نعوم تشومسكي» في كتابه المشهور «عشر استراتيجيات للتحكم بالشعوب»، إلى هذا الأسلوب الخطير الذي نقله عن وثيقةٍ سريّة مسرّبة، تحت عنوان: «أسلحةٌ صامتةٌ لحربٍ هادئةٍ» حيث قال:

«حافظواعلى تحويل انتباه الرأي العامّ بعيداً عن المشاكل الاجتماعيّة الحقيقية، ألهوه بمسائل تافهةٍ لا أهمّيّة لها. أبقُوا الجمهور مشغولاً، مشغولاً، مشغولاً، دون أن يكون لديه أيّ وقتٍ للتفكير، فقط عليه العودة إلى المزرعة مع غيره من الحيوانات الأخرى»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٢) عشر استراتيجيات للتحكم بالشعوب ص ٢.

وهو يؤكّد على اعتماد نفس السياسيةّ، ونفس المؤامرة في إلهاء الناس عن التفكير العقلي، بالإضافة إلى بيان الغاية المقصودة لهم من كل ذلك، وهو صيرورة الناس مجرد قطيعٍ في مزرعة، يأكل، ويشرب، وينام؛ ليسير بعد ذلك خلفهم بلا أيّ مانعٍ أو تردّدٍ.

وهذه النظرة الازدرائية للناس وللإنسانيّة، تكشف عن أنّهم يحملون أجندةً شيطانيةّ، تستهدف القضاء على الإنسانية، لإنسانيتها لا غير[1]، وقد ذكر شهيدنا الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ هذه الخطية الخبيثة في خطب الجمعة إذ قال:

«لا شك ان الحضارة الغربية فيها مظالم ومصاعب ونقائص لسنا الان بصدد تعدادها، الا اننا لا نحس بها بالمباشرة لاننا لا نعيش في ظهرانيها في اوربا وامريكا، وانما يحس بها شعوبها في الحقيقة المعايشة لها. وكلهم، كثير منهم جدا فقراء ومظلومون ومحرومون من ادنى حقوقهم المعاشية والحياتية، ونحن نتصورهم ـ نتخيل من هنا ان كل الشعب هناك وكل الشعوب هناك في هناء وسعادة وعلو، ليست المسألة هكذا بطبيعة الحال ! افحص. طبعا شيء معتم عليه، لكنك تستطيع ان تفحص وتجد.

لاحظوا: وافضل طريقة في نظر السياسة الغربية هو إلهاء شعوبهم عن مشاكلهم ومظالمهم لتلافي المظاهرات والاحتجاجات عندهم، ومنع العنف المحتمل عندهم على اية حال. ومن هنا تكثر الملاهي والحانات والسينمات وانواع الرياضة وانواع اللعب، ثم سرت اساليب الرياضة الينا

---

(١) قوى الشر واستراتيجيات إقصاء العقل ص ٦١.

عن علم منهم وعمد ونحن نجهل بحالنا وبعلاقتنا معهم وتخيلناها شيئا جيدا وحسبناها عزا وفخرا ولم نلتفت ان فيها عبودية وذلا من ناحية، وخروجا عن تعاليم ديننا الحنيف من ناحية اخرى، والغرب دعم ذلك وايده فينا وفي بلادنا لعدة نتائج:

السبب الاول: الهاء المسلمين عن واقعهم المعاش ومشاكلهم وترك الاحتجاج والمناقشة والعنف وخاصة التغافل عن البلاء الوارد علينا من جانب الغرب الاستعماري نفسه، ومطالبة المسلمين والشعوب المستضعفة بحقوقها.

السبب الثاني: صد المسلمين عن دينهم فانها سبب (اي الرياضة) سبب واضح لعدة امور ضد الدين كترك الصلاة والصيام واجتماع الجنسين بشكل غير مشروع وابراز الاعضاء الداخلية للرجل والمرأة وهكذا .. وهذا كله مما لا ترضاه الشريعة.

السبب الثالث: اسقاط اهمية الدين والهدف الديني في نظرنا. الهدف الديني في نظرنا صحيح لكن هذا ينبغي في نظرهم ان يسقط ويتحول نظرنا من الهدف الديني الى هدف مال كرة القدم ! (خزيا لنا وعارا !!) وجعل الهدف الاسمى في نظر الاكثر هو اخذ الاهداف في كرة القدم. واذا كان الهدف هو هذا الهدف فأتعس به كم قال الشاعر: لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها.

السبب الرابع: منع التكامل لافراد المجتمع في المجتمع المسلم؛ لأن الفرد عندئذ يقضي الوقت كله او اغلبه في لعب الرياضة او التفرج

عليها او سماع اخبارها او الذهاب الى الملاعب او السفر اليها، ويبقى الوقت الباقي لديه يقضيه في ضرورات حياته واسرته ولا يبقى لديه وقت آخر لكي يقضيه في تكامله العلمي والعقلي والديني والروحي. وبهذا يخطط الغرب الكافر ان يكون الجهل والتدني هو الصفة العامة للمجتمع في العالم كله وليس على العراق والشرق الاوسط فقط وانما كل الشعوب المستضعفة حتى (يبلعهم ويشرب عليهم الماي . هذا هو). يكونون لقمة سائغة له ولارباحه ولاطماعه ولكبريائه. وبهذا يخطط ان يكون الجهل والتدني هو الصفة العامة للمجتمع في العالم ليسهل للمخططات الاستعمارية التفشي فيها وانجاحها عسكريا واقتصاديا وعلميا وغير ذلك»[1].

(١) الجمعة رقم (١٣) الخطبة الثانية.

الفصل الثاني

أدوار بث الفكر الإلحادي

أدوار بث الفكر الإلحادي

أولاً: دور المستشرقين

تمهيد:

بعد ان عدَّ السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن موطن الإلحاد الأصلي هو الديانة المسيحية، ندرس هنا الآن موقف المستشرقين الذين يحاولون أن يجعلوا الإسلام إما مساوياً للديانة المذكورة أو يجعلونه أسوأ حالاً منها؛ وفي ذلك ترويج للإلحاد بشكل مباشر أو غير مباشر في الدين الإسلامي، ومن أمثلة هؤلاء المستشرقين الذين يحاولون تشويه صورة الإسلام «كولد تسهير» إذ يقول:

«الإسلام مزيج مشوّه مستقى من أصول المسيحية واليهودية تلقاها الرسول عن أساتذته أحبار ورهبان النصارى وقسسهم»[(١)].

وقد عرفت في الفصل السابق ـ وستأتي الإشارة إليه كذلك ـ أن رجال الدين المسيحي لما رأوا عجز دينهم عن مواجهة التيار الإلحادي الجارف، ورأى بعض

---

(١) المستشرقون موقفهم من التراث العربي الإسلامي ص ٢١٣.

مثقفي المسيح أن الدين الإسلامي ـ الذي علا صيته آنذاك ـ هو الحل الأمثل، بدأوا يدرسون الإسلام لأجل تشويهه وتسخيفه في نظر الفرد الغربي لكي لا يترك المسيحية ويلتجأ إلى الإسلام، وصاروا يشوهون كل ما يرتبط بالإسلام حتى قال المستشرق الفرنسي «كارادي فو»:

«ظلّ محمد معروفاً طويلاً في الغرب معرفة سيّئة. فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلا ونسبوها إليه»(١).

كل ذلك لأجل أن لا ينتشر الإسلام في الغرب فتندحر الديانات الأخرى ويأفل نورها وتندثر تحت ركام التاريخ، وقد كتب السيّد محمد الصدر قدس سره تقريراً للسيد الخميني قدس سره أثر المدارس التي أسسها هؤلاء لغرض الإطاحة بالإسلام قائلاً:

«أنَّهم انطلقوا من لا شيء في الدعوى ضد الإسلام وبيان أنَّه دين سيء، فوظيفتنا هو عرض الإسلام بوجهه الصحيح وتفاصيله العادلة أمام العالم. ولا تتخيلوا أنَّكم لا تستطيعون؛ فإنَّهم بدأوا من الصفر قبل ثلاثمائة سنة، ودأبوا على العمل، حتّى استطاعوا أن يربوا أجيالنا على ما يريدون عن طريق المدارس التي أسّسوها. وقد بدأت هذه المدارس بمدرسةٍ واحدة ولم نحسّ بخطرها وأهميّتها، ولم نلتفت إليها»(٢).

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٠.

(٢) كتاب البيع ج ٨ ص ١٦١.

الكليات الأستشراقية:

قلنا سابقاً أن علماء الدين المسيحي لما انتشر الإلحاد في الدول الأوربية ولـم يتمكنوا مـن ردعـه وراحـوا يدرسـون الـدين الإسـلامي لغـرض تشـويهه وصـرف الأنظار عنه.

واستمر منذ ذلك الوقـت حركـة الديانـة المسـيحية فـي دراسـة الإسـلام وقـد أسس بابا الفاتيكان «**غريغوريس الثالث عشر**» الكلية المارونية في روما. التـي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وقد تخرج فيها نخبة من المتخصصين باللغات الشـرقية، وانتشروا في مختلف البلدان الأوربية[١].

كل ذلك لأجل بث الشبهات في الإسلام من ذاك اليوم وإلى يومنا هـذا، ولـم تقتصر على بث الشبهات فحسب بل راحت تكتب كتباً عن الإسـلام وعقائـده مـن أجل أن يأخذ الفرد الغربي الإسلام عنهم لا عن المسلمين.

فأنت عندما تكتب للغربيين عن العـرب والمسـلمين وتواكبـك حملـة دعائيـة كشيخ المستشرقين، فلن تجد إلا نادراً من يشكك بما تقـول حتـى لـو كـان مجـرد تلفيقـات وأكاذيـب، كمـا حـاول فعلـه المستشـرق «برنـارد لـويس» حيـث اعتبـره الأوربيون المرجع الذي يعلِّم الغرب حقيقة العرب والمسلمين[٢].

وبـدأ المستشـرقون ـ وهـم الـذين يبحثـون فـي ثقافـة الشـرق مـن الأوربيـين ـ يكتبون عن الإسلام اشياء لا تمت للإسلام بصلة مملؤة بـالتلفيق والتضـليل وذلـك

---

(١) مناهج المستشرقين ص ٢٧.

(٢) سلسلة دراسات استشراقية ج ٧ ص ١٢ دراسة (برنارد لويس).

لسببين :

الأول: بَثُّ الشبهات في الدين الإسلامي وبالتالي أبعاد المسلمين عن دينهم.

الثاني: لإضلال الغرب عن الدين الإسلامي بحيث يكفي من الفرد الغربي أن يقرأ كتاباً واحداً عن الإسلام بقلم أحد المستشرقين فينفر عن الإسلام ولا يدين به أبداً.

وقد أشار السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه إلى الدور الذي لعبه المستشرقون بهذا الصدد إذ يقول:

«إن جملة منهم عملاء من حيث يعلمون أو لا يعلمون؛ للدول التي ينتمون إليها أو للحضارة التي يعيشون فيها.
فالمستشرق إما مأجور حقيقة أو (عضو شرف) في قائمة الدس والتلفيق، حيث يشعر بضرورة الانتصار لدولته أو مصالح دينه أو قومه أو لأي شعار من الشعارات المعادية للإسلام.
على أن الأجر المبذول للتبشير الاستعماري المسيحي، ليس بالقليل ولا الضئيل، بل هو مما يعد بملايين يسيل لها لعاب كثير من المفكرين، ويشرى بها عقول عدد من الباحثين.
ومن ثمَّ لم تصلح كتب المستشرقين لإعطاء الباحث صورة واضحة سليمة عن التاريخ الإسلامي[1]. وإنما غاية الباحث في الاطلاع على ما كتبوه هو التعرف على ما فيها من النقد والدس والتلفيق، ومحاولة

---

(١) ليس فقط عن التاريخ بل حتى عن العقائد وقد رد الشهيد السيد الصدر في الموسوعة بعض آراء المستشرقين عن الإمام المهدي عجل الله فرجه انظر: عقيدة الشيعة لرونلدسن، ص ٣٤٨- ٣٤٩.

الجواب عليه، وتذليل ما عرضت فيه من مشكلات»[1].

فتحصل من كلامهقُدِّسَ سِرُّهُ أن المستشرقين على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يطعن بالإسلام لأجل دوافع قومية أنتصاراً لقوميته التي تنتمي للديانة المسيحية، وهذا ما يجعل الكثير من المسلمين ينتقلون من الإسلام إلى الإلحاد بسبب الشبهات التي يبثونها، ولا ينتقلون إلى المسيحية إلا نادراً بعد أن علم الفرد المسلم في وقت إسلامه أن الدين المسيحي باطل ومحرف، وكذلك بعد أن يعرف عند بحثه في كتب الإلحاد نقاط الضعف والتقصير في الدين المسيحي حسبما ذكره الملحدون في كتاباتهم.

القسم الثاني: من يطعن بالإسلام لأجل الانتصار لدينه المسيحي على الإسلام.

القسم الثالث: من يطعن بالإسلام لأجل كسب المال الذي تدفعه إليه الدول الاستعمارية لأجل التبشير المسيحي، فإن الدول التي تحمل عقيدة إسلامية راسخة يصعب استعمارها.

ولعلهم في هذه الحقبة بدأوا يدفعون المال للشرقيين لأجل التشكيك بالإسلام فالذين نشاهدهم اليوم ممن يبثون السموم من دعاة الدين وكثير من الحداثويين من الشيعة والسنة لا يخلو كونهم من الصنف الثالث ولكنهم شرقيين بنفس غربي.

كيف درس المستشرقون الإسلام:

قد عقد المستشرقون أوّل مؤتمر لهم في باريس عام ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣ م، ثم

---

(١) تاريخ الغيبة الصغرى ص ٣٤.

توالت بعد ذلك المؤتمرات الأستشراقية التي تُلقى فيها البحوث والدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وما تزال هذه المؤتمرات تُعقد إلى يومنا هذا(١)، والسؤال المهم هنا هو كيف يدرس هؤلاء المستشرقون الإسلام؟

ذكر السيّد محمد الصدرقدس سره أنهم يدرسون الإسلام من ثلاث زوايا وهي:

الأولى: الزاوية المادية: التي يؤمنون بها ايمانهم بالحضارة الغربية ووجهة نظرها إلى الكون والحياة، تلك الواجهة التي نتجت بعد عصر النهضة، وانتجت فصل الدين عن الدولة والكفر بسائر القيم الروحية والأخلاقية.

الثانية: الزاوية المسيحية: التي تفرض سلفاً، ومن دون اعطاء أي فرصة للمناقشة، أنَّ الدين الإسلامي باطل، وأن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ليس بنبي، وأن القرآن ليس كتاباً سماوياً؛ فضلاً عن أصحابه وخلفائه وأئمتنا عليهم السلام. فضلاً عن أفكار غيبية قد نؤمن بها، كالمعجزات ووجود المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وغيرها.

الثالثة: الزاوية الاستعمارية: فإن جملة منهم عملاء من حيث يعلمون أو لا يعلمون؛ للدول التي ينتمون إليها أو للحضارة التي يعيشون فيها(٢).

حتّى أن أحدى جمعيات المستشرقين في أحدى الدول العربية لما أُستعمرت من قبل الغرب نشرت تلك الجمعية الإستشراقية كلاماً للناس يقولون فيه: إنَّ هؤلاء ما احتلوكم إلا بإرادة الله تعالى، وما عليكم إلا الرضا بقضاء الله وقدره...

---

(١) شبهات وردود للشيخ السبحاني ج ١ ص ١٢.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرى ص ٣٣ - ٣٤.

واستغلوا جملة من النصوص الدينية الواردة في صحيحي مسلم والبخاري من أجل عدم ثوران الناس على الإستعمار!!

وطبيعي من كان منطلقه من دراسة الإسلام هذه الزوايا الثلاث سوف لن يكون منصفاً أبداً، وقد بثوا كثيراً من الاتهامات والشبهات حول نبوة النبي وظاهرة الوحي، وشككوا كثيراً في السنة النبوية وأحاديث الأئمةعليهم السلام وشككوا كذلك في القرآن الكريم كأمثال المستشرق ثيودور نولدكه صاحب كتاب (تاريخ القرآن) وغيره.

كل ذلك من أجل أن يصرفوا وجوه الناس عن الإسلام لكي لا يعتنقوه بعدما فرط المسيحيون بالديانة المسيحية بسبب قصورها وعدم موافقتها للعقل حتى قال الفيلسوف الألماني «نيتشه» :

«إن الإيمان المسيحي معناه الانتحار المتواصل للعقل البشري»[١].

وقد آثر الإلحاد على المسيحية.

وجملة من الملحدين المسيحيي الأصل كـ(انتوني فلو)[٢] و(بنيامين فرانكلين)

---

(١) رحلة عقل ١٨١.

(٢) أنطوني جيرارد نيوتن فلو (١١ فبراير ١٩٢٣ - ٠٨ أبريل٢٠١٠) فيلسوف بريطاني، اشتهر بكتاباته في فلسفة الأديان. كان فلو طوال حياته ملحدا وألف العديد من الكتب التي تدحض فكرة الإله، غير أنه وفي آخر حياته ألف كتابا نسخ كل كتبه السابقة وقد تجاوزت ثلاثين كتابًا تدور حول فكرة الإلحاد، بعنوان: هنالك إله. وقد تعرض لحملة تشهير ضخمة من المواقع الإلحادية في العالم وذلك لأنه ولخمسين عامًا كان يعتبر من أهم منظري الإلحاد في العالم، تميز فلو بعلميته في الطرح واستشهاده بقوانين الطبيعة لاثبات آرائه، وقد بدأ يتخلى

وغيرهم الكثير قد أنكروا ألوهية المسيح لعدم موافقتها للعقل، وجعلوا إلوهيته من الذرائع التي يتمسكون بها لاعتناق الإلحاد بينما الإسلام لا يعتبر المسيح إلهاً.

فأنهم لو توجهت أنظارهم إلى الإسلام لوجدوا ان أغلب ما انكروه في عقولهم على المسيحية أنكره الإسلام عليها كذلك، وبهذا ستكون نظرتهم للدين الإسلامي أكثر احتراماً ويعتبروه أكثر موافقة للعقل.

ومن الأمثلة على ذلك «محمد صديق»[(١)] الشاب الألماني المسيحي المولود عام ١٩٤٤ م وأسلم عام ١٩٦٢ م والذي كان يبحث عن الحقيقة فدَرَسَ الأديان ولما اطلع على الإسلام وتعاليمه وأخلاقياته وعقائده أسلم، يقول محمد صديق:

«فأيقنتُ في غُضون دراستي أن دنيا تفكيري وإحساسي أقرب إلى

عن الإلحاد بعد تفحص عميق للأدلة ثم أعلن ما اعتبر صدمة قوية في وسط الفكر الإلحادي في العالم تحوله إلى الفكر الربوبي.

فلو كان تلميذاً خريجاً لجلبرت رايل، بارز في فلسفة اللغة العادية. كل من فلو ورايل من بين العديد من الفلاسفة أكسفورد انتقدا بشدة كتاب الكلمات والأشياء لإرنست غلنر(١٩٥٩).

مناظرة ١٩٥٤ مع مايكل دوميت على السببية المتخلفة كانت علامة بارزة مبكرة في مهنة فلو.

لمدة عام (١٩٤٩-١٩٥٠)، كان فلو محاضرا في الفلسفة في كنيسة المسيح في أكسفورد. من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤ كان محاضرا في جامعة أبردين، ومن ١٩٥٤ إلى ١٩٧١ كان أستاذا للفلسفة في جامعة كيل. أصبح أستاذا في جامعة كالجاري، ١٩٧٢-١٩٧٣.

تزوج فلو في ٢٨ حزيران ١٩٥٢. وكان لديه ابنتان.

توفي فلو في ٨ أبريل ٢٠١٠، حينما كانت تتم رعايته في مرفق الرعاية الممتدة في ريدنج، إنكلترا، حيث كان يعاني من الخرف (موسوعة ويكبيديا العالمية).

(١) الظاهر أنه قد غير أسمه إلى هذا الاسم بعد أن أسلم.

الإسلام منه للنصرانية، وبالتدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع فطرتي البشرية...

واستطيع هنا أن أضرب مثالاً... فعندما درست وجهة النظر الإسلامية حول النبي عيسى عليه السلام أبن الله، كما عرفت فيما بعد من أستاذ بروستانتي أن عدداً كبيراً من النصارى حوالي ٨٠ ٪ أقرب إلى الإسلام منهم إلى النصرانية في هذه الناحية على الأقل من عقيدتهم»[١].

فلو بقى المسيحيون المستشرقون دون حركة وطعن بالإسلام لانمحت الديانة المسيحية من وجه الأرض ولكان الكل مسلمون كمحمد صديق، إلا أن تشويههم للدين الإسلامي المستمر من ذاك اليوم وإلى يومنا هذا حال دون ذلك.

وفي بعض الشوارع الأوربية يُركبون أحد الافراد على بغلة في زي إسلامي قديم ولحية طويلة ويجعلونه يسير في الطرقات والشوارع العامة بمنظر بشع ينم عن التخلف والرجعية كل ذلك لأجل ان يصوروا إلى شعوبهم أن الإسلام هو هذه الصورة البشعة.

ولأجل التصدي إلى هذا التشويه فقد عدَّ السيّد محمّد الصدر قدس سره من جملة الأهداف التي تجب على المرجعية الدينية الواعية أن تتصدى لتشويهات المستشرقين والغربيين للدين الإسلامي إذ يقول قدس سره:

«[يجب على المرجعية الدينية الواعية] إبراز اطروحة الإسلام التي يؤمنون بها إلى الخارج ليفهمها عنهم المسلمون من المذاهب الأخرى،

---

(١) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ١٥ – ١٦.

وغير المسلمين في مختلف أقطار العالم، حتّى يعود للإسلام احترامه ومكانته أمام الرأي العام العالمي، بعد أن شوهّه المستشرقون وطعن فيه المغرضون»(١).

وقد كان ولا زال مراجعنا العظام يبذلون غاية وسعهم في رد شبهات المستشرقين وأخص منهم الشهيدين الصدرين والشيخ السبحاني والشيخ محمد تقي مصباح اليزدي وغيرهم وكذلك من المهم مطالعة بعض الاصدارات عن الدراسات الفصلية وكتب مستقلة كثيرة متخصصة لرد شبهات المستشرقين، بل يوجد عندهم مجلة تعتني بالاستغراب، أي: ما يقابل الاستشراق، أي: يدرسون علوم الغرب ويستخرجون منها مواطن الضعف والخلل ويقارنوها بالدين الإسلامي ويبيّنونَ فيها رصانته ومتانته على الديانات الأخرى.

نموذجان من دراسة المستشرقين للإسلام:

سنذكر هنا نموذجين من دراسة المستشرقين للإسلام ونبين فيهما كيف أنهم يدسون السم بالعسل أو السم الخالص من خلال دراستهم للإسلام وتاريخه وعلومه:

النموذج الأول: إشاعة مغالطة التعميم

ذكر السيّد محمّد الصدرقدس سره إن الدين الإسلامي يغاير الدين المسيحي الذي ألحد فيه مثقفوا أوربا في عصر النهضة ـ كما تقدم ذكره ـ إلا أن المستشرقين والمستعمرين وأذنابهم أشاعوا أن الإسلام كالمسيحية يدعو إلى الترهب والزهد

---

(١) مبحث ولاية الفقيه ص ١٢٧.

وتقتصر رسالته على الأنظمة الروحية ولا تتعدى ذلك فليس فيه أي تنظيمات إدارية أو مالية أو عسكرية وليس فيه ما يعود إلى تنظيم الدولة وضرورة إقامتها وتكوينها على أساس خاص وأسلوب معين؛ ولأن الإسلام دين والمسيحية دين قاموا بالترويج لمغالطة التعميم بين الدينين.

ولفهم هذا النموذج الأول نطرح هنا ثلاثة نقاط لتتم الصورة عند القارئ ويفهم الزاوية التي اعتمدها هؤلاء المستشرقون في دراستهم هذه.

النقطة الأولى: ما هي مغالطة التعميم؟

مغالطة التعميم المنطقية هي أن ترى حكماً أو وصفاً على شيء أو إنسان واحد أو أكثر فتقوم بتوسيع هذا الحكم على مجموعة من الأشياء أو البشر دون أن تتأكّد من انطباق الوصف عليهم، بل فقط لأنهم يشاركونه في وصف آخر مختلف تماماً «مثلا نفس البلد أو اللغة أو اللون...» وليس له علاقة ضرورية مع الحكم الذي قمت بتعميمه، وذلك لأسباب عاطفية أو تضليلية.

ومثال على مغالطة التعميم: رجل تزوَّج عدة مرات وفشل في الزواج وخرج بقانون كلي يقول: «لا يمكن للإنسان أن يعيش مع النساء!!» فالمشكلة ليست في جميع النساء بل بمن عاش معهن ومع ذلك نجده بأنه قد عَمَّمَ الحكم على الجميع، وهذا هو معنى مغالطة التعميم.

ومثال آخر: شخص رأى رجل دين «معمم» سارق أو عدة اشخاص معممين مثله فاطلق العنان للسانه وقال «رجال الدين كلهم سارقون!!» والأمثال كثيرة جداً على مغالطة التعميم.

محل الشاهد: أن السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يعتبر أنَّ هذه المغالطة لها دور كبير في نشر الإلحاد ولجوء الغرب إليه دون الرجوع إلى حقائق الإسلام التي تغاير الخرافات الموجودة في الدين المسيحي والتي دعتهم إلى الإلحاد فيه. إنّهم لم يقولوا إن الخلل في ديننا، بل قالوا إن الخلل في الدين عموماً وألفوا قياساً مقدمته الأولى باطلة حاصله:

المقدمة الأولى: كل دين منحرف.

المقدمة الثانية : الإسلام دين.

النتيجة : الإسلام منحرف!

لذلك قال قُدِّسَ سِرُّهُ عن هذا التعميم الباطل:

«كل ذلك عن طريق هذا التعميم الباطل الذي استعمل في إطلاق كلمة الدين على المسيحية والإسلام، وهو وإن كان كذلك [أي إن المسيحية دين والإسلام دين] إلا أنه لا يعني على الإطلاق من بطلان أحدهما بطلان الآخر، فلكلٍ أُسُسهُ الفكرية وتعاليمه الخاصة»(١).

إذن فالذي يقرأ كُتب الملاحدة المسيحيين ويُلحد بالإسلام لم يكن على الصواب؛ لأن الدين الإسلامي فكره يختلف وبراهينه تختلف وكل شيء فيه يختلف عن المسيحية فهل يمكن لعاقل أن يُلحد بالإسلام بسبب شبهات كتبها فلاسفة غربيون على المسيحية؟!

---

(١) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٠.

النقطة الثانية: آثار مغالطة التعميم

إن أغلب ميول الناس إلى الإلحاد كان سببه الرئيسي يعود إلى «**مغالطة التعميم المنطقية**» حيث إن المجتمع المسيحي لما كان يُقدس رجال الدين المسيحي إلى درجة كبيرة وبالتالي لما وقع الظلم على المجتمع من قبل من يُقدسونه حصل الانهيار الكبير! لذلك فإن الدين الإسلامي يؤكد على ضرورة أخذ الدين من قرآنٍ كريمٍ أو إمامٍ معصومٍ لا يخطأ ولا يَظلم، لأن مَرَدّ الخطأ والظلُم قد يعود إلى إنكار الدين من أساسه.

وقد روي أن الحارث بن حوط الليثي حيث دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين ما أرى طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا على الحق، والحارث ما قال ذلك إلا من بريق العناوين التي يحملها هؤلاء.

ولكن الإمام عليه السلام في إجابته أخذ الحارث بعيداً عن البريق والزخرف بإنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتناب من اجتنبه فقال له عليه السلام:

«**إنك لملبوس عليك، ان الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله**»(١).

وقد علق الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدي بسيد العقلاء علي «كرم الله وجهه» حيث قال:

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ص ٢٣٨.

«لا يعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله»[(١)].

فإن جعل الدين متمثل بشخص يؤدي إلى الانحراف إذا ما زل ذلك الشخص، لذلك كان الدين يأمرنا بأخذ الدين من القرآن والسنة دون ما جاءت به الرجال فإن ما جاء به الرجال يذهب به الرجال، وما جاء به الوحي فقد تزول الجبال ولا يزول.

وقد ساهم السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لتوعية الناس لهذا الأمر بأن الشيء المقدس في الإسلام والذي لا يقبل النقاش فقط هو الكتاب والسنة ويجب إطاعة من تكلم بهما ويجب إطاعة الله فقط دون غيره، والسيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ وأول من طبق هذا المفهوم على نفسه إذ قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

«وأنا أكرر ما قلت أكثر من مرة أنكم ليس المطلوب منكم إتباع السيّد محمد الصدر ولا الأقتراب منه ولا حسن الظن به وإنما المطلوب في القرآن والإسلام هو إتباع تعاليم الله والتقرب إليه بالطاعات وحسن الظن به جل جلاله وهذا يكفي جداً وليذهب السيّد محمد الصدر إلى الجحيم»[(٢)].

فكل الشخصيات الدينية ينبغي أن نتعامل معها وفق هذا المنطلق بحيث لا نقدسها لدرجة نحسب أخطاءها على الدين ونلحد به بسبب فساد رجاله.

ولا نسيء لها لدرجة التقليل من قيمتها والحط من كرامتهم؛ وإنما مثل

---

(١) انظر : معالم الفتن ج٢ ص ٢٥.

(٢) الجمعة رقم (٣١).

الحوزة العلمية كمثل قطعة بيضاء فمن أفسد فيها كان كالنقطة السوداء في تلك القطعة واضح للعيان أثره، وعلينا تشخيصه ولا نعمم فساد شخص على الكل ففي ذلك بخس لحقهم.

محل الشاهد: أن المسيحيين كانوا يرون أن الدين الأمثل والأكمل ـ حسب تفكيرهم واعتقادهم ـ هو المسيحية والذي يمثله رجال الكنيسة، وحيث كان هذا الدين الأمثل ورجاله بهكذا مستوى من الظلم إذن فكل ما دونه سيكون أظلم وأظلم، ولهذا لم يُفكروا بالإسلام بديلاً عن الإلحاد.

والنظام الإسلامي آنذاك وإن كان في يد الدولة الظالمة إلا أن للقرآن جواً سائداً لا يمكن مخالفته جهاراً من قبلها وقد شكل هذا الجو القرآني نوعاً من توفر العدالة الاجتماعية لعامة المسلمين.

إذن فالإسلام والمسيحية آنذاك وإن كانا يشتركان بنفس الصفة وهي أن كليهما دين إلا أن لكل منهما منهجه الخاص وطريقته في التعامل مع الناس وهذا معنى ما قاله السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«إلا أنه لا يعني على الإطلاق من بطلان أحدهما بطلان الآخر، فلكلٍ أُسُسهُ الفكرية وتعاليمه الخاصة»[1].

فالانحراف إلى الإلحاد دون الرجوع إلى الإسلام مردّه إلى هذه المغالطة المنطقية.

وقد مر بنا في الفصل الماضي أن السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ كان يقول عن

---

(١) نظرة إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٠.

ذلك المجتمع في تلك الحقبة:

«إن المجتمع الأوربي ككل، بجانبيه المتدين والملحد معاً، كان يرى الدين منحصراً بتعاليم الكنيسة بما فيها من تعصب وظلم ومشاكل عقائدية واجتماعية... والمتمرد كان يرى ببطلان الكنيسة بطلان الدين كله، وبظلمها ومشاكلها ابتناء الدين كله على المظالم والمشاكل... باعتبار كون الكنيسة هي الفرد الأمثل للدين في نظره»[1].

النقطة الثالثة: الترويج لمغالطة التعميم

يشير «دوكينز» في كتابه «وهم الإله» أكثر من مرة بأن المسيحية لا تختلف عن الإسلام واحياناً يفضل المسيحية على الإسلام! وقد اهتم المستشرقون بدراسة جانب التصوف في الإسلام مصورين للغرب وغيرهم بأن الإسلام لا يختلف عن الرهبانية المسيحية من أهمال الحياة وتعطيلها، وسيأتي إن شاء الله كلام للسيد الشهيد الصدرقدّس سرّه عن اهتمام الغرب بوصايا ابن عربي تحت عنوان «مناقشة أن الدين افيون الشعوب» فراجعه ليتبين لك إن الإسلام ليس كالمسيحية كما يقولون، وإن هذه الأقاويل لا يعضدها أي دليل أو برهان فقد أنكرت أبسط الضروريات لأن تشريعات الإسلام صريحة واضحة قد حفلت بالتشريع المدني والجنائي وحقوق الفرد والجماعة وبينت أصول الحكم وتنظيماته وليس هو كالمسيحية.

فإنها كما ذكروا بعيدة كل البعد عن شؤون الحياة ونظم الدولة فقد دعت إلى الترهب والتبتل فقد جاء في الأصحاح السادس:

---

(١) اليوم الموعود ص ٤٠.

«إنكم لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسامكم بما تلبسون».

وحثت على الرهبانية والتبتل فقد جاء في إنجيل متى:

«يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل».

وجاء فيها ما يدعو إلى التجرد عن جميع متع الحياة فقد جاء في الأصحاح العاشر:

«لا تقتنوا ذهباً ولا فضةً ونحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا».

وقد استجاب المسيحيون الأولون إلى هذه الدعوات وأعرضوا عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهاراً للغنى بالإيمان والعبادة عن كل شيء.

إن المسيحية بالشكل الذي أبرزه القساوسة والرهبان كانت حجر عثرة في طريق التقدم الإنساني وكانت مصدراً للقضاء على كل نزعة حرة تجديدية فقد كان من ضحايا أباطيلهم العالم الفلكي «جاليلو» الذي حكمت عليه محكمة التفتيش بحرق جثته وهو حي لما نادى بدوران الأرض حول الشمس وكان الحكم الصادر عليه باسم الديانة المسيحية.

إن هذه النظم التي أعلنتها الديانة المسيحية بشكلها المنحرف لا يقرها الإسلام بحال بل يشجب جميع صورها فهو لا يسمح بالترهب والتبتل والانصراف عن الدنيا فقد ذم المبتدعين لذلك قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا**

عَلَيْهِمْ إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾(١).

إنهم ابتدعوا ذلك وأدخلوا في دينهم من الفضول والزوائد ما ليس فيه وقد أنكر القرآن الكريم أشد الإنكار على الذين حرموا على أنفسهم الطيبات من الرزق قال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**(٢).

هذا هو رأي الإسلام وهو صريح واضح يقضي بالمنع من التجرد عن الدنيا ورفض ملاذها وزينتها لقد ورد أن الإمام الصادقعليه السلام سأل عن رجل فقيل له أصابته الحاجة فقالعليه السلام: فما يصنع اليوم؟ قالوا: يعبد ربهعزّ وجلّ فقال: فمن أين قوته؟ قالوا: من عند بعض إخوانه فقالعليه السلام: «**والله الذي يقوته أشد عبادة منه!**»(٣).

إن الإسلام بنى حضارته الخالدة على التوازن في العمل للدنيا والآخرة فلا يصح للمسلم أن يترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه وهو بذلك لا التقاء له بواقع المسيحية ولا بنظمها، وقد قال تعالى في كتابه الكريم: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**(٤).

وأما محاربة المسيحية للعلم ومناهضتها لرجال الفكر والوعي فإن الإسلام يشجب ذلك ويرى عدم مشروعيته لقد رفع الإسلام شأن العلم وجعل طلبه فريضة

---

(١) الحديد ٢٧.

(٢) الأعراف ٣٢.

(٣) الوافي ج ١٧ ص ٢٢.

(٤) القصص ٧٧.

على كل مسلم ومسلمة، ونطق القرآن الكريم في بيان خطره وفي تبجيل حملته قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[(١)]، ويقول تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[(٢)]، ويقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**العلم رأس الخير كله والجهل رأس الشر كله**»[(٣)].

لقد اعتنى الإسلام بالعلم عناية بالغة وركز اهتمامه الشديد على الإشادة بحملته لأجل تقدم المجتمع الإسلامي وازدهاره فإنه لا يمكن أن يحقق أي هدف من أهدافه إلا إذا سادت فيه العلوم والمعارف وانتشر الوعي بين أفراده واندحرت فيه قوى الجهل وأما مهادنة المسيحية للظلم وإقرارها للخضوع والخنوع وأمرها بالصبر على الاعتداء والعدوان فإن الإسلام لا يقر ذلك بوجه من الوجوه فقد ألزم بمقاومة الباغي والمعتدي يقول الله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[(٤)][(٥)].

وهذا ما كان يعنيه السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ من أن الأسس والتعاليم الإسلامية تختلف وتباين الأسس المسيحية على خلاف ما يدعيه المستشرقون والملاحدة.

---

(١) المجادلة ١١.

(٢) الزمر ٩.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٤، ص ١٧٥.

(٤) البقرة ١٩٤.

(٥) النظام السياسي في الإسلام ص ١٣١ بتصرف.

النموذج الثاني: الإساءة للنبي الأعظم ﷺ ونبذ حديثه

توجد هذه الأيام بعض الحركات الرائجة التي تدعي التمسك بالقرآن الكريم فقط وتنبذ السنة النبوية وأحاديث أهل البيت بدعوى أنها «مدسوس فيها» وهذا النفس رائج عند كثير من الناس في عصرنا هذا.

وفي الحقيقة فإنه ليس من الممكن التمسك بالقرآن ونبذ السنة؛ لأن القرآن نفسه يدعو الناس للتمسك باحاديث اهل البيت عليهم السلام فهو يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[(١)]، ويقول كذلك: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[(٢)].

فكيف يمكن اطاعة اولي الأمر الذين هم المعصومون إذا كان كل قول يصدر منهم نشكك في صحته!! وقد روي عن عنهم عليهم السلام:

«لا عذر لأحد من موالينا في التّشكيك فيما يرويه عنّا ثقاتنا...»[(٣)].

فالنتيجة أن الذي يتمسك بالقرآن يتمسك بسنة النبي واحاديث لعترة عليهم السلام قهراً وقد ورد في حديث الثقلين:

«أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما

---

(١) الحشر ٧.

(٢) النساء ٥٩.

(٣) هداية الأمة إلى أحكام الأئمة ج ٨ ص ٣٨٤.

لن تضلوا بعدي أبدا»[1].

فالتمسك بأحدهما دون الآخر ضلال ظاهر؛ لأنهما لن يفترقا ومن فرقهما فقد ضل سواء السبيل.

ما اريد الوصول إليه هو أن هذه الفكرة وإن تناولها الآن بعض المحسوبين على الدين إلا أن بذورها وجذورها في تاريخنا المعاصر هو المستشرق والراهب اليسوعي البلجيكي «لامنس» المتشدد في العداء على الإسلام.

ولعله قد أخذها من اصحاب شعار «حسبنا كتاب الله» الذين أحرقوا جميع السنة النبوية وحرقوا الكتب بدعوى حفظ القرآن الكريم من اختلاطه بالسنة؟! فويلهم أين هم من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[2]، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي:

«تحامل لامنس على السيرة النبوية تحاملاً شديداً، زاعماً أن القرآن وحده هو المصدر الذي يُعتَمَدُ عليه في بيان سيرة النبي وأن كتب الأحاديث كلها موضوعة من أجل تحقيق غايات معيّنة هي تمجيد حياة النبي.
فلم يُقم لكتب الحديث وكتب السيرة أي وزن. وهو في هذا لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السيرة، بل هو يُلقي الكلام جزافاً ويعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معانٍ ذهنية سابقة...

---

(١) في ظل أصول الإسلام ص ٨٦.

(٢) الحجر ٩.

وأبشع ما فعله، خصوصاً في كتابه: «فاطمة وبنات محمد» هو انه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها. وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدته أنه إما أن يشير إلى مواضع غير موجودة اطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النص فهماً ملتوياً خبيثاً، ويستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية»[1].

والسبب الذي يدعو أمثال هؤلاء إلى التمسك بالقرآن ونبذ الحديث هو كون القرآن حمال اوجه كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لأبن عباس حينما بعثه إلى الخوارج:

«لا تخاصمهم بالقرآن فإنّه حمال أوجه، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»[2].

وبذلك يمكنهم بث الشبهات على الدين الإسلامي من القرآن الكريم نفسه بعد لَيّ عنق الآيات بتعسف شديد.

ولعل لامنس تعلم هذا الأمر من اعداء مدرسة اهل البيت عليهم السلام إذ أنه ممن يميل إلى اعدائهم وقد درس تاريخ معاوية وتأثر به وراح يمجد بالأمويين حد الغلو، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي:

«بالغ لامنس في تمجيد الأمويين بدافعٍ من الحقد الشديد على

---

(١) موسوعة المستشرقين ص ٥٠٤.

(٢) معالم الفتن ج ٢ ص ٤٣٠.

الإسلام»[١].

فهو كما ترى يرى أن الأحاديث ملفقة والهدف منها تمجيد حياة النبيﷺ وفي الوقت نفسه يمجد في آل أمية الذين هم من ألد الأعداء للنبي الأعظمﷺ.

وهذا من الأهداف المشتركة بين المستشرقين والملحدين فإن «دوكينز» يعتبر غضب المسلمين على الرسوم الدنماركية المسيئة للنبيﷺ بأنها ظاهرة لا تستحق الاحترام!! كما في الفصل الأول من كتابه «وهم الإله»، وهذا يرى أنَّ السيرة النبوية باطلة والهدف منها تمجيد حياة النبيﷺ؛ فهو ينكر من السيرة ما كان يرفع من قدر رسول اللهﷺ ولا أظنه يرفض ما وضعه الوضاعون في السيرة من الروايات التي تحط من قدر نبينا الكريمﷺ!!

بل إن لامنس هذا قال إن الإمام الحسنعليه السلام مات حتف انفه بالسل ولم يدس له معاوية السم[٢] حرصاً منه لتحسين صورة كل قبيح في المسلمين، وتقبيح صورة كل حسن من المسلمين.

فنبذ احاديث المعصومينعليهم السلام برمتها أمر من دسائس اعداء اهل البيتعليهم السلام التي تقبلها لامنس بقبول حسن لأنها تُوقع بالإسلام الوقائع، فقد كان الخط المعادي لأهل العصمةعليهم السلام ساعياً لحذف كل حديث يرفع من شأن الرسول الأكرم وأمير المؤمنين والهما «صلى الله عليهم اجمعين».

فالحل الأمثل للفرد المؤمن في البحث الإسلامي ان يكون وسطياً ويقبل من

---

(١) موسوعة المستشرقين ص ٥٠٥.

(٢) دائرة المعارف ج ٧ ص ٤٠٠.

الروايات ما كان معروفاً عند أهله ورجاله ثقات أو روي في كتب معتبرة ولم يخالف ضروريات المذهب والدين.

لأن التسليم بكل احاديث الرسولﷺ واهل بيته كذلك مما نهت عنه الأحاديث نفسها إذ قال الامام الصادقعليه السلام للفيض بن المختار:

«**يا فيض... إن الناس قد اولعوا بالكذب علينا**»[1].

فكونوا وسطيين لا أمويين ولا حشويين.

وقد يظهر من بعض المتصدين أنَّهم يسيرون على نفس خطى لامنس في انكار كل الوقائع التاريخية ونجدهم كذلك منكرين لاحاديث المعصومين ويدَّعون انهم من المتمسكين بالقرآن الكريم، ولا يقبلون بتفسير روايات اهل البيت للقرآن ويفسرونه بأنفسهم حسب فهمهم ومزاجهم!! بل وصلت الوقاحة عند بعضهم انه جعل الحج الذي هو من اعاظم الفرائض عبادة وثنية وأولوا كل الآيات الواردة في الحج إلى غير معناها وظاهرها، فضلاً عن طعنهم بالمرويات في ذلك!!.

وسيأتي في عنوان دور الفلسفة في نشر الإلحاد كيف استغلت الأحاديث الموضوعة في إفساد عقائد الناس ونشر الإلحاد.

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٤٦.

ثانياً: دور الفلسفة

من أسباب تفشي الإلحاد في بلاد المسلمين:

كان لرواج الفلسفة اليونانية في الأوساط الإسلامية دور كبير في بث الفكر الإلحادي في بلاد المسلمين، حيث قام جملة من النصارى واليهود بترجمة كتب السفسطائيين وبثها في الأوساط الإسلامية، يحدثنا السيّد محمّد الصدر عن هذه الخطوة الخبيثة إذ يقول قدس سره:

«سمعنا أيضاً أن الفلسفة اليونانية دخلت المجتمع المسلم، وترجمت الكتب من اليونانية إلى العربية[1]، حتى يقرأها المسلمون، أنا أسألكم سؤلاً بسيطاً: من الذي جاء بهذه الكتب؟ ولماذا نشرت بين الناس؟ ومن الذي ترجمها؟ وبأي قصد ترجمت؟ هل رُوي أن المفكرين، وأهل الرأي، وأهل الهمة ذهبوا لليونان جاءوا بهذه الكتب؟! يبدو أنَّه لا أثر لذلك أطلاقاً، وإنما هم بعثوا بهذه الكتب إلى الشرق الأدنى وترجموها

---

(١) انظر: كتاب جدلية الدين والفلسفة فأنه تقريباً بـ١٠٠ صفحة يتحدث عن ترجمة الكتب الفلسفية إلى العربية وآثارها واراء العلماء فيها وكيف روج لها وغيرها من المعلومات القيمة.

ورغبوا الناس بها ليقرأوها، لعل عقائدهم ترتج ولو بمقدار واحد بالمائة، أو ينتجوا أكثر من ذلك، ربما كثير من الناس يرتدون بسماع كلمة، والحمد لله أغلب المجتمع قليل الفهم في كل الأجيال، بينما هؤلاء مفكرون وممدوحون، وعظماء، لماذا لا نصدقهم... فيدخل الإلحاد إلينا كأبن أبي العوجاء وابن المقفع والجاحظ والآخرين، الذين إنما كانوا في الحقيقة عملاء الفلسفة للدولة البيزنطية»[(١)].

وكلامه قدس سره من الحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم وأشرت إليها سابقاً فالقرآن يقول: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾[(٢)].

فإن الفلسفة كان لها دور في نشر الإلحاد في الإسلام بل وفي كل الأديان، إلا أن تأثيرها في الدين الإسلامي كان أقل من تأثيرها في الديانات الأخرى.

فالمتحصل أن بث الإلحاد في الإسلام من قبلهم كان على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بث الإلحاد في عصر النبي صلى الله عليه وآله في بداية الإسلام وبعده في عصر الأئمة عليهم السلام، وذلك عن طريق الاحبار والرهبان اليهود والمسيحيين، وسيأتي الكلام عنها.

المرحلة الثانية: بث الإلحاد في الإسلام من القرن الثامن عشر وإلى الآن وذلك عن طريق المستشرقين الذين سيأتي الكلام عنهم.

---

(١) منبر الصدر ص ٦٠.

(٢) سورة البقرة: ١٠٩.

محل الشاهد: هنا هو المرحلة الأولى ـ لأننا نذكر دور المستشرقين سابقاً ـ، وقد ذكر السيّد الصدرقُدِّسَرُّهُ في خطبه دور الفلسفة في هذا البث الإلحادي، ولأجل استيعاب هذا المطلب بصورة واضحة أعرض هنا خمس نقاط وهي كالآتي:

النقطة الأولى: مَنْ ترجم كتب الفلسفة؟

كان الأمويون أول من بدأ بترجمة كتب الفلسفة اليونانية وادخلوها إلى دار الإسلام قال ابن النديم في فهرسته:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم. خطر بباله الصنعة فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية. وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي»[١].

والسؤال هنا من أين خطر بباله ترجمة تلك الكتب هل نزل عليه الوحي؟!

في الحقيقة أنه تلقى الأوامر من اسياده في الدولة البيزنطية، وإن السيّد محمّد الصدرقُدِّسَرُّهُ أكد وبوضوح بأن الدولة الأموية كانت عميلة للدولة البيزنطية حيث قال:

«سرجون مسيحي من مسيحيي الشام، رباه معاوية وجعله نديماً له، ومستشاراً له، أيجهل معاوية أن هذا الرجل ينظر إلى أهله؟! لا يجهل،

---

(١) فهرست ابن النديم ص ٣٠٣.

جعله عن علم وعمد، إذن نفس الصفة لسرجون هي لمعاوية بن أبي سفيان...هذا سرجون هو الذي قتل الحسين عليه السلام وهو عميل للدولة البيزنطية»[1].

ومما يؤكد قول السيّد محمّد الصدر قدس سره ما ذكره العلامة المجلسي رحمه الله في البحار حيث قال:

«هذه الجناية على الدين، وتشهير كتب الفلاسفة بين المسلمين، من بدع خلفاء الجور المعاندين لائمة الدين عليهم السلام، ليصرفوا الناس عنهم وعن الشرع المبين. ويدل على ذلك ما ذكره الصفدي في شرح لامية العجم: إن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى طلب منهم خزانة كتب اليونان _وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد_ فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا مطران واحد فإنه قال : جهزها إليهم، ما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت الاختلاف بين علمائها»[2].

ولهذا السبب لا غير تُرجمت الكتب الفلسفية واستمرت ترجمتها من العصر الأموي والعباسي بلا فرق إلى أن صارت في متناول كل يد.

النقطة الثانية : آثار ترجمة الكتب الفلسفية

يعتبر السيّد محمّد الصدر قدس سره أن الانشقاقات التي حصلت في الدين

---

(١) منبر الصدر ص ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٥٧ ص ١٩٧.

الإسلامي سببها الرئيسي هو تلك الكتب المستوردة إلى بلاد المسلمين إذ يقول قدس سره :

«وحصلت انحرافات وانشقاقات كثيرة في زمن الأئمة عليهم السلام وبعد زمن الأئمة عليهم السلام، وإنما ذلك من هذه الفلسفات التي دخلت شراً إلى البلاد الإسلامية، وحتى أنَّ بعض اليهود الذين أسلموا في عهد النبوة وبعدها لم يسلموا بقصد الإخلاص، وإنما بقصد الدنيا، ومن أهم تلك المقاصد علاقتهم باليهود الأوربيين التابعين للدولة البيزنطية(١) والمتغلغلين فيها، امثال وهب بن منبه(٢)، وكعب الأحبار(٣) وآخرين، وكان لأمثال هؤلاء

---

(١) التي كانت ملحدة كما وصفهم شهيدنا الصدر قدس سره في خطب الجمعة (أنظر: منبر الصدر ص ٣١٥).

(٢) أبو عبد الله وهب بن منبه بن كامل الصنعاني، صاحب القصص، تابعي، لم يرَ الرسول صلى الله عليه وآله ولم يسمع حديثه، كان على قضاء صنعاء، وكتب كتاباً في القدر ثم ندم، وكان كثير النقل من كتب الاسرائيليات، وضعفه الفلاس، ووثقه آخرون. ولد في آخر خلافة عثمان وتوفي سنة ١١٤ هـ (أضواء على نبر الصدر ج ١ ص ٢٣٥).

(٣) هو كعب بن ماتع الحميري، اليمني، من أحبار اليهود، عاصر النبي صلى الله عليه وآله ولم يسلم عليه، ولم يزل على يهوديته إلى عهد عمر. قال الأميني: «كان يتعلل عندما سُئل عما منعه من إسلامه في العهد النبوي بقوله: إن أبي كان كتب كتاباً من التوراة فقال: اعمل بهذا وختم على سائر كتبه، وأخذ علي بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت: لعل أبي غيب عني علماً، ففتحتها فإذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً، وكان له يوم توفي النبي صلى الله عليه وآله اثنان وثمانون عاماً. وأثر الكذب لايح في جل ما جاء به. وقال ابن الحديد أن علياً عليه السلام كان يقول في كعب الأحبار إنه كذاب، وكان كعب منحرفاً عن علي عليه السلام. وعن زرارة قال : كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام وهو محتب مستقبل الكعبة، فقال : أما إن

تأثير فعلي في المجتمع المسلم خلال عصر الخلافة الأولى وما بعدها[١]**، وتأثيرهم مستمر بالمعنى العام إلى العصر الحاضر»**[٢].

ويقصدقدس سره هؤلاء الزنادقة الذين وضعوا في الحديث من اجل توهين الإسلام وتضعيفه، فقد قال ابن ابي العوجاء عندما اراد المسلمون قتله :

«والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحلّل فيها الحرام»[٣].

ومعنى قول السيّد محمّد الصدرقدس سره: «**وتأثيرهم مستمر بالمعنى العام إلى العصر الحاضر**» هو إن تأثيرهم كان على مستويين:

المستوى الأول: في الماضي: وهو إفشاء العقائد المنحرفة والمقاربة لأساطير اليهود والمسيحيين في اوساط المسلمين والاعتقاد بها، كعقيدة التجسيم ونحوها،

النظر إليها عبادة فجاءه رجل من بجيلة يقال له: عاصم بن عمر فقال لأبي جعفرعليه السلام : إن كعب الأحبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة ، فقال أبو جعفرعليه السلام : فما تقول فيما قال كعب؟ فقال: صدق، القول ما قال كعب فقال أبو جعفرعليه السلام : كذبت وكذب كعب الأحبار معك وغضب؛ قال زرارة ما رأيته استقبل أحدا بقول كذبت غيره (المصدر السابق).

(١) فالعباسيون مع أنهم يختلفون مع بني أمية إلاَّ أنهم كذلك روجوا لكتب الفلسفة اليونانية، وقد قال أبن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الانباء في طبقات الأطباء) صفحة ٢٦٠ : ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطي من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل!! والهدف من وراء كل ذلك هو صرف الناس عن الأئمةعليهم السلام.

(٢) منبر الصدر ٦٠.

(٣) الآلي المصنوعة ج ٢ ص ٤٢٨.

ومـن المعلـوم ان الاعتقـاد بهـذه العقائـد مزقـت النـاس وأبعـدتهم عـن الأئمـة المعصومين عليهم السلام الذين لا يقولون بها، وكلفتهم عناء الرد عليها.

المستوى الثاني: في الحاضر: وهو أن العقائد التي دسها الأحبار والوضّاعون في الأحاديث النبوية قـد صـارت عقائـد رسـمية لكثيـر مـن المسـلمين المخـالفين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، مما جعل الإسلام بنظر بعض المفكرين لا يختلف كثيـراً عن الديانات الأخرى الحاوية للخرافات كاليهودية والنصرانية وغيرها.

ومن الشـواهد علـى ذلـك: إن أينشـتاين رفـض فكـرة الإلـه الـذي تصفه الديانات الثلاث مـن أنّـه مجسـم ولـه حـد، وهـذا المعتقـد بالأصـل هـو للـديانتين اليهودية والمسيحية وكذلك في الإسلام ولكن عند المذاهب التـي تعتبـر روايـات الأحبـار ومـن حـذا حـذوهم حجـة! فقـال بـرفض الإلـه الـذي صـورته الـديانات السماوية الثلاثة، بينما الإسـلام الحقيقـي المتمثـل فـي مدرسـة أهـل البيـت عليهم السلام لا يقول بالتجسيد.

قال ماكس جامر «صديق اينشتاين» في كتابه أينشتاين والدين:

«**يرفض أينشتين[1] فكرة الإله المتشخص كأنه إنسان لكن بغيـر جسـم، وإن كان يتفوق على الإنسان في صفاته، كيفياً وكمياً، الذي تنسـبه كـل ديانة لنفسها، وتعتبره شيخاً لقبيلتها. ولكنه يؤمن بوجود إله غيـر مـادي، يُظهِر نفسه في قوانين الطبيعة**

ويؤمن اينشتين بأن من يفهم الطبيعة يعرف الإله، ليس لأن الطبيعـة هـي

---

(١) هكذا مكتوب بالمصدر ولا مشكلة إذ أن الكتابة العربية لإسم «اينشتاين» يختلف بحسب قراءة الفرد لها.

الإله (كما يقول إسبينوزا) لكن لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها. وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته..»(١).

وكأن اينشتاين يؤمن بالإله الذي وصفه أمير المؤمنينعليه السلام حيث سأله ذعلب اليماني هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقالعليه السلام :

«ويحك لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان، معروف بالدلالات، منعوت بالعلامات، لا يقاس بالناس، ولا يدرك بالحواس»(٢).

أي يعرف بالعلامات والآثار الكونية التي تدل على عظمة مصممها وخالقها، ولا يعرف بذاته جل جلاله فالعقل البشري المحدود أعجز من أن يحيط علماً بالخالق غير المتناهي.

إلا أن الشهرة في الإسلام عند المذاهب الإسلامية التي توصف الإله بما لا يليق وليس عند مذهب أمير المؤمنينعليه السلام، لذلك ظنّ اينشتاين ان جميع الاديان وبما فيهم الاسلام يقولون بتلك الصفات!

وهذا من تأثير الاحبار الذين وصفهم السيّد محمّد الصدرقدس سره بأنّ تأثيرهم كان من عصر النبوة ولا زال مؤثراً إلى عصرنا هذا يشوه صورة الإسلام.

وقد اخذ المستشرقون الاحاديث الموضوعة وراحوا يؤسسون بها جبلاً من

---

(١) رحلة عقل ٩٦.

(٢) بحار الأنوار ج ٤ ص ٣٢.

الشبهات ويشنعون بها على الدين الإسلامي ليكملوا مسيرة هؤلاء فالقوم ابناء القوم، وقد أشار الدكتور ساسي سالم الحاج في كتابه «نقد الخطاب الإستشراقي» إلى ذلك إذ قال:

«درس المستشرقون أسباب وضع الأحاديث، وتعمقوا في دراستها... ولكن تحليلاتهم هذه تمتاز بالكثير من الغمز واللمز، وافتراض الفروض المتعسفة والأحكام المسبقة والإشارة إلى الحوادث الغامضة، والتمثيل بالوقائع الضعيفة، والركون إلى الروايات الشاذة حتى أتت تحليلاتهم في غاية التحامل والتعسف، ومشوبة بالتعصب والهوى، وبعيدة عن مناهج البحث العلمي الصارمة»(١).

النقطة الثالثة: من عملاء الفلسفة المعادية

ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن الكتب الإلحادية التي لعبت دوراً في إفساد عقائد الناس وتفرقهم دخلت عن طريق أبن ابي العوجاء وأبن المقفع والجاحظ كما تقدم قوله:

«فيدخل الإلحاد إلينا كأبن أبي العوجاء وابن المقفع والجاحظ الذين إنما كانوا في الحقيقة عملاء الفلسفة للدولة البيزنطية»(٢).

ونذكر هنا محاورة جرت بين ابن ابي العوجاء وبين الإمام الصادقعليه السلام حيث روى الصدوقرحمه الله في كتاب التوحيد : بإسناده عن أحمد بن محسن الميثمي، قال:

---

(١) نقد الخطاب الإستشراقي ج ١ ص ٤٨٩_٤٩٠.

(٢) منبر الصدر ص ٦٠.

«كنت عند أبي منصور المتطبب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق؟ وأومأ بيده إلى موضع الطواف ـ ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلاَّ ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمد عليه السلام فأما الباقون فرعاع وبهائم.

فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأني رأيت عنده ما لم أرَ عندهم، فقال ابن أبي العوجاء: ما بد من اختبار ما قلت فيه منه، فقال له ابن المقفع: لا تفعل، فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك، فقال: ليس ذا رأيك، ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحل الذي وصفت.

فقال ابن المقفع: أما إذا توهمت على هذا فقم إليه، وتحفظ ما استطعت من الزلل، ولا تثنِ عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال، وسمه ما لك أو عليك.

قال الراوي : فقام ابن أبي العوجاء، وبقيت أنا وابن المقفع، فرجع إلينا، فقال: يا ابن المقفع ما هذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا، فقيل له: وكيف ذاك؟

فقال: جلست إليه، فلما لم يبقَ عنده غيري ابتدأني فقال عليه السلام: إن يكن الامر على ما يقول هؤلاء – وهو على ما يقولون ـ يعني أهل الطواف ـ فقد سلموا وعطبتم وان يكن الامر علي ما تقولون ـ وليس كما تقولون ـ فقد استويتم وهم.

فقلت له: يرحمك الله وأي شيء نقول وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلاَّ واحدا.

قال عليه السلام: فكيف يكون قولك وقولهم واحداً وهم يقولون: إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأن للسماء إلهاً وأنها عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد.

قال: فاغتنمتها منه فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول فلماذا لم يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان، ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟! ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به.

فقال عليه السلام: ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك نشوءك ولم تكن وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد إبائك، وإبائك بعد عزمك وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك. وما زال يعد عليَّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه»[١].

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق ص ٢٥٤ بتصرف.

بيان عمالتهم الفلسفية:

وهنا نذكر مؤيداً على كون ابن ابي العوجاء من عملاء الفلسفة للدولة البيزنطية كما ذكر السيّد محمّد الصدرقدس سره وهو:

إن أبن ابي العوجاء ذكر للإمام الصادقعليه السلام عقيدة التجسيد، والتي هي من العقائد اليونانية التي كانت توجد في كتبهم الفلسفية التي دخلت إلى بعض عقائد المسلمين عن طريق هؤلاء العملاء حيث قال ابن ابي العوجاء للإمام:

«إن كان الأمر كما تقول فلماذا لم يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان ولمَ احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟! ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به»

يشير هنا إلى عدم إمكان تصوير إله غير مجسم يباشر الناس ويباشرونه، وعقيدة تجسيم الإله بالأصل إنما نشأت بتأثير تلك الفلسفات بعقائد المسلمين، نعم هو يختلف عنهم بأنه يريد تجسيمه في الدنيا وهم يقولون بتجسيمه بالآخرة، قال الشيخ المظفرقدس سره:

«لما هاجمت الفلسفة أفكار المسلمين وأوجبت اضطرابهم وتبلبلهم وقد كان الناس في السابق يقدسون الفلسفة ويتلقون افكارها كوحي منزل، نشأت من ذلك حالة من الازدواجية تدعو إلى التوفيق -مهما كلف الأمر- بين الإسلام وما جاءت به الفلسفة...»[١].

إلى أن قالقدس سره :

(١) الفلسفة الإسلامية ص ٧٧.

«وانتشر بين الناس ما رواه أبو هريرة من أن الله يُرى يوم القيامة كالبدر الطالع، وحاول بعضهم تبرير كل ذلك من الناحية الكلامية، واعتباره فكراً إسلامياً له أدلته»[١].

فمن هنا دخلت عقيدة التجسيم إلى العقائد الإسلامية، وصاروا يؤولون بعض الآيات القرآنية بما توافق تلك العقيدة كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٢].

بدعوى أنَّ الملاقاة لا تتحقق بدون الرؤية، مع أن المراد منها هي الكناية عن مسبب اللقاء وهو ظهور قدرة الرب عليه، فإن الرجل إذا حضر عند ملك ولقيه دخل هناك تحت حكمه وقهره دخولاً لا حيلة له في رفعه فهو لقاء القدرة والحكومة[٣].

وقد تقول: وكيف يأخذ المسلمون من هذا الشخص المتجاهر بالكفر؟!

قلت: أنه كان في بدايته يدعي التوحيد وهو في هذا كأي عميل من العملاء حيث يتلبس بلباس المسلمين الاعتقادي فيدس دسائسه ثم يخرج كالشعرة من العجين قال السيد المرتضى رَحِمَهُ اللهُ عنهم:

«بلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ لأنهم يدغلون في الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رباط ورأي جامع، فعل من قد أمن

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨.

(٢) البقرة ٤٦.

(٣) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ص ٥٤.

الوحشة ووثق بالأنسة، وبما يظهره من لباس الدين الذي هو منه على الحقيقة عارٍ وبأثوابه غير متوارٍ»[(١)].

وأما ابن المقفع فهو صاحبه وعلى عقيدته كما ظهر من الرواية المتقدمة وقيل فيه:

«ما وجدت كتاباً فيه زندقة قط إلاَّ وأصله ابن المقفع»[(٢)].

وقد قاتل بعض المستشرقين على تبرئته لما في مثل شخصيته المنحرفة من منافع لمصالحهم الإستشراقية، ونسبوا ردود المسلمين عليه إلى خبث المعتزلة وأرجعوها إلى الحسد الذي يحمله الناس للشخصيات العظمى! [(٣)].

على كل حال فهو وأمثاله يشيعون الانحراف الاعتقادي بغية الوصول إلى الإلحاد، وقد تحقق الكثير من ذلك فراجع تاريخ بعض العرب المسلمين الذين ألحدوا.

وإن السلطات الحاكمة آنذاك كان أكبر همهم هو المحافظة على ملكهم لذلك كانوا يستعينون تارة بالفلسفة وأخرى بالشعر والأدب ليشتغل الناس بها عن أئمة الهدى عليهم السلام وهذا الأمر يشترونه بأي ثمن كان ولو بالاصطفاف مع الملاحدة.

وأبن المقفع كان من جملة هؤلاء الذين اعتمدت عليهم السلطة في مهمهتا في إشغال الناس عن الأئمة الفعليين عليهم السلام، ويكفي شاهداً على ذلك ما ذكره السيد

---

(١) الآمالي للسيد المرتضى ج ١ ص ٨٨.

(٢) جدلية الدين والفلسفة ج ١ ص ١٢٧.

(٣) انظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، عبد الرحمن بدوي ص ٥٤.

محمد الصدر قدس سره إذ يقول:

«خذ إليك مثلا تقريبياً، كتاب (كليلة ودمنة)[(١)] الذي «جعل الكلام على ألسن البهائم والسباع والوحش والطير، ليكون ظاهره لهوا للعامة وباطنه سياسة للخاصة، متضمناً ما يحتاج الإنسان إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته على حسن طاعة الملوك ومجانباً ما تكون مجانبته خيرا له»[(٢)]. بل قالوا ان هذا الكتاب ليس ذا مستويين فقط، بل أربعة مستويات، يختص كل مستوى منها بمجموعة من البشر[(٣)]»[(٤)].

وهذا الكتاب قد نقله إلى العربية ابن المقفع صاحب كتب الزندقة بأمر السلطة آنذاك؛ لأن في هذا الكتاب نفع لهم كما في نشر الإلحاد والعقائد الباطلة نفع لهم بإلهاء الناس بها وإشغالهم عن أئمة الحق عليهم السلام.

وإذا أردنا أن ننزههم نقول: أنَّهم لا دخل لهم بنشر هذه الاباطيل إلاَّ أن حواشيهم وخدمهم قد استغلوا المخدومين لنشر هذه الأفكار المنحرفة كما فعل ابن المقفع وغيره ممن هو نفس الشاكلة في العصر الأموي وكذلك العباسي.

إذن فالسلطة كما تقدمت الإشارة إليه كانت من أسباب نشر بعض الأفكار

---

(١) حسب الظاهر أن هذا الكتاب لا يحتوي على شبهات إلحادية، بل محل الشاهد أنه يبعث الرعية إلى حسن اتباع الملوك وهذا ما تبتغيه السلطة، ولا يهمها هوية من يحقق مصالحها وإن كان من الملاحدة!

(٢) كليلة و دمنة، تحقيق الياس خليل زخريا ط دار الأندلس- بيروت ص ٨٣

(٣) المصدر ص ٩٥. لا حظ قوله: أقسام الكتابة و أغراضه (المعاني الباطنة).

(٤) اليوم الموعود ص ٦٠٩.

المنحرفة من حيث تعلم أو لا تعلم كأن يكون من قبل استغلال حواشيهم المعادين للإسلام كسرجون في العصر الأموي وحواشي العباسيين من غير المسلمين في العصر العباسي.

النقطة الرابعة: موقف الشهيد الصدر من الفلسفة

من كل ما تقدم قد يتوهم بعضهم أن السيد الصدر قدس سره ضد الفلسفة الإسلامية المتعارف في الحوزة العلمية، كما هو حال بعض الاتجاهات الموجودة ضد الفلسفة.

إلا أن السيّد محمّد الصدر قدس سره ضد الفلسفة اليونانية خاصة ومع الفلسفة الإسلامية بشكل عام ـ وحسب فهمي ـ أن مبناه في الوقوف على الفلسفة كمبنى أستاذه الشيخ المظفر قدس سره فهو في محاضراته التي ألقاها في كلية الفقه في تاريخ ١٤ /١٠/١٩٦١م والتي كان يحضرها السيّد محمّد الصدر قدس سره كان الشيخ المظفر يقول:

«اساس الاختلاف بين المسلمين عقائدياً هو تأثرهم الشديد بالأفكار الفلسفية التي سرت إليهم من هذه الفلسفة اليونانية، وجرى الشيعة على منهج السنة أحياناً في اسلوب التقليد المنهجي، مفسرين عينية الصفات للذات والامر بين الأمرين بهذه القواعد الكلامية... لا بأس أن يقرأ الإنسان العلوم، ولكن لا على أن يستسقي منها عقيدته بالله واليوم الآخر، فالإنسان حين ينظر إلى نفسه وأموره يجد لها خالقاً مدبراً، ولكنا ندرس الفلسفة لردّ الشبهات وللإقناع ولتوسع أفق الذهن وزيادة المعلومات، ولا نأخذ منها عقيدتنا، والفلسفة أبعد ما تكون عن العقيدة الصافية

الخالصة الصحيحة.

لا يجب ان نعتقد بالله على طريقة الفلاسفة، لأن الله لم يكلفنا بذلك بـل العقيدة العامية تكفي عند الله، ولكنك لا تستطيع أن تفهم المصـطلحات والبحوث الفلسفية دون ان يكون لك إلمام بالفلسفة. ان الذي لا عقيـدة له ويريد ان يستند في عقيدته إلى مثل هذه الفلسفة فهو يضرب بحديـد بارد»[١].

فالسيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه رأيه كـرأي الشـيخ المظفـرقُدِّسَ سِرُّه وكـان يركـز على العقيدة العامية في الله تعالى لا بالبراهين الفلسفية والكلامية المطولة وكان إذا سأله أحدهم عن إثبات وجود الله تعالى لم يكن يتعمق معه بالبراهين الفلسفية بل يجيبه بكل بساطة مشيراً إلى العقيدة العامية كما قالقُدِّسَ سِرُّه :

«في يوم ما مرّ عليّ شخص من العوام في أواخر الشباب يريد أن يناقش وطالب للحقيقة ومنصف، وجدته طيباً قال لي: إني أشك في الله تعالى، تعال أنت برهن لي على وجود الله. ماذا أقول له ـ هـذا رجـل حسـب قيافته له درجة من الوعي، وله درجة من الثقافة، فإذا أنا سـردت عليـه البراهين الفلسفية، هو لا بد أنّه يحمل فكرة عنها، فمن هذه الناحية قد لا تفيده، برهان الدور، برهان التسلسل، وبرهان الـنظم، ونحـو ذلـك مـن الأمور، هو ألم يرَ السماء والأرض ومع ذلـك هـو يشـكك بالخـالق؟! فحينئذٍ أنا فكرت أن أجيبه بشيء آخر من الأدلـة، بطريقـة أخـرى مـن الإستدلال، حيث قال لي بالنهاية: بأنه أنا ما كنت سامعاً لشيء مما قلتـه

---

(١) الفلسفة الإسلامية ص ٧٩ ـ ٨٠.

أصلاً، ترضى أنا أذهب وأقولها. فقلت له: أذهب وقلها جزاك الله خيراً»[١].

وذكر له نقاط في غاية البداهة ظاهراً، وسهلة دون تعقيد وتشويش. وكان من ضمن ما قال:

«أنت تلاحظ، وأنا ألاحظ، وكل عاقل يلاحظ، على وجه البسيطة، وليس في النجف، وليس في العراق فقط، وليس في هذا الجيل، بل في كل جيل، من آدم إلى يوم القيامة، أن الناس الطيبين يؤمنون بالله، وإن غير الطيبين لا يؤمنون بالله مختصر مفيد.

أن المؤمنين عندهم إنسانية، وعندهم إنصاف، وعندهم طيبة، وعندهم إخلاص...وبالمقابل فإن الذين لا يؤمنون بالله يجرحون وجهك ويدك ورجلك، مكرة فسقة منحرفون ظلمة، إلى آخره، حينئذٍ معنى ذلك أن الإيمان بالله هو حصة الطيبين، وإنكار الله سبحانه وتعالى، هو حصة الفاسدين، ويكفينا هذا دليلاً على وجوده جل جلاله، وعلى لطفه وقدرته»[٢].

إن هذا الجواب على بساطته قد اقنع المقابل من دون الخوض بالأدلة الفلسفية التي قد تنهك عقل المقابل وقد لا تنتهي إلى إقناعه. وسنبحث هذا الجواب بشكل معمق في الفصل الآتي تحت عنوان (برهان الصادقين)، وقال قدس سره في خطب الجمعة :

---

(١) منبر الصدر ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق.

«إنكم سمعتم أنه كان في اليونان قبل ألفي سنة أو نحو ذلك، فلسفة معتد بها، أفلاطون وأرسطو وفلان وفلان العشرات من الفلاسفة، هل كلهم على حق؟ أنا أقول لك إن خمسة وتسعين منهم على باطل، ربما سقراط وأرسطو وأفلاطون على حق، أنا لا أريد أن أطعن بهم، لكنه يوجد فيهم سفسطائيون، ويوجد فيهم ماديون، ويوجد كذا وكذا»[1].

وعليه فلا يمكن أخذ عقيدتنا من مباحث فلسفية لأناس يُشك في دينهم؛ لأنها قد تقود الإنسان إلى الإلحاد والانحراف، وكذلك لا بد من أخذ الفلسفة من مضانها من علماء المسلمين المعروفين بالورع والتقوى ورصانة العقيدة، وإلا كانت وبالاً على صاحبها، وبعبارة أخرى أن السيّد محمّد الصدرقُدّسَ سِرّه يرجح الفلسفة الإسلامية خاصة، ولا يرى أي قيمة لفلسفة أخرى.

ثم إن افلاطون وسقراط وارسطو لم تكن فلسفاتهم من الفلسفات اليونانية التي تدعو إلى الإلحاد بل كانوا أناساً مؤمنين يحاولون رد شبهات الملحدين والسفسطائيين بالأدلة والبراهين، ومع ذلك فإن آرائهم ليست كلها صحيحة وإنما كانوا يفكرون بمبلغ علمهم، والعلم والتفكير في تزايد وتنامٍ مستمر، وقد نوقش هؤلاء الاقطاب الثلاثة بمناقشات كثيرة بينت ما لهم وما عليهم وما وقعوا فيه من الأوهام.

نعم أن السيّد محمّد الصدرقُدّسَ سِرّه مع الفلسفة الإسلامية بكل تفاصيلها وقد صرح في كتابه ما وراء الفقه عن ذلك حيث قالقُدّسَ سِرّه :

---

(١) المصدر السابق ص ٦٠.

«ان أعمق وأوسع الاستدلال على أصول الـدين ومطلـق العقائـد، فـي القواعد الظاهرية الموروثة إنما هو في الفلسفة الإسلامية التقليدية والتي هي أعمق من علم الكلام وألطف بما لا يقاس من الدرجات. ولئن ورد النهي في بعض الروايات عن الإفاضة في علم الكلام، فانه لم يرد نهـي عن الإفاضة في الفلسفة[1]...

وقد سبق ان كررت هذا المعنى في عدد من أيام عمري، ان الفلسفة بلا عرفان قشر بلا لب. والعرفان بلا فلسفة لب بلا قشر.

وهذا معناه ان الفاكهة المفضلة، كما خلقها الله سبحانه هي لـب وقشـر معاً ولا يصلح احدهما من دون الآخر.

أما استفادة الفلسفة من العرفان، فانه يفتح لها حسن الاسـتدلال وحسـن النتائج معاً. ولا يكون سير الفيلسوف سيراً في ظلام، بل تكاملاً في نور. ولا يحس بذلك إلاّ من جرّبَه.

ولهذا مزج عدد من الفلاسفة فلسفتهم بالعرفـان، فأصـبحت مـن هـذه الناحية من أفضل الفلسفات واجل المؤلفات، مـنهم: صـدر المتـأهلين

---

(١) قد أشكل على شهيدنا الصدرقُدِّسَ سِرُّه بأنه قد ورد النهي عن الفلسفة، فقد روي عن الإمام الصادقعليه السلام: «**فتباً وخيبة وتعسا لمنتحلي الفلسفة، كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها**» (بحار الأنوار ج ٣ ص ٧٥)، إلاّ أن هذا الإشكال غير صحيح؛ لأننا قلنا من البداية أن شهيدنا الصدر ضد الفلسفة اليونانيية الملحدة القائلة بعدم الإله وتعطل الغايات من الخلق، أما الفلسفة الإسلامية التي ذكرهاقُدِّسَ سِرُّه فهي لا تنكر التدبير الإلهي بل هي تدعو العقل للتفكر بخلق الله وغايات الخلقة، وسيأتي في خاتمة الفصل الثالث تحت عنوان «فلسفة العلوم عند السيد محمد الصدر» ما يوضح لك معنى الفلسفة المرادة وأنها ليست كهذه الفلسفة التي نهى عنها أئمة الهدىعليهم السلام.

الشيرازي صاحب كتاب: الأسفار الأربعة. والشيخ ملا هادي السبزواري صاحب المنظومة في الفلسفة وله حاشية جليلة على الأسفار الأربعة نحى فيها المنحى المشار إليه. وهما معاً موفقان في هذا الصدد.

وأما استفادة العرفان من الفلسفة فمن جهات أهمها:

أولا: إنها تصلح ان تكون تعقلا وترتيباً برهانياً للفهم العرفاني الوجداني الساذج.

ثانياً: إنها تصلح ان تكون حجاباً وستراً للأسرار الإلهية العرفانية. فإنها عندئذ يمكن التعرف بها بالثوب الفلسفي المناسب.

وعلى أي حال، فالفلسفة إنما تمنع العرفان من زاوية إثباتية يعني لتعريف الآخرين أو قل: بعض الآخرين بعض صيغ الحقيقة المجردة، وإلا فان كان الفرد موفقاً لكي يكون بعيداً عن الآخرين ولا يشعر بتكليفه الشرعي أو الإنساني لتعليمهم أو هدايتهم، فلا حاجة إلى الفلسفة عنده. بل يكون إطلاعه العرفاني أوسع وأعلى وأصفى لا محالة.

ومن هنا قد نجد أناساً ممن لا خلاق[1] لهم في الظاهر. ممن لا يعرف القراءة والكتابة ولا يفهم الآخرون عنه كلاماً ولا يحترمون له مقاماً. نجده من ألطف العارفين وأعلى الأولياء والمتقين. ولا ضرورة لأمثال هؤلاء إلى أي سطر من الفلسفة.

وإذا رجعنا إلى الكلمة التي قلناها من: ان العرفان بلا فلسفة لب بلا قشر. نجد ان أكل اللب وحده هو الألذ. بل لابد منه لأكل كل فاكهة واكل الفاكهة بقشرها غير مستساغ.

---

(١) أي لا نصيب لهم ظاهراً.

وإنما الفلسفة إذا أرادت لنفسها النتيجة الصالحة ـ لو صح التعبير ـ فإنما يجب ان توصل صاحبها إلى العرفان. وأما بدون ذلك، فهي الضلال البعيد، وقديماً قالوا: من تمنطق تزندق. أي بدون الاعتماد على علوم أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم الحقيقية»[1].

وقال عن قصور الفلاسفة من أدراك المعاني الإلهية المعمقة حيث ذكر ما قاله أمير المؤمنين في خطبة التوحيد الواردة في أول نهج البلاغة :

«هل يستطيع الفلاسفة أن يتأتوا بشيء من هذا القبيل اصلاً متحيرين بكلامه صلوات الله وسلامه عليه»[2].

وسنذكر في خاتمة الفصل الخامس أن الشهيد الصدر قدس سره موقفه إيجابي من فلسفة العلوم الكونية.

النقطة الخامسة: الفلاسفة المؤمنين

رغم أن يوسف كرم صاحب كتاب الفلسفة اليونانية يحاول أن يصور أن افلاطون وارسطو وسقراط من الملاحدة، إلاَّ أن السيّد محمّد الصدر قدس سره يقول إن هذه محاولات تزوير للتاريخ بل ويحتمل أن يكون هؤلاء الثلاثة من الانبياء أو الملهمين حيث قال قدس سره :

«احتمال أن يكون بعض فلاسفة اليونان كأرسطو ـ مثلاً ـ من الأنبياء أو الملهمين بدرجة ما. أو انهم أخذوا رءوس أقلامهم أو مهم أفكارهم من

---

(١) ما وراء الفقه ج ١٠ ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٢) منبر الصدر ص ٣٩٦.

الأنبياء، أو انهم قد رويت لهم عن الأنبياء بعض الحقائق التي اسـتطاعوا بعبقريتهم أن يستنتجوا منها هذه الدقة الفكرية.

ولكن هذا الاحتمال ـ مهما كان شكله ـ بالرغم من لطافتـه ووجاهتـه، مما لا يمكن أن نقيم عليه الدليل الكافي، بعد انطماس الكثير من معـالم التاريخ»[١].

أي انطماسها أما بضياعها أو بتزويرها. نعم توجد رواية ما نصها:

«أن عمرو بن العاص قدم من الإسكندرية على سـيدنا رسـول الله ﷺ فسأله عما رأى؟ فقال: رأيت قوماً يتطلسون ويجتمعون حلقاً ويـذكرون رجلاً يقال له أرسطو طاليس لعنه الله. فقال ﷺ: مه يا عمرو! إن أرسطو طاليس كان نبياً فجهله قومه»[٢].

وقال الديلمي:

«أقول ويؤيد هذه الرواية ما نقل السيد الطـاهر ذو المناقـب والمفـاخر رضي الدين علي بن طاووس قدس الله روحه في كتابه (فرج المهمـوم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم) قولا بأن ابرخس وبطليموس كانا من الأنبياء، وأسماؤهم هذه أسماء الأنبياء، ولكنها لما كانت أسماء يونانية، لم نستطع أن نطبقها على الأسماء الموجودة في القرآن الكـريم، فتصورنا أن تلك الأسماء لأشخاص آخـرين غيـر الأنبيـاء الـذين ورد

---

(١) اليوم الموعود ص ٤٧٢.

(٢) شرح كتاب المنطق ج ١ ص ١٠ ـ ١١.

ذكرهم في القرآن الكريم»[١].

وقد ذكر الشيخ نديم الجسر (مفتي طرابلس ولبنان الشمالي) كلاماً قريب من كلام الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ إذ ذكر قول الفيلسوف اليوناني «اناكساغورس» الذي يقول:

«من المستحيل على قوة عمياء، ان تبدع هذا الجمال، وهذا النظام اللذين يتجليان في هذا العالم؛ لأن القوة العمياء لا تُنتج إلاَّ الفوضى؛ فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم».

وعقب الشيخ نديم الجسر قائلاً:

«إن هدى الله، بلسان الرسل، أقدم من اليونان وفلسفتهم؛ بل أني أرجح أن كثيراً من فلسفة الأقدمين، في مصر والصين والهند، هي بقايا نبوات نسيها التأريخ، فحُشر أصحابها في عداد الفلاسفة، ولعلهم من الرسل أو أتباع الرسل»[٢].

وقال كذلك السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«أنا أعتقد أن التاريخ القديم والحديث في البرامج الحديثة مزور بكثير من فقراته، ويكفي أننا نراجع كتاب الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، أنا راجعته قبل حوالي ثلاثين سنة ـ محل الشاهد ـ يخرج كل هؤلاء ملاحدة ليس لله أثر في فلسفتهم عن علم وعمد وهو يعلم أنه كاذب،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٣٦.

حتى افلاطون وأرسطو لا يقول من سقراط... المهم أنه يبعد فكرة الدين عن هؤلاء الفلاسفة ويبعد فكرة الله عن هـؤلاء الفلاسـفة ويبعـد فكـرة الآخرة عن هؤلاء الفلاسفة، مجرم ليس أكثر من ذلـك، وكـاذب لـيس أكثر من ذلك»[١].

(١) منهج الصدر ص ٩٩.

ثالثاً: دور اليهود

دور اليهود في نشر الإلحاد:

ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في خطب الجمعة أن الدولة البيزنطية الملحدة كانت مناصرة لليهود، وذكر كذلك إن الذي أسلم من اليهود في عهد النبوة وبعدها إنما أسلموا بقصد دنيوي ومن أهم هذه المقاصد علاقتهم بالدولة البيزنطية[1] التي تقدم أنها هي السبب في فساد عقائد المسلمين عن طريق ارسال كتب الفلسفة اليونانية إلى المسلمين[2] وأن اليهود كانوا مناصرين للدولة البيزنطية الملحدة التي قتلت المسيح حسب توهمهم.

---

(١) لا يخفى أن اليهود كذلك كانت تربطهم علاقة بالدولة البيزنطية وليس المسيحيين وحدهم ومن هنا قال السيد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ : (لأن اليهود والمسيحيين الموجودين في الشرق في المجتمع المسلم يحترمون ويحبون المسحيين، يحبونهم كأمثالهم الموجودين في أوربا ويحترمونهم ويعتبرونهم الفرد الأكمل والأمثل) [منبر الصدر ص ٤٧] واليهود وإن كانوا هكذا ظاهراً مع المسيحيين إلاَّ أنهم يحملون أحقاداً على المسيحيين كما هو المعروف من موقفهم المسبق من النبي عيسىعليه السلام حيث كانوا لا يؤمنون به.

(٢) أنظر : منبر الصدر ص ٦٠.

كما ولا يخفى على القارئ أثر المد الماسوني في نشر الإلحاد عبر وسائله الإعلامية المختلفة، وما هذه المؤسسة الماسونية إلاَّ أحد صنائع اليهود كما قال السيد محمد الصدرقدس سره :

«**إن الماسونية إنما هو مقلوب موسانية نسبة إلى (موسى) نبيهم**عليه السلام **وهو منهم بريء**»[١].

وهذه الماسونية لا تشكل خطراً على الإسلام فحسب بل على جميع الأديان، قال الدكتور أحمد شلبي:

«**أدرك زعماء المسيحيين خطر الماسونية بوجه خاص وخطر الجمعيات السرية بوجه عام على الدين المسيحي، فصدر مرسوم بابوي رقم ٨٦٤ يحذر الكاثوليك من الاشتراك في الهيئات السرية والمشتبه فيها على الاطلاق**»[٢].

ونحن هنا نذكر العوامل التي دعت اليهود إلى نشر الإلحاد في دار الإسلام بل وحتى في الدول التي تدين بالمسيحية.

فنقول: تنقسم الديانات السماوية بأحد الاعتبارات إلى قسمين: ديانة تبشيرية وديانة غير تبشيرية، أما الديانة التبشيرية فهي كالإسلام والنصرانية حيث أن

---

(١) نظرة في فلسفة الأحداث ص ٨.

(٢) مقارنة الأديان، اليهودية ص ٣٢٧.

المسلمين يدعون الناس إلى الإسلام ويبشرونهم به وكذلك تفعل النصرانية[١].

وأما الديانة غير التبشيرية فهي كاليهودية حيث لا يدعون أحداً إلى دينهم، قال السيّد محمّد الصدر قدس سره:

«ومن هنا نرى اليهود إلى الآن لا يقبلون يهودية شخص لا يكون من بني إسرائيل؛ لاعتقادهم الراسخ أن اليهودية دين إسرائيلي على التعيين»[٢].

وكون اليهودية دين غير تبشيري ساهم في اشتراكهم في بث الإلحاد في صفوف المسلمين والنصارى على حدٍ سواء، وقد ذكرت مجلة الرصد التابعة للعتبة العباسية المقدسة والصادرة عام ٢٠١٦ آذار تحت عنوان «هوليوود تستهدف الدين» عدداً من الأفلام التي تحتوي على افكار إلحادية واضحة.

وإن اغلب المسؤولين عن «هوليوود» هم من اليهود، لذلك نرى فيلم أبن الرب «Son of God» فيه إشارة إلى تحسين صورة اليهود الذين عاصروا النبي عيسى عليه السلام، فصحيح أنه لا ينفي اغراءهم للحاكم الروماني بصلب المسيح، إلاَّ أن فعلهم هذا جاء لحرصهم على امة اليهود من التمزق هكذا يصورون في فيلمهم!![٣].

---

(١) إلاَّ أن النصارى لم تبشرْ كما كان يُبشر النبي عيسى عليه السلام كما نطق القرآن في ذلك قائلاً عن لسانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ (الصافات ٦).

(٢) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٢٢٣.

(٣) انظر: مجلة الرصد العدد (١٥) تحت عنوان: هوليود تستهدف الدين.

العوامل التي تدعو اليهود لبث الإلحاد:

إن العوامل التي دعت اليهود إلى الاشتراك في بث الإلحاد ـ حسب فهمي ـ تتلخص فيما يلي:

العامل الأول: إن اليهود وإن كانوا موحدين يعتقدون بالله الواحد الأحد إلاَّ أنهم يقولون بأنه إلهٌ مجسم فهو غير إله المسلمين –الذين لا يقولون بالتجسيم– وغير إله النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة.

وهذه فكرة موجودة عند رجال الديانات، وقد استفسر أحد المستشرقين عمّا إذا كان الإله الذي يعبده المسلمون هو إله اليهود والنصارى أو لا؟ يصرّح الدكتور لبسيوس بأنّ إله الجميع واحد، إلاَّ أن القسيس «زومير» خالفه في هذا الرأي وقال:

«مهما يكونوا موحدين فإن تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين؛ لأن إله المسلمين ليس له قداسة ومحبة...»(١).

وتعدى حقد المتشددين من القساوسة ضد العرب والمسلمين إلى درجة يفضلون الموت على الحياة، ففي الزمن الماضي كان العرب أكثر الناس خبرة في الطب وأعلمهم فيه إلاَّ أنّ بعض القساوسة كان يرفض أي علاج يصدر منهم بغضاً بدينهم فالقس «بترارك» بلغ به الحقد على العرب والمسلمين أن شن مقاطعة اقتصادية وثقافية لكل ما هو عربي وإسلامي، فيرفض أن يتعاطى أي دواء عربي، أو يحمل اسماً عربياً، ويقول لصديقه:

---

(١) المستشرقون وموقفهم من التراث العربي والإسلامي ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

«أرجو منك فيما هو خاص بي ألا تعتمد على عربك وأن تعدهم كأنهم لم يكونوا، فأنا أمقت هؤلاء القوم، وأعرف أن بلاد الروم أنجبت علماء وبلغاء وفلاسفة وشعراء ورياضيين وخطباء، وهناك ولد الطب أيضاً... ولا أكاد أُحمل على الاعتقاد بإمكان صدور ما هو صالح عن العرب، ومع ذلك فبأي حق لا أدريه أيها العلماء تغمرونهم بمدائح لا يستحقونها»[١].

وهذه الفكرة موجودة كذلك عند اليهود بشكل أوضح؛ لأنّهم يعتبرون الدين خاص بهم وأنّهم شعب الله المختار وإنّ جميع الخلق خدماً لهم ودونهم إنّ الله تعالى حباهم على العالمين.

وعليه فبث الإلحاد عن إله المسلمين والنصارى لا يعتبر إلحاداً عند اليهود؛ لأنه انكار لرب غير ربهم ومن هنا نجد كثيراً من المسلمين والنصارى يتصدون لرد شبهات الملحدين ولا تجد يهودياً واحداً متصدٍ لهم!!

العامل الثاني: بحكم كون الإسلام والنصارى مبشرون لدينهم فهذا يعني ازدياد عددهم وبالتالي قلة عدد اليهود والكثرة غالباً ما تكون مركز السلطة وبالتالي يكون اليهود في موقف ضعيف أمام الديانتين الإسلامية والنصرانية.

والغريب أن معظم البلدان الإسلامية تكتسحها دعوة لتحديد النسل بحجة مواجهة التحديات الإقتصادية والإجتماعية.

وترصد لهذه الحملات أموالاً طائلة كان من الممكن توظيفها في مشاريع

---

(١) العلمانيون والقرآن الكريم ص ٣٨، نقلاً عن ابن رشد والرشدية لإرنست رينان ص ٣٣٨_٣٣٩.

اقتصادية واجتماعية أكثر جدوى.

فتؤكد بعض التقريرات أن أحد البلدان العربية أن ما يخصص من مبالغ لإنجاح حملة تحديد النسل في عام واحد من سيارات وأطباء ممرضين وممرضات وأدوية ومهمات وعمليات حراجية ومستشفيات وغيرها يكفي لرعاية أكثر من مليون طفل في حين أن زيادة الأطفال في تلك البلد لا تتجاوز ربع المليون طفل! [١]، ويقول السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن هذه الحملات:

«من السخف أن يقال إن البشرية متوجهة نحو المجاعة، وإن زيادة النسل يؤدي حتماً إلى قلة الأرزاق في العالم. إن ذلك إنما يتحقق، حين يكون الإخلاص ضئيلاً والعمل مبعثراً والتشريع ظالماً»[٢].

وهذه كذلك من خدع اليهود يدَّعون أنَّ الله إذا خلق خلقاً لم يخلق رزقه معه، وهدفهم من هذا هو تقليل عدد المسلمين والنصارى لأجل بسط سيطرتهم، وقد ذكر القرآن الكريم حيلتهم هذه إذ قال: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾[٣].

واليهود لا يمكنهم التبشير لدينهم ليكسبوا العدد وذلك لاعتقادهم أن دينهم خاص ببني إسرائيل ولهذا كان من المناسب عندهم بث الإلحاد لإيقاف انتشار الديانتين الإسلامية والنصرانية؛ لأنّ الإلحاد عبارة عن أهواء مشتتة لا تجمعها

---

(١) تحديد النسل فكرة غربية ص ٧٨.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور ص ٥٧٨.

(٣) المائدة ٦٤.

رابطة واحدة، فالملحدون كل منهم يسير خلف هواه دون نقطة إشتراك محددة، كما كان من المناسب الترويج لحملات تحديد النسل!

ومن هنا نجد أن أكثر المواقع الالكترونية ترويجاً للإلحاد هو الفيس بوك وهو موقع صنعه رجل يهودي يحمل نجمة داوود على صدره أهذه صدفة!!

العامل الثالث: حقد اليهود على الإسلام خصوصاً وعلى النصارى عموماً أدى إلى نشر الكثير من الشبهات الإلحادية على الدين الإسلامي بشكل مباشر وعلى الدين المسيحي بشكل عام وهذا ما يشهد له الواقع حسب المتابعة ويظهر معالمه في القرآن الكريم إذ يقول تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾[1].

العامل الرابع: ظهور الإسلام للعالم كدين برهاني يميل إليه الناس فإن الإسلام كلَّما علا صيته في العالم كثرت الطعون والتشكيك فيه وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾[2]، قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«**بعد ان اتسعت التجارب الدينية، وازدادت الكتب الدينية، ووسائل**

---

(١) المائدة ٨٢، أود الإشارة هنا إلى أن من طالع الإنجيل سيجد فيه تعاليم تحث على التواضع، أما من طالع التوراة فسيجد فيه أموراً كثيرة تدعوا إلى التكبر.

(٢) البقرة ١٠٩.

الإعلام الإسلامية، فرأى الجيل المتأخر منهم أن الحق الصحيح إنما هو في الدين وأن الحل الصحيح إنما هو في الدين، وليس من المعقول أن اليهود يحاربوننا كيهود ونحاربهم كعرب... وإنما يقابل اليهودية الإسلام ليس إلا»[١].

لذلك فبعد ان درس المستشرقون الإسلام وعرفوا فضله وحسنه آمن منهم من آمن وطعن منهم من غير إنصاف من طعن ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا تواترت منهم الهجمات على دين الإسلام.

كما ونلاحظ أن المواقع الالكترونية الإلحادية غالباً ما تطعن وتستهزئ بالإسلام على الخصوص، ولو كان هدفهم أنكار الله تعالى لما كان هناك مبرراً للاقتصار في غالب الأحيان على طعن رسول الله ﷺ والقرآن الكريم.

ومن تلك الإشكالات التي يطرحها الملحدون على الإسلام هي أنه دين عنف وإجبار وتهديد وقتل وإن هذا ما تنطق به آياته بكثرة، إلاَّ أنهم قد تغافلوا من ان تلك الآيات التي يقطعوها من سياقها ما كانت إلاَّ بعد الاعتداء او دفاعاً عن النفس او ما إلى ذلك من الأمور المسموح بها عقلاً[٢].

بينما نجد عند اليهود في الإصحاح ٣١ من سفر العدد، والإصحاح ١٣ سفر التثنية : «**ان الله أباح لليهود دماء سائر الشعوب واموالهم!!**».

فهل رأى أحدكم من يستهزئ من الملحدين بهذه العبارة وغيرها وهل فيهم

---

(١) منبر الصدر ص ٤٣٣.

(٢) ستأتي الإشارة إلى ذلك في الفصل السادس.

من وسم اليهودية بالعنف على صفحات الملحدين!!

وقد يخطر في ذهنك تساؤل وهو: لماذا تخضع الدول التي تؤمن بالمسيحية كأمريكا لليهود ويوفرون لها كل ما يريدون وتتغاضى منظمات حقوق الإنسان عن كل جرائم إسرائيل ضد شعوب العالم والشعب الفلسطيني المسلم على الخصوص؟!

والجواب: كما يقول السيد محمد الصدر قدس سره:

«إن المسيحيين اليوم حكاماً ومحكومين إنما هم (خدمة) اذلاء لليهود بالرغم من كثرة المسيحيين وقلة اليهود بالرغم من أن القوة الظاهرية إنما هي بيد المسيحيين دونهم، إلاَّ أن هذه القوة الظاهرية ليست إلاَّ أداة طيعة بيد اليهود.

إن بلفور، الوزير البريطاني الذي أعطى اليهود وعداً بتأسيس وطن قومي لهم، لم يكن يهودياً بل كان مسيحياً رأسمالياً، كما أن بابا الفاتيكان الذي حكم ببراءة اليهود من دم المسيح عليه السلام ليس يهودياً بل هو مسيحي، يمثل القيادة المسيحية العليا دينياً.

وإن أهم وسيلة لهم اليوم، وهي وسيلة خططوا لها من زمن بعيد نسبياً هي سيطرتهم على الولايات المتحدة الأمريكية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً»[(١)].

بل إن الغرب يعتبر اليهود هم الممثل للحضارة الغربية وعلاقتهم مع بعض حميمة مراعاةً للمصالح المشتركة، وقد تظهر آثار هذه العلاقة بين الحين والآخر

---

(١) نظرة في فلسفة الأحداث ص ١٠.

سيما في الفترة الأخيرة الذي تفرعن فيها «ترامب» ووقف موقف مباشر مع إسرائيل وضد الشعب الفلسطيني، قال السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«الممثل الرئيسي للحضارة الغربية إنما هو إسرائيل بطبيعة الحال والموجه الرئيسي إلى الحضارة الغربية هي إسرائيل في الحقيقة، فأحسن عبودية للغرب وأحسن ولاء للغرب هو الرضا بإسرائيل والحب لإسرائيل والموافقة لإسرائيل والمجاملة لإسرائيل...»(١).

وقالقُدِّسَ سِرُّهُ:

«إن كل من يريد الفوز بالرئاسة الأمريكية الآن وقبل الآن لا يمكنه ذلك إلاَّ إذا تزلف لليهود ووعدهم بالخير والتأييد والمساندة لأنه بدون ذلك سوف يحجبون أصواتهم وأصوات من يستطيعونه عنه ثم لن يفوز بالرئاسة»(٢).

ثم ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ كيفية ذلك بعد سيطرتهم الإقتصادية وقال:

«إن سكان نيويوك من اليهود كثيرون جداً وإن من الضروري لنجاح أي رئيس أن يأخذ أصوات هذه المدينة فيكون من الضروري له أخذ أصوات اليهود، ومن المعلوم أنهم لا يعطونها له مجاناً»(٣).

إذن إن اليهود أعداء لكل الأديان، إلاَّ أن موقف المسيحيين المحايد منهم

---

(١) منهج الصدر ص ١٨٩.

(٢) نظرة في فلسفة الأحداث ص ١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١١.

إنما هو بسبب هذه السيطرة الإقتصادية والسياسية التي تحدث عنها السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ وجملة من المفكرين الإسلاميين إذ قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

«إنَّ اليهود الآن محاربون للإسلام فعلاً وإن لم يكن بينهما حرب معلنة رسمياً، إلاَّ أن إطلاق النار بينهما باستمرار»[(١)].

وقد علَّق الدكتور عمرو شريف[(٢)] على العوامل السابقة التي تدعو اليهود لنشر الإلحاد قائلاً:

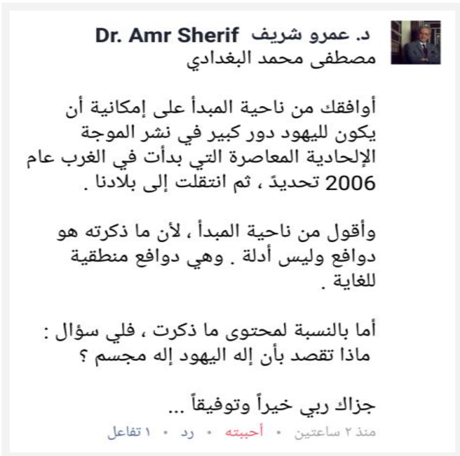
«أوافقك من ناحية المبدأ على إمكانية أن يكون لليهود دور كبير في نشر الموجة الإلحادية المعاصرة التي بدأت في الغرب عام ٢٠٠٦ م

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) عمرو عبد المنعم محمود شريف من مواليد بورسعيد، مصر عام ١٩٥٠ م. أستاذ ورئيس أقسام الجراحة السابق، كلية الطب، جامعة عين شمس مع التخصص الدقيق في جراحات الكبد والجهاز المراري وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث، حاصل علي البكالوريوس في الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولي عام ١٩٧٤، ودرجتي الماجيستر عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ في الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

عضو مؤسس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المراري بسويسرا، أشرف وناقش العشرات من رسائل الدكتوراه والماجستير في الجراحة والفلسفة وله العديد من الأبحاث في مجال الجراحة العامة. محاضر في موضوعات التفكير العلمي ونشأة الحضارات والعلاقة بين العلم والفلسفة وبين الأديان، اختير المدرس المثالي على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤ م والطبيب المثالي على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨ م ودرع جامعة عين شمس في ٢٠١١ م وهو محاضر في موضوعات التفكير العلمي ونشأة الحضارات والعلاقة بين العلم والفلسفة وبين الأديان (موسوعة ويكبيديا العالمية).


د. عمرو شريف Dr. Amr Sherif
مصطفى محمد البغدادي

أوافقك من ناحية المبدأ على إمكانية أن يكون لليهود دور كبير في نشر الموجة الإلحادية المعاصرة التي بدأت في الغرب عام 2006 تحديدً ، ثم انتقلت إلى بلادنا .

وأقول من ناحية المبدأ ، لأن ما ذكرته هو دوافع وليس أدلة . وهي دوافع منطقية للغاية .

أما بالنسبة لمحتوى ما ذكرت ، فلي سؤال : ماذا تقصد بأن إله اليهود إله مجسم ؟

جزاك ربي خيراً وتوفيقاً ...
منذ ٢ ساعتين • أحببته • رد • ١ تفاعل

تحديداً، ثم انتقلت إلى بلادنا. وأقول من ناحية المبدأ، لأن ما ذكرته هو دوافع وليس أدلة، وهي دوافع منطقية للغاية...»[١].

ولكن وإن كان لا يوجد دليل واضح وملموس إلاَّ إن هذه القرائن لو اجتمعت لشكلت دليلاً واضحاً على إمكانية اشتراكهم في قضية نشر الإلحاد سيما أن لهم سابقة مشابهة لهم في عصر الديانة المسيحية وأخرى في الديانة الإسلامية:

أما في الديانة المسيحية: فقد ذكر الدكتور «رمسيس عوض» في كتابه «الإلحاد في الغرب» تحت عنوان: «اليهود ينشرون الكفر والإلحاد بهجومهم على المسيحية» إذ قال:

«منذ منتصف القرن الأول الميلادي واليهود يطرحون محاجات تهدف إلى تفنيد الدين المسيحي ودحضه لإثبات أنه ليس مكملاً للدين اليهودي. وتسعى الأناجيل الأربعة إلى إثبات أن النبوءات الواردة في العهد القديم تحققت بمجيء السيد المسيح، في حين يهدف التلمود إلى دحض هذا دحضاً تاماً...وفي العصور الوسطى خفت صوت الجدال الديني بين اليهود والمسيحيين ليحل محله أسلوب العنف والقصر الذي استخدمه المسيحيون في إجبار اليهود على التحول إلى الدين

---

(١) من خلال صفحته على موقع الفيس بوك.

المسيحي...وقد تكونت في أسبانيا والبرتغال جماعات سرية عبرت عن كفرها بالمسيحية بطريقة ملتوية. فهي تتآمر على المسيحية بالتظاهر بالانتصار لها والكتابة المدافعة عنها حتى تتمكن من نفث سمومها وبث شكوكها في الدين المسيحي»[١].

ويذكر كذلك في الكتاب المذكور كيف كانت هذه المحاججات الدينية بين اليهود والمسيحيين سبباً في إنتشار التنور والإلحاد وكانت المصدر الأساس للمفكرين الملاحدة الغربيين. وبعد عصر النهضة الذي انهارت فيه المسيحية استغل اليهود ثغرة العداء بين عامة الناس والكنيسة ودعموا بعض الشخصيات لمحاربة العدو المشترك بينهم وهو المسيحية!

وأما في الديانة الإسلامية: ففي عصر النبي الأكرمﷺ فضل اليهود عبادة الإصنام على الديانة التوحيدية التي كانوا يدعون لها، قال الشيخ المحقّق السبحاني حول إشراك اليهود بالله :

«إنّ العصبية العمياء ربّما تبلغ بالإنسان حداً ينكر ما كان يدين به هو وقومه طيلة قرون انصرمت، فهؤلاء اليهود المعاصرون كانوا يفتخرون ويتمجدون بدين التوحيد، وأنّهم ضحّوا في سبيله بنفسهم ونفيسهم. ولكنهم لما رأوا النبي الأكرمﷺ يدعو إلى هذا المبدأ، ويتخذ منه الحجر الأساس لدعوته، عادوا ينكرونه ويروجون الشرك تشفياً لغيظهم وحنقهم»[٢].

---

(١) الإلحاد في الغرب ص ٣١.

(٢) مفاهيم القرآن ج ٧ ص ٢٧٢.

ولذلك فإن اليهود الذين كانوا يحملون راية التوحيد قد فضلوا الوثنية على الإسلام بغضاً برسولنا الكريمﷺ، فقد قالت قريش لليهود: يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمدﷺ أفدينا خير أم دينه؟

قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه وانتم أولى بالحق منه، فنزل القرآن ردّاً عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[1].

وقد ذكر هذا الأمر الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب» حيث قال:

«كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأنّ عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم لأنّ بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية بإسم الآباء والأقدمين والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من قتل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا

---

(١) النساء ٥١ – ٥٢.

المشركين»[(١)].

فالذين يؤدي بهم الحقد إلى إنكار عقيدة ضحوا لها بالغالي والنفيس لا لشيء سوى أن النبي الاكرم ﷺ ليس من قوميتهم فماذا يُرتجى منهم بعد ذلك؟! أنهم بحق العنصر الفعال في بث الإلحاد في الإسلام حنقاً برسول الله محمدﷺ.

سبب معاداة اليهود للإسلام:

ذكر السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّه أصل الخلاف بين اليهود والمسلمين قائلاً:

«والسبب الرئيسي للخلاف بين اليهود والمسلمين ـونحن ينبغي أن نكون على بينة من ذلك تجاه إسرائيل وغير إسرائيل ـ هو أن اليهود كانوا يبشرون بسيطرة دينهم على البشرية، وكانوا ولا يزالون يعملون لذلك؛ حيث يزعمون أن دينهم هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وإن القائد العالمي المهدي منهم، وإن عاصمة هداية العالم أورشليم التي هي القدس... وهذا مشهور ولا زالوا يعملون لذلك، وكثير من فقرات التوراة الرائجة الحالية تدل على ذلك، ومن هنا أخذهم العناد في هذا المجال، وحين جاء رسول اللهﷺ وقال بالمضمون ولو بلسان حاله: أن القسط والعدل العالمي المتوقع إنما هو إسلامي وليس يهودياً، وأن المستقبل للحق المتمثل بالإسلام لا باليهودية ولا بغيرها، أبوا عليه ذلك، وعاندوه، وأصبحوا ولا زالوا أعدائه التقليديين؛ لأنهم

---

(١) نقلاً عن السيرة النبوية ج ١ ص ٥٦٢، وحياة محمدﷺ لهيكل ص ٣٢٨ – ٣٢٩ كما أشار العلامة السبحاني لتلك المصادر.

يطمعون بأن يكون المستقبل في الهداية في العالم لهم»[١].

الشبهات الإلحادية واليهود:

ستلاحظ في الفصل الآتي عدة شبهات إلحادية من قبيل شبهة دارون التي تقول أن أصل الإنسان قرد وليس هو الأبداع كما يقول الدين الإسلامي في القرآن، والدين المسيحي في الأنجيل، بل وحتى الدين اليهودي في التوراة.

ويذكر بعض المفكرين أنّ الغاية من وراء هذه الشبهة هو تكذيب القرآن الكريم الذي قال أن الله تعالى مسخ عصاة اليهود في عهد موسى عليه السلام إلى قردة خاسئين![٢].

وكذلك الفلسفات المادية في الغرب الأوربي التي برزت في عدد من الفلاسفة الأوربيين الذين يربطون الأمور الكونية بالظواهر المادية التي سنجيب عنها في الفصل الآتي إنما هي نتجت من فلاسفة كانوا يدرسون في المنظمات الماسونية كما ذكر بعض الباحثين[٣].

بل استغل اليهود ثغرة العداء بين عامّة الناس والكنيسة، ودعوا من خلال ذلك إلى إبعاد الدين المسيحي عن ساحة الحكم، كما أستغل اضطهاد الكنيسة لرجال العلم فوجد اليهود فرصتهم الذهبية في تأييد العلماء المضطهدين من قبل الكنيسة

(١) أضواء على منبر الصدر ج ٢ ص ٤٥٢.

(٢) العلمانية في الإسلام ص ٥٣.

(٣) المصدر السابق ص ٥٢.

لا حباً بهم بل بغضاً بالدين المسيحي[١].

وصار هؤلاء العلماء من القادة في نقض الدين المسيحي والسعي لتهديمه وهدم ثقة الناس به أبان عصر النهضة الأوربية.

والمصلحة في أن ينشروا هذه الشبهات التي تخالف حتّى كتابهم وعقيدتهم هي التقليل من عدد المتدينين بالإسلام والمسيحية، فهم ينكرون أي شيء حتى التوحيد بالله من أجل تلك هذه المصلحة.

ولم يقتصر دورهم في بث الشبهات بالدعم العلني، بل راحوا يدسون شخصيات يهودية تدعي الإسلام لكي تمزقه من الداخل، ويذكر السيّد محمد الصدر قدّس سرّه نموذجاً من هذا النوع قائلاً:

«فقد يحصل من ضمن ذلك: أن يدسوا إلى بعض العلماء أشخاصاً يحسبهم العلماء ثقات؛ لكي يؤلّفوا في أفكار معينة يكون إعلانها والتركيز عليها محلّ فائدة للاستعمار في نهاية المطاف»[٢].

يحصل أنّ هم يؤلفوا بأنفسهم مؤلفات فيها الدواعي المذكورة، وقد حصل قديماً ذلك فابن الراوندي كان يهودياً، وسرعان ما أعلن إسلامه ليدخل في نطاق عزة الإسلام، ويستظل بظل الدولة العباسية التي كانت _آنذاك_ في أوج مجدها.. فوجد أن فرقة المعتزلة هي أكثر الفرق الإسلامية اقتراناً من الخلفاء العباسيين، فصار معتزلياً، وألف مجموعة من الكتب على هذا المذهب.. ولكن المعتزلة لم

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ٣٣.

(٢) تعليقات على كتاب الشيعة والسنة ص ٨٧_٨٨.

يفسحوا له مكاناً لائقاً بينهم، ولم يعطوه ما كان يطمح إليه، فانقلب عليهم وهاجمهم في كتاب مشهور له، عنوانه: «فضيحة المعتزلة» نقض فيه كتاب الجاحظ «فضيلة المعتزلة».

وقام المعتزلة بالهجوم عليه وأوغروا صدر الخليفة العباسي ضده، فهرب والتجأ لأعداء الدولة من الشيعة، وألف لهم كتاباً ضد مذهب أهل السنة، وكان عنوان الكتاب في الإمامة، وبعد فترة شعر ابن الراوندي أن الشيعة لن يحموه من السنة، وأنّه من الممكن أن يتقرب للسنة مرة أخرى، فكتب كتابه في التوحيد يطعن فيه بالشيعة، ثم اكتشف ابن الراوندي أنّه لم يحقق مأربه عند أهل السنة فخاصهمهم، وفي الوقت نفسه انقلب على الشيعة، فخرج عن نطاق الإسلام بما فيه من سُنة وشيعة، ولجأ إلى اليهود[(١)].

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية ص ٣٢٣_٣٢٤.

الفصل الثالث

مباحث الاعتراف بوجود الله تعالى

مباحث الاعتراف بوجود الله تعالى

تمهيد:

نذكر في هذا الفصل عدة مباحث مختصة بالاعتراف بوجوده تعالى، ونبدأ أولاً بأهمية الاعتراف بوجوده تعالى، ثم نذكر بعد ذلك الأدلة على وجوده جل شأنه، وبعدها الدواعي التي دعت إلى إنكاره تعالى والنقض عليها ، ويمكن تلخيص عوامل الانكار إلى عوامل ترجع أما للمنهج الحسي، أو للإنبهار بتطور العلوم الطبيعية كما ستلاحظ ذلك.

أهمية الاعتراف بالله:

قال السيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه:

«الاعتراف بوجود الله عَزَّ وَجَلَّ من أعظم الأُسس والقواعد التي يرتكز عليها الإسلام الحنيف، فلن يكون عملٌ من أعماله أو شعارٌ من شعائره إلاَّ هشيماً تذروه الرياح ما لم يقترن بهذا المبدأ السامي ويمتزج به امتزاج الروح بالبدن.

إنَّ الاعتراف بوجود الله تعالى يُحدث طمأنينة في النفس وراحةً للضمير، بحيث يعتبر المؤمن أنَّ لرزقه كافلاً، ولأمره مدبّراً، وللشر الذي وقع عليه

صارفاً، وللخير الذي ذهب عنه مجدّداً، ولذنبه غافراً، ولعيبه ساتراً، ولعمله شاكراً.

فلن يخاف الأقتار والشرور وطوارق الليل والنهار ما دام هناك ربٌّ حكيم عليم، يعلم بحاله، ويدبّر شأنه، ويستجيب له إذا دعاه، ويمكنه رفع ما ألمَّ به. ولن تذهب أعماله الطيّبة أدراج الرياح بعد أن جعل لها دين الإسلام المنزلة الكبرى، فليس الثواب مقتَصراً على الواجبات، بل يعدوه إلى كثير من الأُمور الاجتماعيّة الحيويّة، كسعي المؤمن في قضاء حاجة أخيه المؤمن، وفي سبيل الصالح العامّ، وفي سبيل الترفيه عن العيال، وكسعي المرأة لإسعاد زوجها وأولادها وتنشئتهم أولاداً صالحين، وأمثال ذلك كثير في الإسلام»[(١)].

هذه وجه نظر المتدينين في أهمية الاعتراف بالإله والدين، وقد كان «نيتشه» يدعي أن الإله والدين من إبداع الضعفاء ليُصبرَّهم على بَلواهم، وليستجدوا الأغنياء باسم السماء، وكان ماركس يدعي أنَّ الإله والدين من إبداع الأقوياء ليسيطروا به على الضعفاء، ويُهونوا عليهم واقعهم المرير![(٢)].

وفي تضارب رأي الملاحدة إلى هذين الضدين دليل على بطلان كلامهم؛ لأنه يدل على أن الحاجة إلى الإله حاجة للضعفاء وللأقوياء معاً، ولكن لا بالتبرير الذي ذكروه، بل لما ذكره السيد محمد الصدر قدس سره، فالطمئنينة الحاصلة بالإيمان يحتاجها القوي والضعيف معاً، بل لا تنفع قوة القوي إذا فقدت النفس اطمئنانها.

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٧٥.

(٢) أنا تتحدث عن نفسها ص ١٣.

وكلامه قدس سره يعد من الحقائق الثابتة علمياً لنا نحن كمسلمين إذ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١].

فأنى لمن لا يؤمن بالله أصلاً أن يذكره عند شدته وحاجته فيطمئن قلبه! وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[٢].

وهذا ما أكّده علماء النفس الأوربيون[٣] أنفسهم إذ يقول «وليم جيمس» أخصائي في علم النفس الحديث وأستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد:

«إنَّ الإيمان هو واحد من القوى التي يستعين بها الإنسان حياته، وفقدان الإيمان بالكامل يعني انهيار الإنسان»[٤].

ويقول «جون بي كايزل»:

«لعل أكثر ما يؤلم في عدم الإيمان، هو أن المبتلى به يشعر وكأن الدنيا وما فيها باتت مملّة غير مستقرة، في حين أن المؤمن يرى في الخلقة والحياة هدفاً لا يمكن إثباته للآخرين...
فالإيمان قلعة تقينا من أعاصير الحياة، وتحمينا من السقوط والانهيار، وهو مقياس عظيم، إذ ما قسنا بواسطته كل شيء لأدركنا ضآلة وحقارة

---

(١) الرعد ٢٨.

(٢) طه ١٢٤.

(٣) نحن إنما نستشهد بهؤلاء فمن باب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف ٢٦) وإلا فما لدينا من آيات وروايات تدل على ذلك تكفينا لمعرفة هذا الأمر.

(٤) سنّة الحياة ص ١٥٥، نقلاً عن الشاب بين العقل والعاطفة ج ١ ص ٣٠٨.

كل ما يسعدنا ويتعسنا، فلن نعود ننثني أمام الشدّة ولن نغترّ ونضلّ أمام الفرج. فمن لا دين له أشبه ما يكون بالغريق الذي يتخبط في بحر من الشك والتردد والحيرة، ولا يمكنه أن يميّز بين الخير والشر، والضّار والمفيد، والصدق والكذب، ولا مستقرّ له على عقيدة، ويعاني من صراع دائم مع الذات والطبيعة والناس»(١).

إذن فالإيمان بالله تعالى يعد أحد أنواع الاستقرار النفسي، ومن أنكر خالقه فلن يعرف هدفه الحقيقي من هذه الحياة، وسيبقى يدور في دوامات الاضطراب والشك والحيرة بكل ما يتعرض له في حياته.

كما أن انعدام الإيمان بالله في المجتمعات يُشكل خطراً مدمراً على الناس، إذ يكون كل فرد منهم مشروع أجرامي كامل غير مقيد بالضمير الذي يصده عن المعاصي والجرائم، وهذا أمر تنبه إليه كافة العقلاء ولم يتغافل عنه إلاَّ من أصيب بعمى التعصب ضد الدين، ومن هنا قال «دوستويفسكي» :

«إذا لم يكن الله موجوداً، فكل شيء مباح!» (٢).

ولتوضيح ذلك اعرض سلسلة من الاجرامات التي حدثت في فرنسا الدولة التي يقل فيها الوعي الديني والاهتمام بالله تعالى.

ففي كتاب «الجناية في فرنسا» الذي ألفه رجلان من علماء الاجتماع في فرنسا أحدهما هو «بول شولو»، والآخر «جان سوزنين»، بعد أن استفادا من

---

(١) البهجة ص ٤٣، نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) لماذا الدين، لماذا الإسلام، لماذا التشيع ص ٥٢، يوجد تعليق في الملحق على هكذا نوع من الاستدلالات على وجوده تعالى تحت عنوان: «البرهان الأخلاقي».

الإحصائيات والملفات الجنائية بمعونة الشرطة. لقد ورد في إحدى تلك الاحصائيات ما يلي:

«تقع في فرنسا سرقة واحدة في كل دقيقتين، وعملية اختطاف واحدة في كل عشر دقائق، وسرقة سيارة في كل ثلاثين دقيقة واتصال جنسي غير مشروع في كل ثلاث ساعات ، وجناية واحدة في كل أربع ساعات...»[(١)].

أن الشرطة وكاميرات المراقبة لا تولد ضميراً لدى المجرمين، بل يمكن التحايل عليها بطريقة أو بأخرى، أما لو كان المجتمع يؤمن بالله والدار الآخرة لكان كل فرد يراقب كل ذرة من أعماله خشيةً من الله تعالى القدير ومن يوم الحساب.

وقد حاول الملحد المعاصر «دوكينز» نفي الفكرة التي أشار إليها السيد محمد الصدر قدس سره إذ يقول:

«العديد من الدراسات للمشككين حيث يظهر الدين هو السبب للتوتر النفسي في العديد من الظروف بدل أن يكون المُخفف لها. أنه من الصعب التصديق بأن صحة المريض تتحسن عند الشعور بالذنب...» [(٢)].

وأنت ومن يستحق الخطاب تعلم المغالطة التي قالها، فالمريض إذا شعر بأن ربه سيشفيه يمكن أن تتحسن صحته، ولا نقول أنَّ على المريض أن يشعر بالذنب!

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ج ١ ص ١٦٥.

(٢) وهم الإله ص ١٦٨.

فالدين لا يعني أنك دائماً ينبغي أن تشعر بالذنب، بل تارة تشعر بالأمل بالله، وأخرى تشعر بالعزة بالله، وعند الذنب تشعر بالذنب وغيرها من الحالات التي ذكرها السيد محمد الصدر بالنص الذي ذكرناه، أما عند المرض فالحال مختلف، بل أن الروايات متضافرة عن أهل البيتعليهم السلام بأن المريض المؤمن مغفور له، وهو في حال المرض يشعر بأنَّ الله عز وجل راضٍ عنه ولا يكتب له إلاَّ صالحاً ولا نقول لمرضانا أشعروا بالذنب، بل إنَّ المرض كما في النصوص الدينية نوع من أنواع غفران الذنوب، وأن المريض يكتب له من الحسنات ما كان يعمله في حالة صحته ونحو ذلك من الأمور التي تشعر المريض بالاطمئنان النفسي تجاه خالقه القدير.

أدلة وبراهين على وجود الخالق

تمهيد:

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فالويل لمن جحد المقدر وأنكر المدبر. زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف صورهم صانع. ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما أوعوا. وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان»[1].

أتفق العقلاء جميعاً ـ إلاَّ من شذ منهم ـ بأنَّه لا بد لكل أثر من مؤثر ولكل معلول من علّة، فلا يمكن للشيء أن يوجد من تلقاء نفسه، وقسموا الموجودات بأحد الاعتبارات إلى واجب الوجود وممكن الوجود، فالواجب ما كان وجوده ضروري لا يحتاج في وجوده إلى وجود آخر؛ لأن ذلك يستلزم التسلسل

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبدة ج ٢ ص ١١٨.

الباطل[١] والممكن ما كان مفتقراً في أصل وجوده لموجد وخالقٍ يبرئه من العدم إلى الوجود، ونحن هنا نذكر الأدلة على وجود هذا الخالق القدير مع الأعتذار إليه ولا حول ولا قوة إلاَّ به.

الدليل الأول: حاجة الممكن إلى علة

قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه:

«قد أستند الإسلام في الإستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده على جملةٍ من البديهيّات العقليّة التي يدركها الإنسان لأوّل وهلة، ويدركها في كل ناحية من نواحي حياته؛ لأنَّها من الأمور الجبلية[٢] الفطرية التي لا تحتاج إلى أيّ فكرٍ ونظر، فقد قال عزّ قائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾[٣].

والإستدلال بهذه الآية يدور حول احتياج الممكن ـ وهو الذي يستوي فيه طرفا احتمال وجوده وعدمه في نظر العقل ـ إلى علّة ترجّح وجوده ليوجد هذا الممكن، ومع عدم ترجّح طرف وجوده بعلّةٍ موجبة لذلك فلا يمكن أن يوجد؛ لأنَّ احتمال الوجود والعدم ما دام متساوياً في نظر

---

(١) بمعنى أننا لو قلنا بأن السلسلة لا تنقطع لبقينا نسأل حتى ينقطع النفس فإن قلنا بأن الإنسان قد خلقه الله ولو سؤلنا: من خَلَقَ الله؟ قلنا أن هذا السؤال خاطئ؛ لأننا نفترض أن الله هو الموجد لكل شيء ولو كان مخلوقاً لقلنا مجدداً ومن الذي خلقه! إلى غير انقطاع فنقع بالتسلسل الذي هو باطل بكل العلوم والفنون إذ لا بد لكل شيء من نهاية نقف عندها.

(٢) أي الأمور التي جُبلت النفس على تصديقها والإذعان بها.

(٣) الطور ٣٥ ـ ٣٦.

العقل فلا بدَّ من مرجّحٍ لأحد الطرفين ليحكم العقل به.

وهذه القاعدة وإن كانت دقيقة التفاصيل صعبة الفهم، ولكنّها مع ذلك بديهيةٌ أوّلية، يدركها حتى من لا يعرف القراءة والكتابة، فكيف يشتري الفقير داراً بدون مالٍ لديه؟ أم كيف يداوي الطبيب مريضاً بدون دواء؟ أم كيف يرتوي العطشان بدون الماء.

إذن، فلا بد للفقير من مال لشراء الدار، ولا بدَّ للطبيب من دواء لعلاج المريض، ولا بدَّ للعطشان من الماء ليرتوي، ولا بدَّ للممكن من علّةٍ ليُوجد، ولا يمكن أن يوجد الممكن؛ لأنَّه محتمل الوقوع فقط؛ لأنَّ مجرّد الاحتمال ليس له القوّة الكافية لدفع الممكن من العدم إلى الوجود؛ لأنَّه خالٍ من ترجيح طرف الوجود، كما أنَّ مجرّد احتمال أن يشتري الفقير داراً بدون أن يكون لديه النقد الكافي، ومجرّد احتمال علاج المريض بدون أن يستعمل الدواء، لا يمكن أن يكون موجباً لشراء الدار وشفاء المريض»[1].

شرح الإستدلال القرآني:

ويكمل السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ شرح الآية[2] التي تقدمت قائلاً:

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) قد يشكل ويقال كيف يستدل الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ على إثبات وجود الله تعالى بالقرآن الكريم؛ إذ إن المنكر لوجوده تعالى لو كان يؤمن بالقرآن لما تكلف هذا الإستدلال؟ والجواب: أنهقُدِّسَ سِرُّهُ اعتبر القرآن الكريم في هذا المقام يُقدم دليلاً علمياً عقلياً، ونحن نستدل بالمنطق القرآني من ناحية عقلية لا تعبدية، وهذا مما لا إشكال فيه أساساً نظير ما إذا ورد في نص

«والإستدلال المستند إلى البديهيّة في الآية الكريمة، يمكن أن يُجعل بهذه الصورة: الممكن إمّا أن يخلق بدون واسطة شيء، أي: بدون علّةٍ توجب وجوده، أو أن يُخلق بواسطة خالقٍ قدير؛ وحيث انتفى القسم الأوّل منهما بقوله تعالى على سبيل الاستفهام الاستنكاري: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾(1)، وهو ما سبق أن ذكرناه من عدم إمكان وجود الممكن المتساوي طرفي الوجود والعدم بدون علّةٍ مرجّحة لطرف وجوده، تعيّن القسم الثاني، وهو وجوب الوجود الممكن بواسطة خالقٍ قدير.

وتوخّياً لاستيعاب جميع الاحتمالات لاختبار الصواب منها نقول: إنَّ هذا الخالق إمّا أن يكون من بعض الممكنات، أو يكون كلّ الممكنات، أو يكون شيئاً خارجاً عنهما مسيطراً عليهما. وندفع الاحتمالين الأوّلين ببديهية أنَّ الممكن يستحيل أن يكون خالقاً لنفسه كلّه أو بعضه، أو يكون بعضه خالقاً له؛ لأنَّه إمّا أن يخلق نفسه حال عدمه وقبل أن يكون شيئاً له وجودٌ خارجيّ، فهو باطل؛ لضرورة عدم إيجاد المعدوم للموجود؛ ولأن المعدوم هو ـ في الحقيقة ـ لا شيء فكيف يوجد شيئاً من الأشياء؟!

وأمّا أن يخلق الممكن نفسه حال وجوده، وهو باطل أيضاً؛ لأنَّنا بعد فرضنا لوجوده فلا حاجة تبقى له لخلق وجود آخر، وهو ما يسمى باصطلاح الفلاسفة بتحصيل الحاصل، وهو محال.

ديني مثلاً: أن 1 + 1 يساوي ٢، فهنا لا نقول بأننا لا نقبل النتيجة لأنها وردت في نص ديني، بل نقول أن العاقل يتقبلها كنتيجة صحيحة وإن كانت واردة بنص لا يؤمن به عقائدياً.

(١) الطور الآيتان ٣٥.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة محيلّة دليله إلى الفطرة العقلية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[١] فتعين إذن القسم الثالث من الاحتمالات وهو أن يكون الخالق خارجاً عن الممكنات مسيطراً عليها سيطرة إيجادٍ وخلق»[٢].

الدليل الثاني: برهان النظم

من البراهين التي يُستند إليها في إثبات وجوده تعالى هو «برهان النظم» كما يعبر عنه علماء المسلمين، ويعبر عنه فلاسفة الغرب بـ«التصميم الذكي» وتوضيح معناه باختصار بالشكل التالي:

إن برهان النظم يقوم على مقدمتين: إحداهما حسية، والأخرى عقلية.

أما الأولى: فهي أن هناك نظاما سائداً على الظواهر الطبيعية التي يعرفها الإنسان إما بالمشاهدة الحسية الظاهرية وإما بفضل الأدوات والطرق العلمية التجريبية. وما زالت العلوم الطبيعية تكشف مظاهر وأبعاداً جديدة من النظام السائد في عالم الطبيعة، وهناك مئات بل آلاف من الرسائل والكتب المؤلفة حول العلوم الطبيعية مليئة بذكر ما للعالم الطبيعي من النظام المعجب. فلا حاجة إلى تطويل الكلام في هذا المجال.

وأما الثانية: فهي أن العقل بعد ما لاحظ النظام وما يقوم عليه من المحاسبة والتقدير والتوازن والانسجام، يحكم بالبداهة بأن أمراً هكذا شأنه يمتنع صدوره

---

(١) الطور الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨.

إلاَّ عن فاعلٍ قادرٍ عليمٍ ذي إرادة وقصد، ويستحيل تحققها صدفة وتبعاً لحركات فوضوية للمادة العمياء الصماء، فإن تصور مفهوم النظم وأنه ملازم للمحاسبة والعلم يكفي في التصديق بأن النظم لا ينفك عن وجود ناظم عالم أوجده، وهذا على غرار حكم العقل بأن كل ممكن فله علة موجدة ، وغير ذلك من البديهيات العقلية[1].

وبعض المفكرين قال أن لله كتابان: كتاب مقروء وكتاب منظور كلاهما يهديان الإنسان إلى الله تعالى؛ أما الكتاب المقروء فهو القرآن الكريم، وأما الكتاب المنظور فهو الكون وما فيه من بدائع تدل على الله الخالق المبدع.

وفي هذا المقام نذكر كلاماً للشهيد السيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ وهو يمزج الكتابين المقروء والمنظور معاً مستدلاً بهما على إثبات الصانع إذ يقولقُدِّسَ سِرُّهُ:

«ومن الطرق المهمّة التي سلكها الإسلام في تنبيه العقل إلى وجوده تعالى، التفكّر في خلق الله وإجالة نظر في هذا الكون العجيب؛ ليظهر أمام الناظر ما احتواه من قوانين دقيقةٍ ونظم رتيبةٍ وظواهر مدهشة.

وكيف أنَّها لا بدَّ أن تكون صادرة عن قوةٍ قادرة عالمة مدبرة، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

---

(١) مختصر الإلهيات ص ٢٢.

(٢) البقرة ١٦٤.

وألفت الإسلام نظر الإنسان أيضاً إلى دخيلة نفسه وأعضاء جسمه، وجعل الله فيهما من قوى فعّالة وطاقاتٍ هائلة، فقال عزّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(٣).

ونبّه الإسلام أيضاً في القرآن على نعم الله وما خصّ الإنسان به من أسباب للمعيشة المريحة والحياة المطمئنّة، ونبّه على ما في ارتفاع هذه النعم الجمّة على البشرية من سوءٍ وضرر، فقال عزّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٤).

ولأجل هذه البداهة التي يتجلّى بها البرهان الإلهي، صار من الواجب العقليّ على كل فردٍ أن يفكّر ويجيل النظر ويطيل التأمّل في عجائب ما خلق الله؛ ليهتدي إلى الله، وليستضيء بنوره: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي

---

(١) النحل ٧٨.

(٢) الفرقان ٥٤.

(٣) الروم ٥٤.

(٤) القصص الآيتان ٧١ ـ ٧٢.

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١].

وكل من فكّر وتدبّر فلا بدَّ أن يصل إلى نتيجة، ولا بدَّ أن يهديه الله إلى سبيله، ويرشده إلى رضاه، ومَن امتنع عن التفكير كان عاصياً لعقله، متمرّداً على ضميره، خارجاً عن وجدانه وجبلّته»[٢].

ومن الطريف أن نذكر حواراً شعرياً جرى بين حسناء مليحة ملحدة وشاعر موحد إذ دعته إلى الإلحاد فقال فيها:

ومَليحة تَرمـي السهـام سديدةً بالحسنِ، أما الفكر غيرُ سديدِ
تدعو إلى الإلحـاد في كلماتها وجمالها يدعـو إلى التوحيدِ

أي أنّ جمالها يدلّ على الله تعالى فكيف غفلت عنه وهو شيء تدركه الأبصار فمن الذي أوجد هذه الهيئة الجميلة وأفاض عليها هذا الجمال الظاهري، فتنظيم الشكل وترتيبه لا بدّ له من منظم صانع مبدع.

(١) يونس ١٠١.

(٢) إشراقات فكرية ص ٧٧ ـ ٨٠.

الدليل الثالث: برهان الصادقين

لما كان هذا البرهان من مختصات السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عزلته عن باقي الأدلة لطول الكلام فيه، وكبداية أقول تمهيداً:

لا يخفى على القارئ أن صفة «الصدق» من الصفات الحميدة، وإن الإنسان قد يأخذ أي كلام على غير محمل الجد والإهتمام إلاَّ إذا صدر من شخص «صادق» فإن خبره سيكون محط رعاية عنده.

وفي بداية الدعوة النبوية ساهمت صفة الصادق التي كانت من أخلاقيات نبينا الكريمصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في نشر الإسلام كما روى أبن عباس: صعد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على الصفا فقال: يا معشر قريش! فقالت قريش: محمد على الصفا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: مالك يا محمد؟ قالصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط، قالصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة - حتى عدد الأفخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي

الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلاَّ أن تقولوا: لا إله إلاَّ الله[(١)].

فلاحظ بنفسك أنَّه أول ما ألزم به المدعوين هو صدقه في الحديث ومن كان صادقاً لا ينبغي تكذيبه فيما يقول.

والبرهان المذكور يعتمد على صفة «الصدق» عند الأنبياء والمرسلين، فإنهم كلهم عليهم السلام كانوا متصفين بهذه الصفة، بل إن من شرائط النبوة أن يكون النبي صادقاً معصوماً عن الكذب وكل المعاصي، وقد اعتمد السيد محمد الصدر قدس سره على هذه الصفة في إثبات وجوده تعالى كما ستلاحظ بنفسك وترى مدى قوة إستدلاله بهذه الصفة على وجوده تعالى.

وهذا البرهان لم يذكر في كتب العقائد على نحو مستقل وإن كانت توجد له اشارات وتلميحات، وهو يختلف عن برهان الصديقين الذي سيأتي شرحه؛ لأجل التمييز بينهما. وهذا البرهان مستفاد من قوله قدس سره الذي لخصه في عدة نقاط أذكر أثنين منها بقدر محل الشاهد، حيث قال قدس سره:

«النقطة الأولى: أنت تلاحظ، وأنا ألاحظ، وكل عاقل يلاحظ، على وجه البسيطة، وليس في النجف، وليس في العراق فقط، وليس في هذا الجيل، بل في كل جيل، من آدم إلى يوم القيامة، أن الناس الطيبين يؤمنون بالله، وإن غير الطيبين لا يؤمنون بالله ـ مختصر مفيد ـ أن المؤمنين عندهم إنسانية، وعندهم إنصاف، وعندهم طيبة، وعندهم

---

(١) ميزان الحكمة ج ٤ ص ٣٢٢١.

إخلاص...وبالمقابل فإن الذين لا يؤمنون بالله يجرحون وجهك ويدك ورجلك، مكرة فسقة منحرفون ظلمة، إلى أخره، حينئذٍ معنى ذلك أن الإيمان بالله هو حصة الطيبين، وإنكار الله سبحانه وتعالى، هو حصة الفاسدين، ويكفينا هذا دليلاً على وجوده جل جلاله، وعلى لطفه وقدرته.

لا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء الناس الطيبين ليسوا واحداً واثنين، بل ملايين، اربع وعشرون ألف نبي، كلهم ناس طيبون، فهل فيهم نبي غير طيب؟ كلهم صالحون أوليائهم صالحون، كلهم خاشعون لله متذللون أمام الله.

النقطة الثانية: يأتي لك واحد يقول لك إن زيداً من الناس رجع من الحج، يأتي لك آخر ايضاً يخبرك بنفس الخبر، ويأتي لك ثالث يأتي رابع، إلى عشرة، خمسة عشر مرة، يحصل عندك اليقين بأن زيداً راجع من الحج، وهذا ينبغي أن يكون واضحاً، وهو الذي يسمى باصطلاح المنطق بالمتواتر، خبر متواتر، أي يأتي لك شخص من الانبياء يقول إنه أوحي إليَّ، ويأتي ثانٍ فيقول إنه أوحي إلي، يأتي ثالث ويقول إنه أوحي إليَّ، يأتي رابع، وهكذا إلى أربع وعشرين ألف نبي.

إذن فظاهرة الوحي متواترة، أكثر من المتواتر بكثير، مثلاً تقول أشك بنفسي، ولا أشك بأن الوحي إجمالاً قد نزل وأن الكتب صحيحة، يعني آخر جملة منها صحيحة، أو كلها صحيحة، لا يحتمل أن تكون كذباً من أولها إلى آخرها؛ لأنه شهد الشهود الثقات العالون المعرفة، والمراتب الإنسانية.

طبعاً مثلاً إذا كان هؤلاء العشرة الذين أخبروك بوجود زيد، ناس عاديون، طبعاً يحصل لك يقين أقل، أما إذا كانوا عشرة من ثقاتك ومقربيك والمخلصين لك، يحصل لك يقين أزيد، التبليغ عن ظاهرة الوحي موجودة على ألسن أعاظم الناس، وأكابر الناس، وخير الناس. إذن فيكفي ثلاثة يكفي واحد أن نصدق أن الوحي موجود، فضلاً عن أربعة وعشرين ألف نبي، ومن تبعهم من الوصي والولي والمؤمنين الصالحين، وأحسن أولئك رفيقاً، فإذا ثبت الوحي بالتواتر ثبت المُوحي بالتواتر وهو الله سبحانه وتعالى»[1].

شرح برهان الصادقين:

ذكر السيد محمد الصدرقدّس سرّه مكرراً إن الوحي متواتر، وإذا ثبت تواتره ثبت تبعاً وجود المُوحي وهو الله جل جلاله. ولكن هل التواتر حجة على جميع العقلاء أم على المؤمنين فقط؟ وللإجابة على ذلك لا بد أن نعرف أولاً ما هو التواتر اصلاً؟ فنقول: إن للتواتر معنيان:

المعنى الأول: التواتر الأرسطي

المنطق الارسطي يعرّف الخبر المتواتر بالخبر الذي نقله جماعة كثيرة يستحيل تواطؤهم على الكذب. ومن خلال هذا التعريف نفهم ان الخبر المتواتر يتركب من مقدمتين:

المقدمة الأولى: اخبار جماعة كثيرة وهم الأنبياء في هذا البرهان.

---

(١) منبر الصدر ص ١١٦ – ١١٧.

المقدمة الثانية: ان الجماعة الكثيرة يستحيل اجتماعها على الكذب.

اما المقدمة الاولى: فهي ثابتة بالحس والوجدان، اذ سمعنا بالاذن أو نقل إلينا اخبار الجماعة الكثيرة.

واما المقدمة الثانية: فمن حقنا ان نسأل المنطق الارسطي ونقول كيف يمكن اثبات ان الجماعة الكثيرة يستحيل اجتماعها على الكذب؟

ويجيبنا عن ذلك: بان هذه القضية هي من القضايا البديهية التي يحكم بها العقل بمجرد تصورها، فهي مثل قضية «الكل اكبر من الجزء» فكما ان هذه القضية بديهية ويحكم بها العقل بمجرد تصورها كذلك قضية ان الجماعة الكثيرة يستحيل اجتماعها على الكذب هي مما يحكم بها العقل بمجرد تصورها. ومن هنا عدّ المنطق الارسطي الخبر المتواتر واحداً من القضايا الضرورية الست التي لا يحتاج تصديقها إلاَّ تكلف الإستدلال، فانا قرأنا فى المنطق ان القضايا الضرورية ست احداها المتواترات[1].

---

(١) أنّ موادّ البرهانيات منحصرة في الضروريات الستّ، فإنّها:

١ - إمّا أوّليات كـ«كون الكلّ أعظم من الجزء» و «كون النفي والإثبات لا يجتمعان» .

٢ - أو حسّيات سواء كانت بالحواسّ الظاهرة المسمّاة بالمشاهدات كـ«كون هذا الجسم أبيض» أو «هذا الشيء حلو أو مرّ» أو بالحواسّ الباطنة المسمّاة بالوجدانيات وهي الأمور الحاضرة بنفسها للنفس كـ«حكمنا بأنّ لنا علماً وشوقاً وشجاعة» .

٣ - أو فطريات وهي القضايا التي قياساتها معها كـ«كون الأربعة زوجاً» لأنّها منقسمة بالمتساويين، وكلّ منقسم بالمتساويين زوج .

٤ - أو تجريبيات وهي الحاصلة بتكرّر المشاهدة كـ«حكمنا بأنّ سقمونيا مسهل» .

وشبيه هذا البيان ذكره المنطق الارسطي في القضية التجريبية، فان اليقين بكون الآسبرين علة للشفاء حاصل من مقدمتين هما:

المقدمة الأولى: اقتران الشفاء بتناول القرص مرات عديدة.

المقدمة الثانية: ان الصدفة لا تتكرر دائماً ولا غالباً. ومع عدم تكرر الصدفة فلا يمكن ان يكون الشفاء حاصلاً صدفةً وليس لأجل تناول القرص.

واذا سألنا المنطق الارسطي عن هذه القضية - التي هي بمثابة الكبرى - وقلنا له ما هو المدرك لها لأجابنا ان هذه القضية بديهية مثل قضية الكل اكبر من الجزء. ومن هنا عدّ المنطق الارسطي القضية التجريبية واحدة من القضايا الست الضرورية.

واضاف قائلاً: ان هذه القضية ليست ثابتة بسبب التجربة لانها هي المدرك لا ثبات القضية التجريبية - اي كون القرص علة للشفاء - فلو كانت ثابتة بالتجربة يلزم الدور.

ومن خلال هذا العرض يتضح ان الكبرى في الخبر المتواتر هي ان الجماعة الكثيرة يستحيل اجتماعها على الكذب بينما الكبرى في باب التجربة هي ان الصدفة لا تتكرر.

وبعد التأمل يمكننا القول بان كلتا الكبريين واحدة وهي ان الصدفة لا تتكرر،

---

٥ - أو متواترات كـ«حكمنا بوجود مكّة» لإخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب عادةً.

٦ - أو حدسيات موجبة لليقين، كـ«حكمنا بأنّ نور القمر مستفاد من الشمس»، لتشكّلات البدرية والهلالية وأشباه ذلك (القطع ص ٢١٢).

فان الجماعة الكثيرة انما يستحيل اجتماعها على الكذب من جهة استحالة تكرر الصدفة، فان لازم اجتماع جميع المخبرين على الكذب افتراض ان مصالح جميع المخبرين قد اتفقت صدفة واقتضت الكذب، وهذا معناه تكرر الصدفة.

وباختصار: ان المنطق الارسطي يرى أن السبب في افادة القضية التجريبية والمتواترة لليقين هو القياس المنطقي المركب من مقدمتين كبراهما قضية «الصدفة لا تتكرر» التي قال انها ضرورية لا تحتاج الى استدلال[١].

المعنى الثاني: التواتر الاستقرائي

والشهيد السيد محمد باقر الصدرقدس سره يرى ان السبب لتولد اليقين في القضية المتواترة والتجريبية هو «**حساب الاحتمال**» - لا ما ذكره المنطق الارسطي - فان المخبر الاول حينما يخبر عن قصة «غدير خم» مثلاً فاحتمال صدقه ثابت ولنفرضه ١٪ فاذا اخبر الثاني فاحتمال الصدق يقوى الى ٢٪ مثلا. وهكذا بكل اخبار جديد يقوى احتمال الصدق ويضعف من ذلك الجانب احتمال الكذب الى درجة الصفر او قريب منه.

هذا هو منشأ حصول اليقين في القضية المتواترة وليس هو تلك القضية التي افترضها المنطق الارسطي وهي «الصدفة لا تتكرر».

ونفس الشيء يقال في القضية التجريبية، فان احتمال كون العلة للشفاء تناول القرص وان كان ضعيفاً في المرة الاولى إلاَّ انه يقوى في المرة الثانية والثالثة وهكذا الى ان يحصل اليقين او ما يقرب منه.

---

(١) الحلقة الثالثة في أسلوبها الثاني ج ٢ ص ٢٦ ـ ٢٨.

يبقى علينا ان نوضح كيف نحصر السبب لحصول اليقين في **حساب الاحتمال** والحال ان كون السبب هو تلك القضية التي افترضها المنطق الارسطي امر محتمل ايضاً.

وفي هذا المجال يمكن ذكر نكتتين للحصر:

النكتة الأولى: ان القضية التي افترضها المنطق الارسطي هي مبنية بنفسها على التجربة، فانه حيث لاحظنا في وقائع كثيرة ومتعددة ان لكل شيء علة منظورة- اي مشخصة- ولم يقع صدفة حكمنا بان الصدفة لا تتكرر.

فمنشأ هذه القضية اذن هو التجربة وليست هي قضية اولية ثابتة في عقل الانسان. وما دامت ثابتة بالتجربة فلا يمكن ان تكون هي السبب لحصول اليقين بالقضية التجريبية.

النكتة الثانية: ان حصول اليقين في القضية المتواترة والتجريبية لو كان ناشئاً من تلك القضية التي افترضها المنطق الارسطي (وهي اجتماع الكثرة على نقل الخبر) فاللازم ان يحصل اليقين بشكل واحد في جميع الحالات مع انا نلاحظ ان حصول اليقين يكون اسرع لو كان المخبرون في درجة عالية من الوثاقة كالأنبياء الذين ذكرهم السيد محمد الصدرقدس سره او كانت الظروف تساعد على صدق تلك القضية وهكذا بالنسبة الى بقية العوامل المؤثرة.

وهذا منبهٌ وجدانيٌ على ان السبب في حصول اليقين ليس هو تلك القضية التي ادعى المنطق الارسطي ثبوتها في العقل وانها من القضايا الضرورية الواضحة

وإلا لزم ان يكون حصول اليقين على منوال واحد في جميع الحالات[١].

فإذا أخذنا في الخبر المنقول لنا صفات الخبر وصفات المخبرين، فنقول كلما كان المخبرون عالون في المعرفة والوثاقة كان حصول اليقين من قولهم يتحقق بعدد أقل وبسرعة أكثر، بينما إذا كان الناقلون أقل وثاقة وأدنى معرفة تباطئ حصول اليقين منهم واحتيج إلى عدد أكثر لتحقيق اليقين.

تطبيق على المقام:

بعد أن عرفت إن للتواتر معنيان، الأول التواتر الأرسطي، والثاني التواتر الاستقرائي[٢]، الذي حققه السيد محمد باقر الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ نقول هنا، أي معنى من التواتر كان يقصده السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ؟

والجواب: أنَّهقُدِّسَ سِرُّهُ كان يقصد «التواتر الاستقرائي»؛ وذلك لأنهقُدِّسَ سِرُّهُ لاحظ صفات المخبرين مع العدد وقال:

«لا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء الناس الطيبين ليسوا واحداً واثنين، بل ملايين، اربع وعشرون ألف نبي، كلهم ناس طيبون، فهل فيهم نبي غير طيب؟ كلهم صالحون أوليائهم صالحون، كلهم خاشعون لله متذللون أمام الله».

وإنما أخذ صفات المخبرين لكي تكون مؤيداً على ارتفاع نسبة الصدق فيهم وبالتالي يتشكل التواتر على حساب الاحتمال المفضي إلى اليقين.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) إنما أسميته بالإستقرائي لأنه يعتمد على استقراء الاحتمالات ونوعها.

أما المنطق الأرسطي فلا يأخذ بصفات المخبرين، بل بمجرد أن يجتمع عدد كبير من الناس يمتنع تواطئهم على الكذب يثبت التواتر قال قدس سره :

«طبعاً مثلاً إذا كان هؤلاء العشرة الذين أخبروك بوجود زيد، ناس عاديون، طبعًا يحصل لك يقين أقل، أما إذا كانوا عشرة من ثقاتك ومقربيك والمخلصين لك، يحصل لك يقين أزيد، التبليغ عن ظاهرة الوحي موجودة على ألسن أعاظم الناس، وأكابر الناس، وخير الناس. إذن فيكفي ثلاثة يكفي واحد أن نصدق أن الوحي موجود، فضلاً عن أربعة وعشرين ألف نبي، ومن تبعهم من الوصي والولي والمؤمنين الصالحين، وأحسن أولئك رفيقاً، فإذا ثبت الوحي بالتواتر ثبت المُوحي بالتواتر وهو الله سبحانه وتعالى».

وهذا صريح جداً في أنه يسير في تفسير التواتر على رأي أستاذه الشهيد الصدر الأول قدس سره، فإن المنطق الأرسطي لا يمكن فيه إثبات التواتر من ثلاثة أشخاص أو شخص واحد؛ بل من اجتماع عدد كبير من الناس يمتنع تواطئهم على الكذب.

أما على رأي الشهيد الصدر الأول قدس سره فالتواتر مرتبط بعدة عوامل منها ملاحظة صفات المخبرين من حيث كونهم ثقات وصادقين، والظروف التي نقل فيها الخبر هل هي ظروف جد وحزم، أم ظروف لعب ولهو وهزل ونحو ذلك.

ونحن الإمامية نشترط في كون من يبلغ عن الله من أنبياء وأولياء لا بد أن يكونوا من المعصومين لترتفع نسبة الصدق والاطمئنان لأقوالهم، قال العلامة الحلي قدس سره:

«اختلف الناس ههنا فجماعة المعتزلة جوزوا الصغائر على الأنبياء أما على سبيل السهو كما ذهب إليه بعضهم أو على سبيل التأويل كما ذهب إليه قوم منهم أو لأنها تقع محبطة بكثرة ثوابهم وذهبت الأشاعرة والحشوية إلى أنه يجوز عليهم الصغائر والكبائر إلاَّ الكفر والكذب وقالت الإمامية إنه يجب عصمتهم عن الذنوب كلها صغيرة كانت أو كبيرة»(١).

ولا أدري كيف يتصور أن يدل شخصاً لأول مرة على الله تعالى وهو قد يكون عاصياً وقد تصدر منه المساوئ؟! فمن هنا فإن برهان السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ نابع من عقيدة الإمامية من أن الانبياء والمرسلين معصومون منزهون عن المعاصي كبيرها وصغيرها، فإذا أخبروك بشيء كنت مصدقاً له.

فإذا أخبرك شخص أو عدة أشخاص في منتهى الورع والتقوى والصدق والأمانة بأن شيئاً ما قد حدث فهل يمكنك أن تقول أن هؤلاء يكذبون، أم ستقول أنهم صادقون لأن القيمة الاحتمالية لصدقهم ستكون قوية ترجح أحتمال صدقهم؟! بخلاف ما لو أخبرك العصاة الكذابين فإنّك لا تطمئن لقولهم عادةً.

وما يجعل هذا البرهان أكثر عملية هو أن بعض الملحدين كـ«دوكينز» يعتمد في نفي وجود الله تعالى على حساب الاحتمالات كذلك، إلاَّ أنك بملاحظة عدد المخبرين أولاً ووثاقتهم وأمانتهم ثانياً يمكنك أن تحصل على قيمة احتمالية عالية تسحق حسابات دوكينز الواهية.

---

(١) تجريد الاعتقاد ص ٣٢٦.

تنبيه:

وأود أن أنبه أن التواتر لا يدرس فقط في العلوم الدينية، بل هو منهج لكثير من العلوم كالتاريخ والقانون وغيرها، بل ويدخل حتى في العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء وغيرها التي تعتمد على المنهج التجريبي في مختبراتها؛ وذلك للعلاقة الوثيقة بين التواتر والمنهج التجريبي القائم على حساب الاحتمال في معرفة أحوال المادة الطبيعية المجرى عليها الاختبارات الكيميائية أو الفيزيائية ونحوها.

فمن هذه الناحية لا يمكن لأحد أن يتنكر علينا ويقول أنكم تستدلون على وجود الله تعالى بشيء يدرس في الدين وهذا يلزم الدور، بل نقول لهم أن هذا منهج من المناهج العقلائية التي يدرسها كل العقلاء بما فيهم الملحدين، وقد كانت لـ «ديفد هيوم» محاولات لسد ثغرة عليمة عجز عن سدها وحلها وقد عالجها بنجاح السيد محمد باقر الصدرقدس سره في كتابه «الأسس المنطقية للإستقراء».

وقد اقترح الدكتور محمد شوقي الفنجري[(١)] على السيد محمد باقر الصدرقدس سره أن يسعى لترجمة كتاب الاسس المنطقيّة للاستقراء، وقال: لو ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزيّة ترجمة دقيقة فسوف يُحدث (ثورة) في اوروبا. واقترح أن يقوم بالترجمة الدكتور زكي نجيب محمود[(٢)].

---

(١) الدكتور الفنجري يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد وكان مستشار أقتصادياً للرئيس المصري أنور السادات وأستاذاً في عدد من الجامعات المصريّة والعالميّة.

(٢) سنوات المحنة وأيام الحصار ص ٦٧.

هجمات على برهان الصادقين:

لما كان البرهان الذي ذكره السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ من انفع البراهين الدالة على وجود الله تعالى، فقد سعى انصار الإلحاد إلى بث شبهاتٍ حول الأنبياء، تمس بشخوصهم ونزاهتهم وتحط من قدرهم وكرامتهم.

وقد ساهم السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ بالرد على هذه الشبهات بكتابٍ له تحت عنوان «رفع الشبهات عن الأنبياء». وقد قالقُدِّسَ سِرُّهُ في مطلع هذا الكتاب:

«انها لجريمة كبرى تلك التي اقترفها المسلمون بحق أنبياء الله ورسله عندما يؤمنون بتلك الافتراءات وينادون بها، بل ويتدارسونها في معاهدهم. حتى لقد طغت هذه الوساوس الشيطانية والأفكار السرطانية على كثير من المسلمين. ولم يبقَ اليوم مذهب من مذاهب المسلمين، إلاَّ وقد انجرف مع هذا التيار الأعمى سوى الشيعة الاثنى عشرية (رضوان الله تعالى عليهم) الذين ما وهنوا ومنذ بدء تسرب هذه الأفكار الملعونة إلى عالم الوجود، وهم يذودون عن بيضة الإسلام بالسيف والقلم»[١].

ذلك لأن هذه الشبهات التي يطرحها الأحبار من أهل الكتاب، والكثير من المستشرقين ـ كما تقدم شرحه ـ تساهم بصورة كبيرة على تقليل النسبة الاحتمالية للإيمان بوجود الله تعالى، حسب المنهج الذي ذكرناه سابقاً: من أن قبول الخبر المتواتر بحسب نظرية حساب الاحتمالات ينظر إلى الخبر والمخبر معاً، فإذا

---

(١) رفع الشبهات عن الأنبياء ص ١٢.

شوهت صورة المخبر(وهم الانبياء) بالشبهات والاتهامات الباطلة وساء الناس بهم الظن قل قبول قولهم وانثلمت نسبة كبيرة من القيمة الاحتمالية لتصديقهم.

كما أن هذا البرهان مبني على حساب الاحتمالات والمطلوب منه هو كون احتمال وجود الله هو الأكثر كذلك الملحدون يريدون أن يجعلوا نسبة عدم وجود الله هي الاكبر، قال دوكينز:

«لنفترض بأننا آمنا بأن هناك احتمالاً صغيراً لوجود الله، وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول إنك يمكن أن تحيا حياة أفضل»(١).

فإنه يحاول بكل صورة القضاء على النسبة الاحتمالية لوجود الله تعالى والحط من مقدارها، ولا أدري كيف يمكن أن يحيا الإنسان حياة أفضل بإنكار الإله مع هذا الاحتمال الكبير ـ الذي شرحناه ـ لوجوده تعالى!!.

ثم إن الحياة الأفضل لا تنعدم بوجود الإيمان، اللهم إلاَّ أن يقصد بالحياة الأفضل أطلاق العنان للشهوات والملذات وإن كانت تضر بالآخرين وتهدد مصالحهم، فالمجرمون والمستغلون وأصنافهم فقط هم الوحيدون الذين يرون الحياة الأفضل تتجسد في رفض الإله المثيب والمعاقب! ولعل دوكيز يقصدهم دون غيرهم!

محل الشاهد: أنه من اعظم الجرائم نسب القبائح للأنبياء؛ لأنها تؤدي إلى التشكيك بصدقهم وبما كانوا يدعون إليه.

وقد واستثنى قدس سره الشيعة الإمامية فإنهم لا ينسبون إلى الأنبياء ما لا يليق بهم؛

---

(١) وهم الإله ١٠٨.

لأنهم يقولون بعصمة جميع الانبياء ولا ينسبون إليهم الكبائر ولا الصغائر، وبذلك فهم لم يتأثروا بتلك الشبهات التي ألقاها اعداء الإسلام في بلاد المسلمين.

وفي وقتنا العاصر تشغل المنظمة الماسونية العالمية (هوليود) الدور الكبير في بث بعض الافلام عن الانبياء تشوه فيها سمعتهم وتنسب بها إليهم الكبائر والنقائص، وهذه الافلام تعرض على ملايين المشاهدين، وبالتالي فإن أغلب الناس ـ غير المثقفين دينياً ـ قد يأخذون عقائدهم الدينية من أفلام «هوليود»[1] وهذا ما سيشكل نَفَساً عاماً عند الناس وهو أن الانبياء غير صالحين وغير صادقين كما كانوا يسمعون عنهم!!

وإن هذه لمن أخطر الهجمات على الدين الإسلامي ومن أكثر المقومات للحركات الالحادية فإذا سُلب الناس عن الانبياء قدسيتهم فهم بالتالي سيسلبون قدسية الله جل جلاله ويقولون بعدمه تجرأً.

ومن هنا نرى «دوكينز» يستغل عدة مقاطع من التوراة والإنجيل عن بعض الأنبياء الله عليهم السلام ويطعن فيهم ويصفهم ـ والعياذ بالله ـ بعديمي الأخلاق ويبدأ هجماته التي تدل على حقده الدفين على كل شيء متصل بالله تعالى.

وكذلك ليستغل الطعن بأنبياء الله عليهم السلام ويتهمهم بشتى الاتهامات لكي لا يصدق الناس أقوالهم وتنثلم القيمة الاحتمالية لتصديقهم وبالتالي ينتهي إلى القول بعدم وجود الله جلّ جلاله.

---

(١) للوقوف على هذا الأمر أقرأ مجلة الرصد العدد ١٥ بعنوان (هوليود تستهدف الدين) ولاحظ فيه عددًا من الافلام التي صرفت عليها هوليود الملايين ولاحظ ما فيها من الدسائس والتضليل.

التشكيك في ظاهرة الوحي:

ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن ظاهرة الوحي متواترة، وقد عرفت معنى التواتر، وما له من الدخل في إثبات وجوده تعالى، إلاَّ أن بعض المستشرقين شكك في الوحي وذهب غير واحد منهم إلى أن حقيقة الوحي المحمدّي ليس إلاَّ حصيلة نبوغ، وحاصل كلامهم: أن النبي الخاتمصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان أحد النوابغ، وكان له فطرة سليمة وعقل مشرق هداه إلى بيان ما فيه من صلاح الاجتماع وسعادة الانسان، ولا صلة لما جاء من الأصول والفروع إلى عالم الغيب(١) ذلك لكي يقطوا الطريق أمام من يقول بأن الوحي دليل على وجود الموحي، بل هي حالة من النبوغ تحصل لدى بعض البشر.

ونلاحظ أن هؤلاء المستشرقين بهذه الدعوى يدسون السم بالعسل، فهم من جانب لا ينكرون كون الإسلام دين يدعو إلى الصلاح؛ لأنّ انكار ذلك صعب بعد ملاحظة الأحكام الإسلامية والتعاليم الأخلاقية التي جاء بها رسول اللهصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ومن جهة أخرى لا يعتبروه ديناً إلهياً يدل على الخالق الموحي، بل ظاهرة نبوغ.

إلا أن ذلك مردود بأن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لما كان صادقاً ويدعو إلى الخير والصلاح وكان بعيداً عن الكذب والافتراء فهو إذن عندما قال بأنه يُوحى إليه فلا بد على كل عاقل من تصديقه، سيما بعد أن أقام البراهين والمعاجز على صدق دعواه.

---

(١) شبهات وردود ج ١ ص ١٨.

فرق برهان الصادقين عن برهان الصديقين:

وأخيراً وللتمييز بين برهان الصادقين الذي تقدم شرحه وبرهان الصديقين لا بد من توضيح الثاني ليتميز عن الأول فنقول:

برهان الصديقين الذي قرره الشيخ الرئيس حاصله: أنّ كل موجود من حيث ذاته، فأما أن يجب له الوجود فيكون، وإما أن يكون واجباً وهو المطلوب، وإما أن يكون ممكناً فيحتاج إلى علة ترجّج وجوده، والعلة إما هي واجبة، فيثبت المطلوب، وإما أن تكون ممكنة، فلا بد من سلسلة العلل إلى الواجب دفعاً للدور والتسلسل؛ لأن ذلك الممكن الآخر الذي فُرض علّة إما أن يتوقف على العلّة الأولى فهو دور، أو على غيرها فننقل الكلام إلى تلك العلة الأخرى إلى ما لا نهاية له فيتسلسل[1].

ثم قال الشيخ الرئيس بعد الإستدلال المزبور:

«تأمّل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته عن الصفات إلى تأمّل لغير نفس الوجود ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعله وإن كان ذلك دليلا عليه لكن هذا الباب أوثق وأشرف أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجوده وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الواجب إلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّه الْحَقُّ﴾ أقول إن

---

(١) البراهين الواضحة ج ١ ص ٣٩.

هذا حكم لقوم ثم يقول ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(١)].

وهذا البرهان عبارة أخرى عن قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا من دل على ذاته بذاته»[(٢)].

وعن ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة:

«أيَكُونُ لِغَيْرُكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ؟ مَتى غبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إِلى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟»[(٣)].

أي يستدل بالله على الله، فإن الاشياء كلها دليلها الله لا العكس. وعليه فبرهان الصادقين برهان آخر يغاير برهان الصديقين المعروف في علم الفلسفة والكلام، وقد تقدم ذكر السيّد محمّد الصدر قدس سره له في هذا الكتاب تحت عنوان: «حاجة الممكن إلى علةٍ» وفي عنوان «شرح الإستدلال القرآني» فراجع لتفهمه بشكل أكثر.

---

(١) الإشارات والتنبيهات ج ٣ ص ٦٦، دار البلاغة.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء الصباح.

(٣) مفاتيح الجنان: دعاء عرفة.

الفصل الرابع

مناقشة الأدلّة على نفي الخالق

مناقشة الأدلة على نفي الخالق

الدليل الأول: كل ما لا يرى فهو غير موجود:

يعتقد بعض الفلاسفة الغربيون أنّ الإنسان بإمكانه الاطمئنان لكل ما يدركه الذهن عن طريق الحواسّ، فالمعلومات برأيه متحصنة من ارتباط الذهن بعالمه الخارجي؛ ومن ثم فكل ما يكتنفه من مسائل غير محسوسة هي في الحقيقة لا تعدو كونها أوهامٍ تراوده وتخيلات من صناعته لا غير، لذا فهي عارية من أية قيمة معرفية[1] وقد اعتمدوا على هذا الاتجاه بنفي الخالق لكونهم لا يرونه بالحواس! بل قد قالوا: إن العقل هو الذي خلق الإله بتوهمه وإلا فهو غير موجود تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقد رد السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ هذا الاتجاه في كتاباته وقال:

«إن القوانين الطبيعية ليست بصحيحة، فليس لها وجود خارجي. ومن العجيب أن الماديين يؤمنون بها على الرغم من أنهم يقولون: ما ليس بمحسوس ليس بموجود. فالقانون كقانون ليس بمحسوس بطبيعة الحال،

---

(١) الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى مطهري ص ١٢٨.

فهم يعتقدون أن الإحساس بالمعلول إحساس بالعلة. ومع ذلك فإنهم يعتبون علينا حينما نؤمن بوجود الله تعالى بإحساسنا بمعلولاته»(١).

أي أن الأوربيين يؤمنون بنتائج القوانين التي اكتشفوها مع أنهم لا يرونَ القوانين الطبيعية بل يرون نتائجها فقط، وهي انجذاب أجزاء الاجسام مثلاً إلى الأرض وعلى أثر رؤية آثار القانون (وهو الانجذاب) يؤمنون بوجود قانون الجاذبية على سبيل المثال.

وإن سألتهم: كيف تؤمنون بها وأنتم لا ترونها؟! لقالوا: إننا نرى ـ مثلاً ـ الأشياء تنجذب إلى الأرض فنؤمن من خلال ذلك بأن قانون الجاذبية موجود!

والسيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يستنكر عليهم بأن إيمانكم بالقوانين الطبيعية بهذه الصفة يشابه إيمان المؤمنين بالله لأنهم يرون نتائج صنعه وآثاره فقالوا بوجوده، كما أنّهم يرون نتائج هذه القوانين وليس القوانين بعينها فيقولون بوجودها، فلماذا ذاك يجوز عقلاً وهذا لا يجوز عقلاً؟!!

وقد ذكر السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في الإشراقات(٢) رد الشيخ الرئيس ابن سينارَحِمَهُ الله على من زعم أن كل ما هو غير محسوس فهو غير موجود قائلاً:

«اعلم أنه قد يغلب على أوهام الناس أن الموجود هو المحسوس وأن ما لا يناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال وأن ما لا يتخصص بمكان أو وضع بذاته كالجسم أو بسبب ما هو فيه كأحوال الجسم فلا حظ له

---

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين ص ١٩٤.

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٢٤٣.

من الوجود وأنت يتأتى لك أن تتأمّل نفس المحسوس فتعلم منه بطلان قول هؤلاء لأنك ومن يستحق أن يخاطب تعلمان أن هذه المحسوسات قد يقع عليها اسم واحد لا على سبيل الاشتراك الصرف بل بحسب معنى واحد مثل اسم الإنسان فإنكما لا تشكان في أن وقوعه على زيد وعمرو بمعنى واحد موجود»(١).

أي إن معنى «الإنسانية» معنى غير محسوس بل الموجود أفراده وهم أنا وانت وزيد وفلان وفلان، أما معنى الإنسانية فهو غير موجود وغير محسوس، ومع كونه غير محسوس فنحن نقطع ونجزم بوجوده وعليه فليس كل ما لا نحس به فهو غير موجود.

فهؤلاء الفلاسفة الغربيون يؤمنون بالقوانين الطبيعية إلى درجة مبالغ فيها وينسبون كل شيء إليها بل وينفون وجود خالقٍ اعتماداً عليها، مع أن هذه القوانين كلها غير مرئية!! فكيف ينفون وجود الله تعالى بدعوى أنه لا يرى، ويعتمدون بالوقت نفسه على هذه القوانين التي هي كذلك لا ترى!!

وبعضهم تثاقل عليه أن يفهم أن للكون خالقاً وصعب أن يتصور هذا الشيء غير القابل للإدراك بالحواس، وهو في الوقت نفسه يؤمن بأن هذا الكون حصل من انفجار كوني عظيم!! مع أنه لم يرَ هذا الانفجار رأي العين!!

لذلك فإن الفيلسوف الألماني «مارتن بوبر» الذي يدرج أسمه ضمن زمرة المتعصبين للنزعة التجريبية والذي كان مدافعاً عنها بكل وجوده في فترة من

---

(١) شرح الإشارات والتنبيهات ج ٢ ص ٥٤٠، تحقيق الشيخ حسن زادة.

حياته وصف تفنيد القضايا الماورائية وتجريدها عن الدلالة بالقول:

«من السخرية بمكان أن يقوم الإنسان بتفنيد كل ما لا يمكن إثباته عن طريق التجربة والحواس، ولقد حاول الفلاسفة... إثبات هذا الأمر فأقدموا على تدوين قائمة ادرجوا فيها القضايا التي اعتبروها مستحيلة... إنك أيها الإنسان مخولٌ بطرح رأيك حول القضايا العلمية في إطار ما تمتلكه من علم، وما خلا ذلك من كلام فهو لا يتعدى كونه هراء»(١).

فهؤلاء الفلاسفة أمام خيارين لا ثالث لهما:

أحدها: أن يؤمنوا بأن القوانين الطبيعية وغيرها كمعنى «الإنسانية» كلها غير موجودة لأننا لا نحس بها مباشرة.

ثانيها: أن يقولوا بوجودها لأن الأدلة العلمية قامت عليها.

فعلى الأول، فالإيمان بالقوانين الطبيعية غير المرئية ينافي ويدحض حجتهم بعدم الايمان بالله بدعوى أنه غير مرأي.

وعلى الثاني، فإن كانت هذه القوانين غير مؤثرة وليست هي العلة التامة ـ كما نعتقد ـ فمن الذي إذن يقوم بتدوير الأرض وإشراق الشمس وتنزيل المطر... وعلى كلا الاحتمالين يثبت وجود قوة مدبرة التي هي الله جل جلاله.

هذا ما أراد السيد محمد الصدر قدس سره توضيحه بالنص المتقدم، وسيتحدث عن مثله في نصوصٍ آتية إن شاء الله تعالى.

---

(١) أجوبة الشبهات الكلامية ج ١ ص ٣٢٢.

الدليل الثاني: تقدم العلوم الطبيعية

إن الدول الأوربية وبسبب تقدم العلوم الطبيعية اغترت بنفسها، وجحدت ربها، وظنوا أنهم ما دام قد عرفوا أسرار بعض الحقائق العلمية ـ بل ظواهرها ـ أنهم في غنىً عن الله تعالى العلي القدير، يقول السيّد محمّد الصدر قدس سره:

«وقد توفرت هذه الظروف بشكل وآخر للفكر الأوربي بعد عصر النهضة وإلى عصرنا الحاضر، الأمر الذي أنتج هذه النتائج المدهشة النافعة التي شاهدناها ونشاهدها من الفيزياء والطبّ والفضاء وغيرها.

غير أنّ أوربا، جحدت بأنعم ربها ورحمته، وادّعت لنفسها هذا الفصل، وحاولت أن تسير في هذا الطريق إلى آخر الشوط.

فأصبحت نتيجة للأوهام التي رسّختها في الأذهان: هي التي أوجدت العقل متمثلاً بالآلة الحاسبة الالكترونية، وهي التي سخّرت الرياح متمثلاً بوسائط الأعلام الحديثة، وهي التي أوجدت الحياة بالتحكّم في نوع الجنين، وفي تربية الأجنّة في الأرحام الصناعية، وهي التي أوجدت معجزات الطب، وهي التي غزت الفضاء بسلطان عظيم ﴿لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[1].

فأحرِ بها إذن، أن تكون فكرتها عن الكون والحياة، وعن المجتمع والسياسة والاقتصاد، صحيحةً وعادلةً، وأحرِ بها أن تكون لها السيادة في العالم دون غيرها من الأُمم ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[2].

---

(١) الرحمن ٣٣.

(٢) النازعات ٢٣ ـ ٢٤.

وكان هذا الوهم الكبير نتيجةً صريحةً وواضحةً لإسقاط الدين عن نظر الاعتبار وعزله عن العالم والحياة؛ إذ عندئذٍ ستكون هذه النتائج العلمية المدهشة مفخرةً لها ودليلاً على عظمتها وسموّها»[١].

المناقشة الأولى: هل الدين ثمرة الجهل بقوانين الطبيعة؟

اكتشاف بعض القوانين الطبيعة للكون حرك الفكر الديني إلى نحوين:

النحو الأول: فقد أدعى بعض المفكرين أنّ هذه القوانين المكتشفة تدل على الإيمان بالله تعالى؛ لأنه هو العقل الحكيم الذي أبدع هذا النظام المتمثل بهذه الدقة العظيمة، وقد بالغ المفكر الأوربي «سبينوزا» بهذه القوانين الطبيعة إلى حدٍ أنكر فيه وجود المعجزات الخارقة لهذا النظام الطبيعي، فرأى أنّ المعجزات لا تؤكد وجود الله ﷻ بل على العكس تؤدي بالفرد إلى الألحاد! ؛ لأن نظم الطبيعة وقوانينها إلهية، فنقضها بالمعجزات يعني نقض نظام الله تعالى وقوانينه[٢].

وهذا توهم قد وقع فيه وسيأتي ردّه تحت عنوان «دفع توهم» ومختصر ذلك: أنّ لله إرادة وهذه القوانين الطبيعية تتغير حسب إرادته تعالى ولا يعني نقضها بالمعجزات التي يريد الله تعالى تحققها نقضاً لقانونه.

النحو الثاني: ظنَّ بعض المنكرين لله تعالى أن سبب إيمان الأقوام السابقة بالإله هو أن تلك الأقوام «تجهل بقوانين الطبيعة» فعجزوا عن تفسير الظواهر الكونية تفسيراً علمياً الأمر الذي دعاهم إلى أختراع فكرة الإله ليفسروا فيها هذه

---

(١) أشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢) العلمانيون والقرآن الكريم ص ٦٨.

الظواهر، يقول جوليان هكسلي:

«**إن تقدم العلم الطبيعي والمنطق وعلم النفس أفضى بنا إلى مرحلة لم يعد فيها من المفيد أن نفترض وجود الله. فالعلم الطبيعي أزاح الله وأقصاه إلى مكان ناءٍ وبعيد لدرجة أن وظيفة الله كمسيطر وحاكم مطلق اختفت...**»[١].

وقريب من قوله قول أوجست كونت حيث قال:

«**العلم هو والد الطبيعة، وهو الذي عزل الإله عن عمله وهمّشه، ومن ثمّ قدم له الشكر والثناء على خدماته المؤقتة وأبقاه وحيداً في عرشه العظيم**»[٢].

حيث يعتقد أوجست كونت ومن يحذو حذوه أن الحوادث التي شهدتها البشرية هي السبب في ظهور الدين، إذ إن بني آدم بطبعهم يعتقدون بقانون العلية، لكن الأسلاف من داعي جهلهم بمنشأ هذه الحوادث حاولوا نسبتها إلى قوى غيبية كالآلهة وأمثالها؛ لذلك نسب المطر إلى إله خاصٍّ أطلق عليه «إله المطر» وإثر عدم علم الناس آنذاك بالأسباب الفيزيائية التي أدتّ إلى تبخّر المياه وتكثّفها في السماء ومن ثمّ نزولها على هيئة قطرات ماء.

وكذا هو الحال بالنسبة إلى سائر الظواهر الكونية والحوادث المطروحة في

---

(١) ملحدون محدثون ومعاصرون ٦٨.

(٢) الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى مطهري ص ٢٤٧.

بحث التوحيد[١] فأوجست كونت لم يقصد من عبارته المتقدمة أنه يشكر الإله لأنه كان يؤمن به سابقاً والآن حل العلم محله، بل يعتقد بأن الإله مجردة فكرة صنعها الإنسان بخياله، وقد خدمت البشرية فترة معينة لأنها كانت تجيب عن كثير من تساؤلاتهم عن الحوادث الكونية كالمطر والزلازل ونحوها بأن هناك آلهة مسؤولة عن هذه الظواهر، والآن وببركة العلم ومعرفة القوانين الطبيعية لم تعد هناك حاجة لفكرة الإله فقد حل العلم لغز الظواهر الكونية وعرف عللها الطبيعية، وكذلك هو معتقد جوليان هكسلي وكثير من الملحدين الماديين.

ويظن هؤلاء الملاحدة أنّ الأديان تمنع المؤمنين بها عن السؤال عن علل الظواهر الكونية، بدعوى أنها من عمل الله تعالى والله يقول: ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[٢].

وقد رد عليهم الشيخ أبي المجد محمد رضا الاصفهاني النجفي قدس سره قائلاً:

«أنّ من أعظم حيل هؤلاء الملاحدة إراءتهم لضعفاء العقول أن الدين ينافي البحث عن علل الأشياء، وأنّه واقف في طريق العلم، وإن المؤمنين لا يرون التعليل إلاَّ بالإرادة الربانية. وكتبهم مشحونة ببيان هذه التهمة البينة والفرية الواضحة، ولا يخفى على أمثالك أنّ المؤمنين يمتازون عن الملحدين بأنهم يثبتون للكون صانعاً حكيماً خلق المادّة، وجعل لها نواميس يُجري عليها الأشياء بحسب ما يريد ويشاء، وتلك النواميس خاضعة لقدرته موجودة بمشيئته، ولا ينكرون قط علل الطبيعة،

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦.

(٢) الأنبياء ٢٣.

ولا يطفرون مرحلة الأسباب، ولا يوصدون على العقول أبوابها. ومن الكلام المشهور عندهم والجاري مجرى المثل، حتى على ألسن عوامهم: «أبى الله أن يُجري الأمور بأسبابها»[(١)] ويصفونه تعالت قدرته بمسبب الأسباب، وهذا عندهم أتقن للحكمة وأدل على العلم والقدرة، وإذا لم تضر بمعتقداتهم تنقلات النطفة تحت ناموسها الثابتة إلى أن تصير طفلاً ثم شاباً وكهلاً، فلماذا عليهم من تنقلات المادة تحت نواميسها المجعولة لها، إلى أن تصير شمساً وأرضاً إن تمت الأدلة العلمية لها وسلمت من الانتقاد عليها»[(٢)].

وفي مقام الرد على أصل فكرتهم فقد قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«إن الجهل بأسباب حوادث الطبيعة، لا يفسر بمجرده وجود الدين أو الاعتقاد بخالق مدبر خارج الطبيعة. إذ لو اقتصرنا على فكرة الجهل، لكان في إمكان الجاهل أن يسند هذه الحوادث إلى محض الصدفة، وعدم وجود أي سبب لها... كما يمكنه أن يسنده إلى سبب بسيط من موجودات الكون، وإن لم يكن له أي ارتباط بالواقعة.

فلو لم نضم إلى هذا الجهل الاعتقاد بقانون السببية ارتكازاً والاعتقاد إلى أهمية وعمق السبب الفاعل للتدبير الكوني العام، لما أمكن أن ينتج الجهل بمجرده الاعتقاد بالخالق المدبر.

ولو كان هناك ترابط حقيقي بين الجهل والاعتقاد الديني، لما أمكن أن

---

(١) الكافي ج ١ ص ١٨٣.

(٢) نقد فلسفة دارون ص ٣٩.

نجد كثرة من الجهلاء الملحدين، أو كثرة من العلماء المؤمنين؛ مع العلم أن هذين الصنفين موجودان بكثرة في البشرية منذ أن عرفت البشرية الجهل والعلم[١].

ومن طريف القول، ما ذكره «بليخانوف» من أن الجهل البشري ينتج الشعور الاحيائي عند الانسان، هذا الشعور المنتج بدوره للشعور الديني لديه. اسمعه يقول:

«إن طفلا كان بحضوره يصف القمر بقوله «ملعون» لأنه لم يكن يود الظهور، فهذا الطفل كان يعتبر القمر كائنا حياً. والانسان البدائي، يحيي- على غرار هذا الطفل- الطبيعة بمجموعها. ان التفكير الاحيائي هو المرحلة الأولى في تطور التفكير الديني. والخطوة الأولى للعلم هي إبعاد التفسير الاحيائي لحوادث الطبيعة، وفهمها كظواهر خاضعة لقوانين»[٢].

ومن الواضح أن المتدين لا يؤمن بوجود الروح أو الحياة في الطبيعة بل بوجودها خارجها. وكان الاعتقاد على ذلك منذ القديم، فإن الاعتراف بالخالق لا يعني غير ذلك»[٣].

---

(١) يحاول «دوكينز» في كتاباته محاولة عاجز أن يثبت أن العلماء الكونيين ملاحدة بما فيهم آينشتاين، ويسعى جاهداً لإثبات ذلك!!

(٢) فلسفة التاريخ لبليخانوف ص ٨

(٣) اليوم الموعود ص ١٤٣.

المناقشة الثانية: هل عصر التفسيرات الدينية ولى؟

يقول بعض الملاحدة إن عصر التفسيرات الدينية للظواهر الكونية ولـى، فمع وجود العلم لا يحتاج إن يقال بأن هذه الظاهرة المعينة أو تلك حصلت بمشـيئة الله وقدرته، بل يقال إنها حصلت بالأسباب العلمية المذكورة والمدروسة في الفيزيـاء أو الكيمياء أو الفلك.

وإنما التفسير بالقدرة الإلهية تفسير بالوهم والخيال، بـل المطلـوب هـو تفسـير علمي معلل بنتائج مقررة ومحسوبة.

على أن ذلك لو سلمنا به جدلاً لكان من باب استبدال الوهم بـالوهم، فـالعلوم التي يدعون أنها هي البديل عن الله تعالى غير ثابتة ومتغيرة من زمن إلى زمن.

فكما أنهم يعتقدون بأن فكرة الإله قد سايرت العالم مدة معينة وكانت النـاس تعتقد بأن كل الظواهر سببها الله تعالى، فكذلك العلم ليس ثابتاً بذاته بـل متغيـر ولا يفسر الواقع تفسيراً حقيقياً، وكذلك تفسيراتهم العلمية تساير الناس مـدة معينـة ثـمَّ تأتي نظرية أخرى تكشف خطأ النظرية الأولى وينتهي دورهـا وهكـذا، ومـن قـال غير ذلك فقد قطع طريق العلم والبحث العلمي.

هذا ولو سلمنا جدلاً بما يقولون، وكان الناس بسبب جهلهـم بقـوانين الطبيعـة ينسبون الحوادث إلى الله تعالى، والآن حان وقت العلم ولا بد أن يفسـروا الظـواهر الكونية حسب الأدلة العلمية العقلية، لا أن يبدلوا وهماً بـوهم كمـا يعتقـدون فـإن تفسيرات الظواهر الكونية كذلك تختلـف مـن زمـنٍ إلـى آخـر وبهـذا يكونـوا قـد وقعوا فيما فروا منه، وهو عدم تفسير ظـواهر الكـون بـإرادة الله سـبحانه بـل بـالعلم الثابت والحال أنه غير ثابت كما هم يعتقدون!.

يقول السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن تبدل النظريات والتفسيرات العلمية وثبات الأطروحة الإلهية:

«فإذا دلتنا التجارب المتكثرة والوقائع المتعددة، على صحة قانونٍ من القوانين، كقانون (التجاذب العامّ) الذي قال به نيوتن، عرفنا طبقاً لذلك أنَّنا قد أطّلعنا على إحدى جهات القدرة الإلهية، لأننا لا نستغني[(١)] بهذا القانون عن وجود هذه القدرة العظيمة.

فإذا تعاقبت الأجيال، واندحر هذا القانون، بفعل التجارب الكثيرة، وثبت ـ مثلاً ـ أنَّ (النظرية النسبية) هي القانون الصحيح وليس قانون التجاذب، عرفنا أنَّا كنا واهمين في اعتقادنا الأول؛ لأن مستوانا الذهنيّ لم يكن مساعداً على إدراك كل الحقيقة، وأنَّ القانون الحقيقي هو (النظريّة النسبية) دون قانون التجاذب، وقلنا أنَّ هذه النظرية هي القانون الذي سنّه الله تبارك وتعالى في كونه لا ذاك، كلّ ما في الأمر أنَّ معرفتنا بهذه القدرة العظيمة قد تعمقت وتأكّدت.

وإذا ثبت بطلان النظرية النسبية، وجاء الفكر البشريّ بنظريةٍ أكثر عمقاً وشمولاً، فقد أصبح هذا الفكر مؤهلاً لإدراك جوانب أكثر وأعمق للقدرة الإلهية، وإن القانون النافذ في الكون هو ذاك دون النظرية النسبية»[(٢)].

إذن فالذين يقولون أن القوانين الطبيعة حلت محل الإله ويدعون أننا نجهل

---

(١) في طبعة مؤسسة المنتظر (لا سنستغني) ولكن الصحيح ما أثبتناه.

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٦.

بالحقائق الفعالة بالكون إنما هم في الموقف نفسه الذين يدعون أننا فيه، فإن كل حقيقة يدركونها وتتغير ستكون وبالاً عليهم، ويمكننا أن نسند إليهم فيها الجهل كما يسندون ذلك للمؤمنين الذين يقولون أن الله هو السبب الحقيقي الفعال في الكون. بل إنّنا نرى أن الحقيقة الثابتة هي الله تعالى والمتغير هو إدراك الإنسان للحقائق الكونية، وبهذا يكونون هم أسوأ حالاً دون المؤمنين قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«ان أنصار العلم الطبيعي الحديث يعترفون بأن النظريات العلمية، مهما كانت مؤكدة فهي مبنية على الاحتمال أو على (حساب الاحتمالات).

وهم لا يستبعدون تجاه أي حقيقة علمية عندهم، ان توجد نظرية أخرى مضادة لها تنفيها وتكذبها.

وان أهم وأعم نظرية مشى عليها العلم الطبيعي الحديث هو النظرية النسبية. حتى أنهم يسمونه بقانون النسبية، يعني أنها ارتقت من مرحلة النظرية ووصلت إلى درجة القانون. كما يعبرون عن الجاذبية بقانون الجاذبية.

وهي اعني النسبية ناجحة لديهم في كل التطبيقات الدقيقة التي يعيشونها في اختصاصاتهم. مع انها أيضًا ثابتة لديهم بالاحتمال، وان اول من حاول الخروج عنها أو عليها، هو واضعها نفسه: انشتاين. الذي كان يطمع ببديل لها اشمل واضبط منها، سماها بنظرية المجال الموحد. ولكنه لم يستطع وضعها إلى ان مات. وحسب علمي انها لم توضع لحد الآن»[1].

---

(١) منهج الأصول ج ٣ ص ١٦٩- ١٧٠.

إذن فالذي يسند كل أمر في الكون إلى نفس النظريات العلمية، ويعتبرها هي الحقائق الثابتة دون غيرها، سيأتيه اليوم الذي يكون فيه ملحداً بهذه القوانين، أما المؤمنون فلا يهتمون بتبدل النظريات العلمية؛ لأنهم يرون السبب الحقيقي هو الله تعالى، وما هذه التفسيرات العلمية إلاَّ بمقدار إدراك وفهم البشر لهذه القدرة الإلهية، فإن تبدلت النظرية إلى نظرية أخرى تغير فهمهم عن القدرة الإلهية لا عن العقيدة الإلهية.

بينما الملحد إذا حصل وتبدلت نظرية علمية بُني عليها إلحاده فهو أمام موقفين محرجين: أما أن يتراجع عن إلحاده، أو يعاند ويحاول عدم تبديل رأيه القديم؛ لأنه سيكون سبباً في فضحه ووصمه بالجهل!

المناقشة الثالثة: هل القوانين الطبيعية بديل عن الإله؟

يعد ستيفن هوكنج[١] من أبرز الفيزيائيين الذين ينظرون للإلحاد في التاريخ المعاصر، وهو في كتابه «التصميم العظيم» طرح عدة أسئلة كان أولها: ما هو منشأ القانون؟ وقال بعده :

«لقد حاول عُلماء الطبيعة والفلاسفة وعلماء اللاهوت الإجابة على تلك الأسئلة؛ وعلى سبيل المثال: كانت إجابة (كبلر) و (جاليليو) و

(١) ستيفن ويليم هوكينج، من ابرز علماء الفيزياء النظرية وعلم الكون على مستوى العالم، درس في جامعة أكسفورد وحصل منها على درجة الشرف الأولى في الفيزياء، أكمل دراسته في جامعة كامبريدج للحصول على الدكتوراه في علم الكون، له أبحاث نظرية في علم الكون، وابحاث في العلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكيا الحرارية، كما له دراسات وابحاث في التسلسل الزمني (موسوعة ويكبيديا العالمية).

(ديكارت) و (نيوتن) عن السؤال الأول؛ هي: أن القوانين هي نتاج عمل الإله. ولكن هذه الإجابة لا تُعطي تعريفاً للإله أكثر من كونه مجرَّد تجسيم لمجموعة قوانين الطبيعة. وفي حالة إضافة على ذلك الإله ــ من قبيل: الإله المذكور في العهد القديم ـ وذلك بهدف الإجابة عن السؤال الأول، فإن كل ما يفعله ذلك هو استبدال لغز وأمر غامض بلغز وأمر غامض آخر ليس إلا»[1].

نلاحظ هنا أن ستيفن هوكنج لم يرتضِ أن هذه القوانين من نتاج عمل الإله بل وصف التعليل بأنها من عمل الإله باستبدال لغز بلغز آخر، وذلك لأنه يعتقد أن الزمن الحالي زمن العلم ولا بد لكل ظاهرة من تفسير علمي يبين فيه العلة المادية من الظاهرة المعينة، وكل تفسير يعزو ظاهرة من ظواهر الكون لعمل الإله فهو تفسير رجعي لا يوافق عليه العلم، لأن فكرة الإله لا وجود واقعي لها في الخارج حسب فهمه وظنه.

وقد كان جواب السيّد محمّد الصدرقُدّسَ سِرُّه مشابهاً لأجوبة علماء اللاهوت إذ قال:

«ان القوانين الطبيعية إنما أوجدها اللّه تعالى في كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد الخلق»[2].

وسيأتي أن هذه القوانين هي في روحها قوانين تشريعية لا تكوينية أي لا ضابط لها بل مأمورة بأوامر الله ونواهيه.

---

(١) المصمم الأعظم ص ٢٣.

(٢) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٢٠٣.

الأدلة على نفي تعويض القوانين عن وجود الله:

نعم إنَّ السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ فكرته تقول إن الله تعالى هو الذي جعل القوانين إلاَّ أنه قُدِّسَ سِرُّهُ لم يكتفي بمجرد الدعوى بل قد برهن عليها بعدة أدلة نذكر منها دليلين وسنفصل بالدليل الثاني عدة مواضيع قادمة في هذا الفصل:

الدليل الأول: عدم التنافي بين القانون والدين

قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«ان المتدين لا يرى تنافيًا بين السبب الخارجي [الله تعالى] والقوانين، بل يمكنه أن يؤمن بكلا الأمرين، وأن السبب الخارجي هو الذي سنّ هذه القوانين في الكون. مضافاً إلى أن القوانين وحدها لا تكفي تفسيراً لحوادث الكون، بل هي ليست إلاَّ وهماً من الأوهام[١].

والتفسير الوحيد للحوادث هو الاسناد إلى فاعل خارجي، بعد التجاوز عن الصدفة المحضة التي لا يمكن أن يقول بها أي مفكر»[٢].

لذلك حتى الملحد المعاصر «دوكينز» لم يقل بالصدفة بل قال بالانتخاب الطبيعي بدلاً عنها[٣] ورُد بأن فكرة الانتخاب الطبيعي كفكرة الصدفة وما فعله إنما

---

(١) لأنها تتبدل وتتغير والظواهر الكونية أمور واقعية فإذا فسرناها بتفسير واكتشف الزمان خطأه كان التفسير الخاطئ وهماً بوهم، وسيأتي بيان آخر لكونها وهماً.

(٢) اليوم الموعود ص ١٤٣.

(٣) وهم الإله ص ١٢٠.

هو مجرد تلاعب بالالفاظ[(١)].

ولتوضيح الـدليل الأول نقـول: إن وجـود تفسـير علمـي لأي ظـاهرة مـن الظـواهر الكونيـة لا يعنـي إنكـار الإلـه، بـل إن إنكـار الإلـه لـيس مـن ضـروريات الاكتشافات العلمية اللهم إلاَّ عند الديانـة التـي تـؤمن بنظريـات تـم اكتشـاف فيهـا الخطأ كما اعتمدت المسـيحية علـى بعـض نظريـة ارسـطو فـي فهـم كـون الأرض مسطحة لا كروية، بل حتى هذه الديانات وأمثالها لا يدل اكتشاف خطأ جزء منهـا على انكار الإله، بل يدل هذا على خطأ التفسير الذي فسروه أو خطأ الدين المفسـر لتلك التفسيرات.

ففي مثل تلك الديانات إن اكتشف العلم يقيناً خطأها أمكـن القـول ببطلانهـا، أما إذا فسرت الظاهرة أمراً كونياً معيناً فهذا لا يدل علـى انتفـاء وجـود الله، أو كمـا يعبر عنه المصطلح الحوزوي بأن يُقال: جعل الاكتشافات العلمية دلـيلاً علـى عـدم وجود الله لهو دليل أخص من المدعى.

وعندما اكتشف سير إسحاق نيوتن قـوانين الحركـة والجاذبيـة، لـم يقـل لقـد اكتشفت الآليات التي تحرك الأجـرام، إذاً لا داعـي لوجـود الإلـه. بـل لقـد زادتـه اكتشافاته إعجاباً بالإله الذي صمم هذه الآليات المحكمة[(٢)]، فبحكم كونـه متـديناً لا يرى تنافياً بين الاكتشافات العلمية والسبب الخارجي وهو الله تعالى.

إلا أنَّ مثـل هـؤلاء الملاحـدة كمثـل مـن عـرف أن السـيارة تعمـل بمحـرك

---

(١) أنظر : نهاية حلم ص ١٧٣.

(٢) حادي العقول ص ٥١.

يساعده احتراق الوقود على تحريكها ومن ثم يقول: إذا كان هذا المحرك هو الذي يحركها، إذاً فلا داعي لوجود صانع لها!!

فإننا لو آمنا بأن هذه التفسيرات العلمية لها أثر في الخارج فهنا يحق لنا أن نسأل: من الذي جعل هذا الأثر لهذه الظاهرة الكونية المعينة؟!

فمن الذي جعل الأرض تجذب الأشياء؟ ومن الذي جعل السماء تمطر المياه؟ فإن قلت هو التبخر والتكثف سألنا من جديد: ومن الذي جعل الماء يتبخر ثم يتكثف؟ فإن قلت حرارة الشمس، يحق لنا أن نسأل من جديد، ومن الذي جعل الشمس تبعث الحرارة؟ فإن فسرتها بسبب مواد كيميائية، يحق لنا أن نسأل ومن الذي جعل هذه المواد في قرص الشمس؟ وهكذا إلى أن تنقطع الحجة على كل أحد.

فإن قال قائل: لا ليس الأمر كذلك بل لا بد أن ينتهي الأمر إلى نقطة معينة ينقطع فيها التساؤل وهي أن الأمر حصل صدفةً واتفاقاً، ولكن هل الصدفة علم؟

وإن كان لا بد للتساؤل أن ينقطع فلماذا استنكرتم على المؤمنين أن قطعوا التساؤل لبعض العلل بالقول بعلة العلل وهو الله جل جلاله؟!! وهذا ما أراده السيّد محمّد الصدرقدس سره بقوله:

«والتفسير الوحيد للحوادث هو الاسناد إلى فاعل خارجي، بعد التجاوز عن الصدفة المحضة التي لا يمكن أن يقول بها أي مفكر»[١].

وكذلك قد أشار إليه قدس سره قائلاً:

---

(١) اليوم الموعود ص ١٤٣.

«أننا لو سلمنا ـ جدلاًـ بوجود هذه القوانين، فإن وجودها لا يغني عن وجود اللّه، بعد وضوح دلالتها على حسن التدبير في هذا الكون»(١).

وأشار كذلك إليه بقوله قدس سره :

«إنَّ القوانين الكونيّة لا يمكن أن تكون قائمةً بنفسها ولا أن تكون مؤثرةً باستقلالها، وإنما وجودها إن كان دالاً على شيءٍ فإنَّه يدلّ على القدرة التي أبدعتها الحكمة الأزلية، ولو كانت موكولة إلى الصدفة المحضة، لما كان للقانون أي مجال»(٢).

فلا يمكن أن يصدر تنظيم حسن كهذا العالم بهذه الدقة من دون الاستناد إلى من هو أقوى عقلاً وتفكراً، فكما يستدل على عبقرية المخترعين بدقة اختراعاتهم، فكذلك يستدل على دقة هذا الكون على كونه لخالق عظيم دقته لا متناهية، وكيف يمكن :

«أننا نصبح مفكرين وعباقرة ومشاهير، لمجرد الاطلاع على خصائص بعض هذه القوانين. فهل يمكن أن يكون وجود هذه القوانين-بعد الاعتراف بها- بدون فكر وبدون عبقرية؟!... وهل تكفي... الصدفة لتفسير ذلك؟!»(٣).

(١) المصدر السابق ص ٨٤

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٥.

(٣) اليوم الموعود ص ٨٤

الدليل الثاني: هل القوانين المادية موجودة اصلاً؟

قال قدس سره:

«اننا بعد أن أثبتنا أن القوانين الكونية، لا وجود لها على المستوى المادي، وإنما هي مفاهيم ذهنية نعبّر بها على المستوى اللغوي عن مجموعة من الوقائع الجزئية التطبيقية... إذن، فقد زال الأساس المهم الذي يقيم عليه الماديون ماديتهم في التعويض، بفرضية وجود هذه القوانين عن فرضية وجود اللّه ... إذ يرون أنه لا حاجة إلى الافتراض الثاني مع صدق الافتراض الأول.

وهذا منحى عام للماديين، سواء في ذلك الماركسيون و غيرهم. وإنما يختلف الماركسيون عن غيرهم في فهم هذه القوانين التي تعوض عن افتراض الخالق في رأيهم. فغير الماركسيين يكتفون من هذه القوانين بالقوانين الفيزياوية والكيمياوية والفلكية للطبيعة. والماركسيون يفهمون كل ذلك طبقاً لقانون خاص بهم هو قانون الديالكتيك[(١)] الذي عرفناه.

فإذا استطعنا التنزل عن افتراض وجود القوانين المادية، على ما برهنا عليه... لم يبق أمامنا إلاَّ الافتراض الثاني، وهو وجود اللّه تعالى كمدبر للعالم بدل هذه القوانين»[(٢)].

---

(١) نظرية تقول: أن كل شيء يحتوي في داخله و مضمونه على صراع دائم بينه وبين نقيضه... حتى يزول المتصارعان ويتولد من الصراع شيء جديد، يكون بدوره محتوياً على الصراع ذاته. وهكذا تتعدد الأشياء، وهكذا تتطور (اليوم الموعود ص ٢٧).

(٢) المصدر السابق ص ٨٣.

توضيح الدليل الثاني: قد وضح السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ هذا الدليل بخطب صلاة الجمعة وشرحه بالتفصيل حيث قال قُدِّسَ سِرُّهُ :

«أنا قلت وفي بعض مؤلفاتي أيضاً كتبت، أن القوانين الطبيعية إنما هي صورة ذهنية. ما يحدث هو أن هذه الحصاة تجذبها الأرض، وأما أن نسمي شيئاً بقانون الجاذبية، فهذا عبارة عن مجموعة حوادث جمعناها في أذهننا فسميناها قانون الجاذبية... ليس هناك قانون اسمه قانون الجاذبية، وإنما هو فكرة، والفكرة لا تؤثر في الخارج وإنما كل شيء يحدث بقدرة الله سبحانه وتعالى، فحينما يزعم الزاعمون الماديون بأننا نعوض عن الله بالقوانين المادية، خسروا وخسئوا، لأنها لا وجود لها أصلاً، وإنما هي مجرد أفكار في أذهاننا، كما يقولون مثلاً الإنسانية، الإنسانية موجودة؟ إنما الموجود هم الأفراد زيد وعبيد وسعيد وفلان، أما الكلي المعنى العام فغير موجود بطبيعة الحال.

فلاحظوا كذلك القانون بالمعنى العام غير متحقق سبحان الله هم يقولون إن ما هو غير محسوس غير موجود، أعطوني عن الحس وعن رؤية وعن بصر القانون، قانون الجاذبية مثلاً، أو قانون سرعة الضوء، أو قانون كيت أو كيت لا يوجد، وإنما ما هو الموجود هو المصاديق، والجزئيات، والحوادث الفردية، فهذه الحوادث الفردية من الذي يعملها؟ أهو القانون غير الموجود الموهوم؟ بطبيعة الحال لا إنه أعجز من ذلك، ومن يؤمن به أعجز من ذلك، وإنما الله سبحانه وتعالى بعزته

وقدرته»[(١)].

فالأساس الذي يعتمد عليه الملاحدة في انكار الاله هو أنهم فسروا الظواهر الكونية بالعلم عن طريق معرفة علل الظواهر المادية وبذلك فهم في غنى عن القول بأن هذه العلل سببها الله تعالى بل يقولون بأن سببها العلة المذكورة في الفيزياء أو الكيمياء أو غيرها من العلوم، فإذا ثبت أن هذه العلل المادية ليست صحيحة بل هي مجرد أوهام ومصطلحات اصطنعها البشر ثبت أن السبب الحقيقي

---

(١) منبر الصدر ص ١١٩، يريدقدس سره أن يربط جميع الظواهر والحوادث بإرادة الله تعالى، كما يقول الفلاسفة: «لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله». وهذا المعنى قاله الشهيد السيد محمد باقر الصدرقدس سره في مرحلة متأخرة من حياته بعد «الأسس المنطقية للإستقراء» وهو ما يعبر عنه بـ«السلطنة»، وخلاصته: «أننا نفترض أن مبدأ العلية بالمعنى الفلسفي لا وجود له في العالم، وهذا الإحتمال لا دليل لدينا يمنعنا عن ذلك أو يبطله، فمن المحتمل أن كل ما نراه يعود إلى هذا مبدأ السلطنة والقدرة وإرادة الله تبارك وتعالى، وحتى ما نراه من أن النار تحرق، فإن التفكير الفلسفي الإعتيادي يقول النار علة للإحراق...

ولكن توجد إلى جانب ذلك فرضية أخرى معقولة ايضاً وهي أن تكون قد اقتضت الحكمة الربانية أن يخلق الله تعالى دائماً الإحراق متى ما تتحقق الملاقاة بالنار...

وهذا لا ينافيه القانون الفلسفي الذي يقول بأن الممكن نسبته إلى الوجود والعدم على حد سواء ولا يوجد إلاَّ بمرجح، فصحيح أن الممكن بحاجة إلى مرجح، ولكن من قال أن مرجحه مبدأ العلية، فلعل مرجحه مبدأ الإرادة، إرادة الله وقدرة الله تبارك وتعالى، فالقانون الفلسفي لا يبطل هذا الاحتمال، وكذلك القانون التجريبي... فإن كثرة التجارب بإشعال النار آلاف المرات ـ مثلاً ـ ورؤيتنا ترتيب الإحراق على ذلك، يدلنا على وجود عنصر مشترك هو عبارة عن العلية، فلعله عبارة عن إرادة الله تبارك وتعالى وقدرته وسلطنته، فهو أراد أن يخلق الإحتراق متى ما صنعنا النار...» (أضواء على منبر الصدر ج ١ ص ٣٥٤، نقلاً عن الإمامة والقيادة للسيد الحائري).

والفاعل الحقيقي هو الله تعالى لا القوانين الموهومة. وبتعبير آخر قال قدس سره:

«أنَّنا لو تصوّرنا للقوانين فاعليّةً وتأثيراً مستقلاً، إذن فقد أوكلنا القدرة والتأثير إلى شيءٍ غير مرئيٍّ ولا محسوس؛ لأن القوانين بذاتها غير محسوسة، وقد قال الماديون: أنَّ كلّ ما هو غير محسوس، فهو غير موجود»[١].

إشكال ورد:

قال قدس سره :

«وهنا يمكن ان يجيب الماديون... بان هذه القوانين واقعية وليست خارجية[٢] ولا ذهنية[٣]. وقد قلنا: ان عالم الواقع يشمل عالم الخارج. دون العكس[٤]. فان بينهما نسبة العموم المطلق بالحمل الشايع[٥]. وكأنه

---

(١) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٥.

(٢) أي ليست هي جزئيات خارجية لا تمثل قانوناً عاماً.

(٣) أي ليست مجرد كليات ذهنية لا تؤثر بالخارج كمعنى النار الموجودة في الذهن فهي بما هي معنى ذهني لا يؤثر في الخارج ويحرق الأشياء.

(٤) أي قال في بحثه الأصولي في المعاني الحرفية: أن عالم الواقع المؤثر فعلًا هو يشمل عالم الخارج كذلك، أما عالم الخارج فلا يشمل كل عالم الواقع.

(٥) اصطلاح منطقي وحاصله : أن يكون الاتحاد في الوجود والمصداق، والمغايرة بحسب المفهوم. ويرجع الحمل حينئذ إلى كون الموضوع من أفراد مفهوم المحمول ومصاديقه مثل قولنا: (الإنسان حيوان) فإن مفهوم (إنسان) غير مفهوم (حيوان) ولكن كل ما صدق عليه الإنسان صدق عليه الحيوان (ونعني بالحيوان أي كائن له حياة متحرك بالإرادة). محل الشاهد

ينتج صحة كلام الماديين، وان القوانين موجودة في عالم الواقع ومؤثرة في عامل الخارج.

ويمكن ان يجاب على ذلك: بان هذه القوانين لا تخلو من عوالم ثلاثة: اما عالم الخارج [أي في الواقع الخارجي] أو الذهن [أي أنها مجرد أفكار ذهنية] أو الواقع [الأعم من الخارج والذهن]. وكلها باطلة، فتبطل نظريتهم بإمكان التعويض عن التدبير الإلهي بالقانون.

اما [على فرض] كون هذه القوانين موجودة في عالم الخارج. فلأمرين:

الأمر الأول: بحسب الكبرى التي آمنوا هم بها، وهو ان كل ما ليس بمحسوس فليس بموجود. والقوانين بصفتها العامة غير محسوسة إذن، فهي ليست موجودة. وإنما نحس بالجزئيات لا بالقانون العام[1].

الأمر الثاني: ان هذه القوانين على تقدير صحتها إنما هي كليات، وعالم الخارج لا يمكن ان يحتوي على شيء من الكليات. إذن فالقوانين غير موجودة في عالم الخارج[2].

هنا هو : كل ما يصدق أنه في الواقع فهو في الخارج، وليس كل ما هو في الخارج فهو في الواقع.

(١) أي أننا لا نحس بقانون الجاذبية أو غيره من القوانين المادية الكونية بل نحس بجزئياتها وهي أن هذه الحجرة تنجذب إلى الأرض وذاك الكتاب ينجذب وكذا جميع الجزئيات، أما القانون بما هو قانون فلا يُرى وهم يقولون إن كل ما لا يرى ولا يدرك بالحواس فهو غير موجود.

(٢) أي كلية من قبيل معنى (الإنسانية) فإن هذا المعنى الكلي غير موجود في الخارج وإنما الموجود هو جزئياته وهم زيد وخالد وعمرو الذين يصدق عليهم معنى الإنسانية، وكذا قانون

وأما [على تقدير] وجودها في عالم الذهن، فالمسالة تكون أسوأ بكثير، لأن أحداً لم يقل بان ما هو في الذهن مؤثر في عالم الخارج بمجرد كونه ذهنياً[1].

هذا بغض النظر عن القول: بان الوجود الذهني إنما يوجد حين الالتفات أما في حالة النوم والغفلة فلا يكون موجوداً. فأين هذه القوانين في تلك الحالات؟»[2].

أي إن كانت القوانين المادية موجودة في الذهن فهي تنعدم بالنوم وفي النسيان وغيره فلا يمكن ان تعمل بعد انعدامها.

إذن ما هي القوانين الحقيقية؟!

إذا سلمت بالكلام المتقدم وايقنت بوجود مدبر حكيم وراء هذه القوانين والنظم فاعلم أن القوانين الحقيقية هي أوامر الله ونواهيه، قال قدس سره :

«انه يمكن القول بان النظام الذي يحكم عالم الخارج إنما هي أنظمة تشريعية وليست تكوينية. ونريد بالتشريع: الأمر والنهي. فانه يقال للملائكة أو للأرواح العليا: افعلوا كذا فيفعلون. فتعطى الأوامر المتعلقة

الجاذبية وباقي القوانين المادية الكونية غير موجودة في الخارج بذاتها وإنما الموجود هو جزئياتها من قبيل الحجرة والكتاب وغيرها إلى الأرض.

(١) أي إذا قلنا بأن هذه القوانين مجرد مفاهيم ذهنية من قبيل مفهوم النار والبرودة فإن هذه المفاهيم الذهنية لا تؤثر في الخارج، فإذا خطر معنى النار في ذهني فإنها لا تحرقه لأن المفاهيم الذهنية لا تؤثر في الخارج، وإذا حضر معنى البرودة فإن الذهن لا يبرد وهكذا.

(٢) منهج الأصول ج ٢ ص ١٧١ – ١٧٢.

بكل عالم في ذهن تلك المخلوقات العليا لتنفيذها فـي عـالم الخـارج. فهذه كبرى كلية تنطبق على ملايين الأفراد. فيخاطب الضوء [مثلاً] : سر بسرعة كذا[١].

فهي قوانين صحيحة لكن بمعنى انهـا قائمـة بـالنفوس العليـا[٢]. وهـي ليست من سنخ الذهن ولا من سنخ عالم الواقـع. بـل مـن سـنخ عـالم الخارج. فينتج ان ما يؤثر فـي عـالم الخـارج خـارجي. فـي حـين ان القوانين ليست خارجيـة فـي مصـطلح المـاديين، إذ لا ينطبـق عليهـا تعريفهم، فيبطل ما قالوه من التعويض بالقوانين»[٣].

دفع توهم!

تقدم أكثر من مرة أن السيّد محمّد الصـدر قدس سره يقـول بـأن القـوانين الطبيعيـة غير موجودة وغير صحيحة، فهل قوله هذا يشابه قول ديفيد هيوم الذي يقـول بـأن الناس قد اعتادت أن الماء يغلي عند درجة حرارة ١٠٠، ومن هنـا أنشـأوا القـوانين الموجودة!

وبالحقيقية فإن الأمر ليس كذلك، فالسيّد محمّد الصدر قدس سره يرى أن القوانين

---

(١) قوله قدس سره هذا يمكن تأييده بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت ١١) فالقرآن الكريم يشير بوضوح هنا إلى أن السماء والأرض بما حوتا تتبع في مسيرها وتوقفها أوامر الله تعالى طائعتان.

(٢) صرح الشهيد السيد الصدر قدس سره في الشذرات صفحة ١٩٥ بأن هذا الأمر قد استفاده من الشهيد السيد الصدر الأول قدس سره.

(٣) منهج الأصول ج ٢ ص ١٧٣.

الطبيعية صحيحة وإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرادها بهذه الطريقة حيث قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«فهي قوانين صحيحة لكن بمعنى انها قائمة بالنفوس العليا»[١].

وقال قُدِّسَ سِرُّهُ في موضع آخر :

«ان القوانين الطبيعية إنما أوجدها اللّه تعالى في كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد الخلق»[٢].

وهذا عكس ما يريده هيوم حيث ينفي وجود مثل هذه القوانين، وسيأتي رد الفيلسوف انتوني فلو عليه الذي يقول إن فكرة هيوم تعني القضاء على كل موضوعية من حولنا وتقضي على كل العلوم إذ كلها مبني على السببية بين شيئين!.

فهيوم يريد أن يقول:

«لا توجد أي قوانين تحكم الطبيعة»[٣].

وبالتالي ينفي حاجة الممكن إلى علة، الأمر الذي يؤدي إلى انكار الاستدلال على وجود الله تعالى بالبراهين المعروفة.

أما السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ فيقول توجد قوانين طبيعية ولكنها بيد الله تعالى وتحت أوامره وإنه لا حاكمية لغيره على الكون من قوانين مادية أو غيرها بل إن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٢٠٣.

(٣) رحلة عقل ص ٦٥.

كل شيء يجري بإرادته تعالى وبكلمته كن فيكون، ولعل السيّد محمّد الصدرقدس سره استفاد نظريته المذكورة من دعاء الإمام المعصومعليه السلام حيث يقول:

«جرى بقدرتك القضاء ومضت على ارادتك الاشياء فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة وبإرادتك دون نهيك منزجرة»(١).

لأن هذا الدعاء قريب من قولهقدس سره :

«ان النظام الذي يحكم عالم الخارج إنما هي أنظمة تشريعية وليست تكوينية. ونريد بالتشريع: الأمر والنهي»(٢).

أي أن الحاكم هي اوامر الله ونواهيه وبها تتحرك القوانين وليس العكس بأن نقول أن القوانين هي التي تحرك الاله أو أنه مجبور عليها كما ذهب إليه بعض فلاسفة اللاهوت.

وجود ظواهر غير طبيعية:

على التقدير السابق للاتجاه المادي الذي يقول بأن القوانين الكونية هي الحاكمة دون غيرها يكون هذا الاتجاه مخترم ازاء كل ظاهرة خارقة لتلك القوانين الطبيعية، بل ستكشف هذه الظواهر الخارقة زيف هذه القوانين؛ لأن القانون يعني أنّه سارٍ على كل جزئياته، أما إذا شذ عنه بعض الجزئيات فقد خرج عن كونه قانوناً.

فإذا وجدت هناك ظواهر غير طبيعية ثبت أن القوانين الكونية الطبيعية ليست

---

(١) مفاتيح الجنان: دعاء يا من تحل به عقد المكاره.

(٢) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٢٠٣.

كل شيء بل توجد اشياء أعلى منها يمكن أن يكون لها تأثير خارجي.

وهنا نذكر عدة ظواهر غير طبيعية لنؤكد بها أن القوانين الطبيعية ليست هي كل شيء حتى يستلزم من معرفتها إنكار الإله جل جلاله، بل يوجد ما هو أعلى منها وحاكم فوقها، وهذه الظواهر كالآتي:

الظاهرة الأولى: السحر

قال قدس سره :

«أن هناك ظواهر طبيعية وظواهر غير طبيعية، تسمى مجموعها بالعلوم الغريبة، من قبيل السحر...إن السحر موجود ومنصوص عليه في القرآن الكريم، ومؤثر إجمالاً، وحوادث السحر موجودة... وكثير منهم يؤمنون بالسحر ويطبقونه...كل ما في الأمر أنه مؤثر وتأثيره ليس طبيعياً، ليس من قبيل سرعة الضوء وجاذبية الأرض، وخروج النبات، وولادة الإنسان، هذه أمور طبيعية، وأما السحر فمؤثر، ولكنه من زاوية غير طبيعية، فمن أين حصل ذلك، وبأي قانون حصل ذلك؟

حينئذٍ يكون هؤلاء الذين ينكرون قدرة الله سبحانه وتعالى، فليأتوا ليفسروا ولكنهم يعجزون عن ذلك، طبعاً هم حسب الظاهر ينكرون هذا التأثير؛ لأنهم عاجزون عن التفسير، ولكنه في الواقع ونحن في الواقع نؤمن بصحته إجمالاً، وإن بعض حوادث السحر فعلاً مؤثرة.

فإذا كان المطلب هكذا إذن فهذا أيضاً يدل على قدرة الله، وعلى تدبير الله، وأن هناك قوانين لو صح التعبير غير القوانين الطبيعية، على وجه الأرض، وعلى هذه الخليقة، وهذه أيضاً يكفي برهاناً على وجود الله،

وليس السحر وحده، السحر كمثال وإلا فالعلوم الغريبة كثيرة»[١].

الظاهرة الثانية: البارا سيكولوجي

ومن الظواهر الخارجة عن القانون الطبيعي هي ظاهرة ما يعرف في اللغة الغربية بالـ«باراسيكولوجي» قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«كلنا سمعنا «بالباراسيكولوجي» وله ظواهر كثيرة غير قابلة للضبط، ربما مائة ظاهرة، أو أكثر، من قبيل تحضير الأرواح، ومن قبيل التأثير عن بعد، ومن قبيل «التلباثي» الذي يسمى بالتخاطر، وإلى آخره كثيرة من قبيل التنويم المغناطيسي، هل نقول أنّ كل هذا كذب؟! صحيح يعني جرأة على الله وعلى الإنسانية أن نقول أن كل هذا كذب؛ لأنه متواتر وفوق المتواتر، أن هناك ظواهر تسمى باصطلاح اللغة الاجنبية «بالباراسيكولوجي» أي الظواهر الروحية باصطلاحنا، وهذه الظواهر إذا كانت موجودة ايضاً لا تخضع لقوانين الطبيعة، يعني أن هناك قوانين أعلى من قوانين الطبيعة، ومؤثرة على القوانين الطبيعة، من الذي أوجدها، ومن الذي سنها غير خالق الكون جل جلاله، ومن الذي دبرها غير المدبر الحقيقي جل جلاله»[٢].

لا نقول إن الغرب لا يؤمن بهذه الاشياء بل توجد عندهم دراسات مطولة عنها ومؤلفات كثيرة بل إن الذي لا يؤمن بها يكون جاهلاً؛ لأنه يكذب حقائق

---

(١) منبر الصدر ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق.

علمية مجربة[1].

وقد عرفت مما تقدم أنهم إنما ينكرون الله لأنهم يعتقدون أن القوانين الطبيعية التي درسوها هي أساس كل شيء، فإذا ثبت أنها ليست كل شيء بل يوجد ما هو فوق القوانين الطبيعية ثبت إذن وجود الله تعالى، إذ لا تبقى لهم حجة بعد ذلك، ومن هنا قال قدس سره:

«من الذي أوجدها، ومن الذي سنها غير خالق الكون جل جلاله، ومن الذي دبرها غير المدبر الحقيقي جل جلاله».

الظاهرة الثالثة: الاهرامات الفرعونية

قال قدس سره:

«إنَّ في داخل الهرم في يومين من السنة تظهر بقعة نورٍ كضوء الشمس في الداخل المظلم للهرم، في إشارةٍ إلى يوم ولادة فرعون ويوم تولّيه للعرش، فمن الذي أوجد هذا النور؟ ليس له سببٌ طبيعي!

وإن كان المادّيّون قد قالوا: إنَّ عصر المعجزات قد انتهى. إلاَّ أنه لم ينته رغماً عليهم، كان ولازال وسيبقى إلى يوم القيامة وقدرة الله تعالى فوق ما يتصوّر من القوانين الطبيعيّة، بل إنَّ قدرة البشر فوق ما نتصوّر من القوانين الطبيعيّة.

وهذه ليست مسألة دينٍ. فالمسلم يستطيع والمسيحي يستطيع واليهودي

---

(١) وقد كان الفيلسوف البريطاني انتوني فلو مهتماً بالباراسيكولوجي وقد ذكره عدة مرات في كتابه «هناك إله».

يستطيع والبوذي يستطيع؛ لأنَّها ليست من القوانين العليا والتكامل المطلق، وإنَّما هي- كما أُسمّيها- من القوانين الوسطى التي هي على مستوى تسخير الجنّ أو خدّام الطلاسم أو نحو ذلك من الأُمور، ولا تدلّ على حقّانيّة الفاعل؛ لأنَّ الذي يدلّ على حقّانيّة الفاعل هو فعل أكثر من ذلك؛ لأنَّ الذي يملك التكامل والقوانين العليا لا يكون همّه أن يبني هرماً أو مقبرةً أو فندقاً!! وهذا يعني أنَّ الذي يفعل ذلك هو من الطامعين بالدنيا ويسخّرون القوانين الوسطى في سبيل مصالحهم الدنيويّة، وهذا يعني أنَّهم متدنّون من هذه الناحية، والله تعالى يعطيهم؛ ليزدادوا إثماً لا أكثر ولا أقلّ»[(١)].

الظاهرة الرابعة: مثلث برمودا

قال قدس سره:

«قلت أكثر من مرة ربما عدة مرات أنّ العالم الغربي الآن يؤكد بشدةٍ على أن يستغني عن الله سبحانه وتعالى، ولا أقول ينفي وجود الله، لا، بالآخرة هم مسيحيون يشعرون بوجود الله وإن كانوا ليسوا شيوعيين ملحدين، ولكنه مع ذلك هم يقولون إنه كأنَّما دنيانا منفصلةٌ عن الله بالمرة، فإذا كانت المسألة هكذا وأنه _أيضاً هذه العبارة موجودة_ عصر المعجزات قد انتهى، والآن عصر الحضارة، والآن عصر التمدُّن _بلغتي_ أنّه عصر العقل الماديّ وعصر العقل الطبيعي، لا، الله تعالى يريد أن يجاوبهم بشيءٍ ملموس باليد أنَّ المعجزة لم تنتهِ وإنّما هي موجودة

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن ج ٢ ص ٢٦٤.

والأدلة على ذلك كثيرة، فيضع مثلث برمودا بعجائبه قرب ساحل أمريكا التي هي رئيسة هذا الإتجاه المادي أمام عيونهم، أنتم أنظروا على سواحلكم توجد معجزاتٌ وليس بيعداً عنكم ولا تستطيعون أن تكذبوها، لأنّ نفس سفنكم وطياراتكم سقطت في مثلث برمودا»[١].

ويوجد غيرها من الظواهر التي ذكرها السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ ونقتصر على هذه الظواهر الأربعة خوفاً من الأطالة.

(١) مواعظ ولقاءات ص ٢٨٨.

الدليل الثالث: نظرية التطور الداروينية

يقول الفيلسوف البريطاني «انتوني فلو»:

«تعد نظرية التطور لعالم البيولوجيا الكبير تشارلز داروين من أهمّ الحجج التي يستند إليها الملحدون، لتفسير تنوّع الحيوانات الحيّة دون الحاجة إلى وجود إله خالق، لذلك أصبحت هذه النظريّة من موضوعات المناظرة المفضّلة بين الماديين والمؤمنين»[1].

والثابت عند السيّد محمّد الصدر قدّس سرّه بطلان نظرية التطور إذ نجده يقول:

«أنَّ أصل الخلقة بالإبداع؛ لعدم الإيمان بنظريّة دارون، بل أصل البشريّة من آدم وحوّاء عليهما السلام، وكلّ واحدٍ من الحيوانات له أصلٌ من ذكرٍ وأُنثى، ولذا فالأصل في قضيّة البيضة والدجاجة هو وجود الدجاجة والديك، ثُمَّ حصل التكاثر، وكما أنَّ الإنسان والحيوان لهما أصلٌ، فكذلك الحال في النبات، فنبتت شجرةٌ بقدرة الله بدون بذرٍ، وكانت أوّل شجرةٍ

---

(١) رحلة عقل ص ٧٢.

موجودةٍ على وجه الأرض، وأعطت بذراً»[١].

وقد أوكل الرد العلمي على هذه النظرية لكتاب «الداروينية عرض وتحليل» للأستاذ يحيى محمد، وقد كتب مقدمة على هذا الكتاب قال‌قُدِّسَ سِرُّهُ فيها:

«فإن هذه الحياة، هي أوضح ما عجز عن فهمه وتفسيره العلم الأوربي بكلِّ أبعاده وتضاءل أمامه بكلِّ هيبته، وقد عرض المؤلف بكلِّ جلاءٍ في أحد فصول هذا الكتاب، صور وأشكال عجز هذا العلم عن هذا التفسير الذي يطمح إليه»[٢].

فالذي يريد أن يعرف رأي السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن هذه النظرية من الناحية العلمية فليراجع ذلك الكتاب[٣] فإن كلام السيد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ ظاهره التبني لآراء المؤلف العلمية.

الخلفية الفكرية لبناء النظرية الداروينية:

يدرس في علم أصول الفقه بحث حول تأثير الأوضاع الخارجية بالبحث العلمي، ومن ذلك قالوا إن الشيخ البهائيقُدِّسَ سِرُّهُ قد تأثر بالهندسة في بحث الوضوء الفقهي وقال بأن الوجه يغسل بشكل دائري؛ لفهمه النص الشرعي بطريقة هندسية.

وقالوا بأن الباحث لا بد أن يتجرد عن العوامل التي يمكن أن تسبب بالاخلال في فهمه للأبحاث التي يدرسها، فالمتأثر بالفلسفة مثلاً سوف يبحث الأمور العرفية

---

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن ج ٥ ص ١٨٢.

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) للأسف الشديد لا توجد عندي نسخة من هذا الكتاب لكي أعرض منه بعض ما قاله المؤلف.

بشكل دقي، والمتأثر بالقانون الوضعي قد يبحث الشرع بفهم وضعي وهذا يسبب اضطراب في الفهم؛ لأن كل علم له حقله الخاص دون أن تتأثر بعض العلوم ببعض.

ويعتبر السيد محمد الصدرقدس سره أن الأوضاع التي تربى بها دارون كان لها سبب في تصوير النظرية الداروينية حيث كانت الأوضاع آنذاك كما ذكرهاقدس سره:

وباختصار ... إننا إذا نظرنا إلى الألف سنة الأخيرة، بل الألفين الأخيرة، وجدنا أوروبا مليئة بالقلاقل والدماء والخلافات... وليست العهود السابقة عليها بأحسن حالا من هذه الفترة، إن لم تكن أشد وأنكى، باعتبار ضعف المستوى الثقافي والعقلي للبشرية في تلك العصور ... كل ما في الأمر، اننا نستطيع أن نباشر النظر إليها باعتبار بعدها التاريخي نسبيا.

وهذا يعطي الانطباع الواضح لدى الذهن البشري الذي يعيش في خضم هذه القلاقل ويكتوي بلهيبها ... إن التاريخ البشري كله قائم على الخلاف والصراع، وتنازع الطبقات والتحاقد بين الفئات.

فهذا الانطباع هو الذي حدا بالماركسية أن تقول في التاريخ نفس هذا المضمون، وتضيف: ان التحاقد والصراع لا يمكن أن يزول ما دامت الطبقات ذات وجود في المجتمع[١].

وجه تأثر دارون بهذه الأسباب والحوادث هو: أن نظريته خاضعة لأربعة

---

(١) اليوم الموعود ص ٣٧.

نواميس وهي: ناموس (تنازع البقاء) وناموس (التباينات بين الأفراد) وناموس (التباينات بالإرث) وناموس (الإنتخاب الطبيعي).

ويقصد بـ(نتنازع البقاء) أن الأحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ومع بعضها. وفي هذا التنازع إنما يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقاء. وهذه الصفات كثيرة، ومختلفة بالنسبة للحيوانات والنباتات.

فقد تكون الصفة المؤهلة للفوز والغلبة صفة القوة أو الشجاعة أو كبر الجثة أو صغرها أو السرعة أو الجمال أو الذكاء أو الحيلة في دفع الشر وتدبير القوت، أو الصبر على الجوع والعطش، أو الجَلَد على تحمل المؤثرات، أو غير ذلك.

فإذا تم الفوز للافراد الذين لهم شيء من هذه الصفات، وانخذل الافراد الذين ليس لهم ما يؤهلهم للغلبة، كُتب البقاء للصالحين للحياة ـ وحقَّ الفناء على غير الصالحين وهذا هو معنى (تنازع البقاء)[١].

انك يتأتى لك أن تنظر هنا إلى تأثر دارون بالأوضاع التي كانت تعاصره، حيث فسر نظريته العلمية وفق الاحداث السياسية التي كانت تمر عليه في عصره، يقول السيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه:

«إن أوربا كانت منذ أول عهد نهضتها، في حالة صراع دائم و دائب بين مختلف عناصرها واتجاهاتها من النواحي الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، لا يقر لها قرار ولا يهدأ لها بال. فالصراع بين القديم والحديث قائم على قدم وساق ... ذلك القديم الذي يمثله الاقطاع

---

(١) انظر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والإيمان ص ١٨٥ـ ١٨٦.

والكنيسة ومجموعة التقاليد والعادات الأولى، والحديث الذي يمثله قادة النهضة الفكرية عموما. والصراع بين الاتجاهات الحديثة أيضا قائم. فقد عاشت أوروبا انشقاقات وتباينات عميقة وجذرية بين الفئات من الناحية السياسية إلى جنب النواحي العقائدية و العلمية و الفلسفية وغيرها.

ولسنا الآن بصدد إعطاء أرقام محددة عن هذه الصراعات المتمادية ... إذ يكفينا هذا الوجدان البسيط الذي يحمله المثقف الاعتيادي عن حالة أوروبا خلال الثلاثة أو الأربعة قرون المتأخرة من تاريخها»[١].

وهذا الصراع نفسه انعكس على النظرية الداروينية، يقول السيد محمد الصدر قدس سره:

«كما انعكس هذا الانطباع في ذهن دارون وآخرين، على شكل تعميم آخر، وان عالم الحيوان كله قائم على الصراع، وان البقاء يكون للأقوى أو الأصلح»[٢].

نظرية دارون غير قابلة للإثبات:

طرح السيد محمد الصدر قدس سره عدة نقاط لرفض نظرية دارون قال قدس سره:

«إننا نستطيع أن نرفض بضرس قاطع نظرية تكوّن الانسان من قرد، لكننا لا نريد الآن أن ندخل في التفاصيل. نذكر فقط بعض نقاط الضعف التي نراها فيها:

---

(١) اليوم الموعود ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٨.

النقطة الأولى: ما قلناه قبل لحظة[١] من أن هذا التحول، لو كان قد تم، فهو في عهد سحيق من القدم لا يمكن إقامة الدليل عليه.

النقطة الثانية: إن هذه النظرية لو صحت لحدثت باستمرار، ولرأينا مختلف الدرجات ما بين القرد والانسان باستمرار. فما الذي حدا بهذه العملية أن تتم في زمن معين دون غيره. إن هذا لغريب.

النقطة الثالثة: إن علماء الوارثة اتفقوا على استحالة انتقاع نوع إلى نوع، وضرورة مماثلة الذرية للسلف بالنوع. ولا شك أن القرد نوع آخر غير الانسان، فيكون حصوله منه مستحيلا. ولا فرق في هذه الاستحالة بين الانتقال الدفعي والانتقال التدريجي.

إن تغيّر الصفات بالتدريج ممكن ما دامت النوعية بذاتها قائمة.

ولا يمكن للناسلات (الجينات) أن تقرر أنماطا من الصفات خارجة عن النوع بأي حال.

النقطة الرابعة: إن علماء الوارثة اتفقوا على أن الصفات المكتسبة لا تورث. فما يكتسبه الحيوان أو الانسان من صفات نتيجة للعامل

---

(١) قال في اليوم الموعود ص ١٧٦ ما نصه: «وأول خطوة يمكن أن نتقدم بها في طريق المناقشة، هو ما اعترف به الماركسيون أنفسهم بأن العهود القديمة، فضلا عما قبلها، لا يمكن إقامة أدلة حقيقية للتأكد من أوصافها، وإنما يقوم تفسيرها دائما على الظن و التخمين دائما. وكلما كان العهد أقدم كانت النقول التاريخية عنها أندر، ومن ثم فالاستنتاج منها أصعب. وبالطبع فإن الحدس والتخمين يملأ الفجوات الموجودة حتى يصل الأمر في القدم إلى حد لا يمكن التحدث عنه بإثبات تاريخي بالمرة، فيكون للتخمين الميدان الأفسح في ملء هذا الفراغ. وقد سمعنا انجلز قبل قليل يقول: «منذ مئات عدة من ألوف السنين في عهد ما يزال من غير الممكن تحديده بيقين... كان يعيش ... في أغلب الظن ...»»

الجغرافي أو لتكيفه طبقا لحاجاته- كما هو مقتضى نظرية التطور الداروينية- يستحيل أن تورث. إن القطة إن قطعت ذيلها لم تنتج ذرية مقطوعة الذيول. أو أن عاملا قويت يده اليمنى من كثرة الممارسة، لا تكون ذريته متصفة بنفس الصفة.

إذن، فلا يمكن إنتاج التطور من هذه الناحية.

وهذه النقاط واضحة جداً على الأساس المادي الذي تعترف به الماركسية وتنطلق منه.

وأما على الأساس الالهي، فهذه النقاط وخاصة الثلاث الأخيرة، غير واردة، لأن إيكال الأمر إلى قدرة اللّه تعالى ومشيئته يذلل كل هذه المصاعب، وانطلاقا من هذا الأساس يمكن إقامة أدلة من نوع آخر على بطلان نظرية داروين، ربما أشرنا إلى بعض أسسها، خلال الحديث عن التخطيط العام في القسم الثالث من الكتاب[١]»[٢].

مواقف من نظرية التطور:

قد حدد لنا السيد محمد الصدرقدس سره الموقف العملي اتجاه هذه النظرية وأوكل الرد العلمي إلى كتاب «الداروينية عرض وتحليل» للأستاذ يحيى محمد الذي ذكرناه آنفاً وسنذكرالموقف العملي فيما يلي نصاً مع بعض الإشارات بالهامش إذ يقولقدس سره:

«إنَّ هذه النظريات ينبغي أن يقف منها العقل الواعي الذي يأخذ الدين

---

(١) أي كتاب اليوم الموعود.

(٢) اليوم الموعود ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

بنظر الاعتبار، عدة مواقف مفهومة ومحددة:

الموقف الأول:

أنَّ هذا العقل الواعي، سوف يراها بالضرورة ـ كما علمنا قبل قليل[١] ـ إحدى وجوه حكمة الله تبارك وتعالى في خلقه، بالمقدار الذي استطاع العقل البشريّ أنّ يتوصّل إليه، أعني بمقدار أمكانيات هذا الإدراك إلى حدّ الوقت الحاضر.

الموقف الثاني:

أنَّ هذه النظريات ليست قطعية الصحّة، لا لما قالته أوربا المتطرفة: بأنَّ كل الحقائق نسبية، وليس هناك حقيقة مطلقة[٢]، بل لأنَّ العقل البشريّ

---

(١) راجع عنوان: «الدليل الأول: عدم التنافي بين القانون والدين».

(٢) في عصر النهضة الصناعية الأخيرة، عادت السفسطة إلى الأوساط العلمية بصورة أخرى، خادعة هدامة. وهؤلاء مع أنهم يدّعون أنهم أصحاب الجزم واليقين، ويكافحون الشك والترديد، يعتقدون بأن ما يدركه الإنسان من القضايا بالأدوات المعروفة صادق صدقاً نسبياً لا صدقاً مطلقاً، صدقاً مؤقتاً لا صدقاً دائماً، وذلك للظروف الزمنية والمكانية والأجهزة الدماغية تأثير في الإدراكات الإنسانية، فليس في وسع الإنسان أن ينال الواقع على ما هو عليه، وأن ترد على ذهنه صورة مطابقة له، مطابقة الفرع للأصل، بل كل ما يحكيه الإنسان بتصوراته وتصديقاته عن واقع الكون ونفس الأمر، فإنما يحكيه بمفاهيم ذهنية تأثرت بأمور شتى خارجية وداخلية، فالإنسان مبصراته ومسموعاته أشبه بمن ينظر إلى الأشياء بمنظار ملون، فكما أنه يرى ألوان الأشياء على غير ما هي عليه، فهذه الظروف الزمانية والمكانية، وما في داخل المدرك وخارجه من خصوصيات كهذه المناظر، وتُري الأشياء على غير ما هي عليه، ولكن لا تباينها، بل تطابقها مطابقة نسبية. فالإنسان عند هؤلاء أشبه بمن ابتلي بمرض اليرقان،

سوف يتكامل ويتطور، وسوف يدرك من أسرار الكون وقائع أكثر وأهمّ ممّا سبق أن عرفه. ومن ثَمَّ سوف يتيسر له الاطلاع على زاوية أعمق من زوايا القوانين الكونية، ومن ثّمَّ على وجه أدقّ من وجوه الحكمة والتدبير الإلهيّين في تسيير شؤون البشرية والحياة.

الموقف الثالث:

إنَّ القوانين الحياتيّة، بل كل القوانين الكونية مهما كان مضمونها، قد سنها الله تعالى في خلقه، لا عبثاً ولا إهمالاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ...﴾[1].

فقد وجدها الله سبحانه لأجل حِكم عميقة ومهمّة، وقد نتوصل إلى بعضها فنفهمه، ويخفى علينا بعضها الآخر، ولعل ما خفي علينا أكثرُ مما ظهر لنا.

وأوضح الحِكم التي تنفع من الناحية الإجتماعيّة، هي أنَّ الله تعالى سن هذه القوانين من أجل تيسير الحياة وتسهيلها على الناس؛ لكي يطبقوا العدل والإخاء وينبذوا الظلم والعدوان، ويسيروا في حياتهم طبقاً للقانون الإلهيّ العادل.

فكما أنّه يرى الأبيض والأسود صفراوين، لأجل خصوصية في الجهاز الإبصاري، فهكذا الإنسان في كل ما يدرك ويقضي، فإنما يتوصل إلى الواقع بأجهزته التي يتأثر العلم الوارد إليها من الخارج بها، ومع ذلك كله فليس ما يدركه خطأً محضاً، ولا صدقاً محضاً، بل هو صحيح في ظروف خاصة (الإلهيات ج ٣ ص ٩ ـ ١٠).

(١) الدخان ٣٨ ـ ٣٩.

الموقف الرابع:

إنَّ كل ما عجزت علوم الحياة عن تفسيره، فإن له سَبَباً واقعياً لوجـوده، وحِكمةً عميقةً في تدبيره.

خذ إليك مثلاً: الأعضاء التي حسـبتها نظريّـة التطـور أعضـاء ضـامرةً تاريخية!! قد تقلّصت لانعدام الحاجّة إليها في الحياة، كما هـو مشـروحٌ مفصلاً في هذا الكتاب.

إن وجود هذه الأعضاء ليس وجوداً متحفياً لأعضاء كبيرة سـابقة، كمـا تميل إليه نظرية التطوّر، وإنَّما أوجدها الخالق الحكـيم سـبحانه، علـى شكلها الحالي أساساً من أجل حِكمٍ معيّنـةٍ قـد نعلـم بعضـها ونجهـل البعض الآخر.

أطروحات حول الأعضاء الضامرة:

خذ إليك مثلاً: ثدي الرجل الذي ادّعت هذه النظرية أنَّـه مـن الأعضـاء الضامرة[1]، مع أنَّنا يمكن أن نقدم له عدّة أُطروحات محتملة تكفي كـل منها لتفسير الحكمة من وجوده على هذا الشكل.

الأطروحة الأولى: إنَّ الثدي قد وُجِدَ من أجل إيفـاء الحـس الجمـالي. فبدلاً عن أن يكون لحم الجسم مسطحاً، أو مفرطحاً أوجدت له الحكمة

---

(١) أدعت نظرية التطور أن الرجال كانت في أحد أدوار الإنسان القديمة تتناوب مع النساء في إرضاع الطفل، فلمّا اشتغل الرجال بالأسفار والحروب أختصّ الإرضاع بالنساء، وبقيت الثداوة أثراً في الرجال (نقد فلسفة دارون ص ٦٩).

ديكوراً خاصّاً لطيفاً متمثلاً بالثديين في الصدر والسرّة في البطن.

وأنا أعتقد أنَّ الذوق الجمالي محكمٌ في كثيرٍ من خَلق الله تبارك وتعالى، كألوان الطيور، وأشكال الزهور، وأنعام الأصوات، ومن ذلك شعرُ الرأس، والوجه للإنسان.

الأُطروحة الثانية: أنَّ الثدي وُجِدَ لأجل التناسب النوعيّ مع جسم المرأة، فبينما نجدُ أنَّه من الضروريّ أن يوجدَ الثدي لدى المرأة، من أجل أن تقوم بإرضاع الأطفال، كان من الضروريّ أيضاً أن يوجدَ الثدي لدى الرجل، حتّى يكون جسمه على شكل جسم المرأة تقريباً؛ حفظاً للتناسب النوعيّ معها.

الأُطروحة الثالثة: أنّه وُجدَ ثدي الرجل من أجل أن يكون إحدى المراكز الحسّاسة للإثارة الجنسيّة، ومن المعلوم أنَّ وجودَ المثير الجنسي في الجسم مهمّ جداً في اللحظات الجنسيّة الحاسمة في حياة الإنسان.

وكل واحدةٍ من هذه الأُطروحات كافيةٌ لتفسير وجود الثدي، فضلاً عن مجموعها.

وكذلك الحال في وجود الحكمة في الزائدة الدوديّة، التي ادّعت نظريّة التطوّر أنَّها من الأعضاء الضامرة. وقد فسرها العلم الحديث في سنواته المتأخرة بأنَّها تنظّم عمليّة الهضم، وتقوم بتحليل ما قد يصدر من الطعام من غازات في داخل الأمعاء.

وكذلك العظام الصغار الموجودة في نهاية العمود الفقريّ الذي حسبته نظريّة التطور بقيّةً لذيلٍ قديمٍ كان يتّصف به الإنسان في الأزمنة السحيقة.

إنَّنا يمكن أن نفسّره بوجود عظميّ يقي العمود الفقريّ الذي فوقه من

لاحتكاك بالأرض عند الجلوس، أو الاصطدام بها عند السقوط. فإذا علمنا ما للعمود الفقريّ من الأهمّية، بما يحويه من عظامٍ وأعصاب، علمنا أيضاً مقدار أهميّة حمايته من الحوادث، تلك الحماية التي تقوم بتوفيرها هذه العظام الصغار.

وهكذا كلما تجولنا في هذه الأعضاء التي حسبها الناس ضامرةً ومتخفية، وجدنا لها حكمتها البالغة، إن تمَّ لنا إدراكُ ذلك.

وقصورنا عن إدراك الحكمة لا يعني انتفاءها، وإنَّما يعني: أنَّنا بمستوانا الذهنيّ قاصرون عنها، حتّى يأتي الوقت المناسب لذلك في مستقبل الدهر.

الموقف الخامس:

من مواقف العقل الواعي المتديّن تجاه نظريّات دارون؛ أنها مخالفة لظاهر الشريعة في المصادر الإسلاميّة المتوفّرة. وهذا يشكلّ إحدى نقاط الضعف في هذه النظريّة بالنسبة إلينا.

وإنَّ ما يهوِّن الخطب أنَّ هذه النظريّات ما دامت ليست أكيدة، كما أنَّ هذا الظاهر الشرعيّ ليس قطعياً، فقد يأتي زمان يمكن الجمع بين ظاهر الدين وهذه النظريّات، كما سنشير.

أمّا إذا لم يأتِ هذا الزمن، ولم يتيسّر لنا على الإطلاق فهم الدين من زاوية نظريّة دارون، فهذا يعني ـ بكل بساطة ـ بطلانها ونقصها، ولا قصور في المصادر الدينيّة، بطبيعة الحال. وسيأتي الزمن الذي يصل فيه الفكر البشريّ إلى فهم القوانين العامّة الكونيّة والبشريّة التي تعبّر عنها المصادر الدينيّة بالذات.

إنَّ القرآن الكريم واضحٌ في أنَّ البشريَّة وجِدت من نسل آدمعليه السلام، وهو رجلٌ واحدٌ لم يكن قبله ولا معه بشريٌّ آخر غير أولاده. على حين أنَّ النظريّة الداروينيّة تُؤكد على وجود البشر من نسل القرود.

كما يُؤكد ظاهر القرآن الكريم على أنَّ آدمعليه السلام كان في الجنّة، وقد أهبط منها إلى الأرض نتيجة للمحنة التي مرَّ بها هناك، ومن الواضح أنَّ هذا لا يبقى له معنى طبقاً لنظريّة داروين!..

الموافقة بين نظرية التطور وظاهر الدين:

[ثمَّ] إنَّنا نستطيع أن نجمع بين ظاهر القرآن الكريم وهذه النظرية ببعض الأساليب، إذا استطعنا أن نتنازل عن بعض المسلّمات، وأن نلتقي في نصف الطريق!!!!!.

كما لو قلنا ـ مثلاً ـ: أن آدمعليه السلام هو أوّل بشريّ وُجِدَ على صورتنا الحاليّة، بعد أن كان الشكل العامّ للنسل هو شكل القرود!.

أو نقول: إنَّ آدم ليس قرداً، بل هو تعبيرٌ عن أوّل مجتمعٍ بشريّ داخل في عصر التفكير بعد أن كانت البشريّة تعيش كالحيوانات والبهائم.

أو نقترح: أنَّ آدم ليس إنساناً مثلنا، بل هو رمزٌ، أو تعبيرٌ آخر عن أوّل قرد، أو عن أوّل خليّةٍ حياتيّة على وجه الأرض.

أو استطعنا القول: أنَّ الجنّة التي كان فيها آدمعليه السلام هي جنّة موجودةٌ في الأرض لا في السماء.

أو استطعنا القول: أنّه في البشريّة الآن من هم ليسوا من أولاد آدمعليه السلام، كالسكان الأصليين في أمريكا، وأفريقيا، واستراليا، ولعلّ كلاً منهم نسلٌ مستقلٌّ لا يمتّ إلى الآخر بصلة، مضافاً إلى أولاد آدمعليه السلام الموجودين

في آسيا، وأوربا، وقسم من أفريقيا.

غير أنَّه من الواضح: أنَّ كلّ هذه الافتراضات ـ مهما كانت دقّتها ـ ذات قيمة أحتماليّة، فهي أبعد جدّاً عن مظاهر الشريعة، وأضعف احتمالاً بكثيرٍ من القيمة الاحتمالية لبطلان الداروينية نفسها، كما نرى ذلك عند الفكر الحديث، ولا زال في تزايد مستمّر كما هو معروضٌ مفصلاً في هذا الكتاب(١).

مبرر الملاحدة للتمسك بنظرية التطور:

والمذاهب الماديّة عموماً، في حاجّة ماسةٍ إلى مثل هذه النظريّات التطوّريّة؛ لأنَّها بعد أن أعرضت عن قدرة الخالق العظيم، لم يكن بإمكانها ـ بطبيعة الحال ـ أن تقول بوجود كل نوعٍ من الأنواع الموجودة على الأرض، كلٌّ بحياله واستقلاله؛ لأن الصدفة العمياء، والطبيعة الصمّاء، لا يمكن أن تلد مثل هذا المولود العظيم.

ويمكن أن نستوضح ذلك، في أن نتصور أنَّه لا يمكن أن يوجد إنسانٌ متكافلٌ فجأةً من العدم، وتوجد له زوجةٌ، ويبدأ بالتناسل لمجرّد الصدفة، وبدون أيّ تدبير.

فإبعاداً لأذهانهم عن هذه الفكرة السخيفة؟!! التزموا بالتطّور التدريجيّ في وجود الحياة، بل في الكون المنظور من العدم، وكانت الماركسية أشهر المذاهب الماديّة التي دافعت عن نظريّة التطور بحرارة، ورأت فيها تطبيقاً للقوانين التي وضعتها للعالم!..

---

(١) أي كتاب الداروينية عرض وتحليل.

فكانت نظريّة التطور هي البديل الماديّ الوحيد للمذاهب المادية على العموم[(١)].

عدم حاجة الفكر الديني لنظرية التطور:

ولكن الفكر المتدين، بالرغم من أنَّه لا يجد تنافياً بين هذه النظرية _كقانون بشري_ وبين وجود الخالق _كما سبق أن عرضنا_ إلاَّ أنَّه ليس بحاجةٍ إليها بأيّ حال؛ لأن لديه البديل الكامل والواضح عنها، وهو (الإبداع) الإلهيّ لكل نوعٍ بحياله واستقلاله.

كلّ ما في الأمر، أنَّ وجود النوع لا مصلحة في إيجاده فجأة، بل يحتاج إلى سبب معين لا محالة، وقد كان آدمعليه السلام من الطين وهو السبب في وجود البشريّة.

وهذا لا ينفي بطبيعة الحال أن يتحقّق في بعض الموارد الشاذّة والوقائع النادرة، وجود نوعٍ من نوعٍ آخر، كالبغل الموجود بين الحصان والحمار، عندما تتعلّق المشيئة الإلهيّة في وجود مثل هذه الوقائع النادرة في الطبيعة.

وبذلك نستطيع أن نفسّر كلّ الشواهد التي استدلّت بها نظرية التطور، أنَّ كلّ واحدٍ من شواهدها ـ إن كان صادقاً وحقيقياً ـ فإن له مصلحته

---

(١) وقالقدس سره في كتاب اليوم الموعود ص ١٧٨ : «من هذا يتضح، أن الفكر القائم على الأساس الالهي، غير ملزم بالاعتراف بهذه النظرية، و لكن المادية مضطرة، من أجل تفسير وجود الحياة و تطورها على وجه الأرض، إلى الالتزام بهذه النظرية، باعتبارها التفسير المتوفر المعقول لذلك، و لكنها إذ تواجه تلك النقاط التي ذكرها ستقع في موقف محرج، و ستضطر في النهاية إلى التنازل عن نظرية التطور، فتبقى الحياة بدون تفسير مادي».

الخاصّة التي تمت إلى الحكمة الإلهية بصلة، كما أنَّه موجود بالسبب الذي يتسبب إلى القدرة الأزلية.

وبذلك تسقط كلّ الشواهد عن نظر الاعتبار، كمؤيداتٍ وقرائن على صحّة النظريّة التطوريّة.

إنَّ الماديّة بحاجة إلى صدق نظرية التطور مئة بالمائة، بحيث سيكون أيّ اعتراضٍ على هذه النظريّة اعتراضاً على الماديّة نفسها؛ لأن صدقها النسبي أو انطبايقها على بعض الحقول دون بعض، سوف يفسر لنا الخلقة تفسيراً ناقصاً، وسوف يبقى الباقي سؤالاً بلا جواب، وتكون المادية بحاجةٍ إلى تقديمه.

على أنّ التطور سواء في الخلقة أو الاجتماع أو الاقتصاد ممّا لا دليل عليه أصلاً؛ لأنَّنا لا نستطيع أن نجد فرداً طويل العمر، يروي لنا قصّة القرون السابقة السحيقة في القدم [(١)].

فلعلّ هناك حضارات سادت ثُمّ بادت أكثر من مرّة، بل عشرات ومئات المرّات، ولم يبقَ منها أيّ أثرٍ، ولعل هناك أنواع من الخلق سادت على الأرض، وتحكمت فيها، ثُمّ انقرضت ولم يبقَ على وجودها دليل.

---

(١) هذا الإشكال مستحكم بحيث حاولت هوليود إنتاج فيلم يدعم نظرية التطور أسمه (لوسي) فتاةً ينتقل بها الزمن من الحاضر إلى أول الخلقة وتجد أن أول الخلقة هو قرد ومن ثم منه أنتشر الخلق، هذا لأن الأفلام لها وقع في قلوب الكثير من الناس وتأثير على عقولهم من أن هذا الأمر المستحيل يكون سهل التصديق في بعض الأبحاث الممزوجة بالمصطلحات التي ينجر إليها الفرد لا شعورياً وللإطلاع أكثر راجع مجلة الرصد العدد (١٥) بعنوان: هولويود تستهدف الدين.

ولعل في هذه الحضارات، وفي هذه الأنواع، من هو أفضل منا وأشد تأثيراً وأبعد عمقاً وإدراكاً: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾[١]، وورد في الخبر: «خلق الله ألف ألف آدم، وألف ألف عالم»[٢].

كل ذلك مما لا دليل على نفيه، بل إنَّ الحدس الأوّليّ الصافي لدى الفرد ممّا يعضده ويوافق عليه، كلّ ما في الأمر أنَّ النكسات التي تحدث في الطبيعة، طبقاً للحكمة الإلهيّة، قد تستأصل النوع بأسره أو الحضارة بكاملها، ولو صدقت نظريّة التطور، لاحتجنا إلى التطور المستمرّ، ولما أمكن وجود هذه النكسات بطبيعة الحال[٣].

---

(١) الأحقاف ٢٦.

(٢) مشارق أنوار اليقين ص ٦٠.

(٣) اشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٧١ ـ ٣٧٩.

خاتمة الفصل

فلسفة العلوم عند السيد محمد الصدر

قد نظرت إلى الإشكالات السابقة التي كان أكثرها يدور حول مسائل علمية؛ فإن التطور في العلوم الطبيعية أدى إلى أن تتكبر أوربا على خالقها، وتقول بأنها لا حاجة لها به؛ كل ذلك لأنها تطورت في العلوم، إلاَّ أنها لم تتطور في فلسفة العلوم؟

ولأجل توضيح ذلك نقول: إن فلسفة العلوم تعني التساؤل عن غاية هذه العلوم ، أو كما قال السيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه:

«قالوا: ان الفلسفة هي البحث عن الأسباب الأولى أو الرئيسية في الكون. وقد تفرعت الفلسفة نتيجة لطموح الفلاسفة وذكائهم، حتى أصبحت بحثاً عن كثير من الظواهر العامة في الكون. ولا تخص مجموع الكون ككل.

إذن، فالسؤال عن الأسباب فلسفة، ومن هنا سمينا كتابنا (فلسفة الحج)

بهذا الاسم، لأنه تساؤل عن الأسباب الغائية في الحج، يعني عن الحكم والمصالح التي توخاها الشارع الإسلامي المقدس فيه، وما يحتويه من التربية والتكامل للفرد والمجتمع»(١).

وقد ضرب الفيلسوف البريطاني «انتوني فلو» مثالاً توضيحياً يفرق بين العلوم وفلسفة العلوم إذ قال:

«عند دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام المادية، على سبيل المثال، أو اثنين من الجسيمات ما دون الذرة، فإنك تتحدث في العلوم، وعندما تسأل كيف وُجدت تلك الجسيمات ما دون الذرة ـ أو أي شيء مادي ـ ولماذا، فأنت تتحدث في الفلسفة. عندما تستخرج استنتاجات فلسفية من بيانات علمية، فأنت عندئذٍ تفكَّر كفيلسوف»(٢).

إذن، فكل الدعاوى المتقدمة التي تقول إن اكتشاف الأمر الكذائي يدل على عدم وجود خالق إنما سببه عدم معرفة هؤلاء العلماء الطبيعيين بفلسفة العلوم التي يدرسونها، وقد قال «أنتوني فلو» كذلك عن هؤلاء العلماء الطبيعيين:

«فالفيلسوف هو الذي يخرج من المعلومات العلمية باستنتاجات معرفية، وربما لا يعرف الكثيرون من علماء الأحياء عن هذه الاستنتاجات أكثر مما يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد التي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرة»(٣).

---

(١) ما وراء الفقه ج ٢ ق ٢ ص ١٨٩.

(٢) هناك إله ص ١٣، وقريب منه في رحلة عقل ص ٨٤

(٣) رحلة عقل ص ٨٤.

فلا تستغرب إذا ما رأيت عالماً في مجال الفيزياء أو الكيمياء أو غيرها ينكر وجود الله تعالى، فإن هذا الإنكار يدل على اختصاصه بعلمه الطبيعي وجهله بفلسفة العلم الذي يدرسه، فالعلماء كما يقول آينشتاين فلاسفة ضعاف[١]. وأنتوني فلو لم يقل ما قاله إلاَّ بعد تجربة ومعاشرة لأكثر من خمسين سنة لهؤلاء الأصناف من الملحدين، إذ أنَّه كان ملحداً مثلهم وبعد ذلك لما عرف فلسفة العلوم آمن بالله العلي القدير، ويحدثنا السيد محمد الصدرقدس سره كفيلسوف إذ يقول عن فلسفة العلوم:

«أنا اعتبر الفيزياء والفلك وكذلك الكيمياء نتائج لقواعد عامة نستطيع أن نقول، أو قوانين كلها سنها الله سبحانه وتعالى في خلقه، فمن هذه الناحية هذه النتائج تدل على قوانينها العامة... طبعاً هؤلاء الماديون باصطلاح علماء الفيزياء والكيمياء والفلك هم مشغولون بهذه الأمور، بالنتائج التي سميتها نتائج ويدرسونها في الأكاديميات، ولكنهم ينسون تدبير الله وفعل الله وحقيقة الله ولكنه نحن كمؤمنين لا ينبغي أن ننسى هذه الأمور، وفي الحقيقة كل شيء من هذه الأمور ناتج من فلسفة معينة»[٢].

وانشغالهم بهذه العلوم مجردةً عن فلسفتها أدى بهم إلى الإلحاد الذي كان محل كلامنا، إلاَّ أنهم لو التفتوا إلى فلسفة ما يدرسونه لما وقعوا في ذلك المأزق. يقول السيد محمد الصدرقدس سره عن الذين غرَّتهم العلوم الطبيعية:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) منهج الصدر ص ٦٠.

«ولو التفتت [أوربا] إلى تلك الحقيقة [حقيقة الله تعالى] التي ليس في الكون من ينفر منها أو يبتعد عنها، إلاَّ هذه الشرذمة الضالة المضلة، لرأت أنَّها تعيش باستمرار في وهمٍ كبير، وإنَّ هذه النتائج المدهشة ستكون أقرب إلى قلب هذه الحضارة الأوربية ونقصها منها إلى عظمتها وتمجيدها»[١].

وقد فاق أنتوني فلو عن هذا الوهم الكبير في عام ٢٠٠٤ م وأعلن عن إيمانه بعد عمر مديد في الإلحاد، وقال عن طريق معرفته بفلسفة العلوم، وبالاعتماد على عقله فقط :

«لقد صرت أؤمن بإله واحد أحد، واجب الوجود، غير مادي، لا يطرأ عليه تغيير، مطلق القدرة، مطلق العلم، كامل الخير»[٢].

وقال:

«عندما أعلنت عام ٢٠٠٤ م أنه لا يمكن تفسير نشأة الحياة تلقائياً من المادة غير الحية، فلم أكن أتحدث في الكيمياء أو الفيزياء أو الوراثة، ولكن كنت أتساءل (كفيلسوف) عن معنى أن يكون الشيء حياً، وعن علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والفيزيائية والوراثية»[٣].

علماً أن السيد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه قد ذكر في عام ١٩٧٨ م[٤] أن من يلتفت

---

(١) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٣.

(٢) رحلة عقل ص ٢٩٤.

(٣) المصدر السابق ص ٨٤.

(٤) يظهر ذلك من كلامه عن نظرية دارون في إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٣.

إلى فلسفة هذه العلوم ستقوده هذه الفلسفة إلى الإيمان بالله تعالى لا إلى الإلحاد!!
وقال قدس سره عن براهين الإسلام العقائدية :

«وكان حديث الإسلام عن الله تعالى، وعن صفاته، الذي جاء في القرآن الكريم وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، أساساً لقواعدٍ فلسفيّة دقيقة، وبحوث معمقة، مما أثار الكثير من العجب والاستغراب في أن يبزغ شخصٌ من بين بدو العرب في الصحراء العربيّة القاحلة؛ ليستدلّ بمثل هذه الأدلّة المنطقية الدقيقة على خالق الكون ومدبّره، التي مهما ترقى الإنسان في تفكيره وأتسع أُفق نظره في هذا الكون، فلن يصل إلاَّ إليها أو ما يدور في فلكها.

وقد اعترف علماء البشر ومفكّروهم بوجود المبدأ الأعلى وأنّه واحدٌ لا شريك له، وذلك كنتيجةٍ حتميةٍ لنظرهم في عجائب هذا الكون وفي دقيق قوانينه وعظيم خلقته، سواء كان نظرهم في الكيمياء، أو الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الطبّ، أو التاريخ، أو علم طبقات الأرض، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الفلسفة، أو غيرها من العلوم؛ لأنَّ في كل شيءٍ أثراً لصانعٍ حكيم ويداً مدبّرة، وقد قال سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حين سُئل عن إثبات الصانع: «البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة كيف لا يدلان على اللطيف الخبير[1]»[1].

---

(١) بحار الأنوار ج ٣ ص ٥٥.

إلا أن الذي يمنع الملحدين الأوربيين عن إدراك هذه الحقائق هو تكبرهم على الله سبحانه وتعالى، وقد تحدث السيد محمد الصدر قدس سره عن تكبرهم العلمي إذ قال:

«المهم على أنه ينبغي أن العلوم الشهيرة في الأرض تكفكف من غلواء تكبرها، في الحقيقة هؤلاء أيضاً لهم تكبر في العلم، أوربا متكبرة بعلومها بطبيعة الحال... وأيضاً تغزو الناس بعلومها، وأنا أقول أنه إذا مشينا خطوة واحدة أعلى من تلك العلوم فضلاً عن إذا مشينا امتاراً واميالاً سوف نجد هذا كله بمنزلة الهواء في شبك، وإنما يصح في رتبته وليس يصح في الرتب العليا»[٢].

وقد كان «انتوني فلو» الذي كانا نتحدث عنه رجلاً متواضعاً كما يظهر من كتابه «هناك إله» إذ أنه كان يريد معرفة الحقيقة ويتبع قول سقراط: **«ان نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»**.

فصار مؤمناً بالإله، نعم أنه قد وقع في اشتباه حول الدين الإسلامي سنذكره في فصل الشبهات الخاصة بالدين الإسلامي. وقد كتب السيد محمد الصدر قدس سره عن فلسفة العلوم في مؤلفاته كـ«ما وراء الفقه» كما وتوجد إشارات إلى فلسفة العلوم في بعض محاضراته، وفي خطب يوم الجمعة وغيرها، وكان قدس سره يقول في لقاءاته:

«أنا الآن ينبغي أن اظهر عيوبي حتّى لا يعطيني الناس أكثر من اللازم،

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) مواعظ ولقاءات ص ٦٥.

إنما يعطوني إستحقاقي، كثير من الأمور أنا لا أعرفها... أما الأمور في الاصطلاحات العلمية كالفيزياء والكيمياء ونحو ذلك من الأمور أيضاً لم أدرسها ولم أعرفها، نعم هناك ما يسمى بفلسفة الفلك والفيزياء، هذا أنا فكرت فيه كثيراً...»[١].

---

(١) المصدر السابق ص ٦٠.

الفصل الخامس

مباحث في التوحيد

مباحث في التوحيد

طرح «دوكينز» إشكالاً على التوحيد إذ يقول:

«ليس من الواضح لماذا يعد الانتقال من نظام تعدّدي الآلهة إلى التوحيد خطوة تطورية بشكل بديهي وواضح لا يحتاج إلى نقاش؟!... إنّ التوحيد بنفسه سيصاب بنفس النكبة إنقاص عدد الآلهة واحداً آخر ليصبح إلحاداً»(1).

ومراده أن الناس كانت تعتقد بآلهة متعددة فلما زاد وعيها بدأت تقلل منها، ولما يزيد وعي الناس أكثر سينتهون إلى الإلحاد!(2).

ونحن في هذا الفصل نبين سبب الإشراك أولاً، وهل يعني أن التوحيد سيصاب بنفس نكبة الشرك فيكون إلحاداً، أم أن الأصل ومنذ البداية هو التوحيد

---

(1) وهم الإله ص ٣٣.

(2) وذهب الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله عالم نفس العالم الغربي أنّ الغرب أنتقل من عبادة الآلهة المتعددين إلى التوحيد ورجعت الآن إلى عبادة إله لكل إنسان فكل إنسان يرى أنّه إله نفسه ولا يفعل إلاّ ما يرى وما يحلو له، وقد استلهموا هذه الرؤية من الفيلسوف «نيتشة» صاحب نظرية: «الإنسان السوبرمان».

ولكن لسوء فهم الناس حصلت صور الشرك المختلفة.

وبداية هذا البحث نذكر صور الشرك الموجودة منذ العصر اليوناني وإلى عصر الديانة المسيحية كما ذكرها السيد محمد الصدرقدس سره وهي كالآتي:

صور الإشراك بالله:

يبين السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه أن أسباب الإشراك بالله تعالى كان له صور متعددة كلها ترجع بالأصل إلى التوحيد، فلو كان الشرك ناشئ من ذاته لكان لكلام دوكينز باب وجواب، أما إذا كان أصل تعدد الآلهة يرجع إلى فطرة التوحيد فكلامه سيبطل ويُرد.

قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه:

«وإن للإشراك بالله تعالى صوراً متعددة، لكل منها دوافع وأسباب مختلفة، وهي ترجع في الغالب في أصولها العميقة وأسبابها الأولى إلى غريزة التوحيد نفسها»

وهذه الصور كما يلي:

الصورة الأولى: عبادة الأصنام

«فإما عبادة الأصنام والشجر والحيوان، فإن كل قبيلة، كانت تدرك فطرتها إله الكون الواحد وتندفع إلى عبادته اندفاعاً تلقائياً، ولكنها لما كانت لا تتصور ـ لقلة مدركاتها وضألة تفكيرها وارتباط معقولاتها

بمحسوساتها[١] ـ إمكان عبادة المجرد، فقد جسمته صنماً أو تمثيله متجلياً في بعض الحيوان أو النبات أو الحوادث الطبيعية، وعبدت ذلك الشيء رمزاً عن ذلك الإله العظيم.

ومن ذلك قول قريش الذي نقله عنهم الله‎ﷻ في كتابه الحكيم، فقال عز من قائل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٢]، وبهذا كان لكل قبيلة إله معبود، ولما توالت الأجيال واعتاد الناس على الخضوع إلى هذه الآلهة المزعومة، نسي المعنى الفطري الذي أنشأت بسببه هذه العبادات، واعتقد بتعدد الآلهة»[٣].

إذن فالناس في بداية أمرهم كانوا يدركون في فطرتهم إلهاً واحداً ولكنهم بسبب عدم أمكان تصورهم الإله المجرد عن الجسم صنعوا الأصنام وعبدوها.

ثم بمرور الزمن نست الأجيال المتقدمة الفطرة الأساسية وهي الإيمان بالمبدع الخالق، وبعد تكثر الأصنام بحيث كانت كل قبلية تدرك إله واحد وتجسمه وتعبده وفق فطرة التوحيد، ولما تلاقت أجيال القبائل مع بعضها صارت أصناماً متعددة وجعلوها آلهة متعددة.

ومن باب التدبر بالقرآن الكريم وكأطروحة نقول: إن كون كل قبيلة لها إلهاً معبوداً من صنم واحد يدل على أن تلك القبيلة تُدرك معنى التوحيد بأن الخالق لا يكون إلاَّ واحداً.

---

(١) أي لا تتعقل شيء خارج عن نطاق الحواس.

(٢) سورة الزمر: ٣.

(٣) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

ولكن لما تلاقت القبائل قَبِلَ بعضهم أصنام بعض وذلك من أجل الألفة بينهم، والتحالف الذي كان سائداً في تلك العصور ولأجل نصر بعضهم بعضاً في تلك التحالفات، ولعل الآية الآتية تصلح كمؤيد لهذه الأطروحة إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾[2].

الصورة الثانية: عبادة الأشخاص

«هناك أسباباً أخرى لنشوء قسم من عبادات المجسمات، لا تمت في واقعها بسبب إلى التأليه، وإنما هو أن تصنع القبيلة لرئيسها أو جدها الأعلى تمثالاً رمزاً لحبهم وإخلاصهم له، وحين يموت هذا الشخص يبدأون بتعظيم تمثاله كرمز لتعظيم ذلك الجد، ثم ينتقل على مدى الأجيال هذا الإخلاص الرمزي إلى الإخلاص إلى هذا التمثال بالخصوص، ثم يبدأ هذا الإخلاص بالانتقال إلى نوع من التقديس ثم إلى نوع من العبادة والخضوع، ويبدأون بالاعتقاد بأن هذا التمثال ليس إلاَّ تمثالاً لإله الكون الذي يدركونه ويخافونه بفطرتهم»[3].

فإنّ الوثنية نشأت من تعظيم الشخصيات وتكريمهم وتخليدهم، فعندما كان يموت أحد الشخصيات كانوا ينحتون له تمثالاً لإحياء ذكراه وتخليد مثاله في

---

(١) العنكبوت ٢٥.

(٢) يس ٧٤.

(٣) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٣.

أفئدتهم، ولكن مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال كانت تتحول هذه التماثيل - عند تلك الأقوام - إلى معبودات، وإن لم تقترن ساعة صنعها بمثل هذا الاعتقاد.

وأحياناً كان رئيس عائلة يحظى باحترام وتعظيم كبيرين - في حياته - حتى إذا مات نحتوا له تمثالاً على صورته وعكفوا على عبادته. وفي اليونان والروم القديمتين كان رب العائلة ورئيسها يعبد من قبل أهله فإذا توفي عبدوا تمثاله.

وتوجد اليوم في متاحف العالم أصنام وتماثيل لرجال الدين وللشخصيات البارزة الذين كانوا - ذات يوم - أو كانت أصنامهم تعبد كما يعبد الإله[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[2]، كانوا يعبدون الله عزّ وجلّ فماتوا فضج قومهم وشق ذلك عليهم، فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم: أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله، فأعد لهم أصناما على مثالهم فكانوا يعبدون الله عزّ وجلّ، وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عزّ وجلّ حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم، فقالوا: إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عزّ وجلّ[3].

---

(١) مفاهيم القرآن ج ١ ص ٤٣٠.

(٢) نوح ٢٣.

(٣) بحار الأنوار ج ٣ ص ٢٥٠.

الصورة الثالثة: عبادة الظواهر الكونية

«وأما الاعتقاد بوجود آلهة لكل ظاهرة كونية ولكل معنى من معاني الكمال، كما كان شائعاً في بلاد اليونان القديمة، فهناك- بزعمهم- إله للريح وإله للمطر وإله للأرض وإله للبحر، كما ان هناك إله للجمال وإله للحب وإله للخير من ناحية أخرى. فلعله ناشئ من اعتقاد هؤلاء البشر، من قصر نظرهم وسوء تفكيرهم، بأنه يناسب أن تكون ظاهرة كونية إلهاً مستقلاً منفرداً بإرادتها وتدبيرها، بزعم عدم إمكان صدور هذه الظواهر المتعددة جميعاً من إله واحد»(١).

وقد حاربت الأديان هذا الشكل من العبادة، كما كان النبي إبراهيم عليه السلام يناقش ويحاور عباد الشمس والقمر ونحوها، كما سنشير إليه فيما يأتي.

الصورة الرابعة: عبادة الجن

«وقد كان اعتقاد هؤلاء الناس [اليونانيين] بالأرواح والعفاريت، واعتقادهم أن لها أعمالاً تقوم بها لإزعاج البشر ومضايقتهم، الأثر الكبير في تأكيد هذه العقيدة [المشركة] في نفوسهم، ومن ثم نرى أن هناك خلطاً كبيراً في أذهان هؤلاء بين تلك الأرواح وهؤلاء الآلهة، فليست الآلهة في نظرهم إلاَّ نوعاً من تلك العفاريت والأرواح»(٢).

ولعل هؤلاء قد قُصدوا بقوله تعالى: ﴿**بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ**

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

مُؤْمِنُونَ﴾(١)، فإنَّها كما تنطبق على الشيطان تنطبق على عبادة أي جنٍ آخر بدعوى أنَّه هو المؤثر من دون الله تعالى.

الصورة الخامسة: إله لكل معنى من معاني الكمال

«أما بالنسبة إلى الاعتقاد بوجود آلهة لكل معنى من معاني الكمال، فقد يكون ذلك ناشئاً من تداعي المعاني الذي سبق إن أشرنا إليه(٢)، من أن الذهن ينتقل في تصور الكمال الناقص الذي يراه إلى تصور الكمال المطلق، ولكنهم إنما تصوروا الكمال لكل معنى على حدة.

وهذا مشابه لنظرية المثل الأفلاطونية التي بزغت في ذلك المحيط نفسه، ولعلها تأثرت وأثرت في هذه العقائد، وفحواها ان لكل نوع من الأنواع فرداً كاملاً يتصف بجميع ما يمكن ان يتصف به ذلك النوع من الكمال، ويتجرد عن كل ما يمكن أن يلحق بنوعه من النواقص والأسوأ يسميه أفلاطون بالمثال، ثم أن هناك فرداً أكمل لمجموع هذه المثل بصفتها نوعاً واحداً، هو المثال المطلق للخير والكمال، وهذا المثل لا يمكن أن يكون إلاً واحداً؛ لأن الكمال المطلق لا يمكن أن يكون إلاً واحداً، كما ان مثال كل نوع لا يمكن أن يكون إلاً واحداً أيضاً؛ لأن الكمال لكل نوع لا يتعدد، وبهذا نرى أفلاطون يصل بنظريته إلى الاعتراف بالله ﷻ وتوحيده، على طريقته الخاصة، في حين لم يصل أولئك الرعاع إلى

---

(١) سبأ ٤١.

(٢) راجع الملحق رقم (٢).

مثل هذا المرتقى الدقيق»[١].

وقد بدأت هذه المرحلة من التفكير بالـ«طاليس» الذي يرى أن العالم لا يمكن أن يكون مخلوقاً من (العدم المحض) وإن كل بداية ليست في الحقيقة سوى تغيّر، فيجب إذن، افتراض مادة أولى أزلية نشأت عنها كل الموجودات، وهذه المادة الأزلية هي الماء.

الذي حمله على اختيار الماء، أنه بحث في الموجودات عن مادة لها قابلية التغير والتشكل فرأى الماء يكون مائعاً، فيصبح تارة ثلجاً، وتارة بخاراً لطيفاً، ثم يرجع ماء. ورأى أن الرطوبة شرط في الحياة، فاعتقد أن الماء الذي له هذه الخواص، هو أصل الموجودات كلها.. وهكذا وآخر اعتبر الهواء هو أصل الأشياء كـ«انكسيمنس»[٢].

فهؤلاء كانوا يتخبطون بين حقائق غارقة في بحر من ظلام إلى أن وصل الدور إلى أفلاطون فقال بـ«المثل» التي ذكرها السيد محمد الصدر قدس سره.

الصورة السادسة: إله الخير وإله الشر (الثنوية)

«وأما الاعتقاد بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر، فهو ناشئ من الاعتقاد بتناقض الخير مع الشر، وعدم إمكان صدور المتناقضين عن إله واحد، فاستنتجوا من ذلك ضرورة وجود إلهين للكون يكون أحدهما خالقاً للخير والآخر خالقاً للشر.

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) انظر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٢٩.

ونحن ـبهذا الصددـ نراهم قد حكموا بتناقض الخير والشر، وفي هذا اتباع للفطرة العقلية التي تحكم باستحالة اجتماع النقيضين، كما سبق أن أشرنا[١]، وحكموا بأن للخير إلهاً كما أن للشر إلهاً واحداً أيضاً، وفي هذا اتباع لفطرة التوحيد على شكل مغلوط.

وقد تصدى الفلاسفة المسلمون لحل هذه الإغلوطة، فأوضحوا بأن الخير عبارة عن الكمال وهو عبارة عن الوجود، فالخير والكمال إنما يمثلان القسم الوجودي في هذا الكون، وأن الشر عبارة عن النقص والنقص عبارة عن العدم، وعدم الكمال، والعدم ليس أمراً وجودياً لكي يخلق، فالله ﷻ خالق للوجود، أي للأمور الكمالية، وليست الشرور إلاَّ من أثر عدم خلقه للكمال المطلق، على تفصيل مذكور في محله في الفلسفة الإسلامية»[٢].

وحاصل استدلالهم: أن ما يسمى بالشر من الحوادث والوقائع يرجع عند التحليل إلى العدم، فالذي يسمى بالشر عند وقوع القتل ليس إلاَّ انقطاع حياة البدن الناشئ عن قطع علاقة النفس عن البدن، وما يسمى بالشر عند وقوع المرض ليس إلاَّ الاختلال الواقع في أجهزة البدن وزوال ما كان موجوداً له عند الصحة من التعادل الطبيعي في الأعضاء والأجهزة البدنية.

وكذلك سائر الحوادث التي تتصف بالبلية والشرية. ومن المعلوم أن الذي يحتاج إلى الفاعل المفيض هو الوجود، وأما العدم فليس له حظ من الواقعية حتى

---

(١) راجع ملحق رقم (٢).

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٥.

يحتاج إلى المبدأ الجاعل[١].

ومن هنا ارتفع اللبس الذي دعا أولئك للقول بوجود إلهين إله للشر وإله للخير بل وكل ما يظنونه متناقضاً.

ويوجد تحليل آخر لمعضلة الشرور وهي :

إن الشر أمر قياسي ليس له وجود نفسي وإنما يتجلى عند النفس إذا قيس بعض الحوادث إلى بعض آخر...مثلاً إنَّ كون العقرب موجوداً وذا سم، من الأمور الحقيقية. أما كونه شراً فليس جزءاً من وجوده، وإنما يتصف به سم العقرب إذا قيس إلى الإنسان وتضرره به أو فقدانه لحياته بسببه، وإلا فأنه يعدّ كمالاً للعقرب موجباً لبقائه[٢] كأن كان يدافع به عن نفسه ونحو ذلك.

وهكذا حلّت الفلسفة الإسلامية هذه المعضلة ويوجد تصويرات أخرى مذكورة في محلها من كتب الفلسفة الإسلامية والإلهيات.

الصورة السابعة: الثالوث المسيحي

«وأما القول بالثالوث المسيحي، فهو ناشئ من أثر تحريف المسيحية عن واقعها النازل من الله ﷻ ولعل اعتقاد المسيحيين بألوهية المسيح، وأنه جاء من استغرابهم من طريقة حمل مريم لابنها، مع عدم إمكان الاعتقاد بأن ذلك ناشئ عن طريق غير شرعي لأنه نبيهم ورئيس عقيدتهم، إذن فلابدّ أن يكون ذلك ناشئاً عن طريق الإعجاز، وكأنهم فكروا أنه لا

---

(١) مختصر الإلهيات ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) الإلهيات ج ١ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

يمكن لأحد القيام بالمعجزة إلاَّ إذا كان إلهاً، غافلين عن إمكان ذلك لأي بشر مع إقدار الله تعالى له وتوفيقه إياه، وليست هذه العقيدة صادرة من قبل المسيح نفسه، فإن عيسى بن مريم على نبينا وآله وعليه السلام، لأجل قدراً وأبعد نظراً من أن يدعي الألوهية في قبال الله‎ﷻ، وأن يأمر اتباعه بعبادته مع عبادة الله تعالى[١]، وإنما كان ذلك بدعة اختلقها المسيحيون ومسخوا بها دينهم بعد أن رفعه الله إليه.

وقد تصدى القرآن لمناقشة هؤلاء الناس في عقيدتهم تلك، مع إثبات كل معاني الشرف والفضيلة إلى المسيح وأمه‎عليهما السلام، فقال عز من قائل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٢]، فهو ليس إلهاً، بل رسولاً من الله‎ﷻ أرسله الله بشريعة معينة

وبالاعتراف بوجود الله وتوحيده، ليهدي البشر ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والإيمان، وقد جعل أسلوب حمله وكلامه في المهد صبياً آيتان مّنَ الله عليه بهما، لتأييد صدق بعثته وإتمام الحجة على قومه.

---

(١) لعله إشارة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة ١١٦ ـ ١١٧).

(٢) سورة النساء: ١٧١.

وقال أيضاً تبارك وتعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾(١)، فالمسيح إذن رسول كمن سبقه من الرسل، وأمه صديقة لأنها امرأة صالحة مقربة من الله عز وعلا، وقد خصها الله بهذه الكرامة حيث جعلها أماً لنبي من أنبيائه، وأجرى عليها هذه المعجزة الفريدة، وليس هو وليست أمه إلهين لأنهما كانا يأكلان الطعام باعتراف المسيحيين أنفسهم، وليس من شأن الإله أن يحتاج إلى الطعام فيأكله، وأن يكون محلاً للحوادث والعوارض التي هي من صفات الممكنات ويتنزه عنها مقام الربوبية.

أنظر كيف يخاطب القرآن الناس على مقدار مداركهم، وكيف خص الطعام بالذكر لأنه أقرب الأفعال إلى الإنسان وأدلها على الضعف والحاجة، لما يعلمه الإنسان بما سوف يصيبه لو أمتنع عن تناوله.

وأننا لنرى علماء المسيحيين ومفكريهم قد حاروا، بعد أن عرفوا استحالة وجود أكثر من إله واحد بالفطرة والدليل العقلي، حاروا في اتباع أي من القولين أو في تأويل ثالوثهم المقدس بشكل يرضي الحكم العقلي والفطري، وقد انشعبوا في ذلك مذاهب متكثرة عديدة، ليس في المقام مجال لذكرها

كما أننا نرى من ناحية أخرى ان العلماء المحدثين المختصين بأي فرع من فروع العلم، إنما هم علماء موحدون رغم نشأتهم في بيئة مسيحية، فهم يرجعون الظواهر الكونية التي يدرسونها إلى إله حكيم، وهو أيضاً إله واحد، ولا يمكن أن يكون إلاَّ كذلك، وفي كتاب «الله يتجلى في

(١) سورة المائدة: ٧٥.

عصر العلم»، وكتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» أكبر دليل على ذلك.

ولا يبقى بعد ذلك إلاَّ حفنة ممن أعماهم الضلال ورانت على عقولهم الشبهات وأخذ بمجامع قلوبهم التعصب الأعمى، فادعوا الإلحاد وتبجحوا به، في حين لم نر أن مفكراً واحداً أدعى الثنوية أو التثليث، أو أفتخر بهما على الإطلاق»[1].

إذن فليس انتقال الناس من نظام تعدد الإلهة إلى التوحيد سيصاب بنكبة إنقاص إله آخر فيكون إلحاداً؛ لأنه أساساً تعدد الآلهة كان عن قصور في فكر الناس آنذاك لهذا كان التوحيد تطوراً، وبما قال السيّد محمّد الصدرقدس سره يمكن أن يُجاب على تساؤل «دوكينز» من أنه لماذا كان الانتقال من نظام تعدد الآلهة إلى الإله الواحد خطوة تطورية.

الذهنية البشرية والتوحيد:

ونريد هنا أن نضيف شيئاً في غاية الأهمية لمّحنا له سابقاً، وهو أن الذهنية البشرية لم تكن بالمستوى المطلوب لإدراك معاني التوحيد، فلما أدركته بعد جهد مضني من أنبياء الله تعالى وتعاليمهم وتثقيفهم، حصلت هناك الدعوة المباشرة إلى بدءاً بالخليل إبراهيم عليه السلام، والأنبياء الذين بعده.

ونجيب «دوكينز» عن السبب الذي جعل المؤمنين يقولون بأن انتقال الناس من عبادة الإلهة المتعددة إلى نظام التوحيد هو خطوة تطورية بجواب تاريخي، فقد ذكر السيّد محمّد الصدرقدس سره هذا الجواب إذ يطرح تساؤل عن سبب تعدد الإلهة ثم يجيب عليه كما يلي:

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

«السؤال الأول: لما ذا تعددت أشكال العقيدة الإلهية بين الأمم، فكان كل جماعة يعطون اسماً ووصفاً مختلفاً للخالق عن الجماعات الأخرى؟!.

وجوابه: انه لا أهمية للاسم من هذه الناحية، إذ انه أمر لغوي يختلف باختلاف اللغات واختلاف الأمم والأجيال، وان اتحدت العقيدة. وتعتبر كل الأسماء مشيرة إلى ذات واحدة، هو خالق الكون اللامتناهي في الحكمة و القدرة.

وأما الصفات، فلاختلافها منشاءان، كلاهما منتسب إلى التخطيط:

المنشأ الأول: ما عرفناه من تطور الفكر البشري من خلال تربية النبوات. فكل نبوة تذكر من الصفات ما يناسب تربية العقلية العامة للمجتمع، وفهمها لهذه الصفات. وتهمل كل ما يكون فهمه متعذراً عليها... الأمر الذي توكله كل نبوة إلى التي بعدها. وقد ذكرنا في «تاريخ الغيبة الكبرى»[(١)] أمثلة لذلك.

المنشأ الثاني: الانحراف الناشئ من الاختبار الذي هو أحد أركان التخطيط... حيث أصبحت بعض الأمم تؤمن بتعدد الآلهة وتوالدها، وبعضها تؤمن بالاثنينية، وبعضها يؤمن بانطباقها على موجودات طبيعية ... وهكذا.

وربما كان المنشأ الأول، أعني سكوت الأنبياء عن الإيضاح الكامل، تبعاً للمستوى الذهني، من مسببات المنشأ الثاني في ظرف الذهنية البشرية الضئيلة.

(١) سنذكرها بالعنوان الآتي.

وقد سمعنا لذلك بعض الأمثلة في «تاريخ الغيبة الكبرى».

السؤال الثاني: لما ذا تعددت النبوات؟! ...

إن هذا يمت بصلة إلى التربية البشرية ضمن التخطيط الثاني. لأن مستواها لم يكن مساعداً على فهم المستويات المعمقة منذ أول نشأتها، كما هو واضح، فكان اللازم التدرج بالتعليم والتربية إلى حين بلوغها سن الرشد.

وكانت كل نبوة تتكفل تربية البشرية ردحاً من الزمن، حتى ما إذا أدت مفعولها أصبح من اللازم إبدالها بنبوة جديدة، وهكذا. ومن هنا تأتي النبوة اللاحقة (ناسخة) لتعليم النبوة السابقة، وان اتحدت معها في الخط العقيدي العام، لتعطي مفاهيم زائدة وتعاليم معمقة أكثر نسبياً... وهكذا»[1].

إذن يتضح مما تقدم أن الانتقال من تعدد الالهة إلى التوحيد يعد تطوراً لأن الذهنية البشرية اصبحت قابلة لإدراك المعاني المعمقة لفهم العقائد الدينية.

الأنبياء وعقيدة التوحيد:

قال السيد محمد الصدر قدس سره:

«إن مستوى العقيدة الالهية التي جاء بها الإسلام من التجريد والتوحيد الخالصين، لم يكن موجوداً بوضوح في الشرائع السابقة. وإنما كانت هذه العقيدة في تطور مستمر، في ألسنة الأنبياء على مرور الزمن، إذ يعطي كل نبي من تلك العقيدة ما يناسب المستوى الثقافي والفكري

---

(١) اليوم الموعود ص ٦٠٧ - ٦٠٨.

الذي وصلت إليه البشرية في خطها التربوي الطويل.

وهذا واضح جداً لمن استعرض دعوات الأنبياء المتسلسلين. فنرى الأنبياء السابقين على موسى بن عمران لا يكادون يذكرون من صفات اللّه تعالى إلاَّ ما كان ظاهراً من آثاره وأفعاله. من أنه ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً. ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾[1].

إلا ما كان من محاولة إبراهيم الخليل من محاولة البرهنة على التوحيد، على شكل بسيط النتائج بالنسبة إلى ما جاء به الاسلام من صفات.

ثم أننا نجد اليهود الآن يؤمنون ببعض أشكال التجسيم، ونجد المسيحيين يؤمنون ببعض أنحاء التعدد.

وهذه بالرغم من أنها عقائد باطلة نعلم باليقين أنها لم ترد في شرائعهم وتعاليم أنبيائهم. إلاَّ أنهم، على أي حال، لم يجدوا في ما بلغهم عن أنبيائهم ما ينافي ذلك، أو يكون دليلاً صريحاً على بطلانه.

وإلا لم يكونوا ليلتزموا بهذه العقائد بطبيعة الحال. ومعنى ذلك أن موسى وعيسى لم يوضحا بصراحة التجرد الكامل والتوحيد المحض

---

(١) نوح ١١ ـ ١٦.

للّه‎ﷻ مواكبة مع المستوى العقلي والثقافي للبشرية في تلك العصور»[١].

فكان كل نبي يأتي ويبلغ الناس على قدر عقولهم، ولما جاءت الديانة الأبراهيمية كان الناس قد وصلوا إلى مستوى معين من الفهم فبلغهم بالمعاني التوحيدية حسب طريقته المذكورة في القرآن.

إذ إن النبي إبراهيم‎عليه السلام كان يحاكي فطرتهم ويرشدهم إلى عقولهم بأسلوب ذكي ذكره القرآن في الآيات الآتية:

الآيات الأولى: قال تعالى:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[٢].

فانظر كيف قد بلغهم النبي إبراهيم‎عليه السلام عن بطلان آلهتهم المتعددة بأسلوب عملي رصين، وأوضح لهم أن البشر خير من الأصنام؛ إذ أن البشر ينطق ويخبر الناس بمن آذاه أما هذه الحجارة التي كانوا يعبدونها فلا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

الآيات الثانية: قوله تعالى:

---

(١) تاريخ الغيبة الكبرى ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) سورة الأنبياء.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

فانظر كيف انتقل استدلال النبي عليه السلام من بيان نقص الآلهة المتعددة وأنها كلها تعاني من الأفول، ولما بين للناس أمرها قال أني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض.

وهذا ما كان يقصده السيّد محمّد الصدر قدس سره من تطور الفكر البشري إلى مستوى معتد به يمكن من خلاله تفهيم الناس على المعاني التوحيدية المعمقة.

وبهذا البيان تتم الأجابة على «دوكينز» الذي تساءل عن السبب وراء جعل الانتقال من تعدد الالهة إلى الإله الواحد خطوة تطورية عقائدية، وقد تقدم في صور الإشراك ما يبين أسباب الجهل بعقيدة التوحيد.

إذن فالديانات من بعد النبي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام كانت تتطور في فهم المعاني العقائدية التوحيدية، ولما وصل الأمر إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله بلغ فهم البشرية درجة قابلة لأدراك كل المعاني العقائدية المذكورة في القرآن الكريم، وحصلت العقائد الناضجة والصحيحة لدى الناس، بعد أن كانوا يعبدون الأصنام

---

(١) سورة الأنعام.

والاشخاص والأشجار والظواهر الكونية وغيرها.

غاية الخلق:

من الأمور المهمة التي ينبغي للمؤمن أن يعرفها هو الغاية من هذه الخلقة، فإن أحد الفواصل بين المؤمنين والملحدين هو أن المؤمن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لغاية؛ لأنه حكيم والحكيم لا يفعل شيئاً عبثاً، أما الملحدون فيعتقدون أن كل ما هو موجود في هذا الكون إنما هو لا لغاية وإنما حصل بمحض الصدفة.

وإنما أدرجت هذا البحث في فصل التوحيد لأنه يدور مدار القول بالتوحيد، فلو كان الإنسان يؤمن بتعدد الآلهة لما أمكن أن يكون غرض الخلقة واحداً، وهذا ما لعله يُفهم من قوله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[1]، وقد تعرض السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ إلى معنى قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[2].

عند بحثه حول الأطروحة الإلهية لمستقبل الإنسانية السعيد في كتابه (تاريخ الغيبة الكبرى)، وبيّن الغاية من الخلق من وجهة النظر الإسلامية بخمسة نقاط قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

النقطة الأولى: إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق متفضلاً، ولم يخلقهم عبثاً

---

(١) المؤمنون ٩١.

(٢) الذاريات ٥٦.

ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم وهو غني عـنهم، لأجـل حصـولهم علـى مصالحهم الكبرى ووصولهم إلى كمالهم المنشـود، المتمثـل بـإخلاص العبادة لله تعالى، قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

إذن فالغرض من الخليفة هو الحصول على هذا الكمال العظيم المتمثـل بتوجيه العقيدة والمفهوم إلى الله، وقصر السلوك على طاعتـه وعدلـه في كل حركة وسكون.

وإذا نظرنا إلى حقيقة هـذا الكمـال مـن جوانبـه المتعـددة، واسـتطعنا تحصيل الفكرة المتكاملة عنه، عرفنـا الهـدف الإلهـي المقصـود الـذي أصبح هدفاً لإيجاد الخليقة.

الجانب الأول: إيجاد الفرق الكامل، من حيث أن قصر الإنسان نفسه عن التربية بيد الحكمة الإلهية الكبرى وتحت إشرافها وتدبيرها، يوجـد فيـه الإنسان العادل الكامل، الذي يعيش محض الحرية عن انحرافات العاطفة والمصالح الضيقة، والمساوق في انطلاقه مع انطلاقة الكون الكبرى إلى الله.

الجانب الثاني: إيجاد المجتمع الكامل، والبشرية الكاملـة المتمثلـة مـن مجموعة الأفراد الذين يعيشون على مستوى العدل والإخلاص، والتجرد من كل شيء سوى عبادة الله تعالى، تلك العبـادة التـي تتضـمن تربيـة الفرد والمجتمع، والارتباط بكل شيء على مستوى العدل الإلهي.

الجانب الثالث: إيجاد الدولة العادلة التي تحكم المجتمع بالحق والعدل، بشريعة الله الذي لا تخفى عليـه خافيـة فـي الأرض ولا فـي السـماء، وتكون هي المسؤولة الأساسية عن السير قدماً بالمجتمع والبشرية نحـو

زيادة في التكامل في الطريق الطويل غير المتناهي الخطوات.

فهذا هو معنى العبادة المقصود في الآية، وكل ما كان على خلاف ذلك فهو تقصير في العبادة الحقيقية تجاه الله، ولا يمكن أن نفهم من الآية هذا المعنى القاصر بطبيعة الحال.

النقطة الثانية: إن الآية واضحة الظهور في أن الغاية الأساسية والغرض الأصلي من إيجاد البشرية هو إيجاد هذه العبادة الكاملة في ربوع البشرية، أو إيصالها إلى هذا المستوى الرفيع، وذلك بقرينة وجود التعليل في قوله تعالى: (ليعبدون)، مع الحصر المستفاد من الآية من وقوع أداة الاستثناء (إلا) بعد النفي حين قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

إذن فهذا هو الهدف الوحيد المنحصر الذي لا شيء وراءه من خلقة البشرية، المعبر عنهم بالإنس. وهذا الهدف ملحوظ ومخطط بشكل خاص منذ بدء الخليقة، ويبقى -بطبيعة الحال- مواكباً لها ما دامت البشرية في الوجود.

وهذا بالضبط هو ما نعنيه حين نقول: إنّ الله تعالى لم يخلق البشرية لأجل مصلحته، فأنه غني عن العالمين، وإنما خلقهم لأجل مصلحتهم، وأي مصلحة يريدها الله لعباده غير كمالهم ورشدهم وصلاحهم المتمثل بالعبادة المخلصة والتوجه إليه بالخيرات نحوه عز وعلا.

النقطة الثالثة: إن الغرض الإلهي من خلق البشرية، ما دام هو ذلك، إذن فلابدّ أن يشاء الله تعالى إيجاد كل ما يحققه والحيلولة دون كل ما يحول عنه .. شأن كل غرض إلهي مهم ... فإن الحكمة الأزلية حيث

تتعلق بوجود أي شيء، فإن تخلفه يكـون مسـتحيلاً، وتكـون إرادة الله تعالى متعلقة بإيجاده لو كان شيئاً آنياً فورياً، أو التخطـيط لوجـوده لـو كان شيئاً مؤجلًا ومحتاجاً إلى مقدمات من الضروري أن توجد قبله.

وقد برهنا في رسالتنا الخاصة بالمفهوم الإسلامي للمعجـزة أن الغـرض الإلهي المهم إذا تعلق بهدف من الأهداف، فإنه لا بد من وجـود ذلـك الهدف، ولو استلزم بوجوده أو ببعض مقدماته خـرق قـوانين الطبيعـة، وإيجاد المعجزات. فإن القوانين الطبيعية إنمـا أوجـدها الله تعـالى فـي كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد الخلق. فإذا توقفت تلك الأغـراض على انخرام تلك القوانين وحدوث المعجزات أحياناً أو فـي كثيـر مـن الأحيان ... كانت تلك القوانين الطبيعية قاصرة عن الممانعة والتأثير.

وهذا هو الذي يلقي الضوء على الفكرة الأساسية التي يقوم عليها (قانون المعجزات) الذي أشرنا إليه ... ونؤجل الغوص في تفاصيل ذلـك إلـى رسالتنا الخاصة بها.

النقطة الرابعة: أننا نجد بالوجدان القطعي أن هذا الغـرض الإلهـي المهـم الذي نطقت به الآية بالمعنى الذي فهمناه، لم يحدث في تاريخ البشـرية على الإطلاق منذ وجودها إلى العصر الحاضر.

إذن فهو باليقين سوف يحدث في مستقبل عمر البشرية بمشـيئة خالقهـا العظيم، وهذه هي الفكـرة الأساسـية التـي ننطلـق فيهـا إلـى التسـليم بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود. ولئن كان المنطلق الأساسي فـي هـذا البرهان هو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ... فإنه يمكن الانطلاق إلى نفس النتيجة من آيات قرآنيـة أخـرى نـذكر منهـا

آيتين، مع بيان الوجه في الاستدلال مختصراً، ونحيل التفصيل إلى الكتاب الخامس من هذه الموسوعة الخاص بإثبات وجود المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عن طريق القرآن الكريم.

الآية الأولى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

فهذا وعد صريح من الله عز وجل و ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2] للبشرية المؤمنة الصالحة التي قاست الظلم والعذاب في عصور الانحراف وبذلت من التضحيات الشيء الكثير ... بأن يستخلفهم في الأرض، بمعنى أنه يوفقهم إلى السلطة الفعلية على البشرية وممارسة الولاية الحقيقية فيهم.

فإذا استطعنا أن نفهم من (الأرض) كل القسم المسكون من البسيطة، كما هو الظاهر من الكلمة والمعنى الواضح منها حملاً للأم على الجنس بعد عدم وجود أي قرينة على انصرافها إلى أرض معينة. ومعنى حملها على الجنس: إن كل أرض على الإطلاق سوف تكون مشمولة لسلطة المؤمنين واستخلافهم وسيحكمون وجه البسيطة.

وهذا هو المناسب مع الجمل المتأخرة في الآية الكريمة، كقوله تعالى:

---

(١) النور ٥٥.

(٢) آل عمران ٩، الرعد ٣١، الزمر ٢٠.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ﴾، فإن التمكين التام والاستقرار الحقيقي للدين، لا يكون إلاَّ عند سيادته في العالم أجمع.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ ... بعد أن نعرف أن المؤمنين كانوا قبل الاستخلاف يعانون الخوف في كل مناطق العالم لسيادة الظلم والجور في العالم كله، فلا يكون الخوف قد تبدل إلى الأمن حقيقة إلاَّ بعد أن تتم لهم السلطة على وجه البسيطة كلها.

فإذا تمّ لنا من الآية ذلك، ولاحظنا وجداننا الذي ذكرناه وهو أن هذا الوضع الاجتماعي العالمي الموعود، لم يتحقق على مدى التاريخ منذ فجر البشرية إلى عصرنا الحاضر.

إذن فهو مما سيتحقق في مستقبل الدهر يقيناً طبقاً للوعد الإلهي القطعي غير القابل للتخلف أو التمييع.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١]. وهي تعطينا بوضوح، الغاية والغرض الرئيسي من إرسال رسول الإسلامﷺ بالهدى ودين الحق، يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿ليظهره﴾، حيث دلت لام التعليل على الغاية، والسبب في إنزال شريعة الإسلام وهو أن يظهره أي يجعله منتصراً ومسيطراً على غيره من الأديان والعقائد كلها، وذلك لا يكون إلاَّ بسيطرة دين الحق على العالم كله.

وإذا كان هذا غاية من إرسال الإسلام، إذن فهو يقيني الحدوث في

(١) التوبة ٣٣، الصف ٩.

مستقبل الدهر؛ لأن الغايات الإلهية غير قابلة للتخلف. ولئن دلت هاتان الآيتان على نفس المطلوب ... إلاَّ أن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، أهم في مقام الاستدلال على ذلك، لأنها تدلنا على الغرض الأسمى لخلق البشرية أساساً ذلك الغرض الذي كان موجوداً منذ بدء الخلق. بخلاف الآيتين الأخيرتين، فإنهما مختصتان بمضامين محدودة نسبياً، كما يتضح لمن فكر في مدلوليهما.

وإن هاتين الآيتين في الواقع، من تطبيقات ذلك الغرض الأسمى الذي نطقت به الآية الكريمة الأولى، كما سيتضح بعد قليل عند معرفتنا بتفاصيل التخطيط الإلهي لليوم الموعود.

النقطة الخامسة: إن تكامل الفرد، وبالتالي تكامل المجتمع البشري، يتوقف- بعد أن وهبه الله عز وعلا العقل والاختيار- على عاملين: عامل خارجي وعامل داخلي أو قل: عامل موضوعي وعامل ذاتي.

أما العامل الخارجي الموضوعي، فهو إفهام الفرد- وبالتالي المجتمع- معنى العدل والكمال الذي ينبغي أن يستهدفه والمنهج الذي يجب عليه أن يتبعه في حياته ويقصر عليه سلوكه.

وهذا الإفهام لا يمكن صدوره إلاَّ عن الله ﷻ، بعد البرهنة على عدم إمكان توصل البشرية إلى كمالها ومعرفتها بالعدل الحقيقي إذا عزلت فكرياً عن الحكمة الأزلية الإلهية، كما صح البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية. ومن ثم لا يمكن أن يتحقق الغرض الإلهي المهم في هداية البشرية وإيجاد العبادة الكاملة في ربوعها، إذا أوكلت البشرية إلى نفسها وفكرها القاصر، وألقي حبلها على غاربها.

إذن، فلا بد من أجل التوصل إلى ذلك الغرض الكبير من أن يفهمها الله تعالى معنى العدل والكمال وتفاصيل السلوك الصالح الذي يجب اتخاذه. وحيث أن إفهام البشرية من قبل الله تعالى بالمباشرة والمواجهة مستحيل، كما صح البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية، احتاجت البشرية إلى أن يرسل الله تعالى إليها أنبياء مبشرين ومنذرين. وأن يكون إرسالهم وإثبات صدقهم طبقاً لقانون المعجزات؛ لأن هذه المعجزات تقع في طريق هداية البشر والوصول إلى إيجاد الغرض المهم من إيجادهم.

ومنه نستطيع أن نلاحظ، كيف أن خط الأنبياء الطويل، والأعداد الكبيرة منهم، إنما كان باعتبار التقديم والتمهيد للغرض الكبير، باعتبار أن البشرية حين أول وجودها كانت قاصرة عن فهم تفاصيل العدل الكامل، فلم يكن في الإمكان إيجاد المجتمع العادل الكامل الموعود في ربوعها لأول وهلة، بل كان لابدّ أن تتربى البشرية تدريجياً إلى أن تصل إلى المستوى اللائق الذي يؤهلها لمجرد فهم العدل الكامل الذي يريد الله تعالى تطبيقه في اليوم الموعود.

ومن هنا نعرف أن الأنبياء إنما تعددوا وتكثروا من أجل إعداد البشرية وتربيتها للوصول إلى هذا المستوى اللائق ... لكي يتم لها هذا العامل الخارجي الأساسي وهو إفهامها العدل الكامل والأطروحة النظرية التامة للعدل التشريعي الذي يريد الله تعالى تطبيقها على وجه الأرض، والتي بها تتحقق العبادة الكاملة التي يرضاها الله تعالى لخلقه، وبها يتحقق الهدف الأساسي لإيجاد الخليقة.

وأما العامل الداخلي الذاتي، فهو الشعور بالمسؤولية تجاه الأطروحة

العادلة الكاملة، باعتبار أنها إنما تضمن العدل فيما إذا أطاعها الأفراد وطبقت في حياتهم، وهي إنما تضمن الطاعة التامة، مع وجود الشعور بالمسؤولية، إذن فلا بد من أجل وجود العدل أن يوجد هذا العامل الداخلي الذاتي في الإنسان[١].

---

(١) الأنظار التفسيرية، الآيات العقائدية، الآية الخامسة.

الفصل السادس

شبهات عامة يطرحها الملاحدة

شبهات عامة يطرحها الملاحدة

تمهيد:

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق**»[1] والسبب وراء جعل الشبهة مشابهة للحق هو أنّ الباطل لا يقبله أي إنسان مهما كان معتقده ودينه، فبغض الباطل أمر فطري مجبول عليه قلوب الناس، وكذلك حب الحق؛ لذلك إذا وقعت في ذهنك أو قرأت أي شبهة يُشم منها رائحة الحق فأمعن النظر فيها وأدرسها قبل أن تعتقد فيها، فما كان فيها من الحق فسلم به وما كان فيها من الباطل فذره على صاحبه.

ومن الحكمة الإلهية أنّه جعل في الحق خيط من الباطل، وجعل في الباطل خيط في الحق كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«**إِنَّ الْحَقَّ لَوْ خَلَصَ لَمْ يَكُنِ اخْتِلافٌ وَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ لَمْ يَخْفَ عَلَى ذِي حِجًى**[2] **لَكِنَّهُ يُؤْخَذ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ**[3]

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٩٠.

(٢) أي عقل.

(٣) أي قبضة.

فَيُمْزَجَانِ فَيُجَلَّلانِ[١] مَعاً فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَنَجَا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى»[٢].

ووجه الحكمة: أنّ الإنسان إذا رأى الحقّ بين الباطل هل سيستخرج الحق ويترك الباطل، أو سيتبع الباطل بحجة أنّه مشابه للحق؛ لأنَّ الباطل موافق لشهواته ورغباته فيجعل الشبهات عاذراً لسقطاته وكبواته فلا يعمل بالحق؛ لأنّه آمن بالباطل الذي هو فيه فترك الحق وأراح نفسه! كان المغيرة بن شعبة يجادل عمار بن ياسر في أمور الدين فكلما جاء له عمار بحجة طرحها المغيرة بشبهة من شبهاته فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام حوارهما قال لعمار:

«دَعْهُ يَا عَمَّارُ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إلاَّ مَا قَارَبَتْهُ الدُّنْيَا وَعَلَى عَمْدٍ لَبَسَ عَلَى نَفْسِهِ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِه»[٣].

وهذه حكمة بالغة فإنّ بعض من له معلومات عن الدين ويلقي الشبهات من خلالها ذلك لم يتعلم من الدين تلك المعلومات إلاَّ لأجل أن تقربه من الدنيا، وعن عمد يصدق بالشبهات لتكون الشبهة عاذراً لسقطاته من الذنوب، ومثاله: الذي يصدق بشبهات ضد مسألة الخمس لأجل أن يبخل وتكون الشبهة عاذرة له عن بخله! وهكذا الحال في من دخلته شبهة في جواز الغناء أو فعل أي أمر محرم فهو يصفق لها ويطبل وينشرها بين الناس حتّى إذا رأوه على ذلك الذنب لم ينكروا عليه، ولهذا الغرض يحرص مثيروا الشبهات إلى نشر شبهاتهم بين الناس.

---

(١) جللت الشيء: إذا غطيته.

(٢) الكافي ج ٨ ص ٥٨.

(٣) الكافي ج ٨ ص ٥٨.

الشبهة (١) : هل الأصل الإيمان أم الإلحاد؟

يقول السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«وإنّا لنرد بالإنسانية إلى عصورها الأولى فنستعرضها عصراً عصراً ومجتمعاً مجتمعاً، فلا نجد إلاَّ أقواماً قد أدركوا للكون خالقاً، وأن لهذا التنظيم مدبراً ومنظماً، كل حسب أفق تفكيره وسعة مداركه وثقافته، وليس الإلحاد إلاَّ نابعاً من جملة أشياء متراكمة من المصالح والغرائز والمسبقات الذهنية والثقافات المادية التي تخرج بالإنسان عن طريق فطرته، وتسلك به طريقي الضلال والفساد»[1].

وقد حاول أحد الملحدين أن ينفي هذا الكلام حيث قال:

«إن عدة من البايلوجيين أثبتوا أن أصل الإنسان لم يكن متديناً».

إلا إن هذا الادعاء لا يمكن تصديقه لماذا؟!

لأن الإيمان بالله تعالى أمر قلبي لا يمكن للبايولوجيا أن تدركه بإجهزتها، يا للعجب أوليس هم من يقول كل ما لا يدرك بالحس غير قابل للإثبات! بل يمكن أن يعرف إيمان الأقوام السابقة من عدمه عن طريق الآثار الموجودة.

وما يدل على الآثار التي تدل على أن أصل الإنسان متديناً بالطبع هو قول المؤرخ الإغريقي «فلوطرخس» :

«لقد وجدت في التاريخ مدناً بلا حصون، ومدناً بلا قصور، ومدناً بلا

---

(١) الأنظار التفسيرية ص ٢٤٥.

مدارس، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد»[(١)].

ولا يدل تعدد الآلهة وتعدد الديانات على عدم حقانية الدين والمبدأ الإلهي لما تقدم في بحث التوحيد من أن الأختلاف في الآلهة ما هو إلاَّ أختلاف في الأسماء وإثبات للجانب المشترك وهو وجود الخالق.

الشبهة (٢) : القول بالصدفة!

نتقل هنا المقالة المنسوبة إلى «ذيموقراطيس» اليوناني فقد قيل: أنه زعم أن وجود العالم إنما كان بالاتفاق والصدفة، لأنه فرض أن مبادئ العالم اجرام صغار لا تتجزأ لصلابتها، وهي مبثوثة في فضاء غير متناهٍ وهي متشاكلة الطباع مختلفة الأشكال دائمة الحركة، فاتفق ان صادفت جملة منها واجتمعت على هيئة مخصوصة فصار الكون وصار الخلق!!

وقد رد الشيخ محمد رضا المظفرقدس سره هذه الدعوى قائلاً:

«إن كان كما تخيل يجوز أن يقع الحادث الممكن بلا علة، بالمصادفة والاتفاق وهو تصادم هذه الاجرام واجتماع لها، لأنه اذا جاز تصادم هذه الاجزاء المفروضة واجتماعها على هيئة مخصوصة بلا علة توجب هذا التصادم والاجتماع، فلِمَ لا يجوز ان يتكون العالم بالصدفة بلا علة توجبه حتى من الاجرام الصغار؟!!»[(٢)].

أي أنه رغم انكاره لقانون السببية قد عجز من القول بان العالم خرج من

(١) بيان الفساد في مغالطة الإلحاد ص ٢١.

(٢) الفلسفة الإسلامية ص ٥٠.

محض الصدفة بل قال أنه حصل بسبب تصادم الاجرام الصغار!! وهذا اعتراف منه بأنه لا بد لكل معلول من علة، فهو وإن كان يختلف معنا في كوننا نقول بأن علة الوجود هي واجب الوجوب إلاَّ أنه قد قال بان العلة هي تصادم الاجرام الصغار على هيئة مخصوصة وبذلك وقع فيما فر منه!

إن شعوره العميق غير الواعي وفطرته التكوينية التي لا يمكن ان يتخلص منها، من حاجة الممكن إلى علة هو الذي فرض عليه ذلك وهو لا يشعر، بان يفترض الاجرام الصغار في مبادئ العالم، بأن حتم عليه ان يفرض ان للعالم مبدأ أي علة، فناقض الرجل نفسه بنفسه من حيث لا يشعر، واعترف مقهوراً بما يريد ان ينكره من الحاجة إلى العلة، فانكر بلسانه واعترف به في اعماق نفسه[١].

وقد ذكر السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ هذا الرد وقال:

«وحتى أولئك المفكرين الذين يتبجحوا بأنهم ملحدون وبأن قانون العلية لا يقوم على أساس، ومن ثم حاولوا أن يصوغوا من النظريات التي تبرر خلق هذا الكون من العدم، ما يعوض عن هذا القانون القتيل، ولكنهم في محاولاتهم هذه لإيجاد مثل هذه النظريات، قد اصطدموا، لو كانوا يعلمون بالقانون نفسه، واضطروا إلى الانصياع إلى ندائه، وإلا فلماذا لم يفترضوا وجود هذا الكون هكذا، وبدون أي سبب وخالق يكون مبرراً لوجوده من دون أن يتجشموا صياغة مثل هذه النظريات المختلفة»[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الأنظار التفسيرية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

الشبهة (٣) : إشكال على منطق باسكال

يقول العالم الرياضي «باسكال»[١]:

«مهما قلت الدلالة على وجود الله، فإن العقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ هي أكبر، فأحكم الطرق هي الإيمان بالله؛ لأنّك إن كنت مصيباً فستربح النعمة الكبرى، وإن كنت مخطئاً فلن يكون هناك فرقٌ، بينما إن

---

(١) بليز باسكال "Blaise Pascal"؛ (١٩ يونيو ١٦٢٣ - ١٩ أغسطس ١٦٦٢)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسيا اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات هو من اخترع الآلة الحاسبة. استطاع باسكال أن يسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية.

أدّت أعمال باسكال المهمة في مجال ضغط السوائل إلى إيجاد المبدأ المسمى قانون باسكال، الذي ظهر خلال الخمسينيات من القرن السابع عشر الميلادي. وينص هذا المبدأ على أن السوائل الموجودة في الأوعية المغلقة تنقل الضغوط الواقعة عليها من جهة معينة بشكل متساوي في كافة الجهات، كما يوضح العمليات التي تقوم بها ضاغطات الهواء، والمضخات الفراغية، والرافعات الهيدروليكية، ورافعات السيارات، والمضاغط. ساعدت تجارب باسكال على إثبات أن للهواء وزناً، وأن ضغط الهواء يمكن أن ينتج فراغًا، وبذلك أزال شكوك العلماء في ذلك الوقت في إمكان وجود الفراغ.

وخلال الخمسينيات من القرن السابع عشر الميلادي قدم باسكال، وعالم الرياضيات الفرنسي بيير دي فيرمات نظرية الاحتمالات، وناقشا بعض تطبيقاتها. وصمم باسكال عام ١٦٥٤م تنظيمًا ثلاثيًا من الأرقام يكون فيه كل رقم مساويًا لمجموع الرقمين المجاورين له من جهة اليمين، وعلى جانبه الأيسر في الصف الذي يكون أعلاه مباشرة. ويمكن استخدام هذا التنظيم الذي سمِّي مثلث باسكال في حساب الاحتمالات. واخترع باسكال أيضًا آلة حاسبة تؤدي عمليات الجمع والضرب (موسوعة ويكبيديا العالمية).

لم تؤمن بالله، وكنت مخطئاً، فأنت محكوم باللعنة الأبدية، وإن كنت مصيباً، فلن يكون هناك أي فرق، وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج إلى ذكاء، وعليك الإيمان بالله»[١].

والأوربيون وإن نسبوا هذا المنطق إلى باسكال لأنه قد تطرق إليه إلاَّ أن هذا المعنى موجود في روايات أهل البيتعليهم السلام وقد ذكرنا جملة منها في فصول هذا الكتاب. وقد نقض «دوكينز» هذا الإستدلال وقال:

«وبالتأكيد فإنّ العدد المطلق للآلهة والإلهات، الذي يمكن الرهان عليه يفسد منطق باسكال بأكمله»[٢].

وتقريب استدلاله: أنه بعد تعدد الآلهة لا يمكن أن يتحقق الإيمان إذ أن أتباع كل دين وكل إله يدعو إلى الإيمان بدينه وبإلهه وهذا ما سيجعل الإيمان متعسر في حق الجميع.

وللسيّد محمّد الصدرقدس سره كما في فصل التوحيد المتقدم نقض على أن تعدد الآلهة لا يعني بطلان الإيمان بالله تعالى، حيث قالقدس سره كما ذكرنا هناك:

«انه لا أهمية للاسم من هذه الناحية، إذ انه أمر لغوي يختلف باختلاف اللغات واختلاف الأمم والأجيال، وان اتحدت العقيدة. وتعتبر كل الأسماء مشيرة إلى ذات واحدة، هو خالق الكون اللامتناهي في الحكمة والقدرة».

---

(١) نهاية حلم ص ١٥٦.

(٢) وهم الإله ص ١٠٧.

فتعدد الآلهة ما هو إلاّ تعدد أسماء ولا يدل تعدد الأسماء على نفي الجانب المشترك وهو الإيمان بوجود الخالق، بل ذكرنا في فصل التوحيد أنه حتى تعدد الآلهة لا بما هي أسماء بل بما هي أعداد إنما نشأ من فهم مغلوط للتوحيد فراجع صور الشرك التي ذكرناها آنفاً ليتضح لك المطلب. ثم يكمل «دوكينز» إشكاله على باسكال ويقول:

«فهل من الممكن أن نحاجج بمضادّات رهان باسكال؟ فلنفترض بأننا آمنا بأن هناك احتمالاً صغيراً لوجود الله، وعلى رغم من ذلك يمكننا القول إنّك يمكن أن تحيا حياة أفضل، لو راهنت على عدم وجوده، والذي يعني ضياع وقتٍ ثمين في عبادته، وتقديم الأضاحي له، والقتال في سبيله لأجله»[1].

إلا أن وجود الله تعالى ليس احتمالاً صغيراً بل هو ضروري الاهتمام ولو كان حسب زعمه احتمالاً صغيراً فيرد السيد محمد الصدر قدس سره على ذلك قائلاً:

«فإنك إذا احتملت أن في هذا الطريق وحوشاً أو لصوصاً لم تسلكه يقيناً[2]**، وهذا يكفي فيه مجرد الاحتمال، ولا حاجة فيه إلى اليقين بالخطر، فإنه [مع اليقين] يكون أولى بوجوب التجنب أكيداً»**[3].

---

(١) المصدر السابق ١٠٨.

(٢) في إشراقات فكرية ج ٢ ص ٧١ يرجع شهيدنا الصدر الفطرة الموجودة في الإنسان القاضية بدفع الضرر ولو كان على نحو الاحتمال إلى حبّ ذاته، فالإنسان بما هو يحب ذاته يحاول الابتعاد عن كل ضرر ولو كان على سبيل الاحتمال.

(٣) منبر الصدر ص ٦٢٧.

ومن الطريف هنا أن ننقل مناقشة جرت بين د. عمرو شريف وبعض الملاحدة تكشف عن أهمية الاهتمام بوجود الإله المودعة في فطرة الإنسان بحيث أن الإنسان بفطرته لا يمكنه أنّ يتجاهل حتّى احتمال وجود الله تعالى وإن كان ملحداً، يقول د. عمرو شريف:

«قال بعضهم: كان على الإله أن يأخذ رأيي قبل أن يخلقني! وبأي حق يحاسبني إن لم أعبده، ألست حراً؟ (أزاي يحاسبني واحد على لعبة مش عاوز يلعبها؟). لهؤلاء قلت: لو مش عاجبك انسحب من اللعبة! قال: كيف؟ قلت: بالانتحار! وليس هناك عاقبة تخشاها فأنت لا تؤمن بالبعث والحساب. وأضفت: إن عدم إقدامك على الانتحار لهو أكبر دليل على رضائك عن خلقه لك، حتّى إنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة ويسرة عدة مرات حفاظاً على حياتك. فأفحمته حجتي فقال: ربما يكون شيء مما تقول، عندها سيعذبني إلهك، إنه يعاملنا كعبيد، قلت له: أخيراً وصلت إلى الحقيقة. فعلاقة الله بنا هي علاقة السيّد بالعبد، وهذا ما تحاول دائماً التملص منه بإدعاء الندية»[1].

وقد تقدم في شرح برهان الصادقين أنَّ النسبة الاحتمالية لوجود الله تعالى ليست بالقليلة بل هي مما يُفضي إلى اليقين.

ومن هنا فإن حصل تواتر في شأن الوحي، من أناس طيبون لا يؤذون الناس ولا يتوقع في حقهم الكذب فهؤلاء إذن لا بد من الاعتناء بقولهم لأنه صار متواترًا والتواتر يورث اليقين، والعاقل لا يدع مثل هذا الكلام ويُعرض عنه، لا أقل أن

---

(١) الإلحاد مشكلة نفسية ص ٣٤٠.

يتصرف مع أخبارهم كما قيل في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

قـال الطبـيب والمنجم كلاهما ... أن لا بـقـاء فقلت ذاك إليكما

إن صـح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

وقد شرح السيّد محمّد الصدر قدس سره هذين البيتين قائلاً:

«يعني إن كان الصحيح هو قول المعطلة والملحدين، فلست بخاسر، لأن الجميع عندئذٍ متساوون في العدم اللاحق لهذه الحيـاة. وإن كـان قـول الإلهيون حقاً فأنا الرابح وأنتم الخاسرون، ونحن لا نريد لكم أن تكونـوا خاسرين. ولا لأي أحد إطلاقاً إن ينال الخسران»[1].

بل إن الخسران الذي يتحدث عنه «دوكينـز» فيمـا إذا كـان مؤمنـاً بالمسـيحية التي كانت عقيدته الأم السابقة، أما الدين الإسـلامي كمـا تقـدم الكـلام عنـه في بدايات هذا الكتاب لا يعارض الحياة وملذاتها حتى يكون بإتباعه مضيعة للوقت!

بل إن أغلب تعاليم الإسلام فيها منافع دنيوية تعود بركاتها دنيويـاً علـى الفـرد والمجتمع أجمع، كما لا يخفـى علـى أي مطلـع منصـف علـى التعـاليم الإسـلامية الفردية والإجتماعية.

الشبهة (٤): تعارض الإنسانية مع الدين

هناك فلسفة أوربية تسمّى «الفلسفة الإنسانية» التي يعود ظهورها إلى مـا ينـاهز خمسة أو ستة قرون ماضية من الزمن. وقد شاعت هذه الفلسفة ولا تزال شائعة في

---

(١) منبر الصدر ص ٦٢٧.

أوربا منذ ذلك الحين تاركة بصماتها الملحوظة والعميقة على ثقافة الأوربيين وسلوكياتهم وها هي أمواجها تصلنا في العصر الراهن. ويعود أساس القضية إلى أنّه بعد فترة انتشار النصرانية، التي أطلق عليها «عهد القرون الوسطى»، تبادرت إلى أذهان المثقفين الأوربيين فكرة إحلال «الإنسان» محل «الله» وقد روّجوا لهذه الفكرة في أدبهم (الشعري، المسرحي، الروائي) وكتبهم الفلسفية قائلين: عوضاً عن تكرار قولنا: إنّ الله في السماوات وهو يفعل كذا وكذا وعلينا الالفتات والتوجّه إليه، يتعيّن علينا الالتفات إلى الإنسان والتفكير بأصالته. فالإنسانية تعني «محورية الإنسان»، وليس من الممكن أن يروَّج لمعتقد كهذا علانية في بلدٍ مسلم ويقال: نحّوا الله جانباً وضعوا الإنسان محلّه[1].

والإسلام يرى أنّ المحورية لـ«الله تعالى» وليس لـ«الإنسان»؛ لأنه يرى أنّ الله مصدر الوجود والخير كله وهو من يجب أن يطاع ويعمل كل شيء لأجله، وليس في ذلك تعارضاً مع الإنسانية بمعنى الرحمة والشفقة على بني آدم كما يدعي بعض الملاحدة أن الدين يعارض الإنسانية، حتى قال «دوكينز» :

«أنا لا أزعم بالضرورة بأن الإلحاد يرفع من مستوى الأخلاق على الرغم من أن الإنسانية وهي النظام الأخلاقي الذي يتماشى مع الإلحاد»[2].

فإنه يتصور أن الدين والإنسانية متعارضان.

إلا إنَّ الأمر ليس كذلك فالدين الإسلامي لا يعارض الجانب الإنساني، بل قد

---

(١) أمواج الفتن وسفينة النجاة ص ٢٤٠_٢٤١.

(٢) وهم الإله ص ٢٣٠.

ورد عن لسان رسول الإسلامﷺ : «**خير الناس أنفعهم للناس**»[(١)].

إلا أن هذا النفع لا يكون على حساب الجانب الروحي الأخروي للإنسان، كما ومن طالع سيرة النبي الأعظمﷺ وآل بيته عليهم السلام وأحاديثهم الشريفة الكثيرة في الأخلاق وحسن التعامل يعرف عن دراية صدق ما نقول، ومن هنا قال السيّد محمد الصدرقدس سره:

«**أعتقد أن المستوى الديني والإنساني خطان متوازيان لا يتقاطعان فكل ما هو ديني هو إنساني وكل ما هو إنساني هو ديني، سواء في مجال الطب أو غيره ولا نريد من الجانب الإنساني جانب المصلحة الشخصية وسوء النفس الأمارة بالسوء**»[(٢)].

فإذا كانت هناك مصلحة عامة تفيد البشرية فالإسلام لا يعارضها، بل نَدَبَ إليها بأن جعلها من المستحبات الشرعية.

ومن الغريب بزوغ دعوات تقديم الإنسانية على الدين في المجتمع الإسلامي الشيعي والسني وقد بثت قناة «mbc» برنامجاً دينياً بعنوان «الإنسانية قبل الدين»!!

مع أن الدين والإنسانية شيئاً واحداً لا يتصور فيما بينهما القبلية والبعدية كما يتوهمه بعض المنخدعون بالفكر الأوربي، والذي يفصل بين الإنسانية والدين فقد اعترف بأن الدين شيء والأخلاق الإنسانية شيء آخر، بينما الرسل كلهم بعثوا للأخلاق والخاتمﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق!!

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ج ٢٣ ص ٨٠٨

(٢) منبر الصدر ٥٨٠.

وعندما يظنون أن الدين شيء آخر غير الأخلاق، فهذه طامة بالواقع؛ لأن الدين له أسس وأركان اربعة وهي:

الركن الأول: علاقة الإنسان بالله.

الركن الثاني: علاقة الإنسان بالإنسان.

الركن الثالث: علاقة الإنسان بنفسه.

الركن الرابع: علاقة الإنسان بالطبيعة كالنباتات والحيوانات.

وهذه الاركان الاربعة لكل منها تعاليم وأخلاقيات كثيرة في الإسلام وقد جمعت في رسالة الحقوق لإمامنا زين العابدين، فمن لا يطبقها خرج عن الدين عملياً، وإن كان فيه نظرياً باعتبار نطق الشهادتين.

إلا أن هذه الشعارات البراقة ما هي إلاَّ لكسب رضا الغرب الذي يتعكر مزاجه من لفظ «الدين» فصار بعض المسلمين لأجل التزلف إلى الفكر الغربي بأن يغيروا هذا المصطلح إلى مصطلح مأنوس عندهم وهو «الإنسانية» والذي هو في الحقيقة عنوان لمذاهب فلسفية ملحدة في الواقع ومن شاء فليراجع ويبحث في موسوعة ويكيبديا العالمية[1] ومن هنا كان السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لا يفكك بين الإنسانية والدين؛ لأن التفكيك بينهما يعني الإلحاد!

ومما يبعث الأسى أن أحد الخطباء المعروفين ينشر من موقعه في التواصل الاجتماعي قائلاً:

«لا تعلموا أولادكم الدين قبل الإنسانية، لأنهم سيكونون متطرفين، بل

---

(١) عند البحث عن مادة «الإنسانية».

علموهم الإنسانية قبل الدين ليكونون معتدلين»!!

وهذا قريب مما يقوله «دوكينز» :

«أعتقد بأن علينا جميعاً أن نجفل عند سماعنا بأن طفلاً صغيراً يوصم بأنه يتبع ديناً ما. الأطفال صغار جداً على أن يقرروا وجهة نظرهم عن نشأة الكون والحياة والأخلاق. إن العبارة ذاتها (طفل مسيحي) أو (طفل مسلم) يجب أن تزعج السمع كصرير الأظافر على السبورة»[1].

وليت شعري خطيب لا يعلم بأن تعاليم الإسلام الحقة لا تربي على التطرف كما يظن «دوكينز» وليت شعري كيف يخطب بالناس وهو لا يعلم بأن أهل العصمة عليهم السلام هم من أمرونا بأن نعلم أطفالنا تعاليم ديننا التي هي تمثل الأخلاق الإنسانية بعنيها وليست هي شيء آخر غير الأخلاق لكي نؤجل تعليمها بعد تعلم الإنسانية التي لا أدري ما يقصد بها إن كانت هي غير الدين!! وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي بتعليم القرآن الكريم ويقول:

من علم ولده القرآن فكأنما حج البيت عشرة آلاف حجة واعتمر عشرة آلاف عمرة واعتق عشرة آلاف رقبة من ولد إسماعيل وغزا عشرة آلاف غزوة وأطعم عشرة آلاف مسكين مسلم جايع وكأنما كسا عشرة آلاف عار مسلم ويكتب له بكل حرف عشر حسنات ويمحو الله عنه عشر سيئات ويكون معه في قبره حتى يبعث ويثقل ميزانه ويجاوز به على الصراط كالبرق الخاطف ولم يفارقه القرآن حتى ينزل به من الكرامة

---

(١) وهم الإله ص ٣٤٣.

أفضل ما يتمنى[١].

الشبهة (٥) : العلم يناقض الدين

يقول «ريتشارد دوكينز»:

«بأن العلم دحض فكرة وجود الله. وأولئك الذين لا يزالون يؤمنون بالله هم ببساطة رجعيون جهلة ويؤمنون بالخرافات، ويُنكرون تماماً التقدم المُكلل بالنصر للعلوم التي حذفت وجود الله»[٢].

وأغلب الملاحدة إن لم يكن كلهم مطبقون على هذا الرأي وهذا الرأي من آثار القول بأنهم يعلمون بالعلل الظواهر الكونية والتي يعتبرونها هي الأمر الفعال في الكون أما الإله الذي لا يُرى فهو من صنيعة خيال البشر وجهلهم وتوهمهم، كما أنهم يدعون أنهم إذا عرفوا سبب الجاذبية أو سبب المطر فأنهم بتفسيرهم هذا يستغنون عن وجود الإله، وقد مر الرد على كل هذا في الفصل الثالث[٣].

وقد أجاب السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّه عن هذه الآراء السقيمة قائلاً:

«إن الفكر الديني يرى العلم الطبيعي بكل أشكاله الصورة الناطقة عن قدرة الخالق وحسن تدبيره وعظمة خلقته. وليس هناك أي تناف بين العلم والدين. وإن أبسط فكرة تدل على ذلك لدى المتدين: هو أنه يرى أن العلوم الطبيعية بما تدل عليه من قوانين وظواهر، لا يمكن أن تكون

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ج ١٥ ص ٤٦.

(٢) وهم الإله ص ٣٤.

(٣) في الأدلة على نفي الخالق، الدليل الثاني.

صادقة بدون وجود اللّه تعالى. فضلا عن أن الدين الاسلامي حث على تعلم العلوم على مختلف أشكالها، كما هو غير خاف على من راجع مصادره... إن الرجال الفاهمين للدين يعلمون أن كل شيء هو للّهﷻ، بما فيه كل ظواهر العلم والطبيعة...كما ان الصلة بين الفيزياء والميتافيزياء، صلة وثيقة جداً، أكثر مما يتصور الماديون، بل أكثر مما يتصور أكثر المتدينين أيضاً. فإن العوامل الميتافيزيائية هي التي تحرك كل أجزاء الكون الفيزيائي.

وتشكل البديل الصالح عن القوانين المزعومة التي عرفنا زيف تصورها فيما سبق»[(١)].

بل إن الدين كان سبباً لتطور كثير من الشعوب ورقيها كما قال الكاتب الإسباني «بلاسكو ايبانيز» في حديث له عن دخول الإسلام إلى إسبانيا:

«كانت تتعايش بسلام كل الأفكار، وكل العادات، وكل المكتشفات التي تحققت حتى ذلك الحين على الأرض، وكل الفنون، وكل العلوم، وكل الصناعات، وكل الاختراعات، وكل النظم القديمة.

ومن احتكاك أو تفاعل هذه العناصر المختلفة ولدت مكتشفات جديدة وطاقات جديدة مبدعة.

فالحرير، والقطن، والقهوة، والليمون، والبرتقال، والرمان، كلها كانت تأتي من الشرق مع هؤلاء الغرباء، وكذلك السجاد والنسيج والأقمشة والمعادن المرصّعة والبارود.

(١) اليوم الموعود ص ١٤٧.

ومعهم أيضاً جاء الحساب العُشري والجبر والخيمياء «علم تحويل المعادن» والكيمياء والطب وعلم الكونّيات والشعر المقفى، ووَجَدَ الفلاسفة اليونانّيون الذين كانوا على وشك النسيان، وجدوا خلاصهم بموافقة العرب في فتوحاتهم: إذ كان أرسطو يتربع على عرش جامعة قرطبة الشهيرة»[(١)].

نعم إن كانت الديانة المسحية وطغيان الكنيسة في العصور الوسطى السبب في تصوير أن الدين يناقض العلم فهذا لا يعني إلقاء اللوم على كل الأديان بما فيها الإسلام، فإن لكل دين فكره وأسسه ومناهجه، والدين الإسلامي كما شهد العدو قبل الصديق كان له الحظ الأوفر من تطور أكثر العلوم والفنون التي لا تزال الدول الغربية المتطورة تعيش إلى الآن على أسئارها.

ومن الشواهد على ما قالهقُدِّسَ سِرُّهُ «باستور» صاحب التجارب في الاختمار يقول في جواب من قال له: كيف تقدر يا دكتور أن توفق بين اكتشافاتك العلمية والتعاليم الدينية؟ فقال:

«أعلم أنّ دروسي بدلاً من أن تزعزع اعتقادي جعلتني في إيماني كالفلاح البريطاني[(٢)] ولو كنت أكثر تعمقاً في العلم لربّما كنت أصير بإيمان الفلاحة البريطانية»[(٣)].

وهذان الشاهدان يدلان على أن العلم والدين لا يتنافيان، بل إن المتدين يرى

---

(١) في ظل الكاتدرائية ص ٢٠٤، نقلاً عن الإسلام في الغرب ص ٢٤.

(٢) مثل فرنسي يضرب لشدة الإستمساك.

(٣) نقد فلسفة دارون ص ١٥٢.

كل تطورات العلم الطبيعي اشكالاً من قدرة الله تعالى.

الشبهة (٦) : التطرف الديني يقوض العلم

وجّه بعضهم أشكالاً على دوكينز يقول له فيه، أنت تنتقد المتدينين باستمرار وبطريقة متطرفة إن كان الإيمان متطرفاً كما تقول فالإلحاد متطرف كذلك، وحاول أن يبرر لنفسه تطرفه ويخرج من هذه التهمة فقال:

«**أنا كرجل علم أحمل العداء للتطرف الديني، لأنَّه يقوم بالإساءة للمشاريع العلمية بشكل متواصل، إنه يعلّمنا أن لا نغير رأينا، ولا يريد لنا أن نتعلم المعلومات المثيرة المتوفّرة للمعرفة، إنّه يقوّض العلم ويستنزف الفكر**»[١].

وأنقل هنا ما يصلح كجواب لهذه الشبهة وقد ذكرته سابقاً في أحد الفصول إلاَّ أنني أجد أن ذكره هنا مع بعض التعليقات عليه أمر نافع للغاية في رد هذه الشبهة.

ولكن قبل أن نرد على هذه الشبهة يجب أن نعرف ما هو الملاك الذي على أساسه يكون المؤمن متطرفاً؟! ويمكن أن نقول أن البرزخ بين المتطرف وغيره يحدده سقراط في منهجه في البحث العلمي وهو: «**أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا**».

إذن فمن يتبع البرهان فسوف لن يكون متطرفاً علمياً، ومن يخالف البرهان فسوف يقول شططاً.

---

(١) وهم الإله ص ٢٨٧.

وهل المؤمنون يتبعون هذا المنهج أم يميلون عنه؟ يوضح السيّد محمد الصدر قدس سره أن المؤمنين كذلك يسيرون وفق هذا المنهج إذ يقول:

«إذا دلتنا التجارب المتكثرة والوقائع المتعددة، على صحة قانونٍ من القوانين، كقانون (التجاذب العامّ) الذي قال به نيوتن، عرفنا طبقاً لذلك أنّا قد أطّلعنا على إحدى جهات القدرة الإلهية، لأننا لا نستغني بهذا القانون عن وجود هذه القدرة العظيمة.

فإذا تعاقبت الأجيال، واندحر هذا القانون، بفعل التجارب الكثيرة، وثبت ـ مثلاً ـ أنَّ (النظرية النسبية) هي القانون الصحيح وليس قانون التجاذب، عرفنا أنّا كنا واهمين في اعتقادنا الأول؛ لأن مستوانا الذهنيّ لم يكن مساعداً على إدراك كل الحقيقة، وأنَّ القانون الحقيقي هو (النظريّة النسبية) دون قانون التجاذب، وقلنا أنَّ هذه النظرية هي القانون الذي سنّه الله تبارك وتعالى في كونه لا ذاك، كلّ ما في الأمر أنَّ معرفتنا بهذه القدرة العظيمة قد تعمقت وتأكّدت.

وإذا ثبت بطلان النظرية النسبية، وجاء الفكر البشريّ بنظريةٍ أكثر عمقاً وشمولاً، فقد أصبح هذا الفكر مؤهلاً لإدراك جوانب أكثر وأعمق للقدرة الإلهية، وإن القانون النافذ في الكون هو ذاك دون النظرية النسبية»[1].

ويظن «دوكينز» أن المؤمنين بسبب تمسكهم بالدين لا يمكنهم أن يقولوا مثل هذا الكلام؛ إذ يقول:

---

(١) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٦.

«لقد ذكرت قصة رجل كبير محترم في قسم دراسة سلوك الحيوانات في أكسفورد عندما كنت طالباً في الجامعة لسنوات عديدة، كان يؤمن ويعلمنا بحماس بأن جهاز غولجي (قسم مجهري من باطن الخلية) لم يكن ظاهرة حقيقية بل نوع من الوهم.

بعد ظهيرة كل يوم أثنين كانت العادة أن نستمع لمحاضرة من أستاذ ضيف على الجامعة. وفي أحد تلك الأيام كان الأستاذ الزائر أمريكياً متخصصاً في علم الخلية، وكانت لديه أدلة قاطعة على أن جهاز غولجي كان حقيقياً.

في نهاية المحاضرة تقدم الرجل الكبير من المنصة، وصافح الأستاذ الأمريكي بحرارة قائلاً بحماس: (يا زميلي العزيز أريد أن أعبر عن شكري لك لقد كنت مخطئاً لخمسة عشر سنة مضت). حينها صفقنا حتى أزرقت أيدينا. ليس هناك من متطرف سيقول ذلك يوماً ما»(١).

وكلام السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه يدحر زعم دوكينز عندما يقول إن المؤمنين متطرفون علمياً إذ هذا المؤمنين كما ترى! وقد تكلم دوكينز بنفس منطق السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّه إذ قال عن إيمانه بنظرية التطور:

«إيماني بنظرية التطور ليس تطرفاً، وليس إيماناً عقائدياً، ولكنّني أعرف تماماً ما يمكن أن يغيّر تفكيري، وسأغيره بامتنان عندما تظهر الأدلة الكافية على ذلك»(٢).

---

(١) وهم الإله ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧..

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٦.

وقال ايضاً:

«نؤمن بالتطور لأن الأدلة تدعمها. وسنرفضها بين ليلة وضحاها عندما تظهر أدلة تنفيها. المتطرف الحقيقي لن يقول شيئاً كهذا أبداً»(١).

إذن فإن كان «دوكينز» يعتبر نفسه غير متطرف علمياً لأنه يتبع البرهان إلى حيث يقوده، فنحن المؤمنون ـ كما يتضح من جواب السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ ـ كذلك غير متطرفين؛ لأن منطقنا ومنطقه سواء!

وبهذا يتضح بشكل جلي بطلان دعوى «دوكينز» بل يظهر كذلك أن الملحدين هم أكثر من غيرهم إساءة للعلم وما قاله دوكينز مجرد هروب من تهمة التطرف، فهو يحاول بشكل وآخر أن يبين للناس بلسان قاطع أن نظرياتهم التي تخالف الدين هي الحق دون غيرها ويقطعون أمام الآخرين حتى التفكير في مناقشتهم، بل أن الذي يناقشهم يقذفونه بأنواع التهم والخزعبلات، خذ إليك مثلاً يصر على حقانية «نظرية دارون» مع أن هناك الكثير من علماء الأحياء يقولون بخلافها وأنها غير قائمة على دليل(٢)، إلاَّ أنها لمجرد تصوره أنها تخالف الدين قطع الطريق على من يناقشه فيها!!

يقول الدكتور عمرو شريف:

«لو شككت في سرعة الضوء أو في النظرية النسبية مثلاً لن تقوم الدنيا ولا تقعد مثلما شككت في النظرية الداروينية الحديثة! انظر إلى وقاحة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أنظر : تهافت النظرية الداروينية.

دوكينز حين يقول: «إذا قابلت شخصاً لا يؤمن بالداروينية فلا شك أنك أمام إنسان جاهل غبي أو مجنون لا يعي ما يقول، ولا أريد أن أقول إنه شرير مؤذٍ» إن ذلك يضعنا في موقف محرج إذا ناظرنا دوكينز؛ أي الصفات نختار؟!. ويضيف دوكينز : «لا ينبغي أن نشكك في التطور الدارويني إطلاقاً»! مع أن العلماء قد شككوا في نظريات نيوتن واينشتين وبالرغم من أن الشك هو الباب الواسع لتقدم العلم. بل إن كل العلوم تقدمت من خلال فتح باب كل فترة لإعادة النظر فيه مسلماتها»(١).

الشبهة (٧) : إله سد الثغرات

يقول «دوكينز»:

«الخلقويون يبحثون بشغف عن فراغات في معارف العصر ومفاهيمه، وبمجرد ظهور ما يبدو حلقةً مفقودة، فأنّهم يفترضون أنّ الله يجب أن يملأها بطبيعة الحال، وما يقلق رجال الدين... هو أنّ هذه الفراغات بدأت تصغر مع تقدم العلم، والله في هذه الحالة مهدّدٌ بعدم وجود أيّ شيءٍ يفعله، وأيّ مكان يختبئ به»(٢).

يجيب السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ على هذه المزاعم بأنّها باطلة، وأن المتدينين لا يرون أن الاكتشافات العلمية التي تكتشفها العلوم الطبيعية سبباً يدعو إلى إقصاء الله تعالى، بل بمعرفة الاكتشافات العلمية يزيد احترامهم واجلالهم لله القدير

---

(١) خرافة الإلحاد ص ٢٠٣.

(٢) وهم الإله ص ١٢٧.

الحكيم الذي أتقن صنع الطبيعة[1]، قالقدس سره:

«فكل قانون كوني ـ على تقدير صحّته ـ معبرٌ عن الحكمة الإلهية، وأثرٌ من آثار القدرة اللانهائية، وليس لنا أن ندعي له ـ ولا يمكن له بحالٍ ـ أن يقوم بذاته وإن يكون فاعلاً ومؤثراً باستقلاله»[2].

وقالقدس سره:

«إذن فما ادعاه بليخانوف، تبعاً للفكر الماركسي عموماً من أن: «الخطوة الأولى للعلم هي إبعاد التفسير الاحيائي ـ يريد به الديني الالهي ـ لحوادث الطبيعة، و فهمها كظواهر خاضعة لقوانين». لا يمكن أن يكون صحيحاً. إذن، فالعلوم الطبيعية كلها علوم إلهية دينية، وليس المتدينون بحاجة إلى ما قاله كوفالسون: «و في زماننا صار الدين أكثر احتراساً وأخذ رجال الدين يصرحون على المكشوف: انهم يطمحون إلى أمر واحد فقط، هو أن يترك العلم للّه شيئاً ما «إلهياً» على الأقل». إن الرجال الفاهمين للدين يعلمون أن كل شيء هو للّهﷻ بما فيه كل ظواهر العلم والطبيعة، ولا حاجة بهم إلى هذا الاستجداء الدنيء»[3].

فما زعمه «دوكيز» من أن رجال الدين يتضايقون من الاكتشافات العلمية الحديثة هو مجرد هواء في شبك، بل أن المؤمنين يرون أن كل اكتشاف علمي

---

(١) يمكنك مراجعة الفصل الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان «أدلة نفي الخالق، الدليل الثاني» فقد ذكرنا هناك استدلالات الشهيد الصدرقدس سره على بطلان تلك القوانين بالتفصيل.

(٢) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) اليوم الموعود ص ١٤٦.

يكشف عن حكمة وقدرته وعظمته، ويتلون عند رؤية كل اكتشاف حديث قوله تعالى: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[١].

الشبهة (٨) : عدم الحاجة لمراقبة الله

يقول «دوكينز»:

«**هل نحن نحتاج حقيقةً أن نكون تحت مراقبة الله، أو تحت مراقبة بعضنا لبعض، لكي نتوقف عن الأنانية والسلوك الإجرامي**»[٢].

إن القانون بما هو قانون سواء كان إلهي أم وضعي لا يشكل عند الإنسان قلباً وضميراً، فإذا لم يعتقد الإنسان بوجود إله حاكم عليه ومراقب فسوف يحاول التحايل على كل قانون كلما سنحت له الفرصة.

وبذلك نفهم أن مراقبة الناس بعضهم لبعض لا يمكن أن تحد من السلوك الاجرامي وتربي الناس على قطع الجريمة، بل الذي يحد من ذلك هو أن يشعر كل فرد أن هناك إلهاً يراقبه لا يمكن التحايل عليه، يحدثنا السيّد محمد الصدرعن هذا الأمر قائلاً :

«**إن الانسان بحسب طبعه مربوط بمصالحه الخاصة ونوازعه وأهدافه القصيرة، وقد يرفض، بكل سهولة وحزم، أي دافع يدرك منافاته ولو بقليل مع تلك الدوافع والنوازع، ما لم يدرك عودها عليه، تارة أخرى،**

---

(١) آل عمران ١٩١.

(٢) وهم الإله ص ٢٢٨.

بالمصلحة.

وهذا ينتج بطبيعة الحال، الميل نفسياً إلى عصيان كل تعليـم قـانوني أو نظامي يشعر فيه الفرد بهذه المنافاة... سواء في ذلك القانون الوضعي أو القانون الالهي، (التعاليم الدينية).

والأطروحة الواضحة لتذليل هذه المشـكلة هـي جعـل العقـاب علـى العصيان والجزاء على الاطاعة؛ وهذا ما عملتـه الحكومـات فعـلا فـي قوانينها الوضعية، فشرعت العقوبات، وأسست السجون، فضـمنت إلـى حد المستطاع إطاعة وتطبيق قوانينها، بما في ذلك الحكومات الشيوعية نفسها.

والدين لا يختلف عن ذلك، فإن له في قانونه عقوبات ومثوبات دنيويـة معجلة، على مستوى قوانين العقوبات الاعتيادية... كما ان لـه عقوبـات ومثوبات أخروية مؤجلة. وكلا هذين النوعين من الجزاء، يـؤثر بطبيعـة الحال، في ضمان تطبيق التعاليم الدينية. والقسم المؤجـل يخـتص بهـا الدين عن القوانين الوضعية، ويعطي لأعمال الخير قيمة معنويـة عظيمـة تتجاوز ساحة الحياة إلى ساحة الأبدية. وبذلك يـزداد الـدافع العـاطفي نحو العمل الديني إلى حد كبير»[١].

إذن فالتربية الدينية التي تعتمد على وجود خـالق قـاهر فـوق عبـاده أنفـع مـن مراقبة البشر بعضهم لبعض؛ لأن البشر يمكنـك أن تتحايـل عليـه أمـا الإعتقـاد بـالله تعالى الذي لا تنام عينه لا يمكن أن يتحايل عليه الفرد بحـال مـن الأحـوال، وهـذا هو الفرق بين القوانين الوضعية التي تعتمد على مراقبـة بعـض النـاس لـبعض وبـين

---

(١) اليوم الموعود ص ١٤٧.

النظام الإلهي الذي يجعل كل إنسان مراقباً لنفسه وغير ظالماً لعباد الله؛ لأن الله أعد للظالمين حساباً وكتاباً.

بتوضيح أكثر للفرق بين الأثنين أنَّ التعاليم الإلهية تجعل لكل إنسان ضميراً يمنعه عن الجرائم والقبائح إن آمن بالله المشرع لتلك القوانين، أما القوانين الوضعية فلا بدّ أن تنصب شرطياً أو كاميرة مراقبة لكل إنسان ليخلو المجتمع عن كل المخالفات.

الشبهة (٩) : الإيمان من دوافع الحروب

يقول «دوكينز» :

«من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الإيمان بشيء»(١).

يظن «دوكينز» إن الإيمان هو أحد دوافع أقتتال الناس بعضها مع بعض، ويعلق على ذلك أنه لو عُدم الإيمان لما كانت هناك حروب!.

يحدثنا السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّه عن دعاة السلام من الملحدين الذين يلقون اللوم على الإيمان بأنه سبب الدمار ويدحض مزاعمهم إذ يقول:

«وأما الطمأنينة فهي تعني السلام، الذي رأينا دعاة الإلحاد من الشيوعيين كَمْ يُطَبِّلُون له ويُزَمِّرُون به في سبيل ترويج دعوتهم الحمراء، ويجعلون دعوتهم إليه مقرونةً مع الخروج على الدين والتَّمرُّد على تعاليمه الإسلامية الخالدة، كأنهم لم يعلموا أنه ليس في العالم جاهلٌ أو مجنونٌ، فضلاً عن العاقل المفكِّر، مَن يَوَدُّ الحرب وإراقة الدماء، فإن حبّ النفس

---

(١) وهم الإله ص ٢٨٢.

والركون إلى الأمن والطمأنينة غريزة من الغرائز المتأصِّلة في النفس الإنسانية، وأنه ليس أدعى للهَلَعِ والذُّعر للقلب الإنساني من منظر القتل والحروب.

والدين الإسلامي من الموافقين على أساس هذه الفكرة، فكما أن حفظ النفوس وسعة التجارة والصناعة لا يَتُمّان إلاَّ في جوٍّ من الأمن والسلام، فكذلك لا يمكن أن تُطاع التعاليم الدينية أو أن يقوم الإنسان بالواجبات الشرعية، أو يتعلم من العلوم التي حَثَّ عليها الإسلام، أو يقوم بصلةِ أقربائه وأصدقائه، تلك الصلة التي دعا إليها الإسلام ووضع لها النُّظم والنصائح الثمينة، ولا أن تنفَّذ سائر التعاليم الإسلامية على وجهها الصحيح، إلاَّ في ظلٍّ من السلام والوئام.

إلا أن الإسلام أبعدُ نظراً وأعمقُ تفكيراً من أن يدعو إلى السلام على كل حال، وإن اعتدى على الأمة المعتدون، ونال منها النائلون، وتعرَّض دينهم الحنيف إلى الخطر الشديد، بل إن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أي تفكير، وهو مما توافِقُ عليه سائر الأنظمة في العالم بالنسبة إلى حماية أنفسها، وحتى هؤلاء الدعاة الملحدون. فإنَّ الدفاع عن النفس حق مقدس ناشئٌ عن حب الإنسان لنفسه، ذلك الحب الذي هو غريزة مُتأصِّلة في نفس الإنسان.

ومن هنا تتَّضح وجهة النظر الإسلامية بالنسبة إلى مقاومة الظلم الذي يرجع في الواقع إلى حق الدفاع عن النفس، وهو حق معترف به في الإسلام»[1].

---

(١) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ٣٨ – ٣٩.

الشبهة (١٠) : هل الدين أفيون الشعوب؟

ناقش السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ دعوى أن الدين أفيون الشعوب في كتابه «فقه الأخلاق» وفي «اليوم الموعود» بما لا يحتاج إلى شرح وبيان لذلك سأذكر كلامه هنا نصًا مع بعض الإشارات في الهامش، قال قُدِّسَ سِرُّهُ :

ومن هنا، بل من مجموع التعاليم الدينية نعرف، أن المقولة التي قالها «كارل ماركس» مؤسس الفلسفة الشيوعية، من أن «الدين أفيون الشعوب» ليس بصحيح تماماً.

فإن الأفيون مخدر والدين لا يمكن أن يكون مخدراً باعتبار عدة أمور:

أولاً: إيجاده للعاطفة التي سمعنا عنها. وهي نشر العدل والرحمة في أمم الأرض كلها، لكي تمتلئ الأرض قسطاً وعدلًا كما ملئت ظلماً وجوراً.

ثانياً: إيجاده للعاطفة المضادة للظلم والظالمين، سواء في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد أو المجتمعات الأخرى.

ثالثاً: الأحكام المضادة للظلم من واجبات ومحرمات، وعدم جواز الاعتداء على الآخرين وغمط حقوقهم ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

رابعاً: إننا لو فرضنا غض النظر عن ذلك كله، فإن الدين لا يستطيع أن يكبت عواطف الإحساس بالظلم والقهر في قلوب الشعوب. فإن هذا مما يحصل بكل تأكيد، ولا يستطيع أي فاعل أو جاعل أن يغيره.

---

(١) النحل ٩٠.

وإنما في الحقيقة أننا وجدنا كلاً من المذهبين الشيوعي والرأسمالي قد خافوا من وثبة المظلومين وتحرر الشعوب. فاتخذوا الإجراءات المضادة لذلك.

أما الشيوعية والدول الراديكالية، فقد اتخذت أسلوب القمع والتنكيل والتخويف بإزاء ذلك. وأما الدول الرأسمالية، فقد ألهت شعوبها والشعوب الأخرى بالمال والمشاكل الاقتصادية وبالبرامج الرياضية[١] والخلاعية وغير ذلك.

---

(١) لذلك فأنه قدس سره كان يقول في خطب الجمعة الـ ١٣ من خطبه: «**فالنصيحة الأكيدة لشبابنا الناهض أن يلتفت إلى مصالح نفسه ومجتمعه، ويسقط أهمية الرياضة والرياضيين عن نظر الاعتبار، ويخاف الله سبحانه وتعالى فقط، فإن كل هذه الدعايات والعنايات، وإنما هي مصيدة له لإدخاله في فخ الشيطان. ويكون حب الرياضة إنما هو حبٌ للمخططات، من حيث نعلم أو لا نعلم، ونكون قد أعنّا الاستعمار الغاشم الظالم على أنفسنا، وأمكناه من بلادنا، من حيث نعلم ولا نعلم، فاتقوا الله حق تقاته بالالتزام بطاعة الله، والاهتمام بالأهداف الحقيقية للمجتمع، وتربية النفس والآخرين تربية صالحة، وترك كل ما يرتبط بالشيطان والكفر والكافرين، والابتعاد عنه ابتعادنا عن الأجرب، فإنه يصدُّ عن ذكر الله والآخرة، فهل أنتم منتهون؟!**» (منبر الصدر ص ١٦٣) وقد ناقش في هذه الخطبة العمل الرياضي بمناقشة كاملة. وقال في لقائاته قدس سره : «**هم تبنوها من جهة اقتصادية خالصة من أجل الدرهم والدينار الذي يؤخذ من المشجعين ومن المتفرجين... فمن هذه الناحية معنى ذلك أنهم يلعبوننا ويجعلوننا نقفز ونخرج يدنا ورجلنا ورأسنا وصراخنا وتصفيقنا من أجل مصالحهم التي هي عين الشيطان بل هي الشيطان بل هي أشد من الشيطان**» (منهج الصدر ص ١٤٥).

مما أدّى أن لا يحس الشعوب بمشاكلهم الواقعية وآلامهم الأساسية. وهم- مع ذلك- غير فارغين من الاغتشاش والاحتجاج في كل بقاع العالم.

وليس في الدين المقدس الحق، شيء من هذا القبيل، فأن كل ما فعلوه، هو محرم في الدين وممنوع في شريعة سيد المرسلينﷺ. ولا سبيل إلى مشروعية إيجاده.

نعم يوجد في بعض الاتجاهات الإسلامية ما يخالف ذلك، فقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على وجوب طاعة الحاكم وان كان ظالماً ووجوب المحافظة على كمه والخضوع له وان كان فاسقاً. وفي بعض الأخبار هناك «لا، ما قاموا الصلاة» أي ما داموا على ظاهر الإسلام. وفي بعضها وجوب الطاعة «حتى لو ضرب ظهرك أو أخذ مالك» ونحو ذلك. وسياقها يدل على أنه حتى لو فعل ذلك عن طريق الظلم والاعتداء. فأنه يجب طاعته والحفاظ عليه.

وهذا اتجاه شاذ في الدين، ورواياته ضعيفة، وهو ناشئ من فهم معين لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١). على أن المراد من أولي الأمر كل حاكم مسلم مهما كانت صفاته وعمله. إلاَّ أننا لو سلمناه، فلا أقل من تقييده بأن يكون عادلاً في نفسه وفي أفعاله. فإذا خرج من العدالة لم يجز قبول ولايته.

ولعل «ماركس» قد أعتمد على مثل هذه الاتجاهات المنسوبة إلى الدين، في الطعن في الدين، والدين منها براء.

---

(١) النساء ٥٩.

كما قد يفهم البعض أن في الدين اتجاها آخر مناف لهذا المعنى الذي قلناه، متمثلاً باتجاه التصوف. وهو اتجاه كثير السريان في المجتمع المسلم بمختلف طبقاته ومذاهبه. ومن المعلوم أن التصوف يؤدي إلى الابتعاد عن الناس ومحاولة التسليم بالواقع، على ما هو عليه والصبر في تحمل البلاء وعدم لزوم دفعه. وكذلك إخراج حب الدنيا من القلب ... مما يلزم عدم الاهتمام بشأن نفسه وشأن الآخرين بما فيهم من عدل أو ظلم.

ولهذا لم يعارض «الغرب» وجود التصوف والطرق الصوفية في المجتمع المسلم. لأن وجودها لا ينافي مصالحه، بل هي بالتأكيد في مصلحته لأنها تبعد الناس من التفكير في مظالمه وفضائحه[1].

بل الأمر أكثر من ذلك، فقد كانت من الوصايا الأساسية الصادرة من الغرب في الجيل السابق، هو حث الناس على تعلم وصايا «ابن عربي»[2] ونصائحه والسير طبقاً لمنهجه. وليس ذلك صداقة مع ابن عربي أو لأجل حسن الظن به، وإنما لأجل ذلك ذريعة لإبعاد الناس عن الاهتمام بأمور الدنيا، الأمر الذي يوفر لهم الفرصة لكي ينفذوا مصالحهم

---

(١) قال السيد الخمينيقدس سره : «حين وصل القائد البريطاني إلى بلادنا وسمع المؤذّن يؤذّن سأل: إذا قام بهذا العمل فهل يضرّ بالدولة البريطانية؟ فقيل له: كلا. فقال فليفعل ما يشاء» (كتاب البيع ج ٨ ص ١٦٢ تقرير السيد محمد الصدرقدس سره).

(٢) ومن هنا فإن المستشرقين قد كتبوا كثيرًا عن المتصوفة وعن أبن عربي، وبالغوا في مدحهم والثناء عليهم. راجع في ذلك موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي وستجد الكثير من المستشرقين من هذا القبيل.

بحرية تامة.

ومن الناحية العلمية فإننا نرى أن أصحاب الطرق الصوفية كذلك، ليس لهم تدخل في الحكم و لا في السياسة ولا في العدل والظلم الاجتماعيين. وهذا هو المقصود الأساسي للغرب المستعمر بكل تأكيد.

ولعل هذه الفكرة هي التي كانت أوضح في ذهن «ماركس» حين قال قولته المشهورة التي سمعناها. والأمر بكل تأكيد، إذا كان الدين مقتصراً على هذا الاتجاه وخاصاً به.

وجواب ذلك في عدة نقاط:

النقطة الأولى: ان اتجاه التصوف ليس هو الاتجاه الوحيد في الدين، كما انه لا يعتبر صحيحاً عند الكثير من المسلمين والمؤمنين والمخلصين.

ويكفينا في ذلك أن نسمع منهم الحث على إشاعة وإعلان تعاليم ابن عربي وحث الناس عليها، مما نفهم منه أن الناس بعيدون عن هذا الاتجاه وغير فاهمين له وغير متبعين له. بل ان اغلبهم جاهلين له تماماً، وهم الأعم الأغلب، في المجتمع المسلم بكل تأكيد. إذن فرد الفعل المفهوم والمتوقع من الصوفية تجاه الظلم والمصاعب والبلاء، غير متوقع من غالبية الناس.

النقطة الثانية: ان في الدين أحكاماً منافية لمثل هذه الاتجاهات الصوفية كوجوب العدل وتفاصيله وحرمة الظلم وتفاصيله. مما هو معلوم من محله.

النقطة الثالثة: ان الاتجاه الصوفي ان كان يربي الأنانية في النفس وعدم الاهتمام بالمسلمين فهو مما يخالف الدين ويعصي شريعة سيد المرسلين. من حيث ما يدعي الاتصال به والطاعة له.

وأما إذا كان يربي الإخلاص لله سبحانه ولرسوله ولتعاليمه، فالأمر ليس كذلك بكل تأكيد. بل يجب عليه أن يضع كل تعليم في موضعه ويطبق كل حكم في موضعه. وإذا كان الأمر كذلك، اختلف الأمر تماماً عما يعتقده أصحاب تلك الاتجاهات الصوفية[(١)].

وقال قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه «اليوم الموعود»:

فإذا فهمنا الدين طريقة صوفية أو رهبانية أو كنيسة، كما حاولت الماركسية أن تفهم كان تطبيق تعاليمه يعني الانعزال عن الناس، وبالتالي التخدير عن العمل وعن نفع الآخرين، كما قال ماركس تماما.

وأما إذا شجب الفكر الديني الصالح هذه الاتجاهات، وأكد على بث الخير في الناس وتطبيق العدل فيهم، والتضحية من أجل الآخرين بالنفس والنفيس، كان معنى تطبيق هذه التعاليم ومعنى الحث عليها يجعل الدافع الأخروي عليها: زيادة الدافع النفسي والعاطفي تجاه نفع الآخرين و بذل التضحيات لنفعهم وإسعادهم. إعطاء ذلك قيمة أبدية غير موقتة ولا قصيرة ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[(٢)(٣)].

الشبهة (١١) : إنكار قانون العلية

تعتمد أغلب البراهين الدالة على إثبات الصانع على القضايا الأولية التي يسلم

---

(١) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣٠٣ – ٣٠٦.

(٢) آل عمران: ١٦٩.

(٣) اليوم الموعود ص ١٤٧ – ١٤٨.

بها كل العقلاء من قبيل الكل أعظم من الجزء، والاثنين نصف الأربعة وهكذا، ومن يحاول انكار هذه القضايا الأولية وأمثالها فهو يحاول القضاء على أغلب الأدلة الدالة على إثبات الصانع.

فنحن نعلم أولاً بأن النار من مصادر الحرارة، وهذه المعلومة الأولية يمكن أن نستفاد منها في علم الفيزياء فنقول: إن الماء إذا وضعناه على النار ووصل إلى درجة حرارة ١٠٠مئوية فأنه سيغلي.

فحكمنا بأن الماء يغلي عند الوصول إلى حرارة تبلغ ١٠٠ درجة مئوية كان يعتمد أولاً على معلومة أولية وهي أن النار من اسباب الحرارة وإن الماء إذا بلغت حرارته ١٠٠ درجة مئوية فإنه سيغلي، وهذا الحكم ناشئ من الفطرة العقلية الموجودة لدى جميع الناس، إذ لا يمكن لعاقلين الاختلاف بمثل هذه القضايا ويقول بأن النار ليست من مصادر الحرارة.

وقد حاول بعض المفكرين الغربيين أنكار هذه الفطرة العقلية ومن هؤلاء المفكرين «ديفيد هيوم» حيث انكر قانون العلية وله رأي يرفض ارتباط النتيجة بالسبب، فهيوم يرى أنه إذا كنا نلاحظ أن الماء يغلي عند تسخينه إلى درجة ١٠٠، فلا يعني ذلك وجود علاقة سببية بين التسخين والغليان! ويعتبر أن الأمر مجرد ربط يقوم به العقل نتيجة لتكرار هذا التزامل، أي أن عقولنا هي التي شكلت من ذلك التزامل قانوناً طبيعياً يقول بأن الماء يغلي عند درجة حرارة ١٠٠.

وقد كان الفيلسوف الملحد انتوني فلو يعتقد بهذا الرأي إلاَّ أنه بعد أن أعلن عن إيمانه رفض هذا القانون قائلاً :

«لقد صرت الآن أؤمن بأن هذا المفهوم يقضي على كل موضوعية من

حولنا، بل يدمر كل العلوم من أساسها»[١].

إذ كل العلوم تعتمد على الأوليات وإذا أنكرناها فقد انكرنا جميع العلوم برمتها وكذلك انكر قانون العلية الذي يقول لا بد لكل ممكن من علة الذي تقدم البحث عنه في الأدلة على وجوده تعالى.

وقد قامت هوليود بترويج مفهوم «ديفيد هيوم» وذلك عبر فيلم أسمه لوسي «LUCY» حيث قالت بطلة الفيلم[٢] فيه :

«الناس يعتقدون انهم مميزون لذلك قاموا بتشييد نظرياتهم الخاصة عن الوجود على اساس الحقائق ووحدات القياس، ولكن هذا ليس بصحيح فكل النظام الاجتماعي مبني على الاسس المنطقية وإن (١ + ١ = ٢)، لكن ١+١ لا يساوي ٢ ابداً، فالأرقام والرموز ليست موجودة، نحن نصوغ حياتنا لنجعلها بمستوى الجنس البشري لنجعلها قابلة للاستيعاب، نحن انشأنا مقياساً لشيء قد نسينا اننا لن نستطيع سبر غوره»[٣].

تشير بذلك إلى نظرية ديفيد هيوم والملحد الفيزيائي «لورنس كراوس»، الذي يستغل نظرية آينشتاين النسبية وينطلق منها للتشكيك في كل شيء حتى في

---

(١) رحلة عقل ص ٦٥.

(٢) بطلة الفلم فتاة امريكية عادية اسمها (لوسي) يصور الفيلم على أنها بلغت مراحل التكامل العقلي والجسدي بسرعة مذهلة بسبب تعاطيها من دون قصد لعقار نادر يؤدي إلى تطور قابليتها على استغلال قدراتها العقلية بشكل مذهل، مما يجعلها قادرة على فهم حركة الطبيعة والكائنات حولها.

(٣) هوليود تستهدف الدين ص ٣٩.

الحقائق الثابتة البديهية من قبيل «لا بد للموجود من علة» ولا بد للمخلوق من خالق.

بل إنهم يعمدون إلى كل قضية بديهية ويشككون فيها حتى القضايا التي من قبيل (١+١=٢) ومن هذا المنطلق ينتهون إلى التشكيك بأغلب البراهين الدالة على الصانع، كبرهان النظم كذلك الذي يعده المسلمون دليلاً على وجوده تعالى، بل ويعتمد عليه علماء المسيحية إلاَّ أنهم يسمونه «التصميم الذكي» بل ويعتمد عليه حتى بعض اللادينيين كالربوبيين يعتمدون على هذا البرهان لإثبات الصانع، وبوجود خالق للكون؛ لأن هؤلاء الذين ينكرون البديهيات سوف تكون عاقبتهم أن ينكروا كل العلوم برمتها، فإن أي علم من العلوم متكون من عدة قضايا بديهية بل إن البديهيات مفاتيح لكل العلوم فإذا أنكرنا الحسابات الرياضية كيف يمكن للمهندس أن يعمل؟ وإذا انكرنا الملازمة بين العلة والمعلول كيف يمكن أن يشخص الطبيب علل المريض ليعرف علاجه وهكذا سيسري الشك إلى سائر العلوم بما فيها العلوم الإلهية كإثبات الصانع.

والسيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يرد على هكذا دعاوى قائلاً:

«ونحن نرى أنه لابدّ من وجود مثل هذه القضايا البديهية في العقل وإلّا لما أمكن الوصول إلى التصديق بأي قضية على الإطلاق فإنه إذا كانت كل القضايا مشكوكة الصدق فسوف لن نستطيع الوصول إلى اليقين أبداً، لأنه لابدّ للبرهان من أن يعتمد على قضايا يقينية أو مسلمة لكي ينتج نتيجته المقصودة، إما إذا كانت كل القضايا مشكوكة فمن أين تبدأ البرهنة وإلى أين تنتهي، وما الذي سوف يكون الحد الفاصل بصورة

قاطعة بين الشك واليقين»[١].

إذن فلو لا وجود قضايا يُتيقن من صدقها لما قام بين الناس أي علم، وما هذا إلاَّ نوعاً جديداً من أنواع السفسطة، وإنما قالوا ذلك ليتسنى لهم أن يقولوا أن أيجاد المصنوعات لا تدل على أن للكون صانعاً؛ لأننا إنما فرضنا وجود الصانع لأن أذهاننا قد اعتادت على هذا الأمر!

الشبهة (١٢) : الدين يمنع التطور التقني

هناك شبهة يطرحها بعض المتأثرين بالفكر الغربي، ومفادها إنَّ الدين يشكل عثرة أمام التطور التقني والآلات التقنية الحديثة ويميل إلى تحريمها بفتاواه، الأمر الذي يشكل عائقاً على الملتزمين بهذه الفتاوى!

ولم أجد شبهةً أتفه من هذه الشبهة؛ لأنك ترى بعينك الظاهرة أن المؤمنين والمتدينين يستخدمون التقدم التقني حتى في دعوتهم للدين نفسه، وقد قال السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«أن الاتجاه الديني عموماً يحبذ استعمال نتائج التطور المدني، لا أنه يمنع عنه. وقد كان ولا زال المتدينون عموماً يستعملون هذه النتائج، بدون أن يروا أي تناف بين اتجاههم الديني وهذا الاستعمال، أو أن يعتقدوا أي تحريم ديني لذلك»[٢].

نعم يقول الدين إن التكنلوجيا لا تصلح أن تكون بديلاً عن الدين ـ كما

---

(١) الأنظار التفسيرية ص ٢٤٦.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور ص ٤٢٥.

يدعي بعض الأوربيين ـ فلم تقرب العلوم والتكنلوجيا الإنسان إلى العدل، وليس ذلك فحسب، بل أدّت إلى سقوط العالم في الوحشية المعاصرة بسبب وقوع العلوم والتكنلوجيا في أيدي أشخاصٍ كبّلتهم الشهوات واستعبدهم هوى النفس وحب السلطة... يقول «جوزيه دي كاسرو» حول هذا الموضوع:

«بينما حقّق العالم تقدماً كبيراً في العلوم والصناعة، نجد سياسة العالم تعيش مرحلة التوحش».

ويقدم في كتابه «الإنسان الجائع» تقارير فضيعةً عن الجوع في العالم المعاصر[١]، وهذا كله بسبب التطور التقني والتخلف الديني؛ ولذا قال السيّد محمد الصدر قدس سره:

«ومن الواضح أن التطور العلمي لا يعني تطور الجانب الانساني من الانسان، بل يمكن أن ينسجم أعلى أشكال الانتاج العلمي مع أقسى أشكال الأنانية والعدوان.ومع كل ذلك ...ومع غير ذلك... كيف يمكن للفرد أن يتفوه بهذا الكلام على أنه حقيقة نهائية، وهو أنه يمكن للعلم وحده أن يضمن المستقبل السعيد للعالم»[٢].

وكذلك تطور وسائل الإنتاج التقنية وغيرها لا تؤثر في تطور الدين أو تغيير العقائد، كما يقول بعض الجهلاء: أن الغرب تطور غاية التطور وإنكم لا زلتم على نفس دينكم وعلى نفس المعتقد، دون أن تجددوا افكاركم.

يقول قدس سره:

---

(١) لماذا الدين، لماذا الإسلام، لماذا التشيع ص ٥٦ ـ ٦١.

(٢) اليوم الموعود ص ١٧.

«إن أي مرحلة منه [من التطور في وسائل الإنتاج]، عالية كانت أو منخفضة، ليس لها أي مساس بتطوير الدين أو تغيير المعتقد، بغض النظر عن التوجيه الماركسي الالحادي»[(١)].

فما هو الربط بين اكتشافاتهم الحديثة وتغيير المعتقد الديني!.

الشبهة (١٣) : إستغلال إسم الدين للشرور

يقول «دوكينز»:

«ولا أذكر أي حرب حصلت تحت إسم الإلحاد، ولماذا تحصل؟ ربما يكون الدافع للحرب طمعاً اقتصادياً أو طموح سياسي أو تعصب عرقي أو عنصري أو انتقام أو شكوى أو بدافع من الإيمان الوطني بحق الإمة. والقناعة التي لا تتزعزع بأن الدين الذي يؤمن به البعض هو الدين الصحيح الوحيد وبدعم من الكتاب المقدس»[(٢)].

إن هذه مغالطة واضحة، ولا أدري ما به دوكنز هنا فإنه يسأل ويجيب نفسه!! فإن الدين ليس الشيء الوحيد الذي يمكن استغلاله للشرور بل إن كل شيء يمكن استغلاله لذلك كالاقتصاد، والسياسة بل يمكن أستغلال حتى أسم الإلحاد نفسه لأجل إحداث الشرور في العالم.

ومن هنا يجيب السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن مثل هذه الشبهة قائلاً:

«لا ينبغي أن ننكر أن كثيراً من الجهات والأفراد والطبقات، استفادت من

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٦.

(٢) وهم الإله ص ٢٨١.

الدين ـ على اختلاف أشكاله ـ استفادات أنانية مصلحية، تحت مختلف الدوافع والشعارات، سواء سميناها استفادات طبقية، كما أرادت الماركسية، أو سميناها بأي اسم آخر.

وليس في ذلك من ضير على أصل الدين، فإن المتاجرة باسم الشيوعية أيضا ممكنة من دون أن يوجب طعناً على الشيوعية، فكذلك الحال في الدين حرفاً بحرف. سواء كثر «التجار» أو قلوا، وسواء مثلوا قوةً أو مثلوا ضعفاً، و سواء مثلوا طبقةً أو كانوا أفراداً.

غير أن من الطريف والمؤسف أن الماركسية تعبر بالدين، وتقصد نماذج معينة من البشر المحسوبين على الدين، تلك النماذج التي يكون الكلام الماركسي عنها قريباً من الصحة. وتهمل النماذج الصحيحة للدين، التي لا يصح فيها ذلك الكلام البتة»[١].

ومن أساليب هؤلاء الملاحدة كما وصف ذلكقُدِّسَ سِرُّهُ أنهم يبحثون عن الزلات في كل الأديان ثم يطعنوا بها كل متدين، فيأخذون زلات المسيحيين، وزلات المسلمين ثم يطعنوا بها الدين كله؛ وتهمل النماذج الصالحة والصحيحة من الديانات لأنها لا تخدمهم في دعوتهم الإلحادية.

ومن هنا كان الشيخ أبي المجد الأصفهاني النجفيقُدِّسَ سِرُّهُ يقول في مقدمة كتابه «نقد فلسفة دارون»:

«وليعلم أنَّ كتابي هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق، في قبال اللادين المحض، لا للانتصار لدينٍ على دينٍ والانتصاف لبعض دون

---

(١) اليوم الموعود ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

بعض. ولهذا تراني أدافع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها، ومـذاهب لا أقول بها؛ لأنَّ هؤلاء لا يثلب ديناً إلاَّ وقصد ثلب الأديان عامة. ولا يُزري على شريعة إلاَّ ليسري إزراءه إلى الشرائع قاطبةً. فيقع في النصرانية ليطفئ أُوارَ غيظه من الحنيفية»[1].

الشبهة (١٤) : الدين لا يحقق سعادة البشرية

تعتقد الديانات السماوية الثلاث (الإسلام، المسيحية، اليهودية) بأن تحقيق العدالة يتحقق على يد الدين، فالمسلم ينتظر الإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف ليحقق العدل التام، والمسيحي بنتظر نزول النبي عيسى عليه السلام من السماء، واليهود يعتقدون بأن شخصاً من بني إسرائيل سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

إلا أن الإتجاه المادي الذي لا يؤمن بالأديان له كلام مختلف، فبعضهم قال ـ بعد أن نفى كون الدين هو المحقق للسعادة البشرية ـ بأن التطور التقني والعلمي والصناعي هو من يحقق العدالة، وبعض آخر قال أن القانون الوضعي هو من سيحقق العدالة.

ونحن هنا نعرض عرض السيّد محمد الصدر قدس سره لهذين الإتجاهين ثم مناقشته لهما:

الأطروحة الأولى المستقبل السعيد بالتطور العلمي نحو الأفضل

«تكون الفكرة الأساسية في هذه الأطروحة: ان العلم التكنيكي الصناعي

---

(١) نقد فلسفة دارون ص ٥.

الحديث هو الكفيل بإيصال المجتمع البشري إلى السعادة و الرفـاه ... و بخاصة في المستقبل حين يتطور العلم أكثر مما هو عليـه الآن، فيصـل بمزيد من التجارب إلى مراق عليا يستطيع أن يكفل بها إيجاد المستقبل السعيد للبشرية كلها.

كيف لا؟! ... و نحن نعاصر النتائج الكبرى التي تمخض عنها العلم فـي هذا العصر، فلا نجد إلاَّ ما يدعو إلى الاكبـار و الاحتـرام ... فإننـا لـو تجاوزنا قمم العلم العليا التي تتمثل في عـدة أمـور، كتفجيـر الـذرة و الصعود إلى الكواكب و تأسيس العقل الالكتروني ... إذا تجاوزناهـا، و حاولنا النزول إلى الفوائد الاجتماعية التـي يمكـن للعلـم أن يحققهـا، فيضمن للبشرية مستوى عال من السعادة و الرفاه.

... إذن، لرأينا الشيء الكثير ... فهناك الأجهزة التي اخترعت، و لا زالت تخترع لتذليل مصاعب الحياة المنزلية، و لعـل أهمهـا إلـى الآن ذلـك الانسان الآلي الذي يقوم بالخدمات بكل رحابة صدر و بـدون تعـب! و يوفر للعائلة أكبر الجهود. و هو أيضا يرد على التلفون و يخبـر صـاحبه عن المكالمات التلفونية الحاصلة حال غيابه.

وهناك الآلات الزاخرة العظيمـة المسـتعملة كوسـائل للإعـلام ... مـن السينما إلى الراديو، إلى التلفزيون، إلـى التسـلتار الـذي يـوزع البـث التلفزيوني على رقعة كبيرة من العالم.

أما التلفون الصوتي و التلفزيوني، فحدث عنه و لا حرج ... في تقصير المسافات و التقريب بين المتباعدين و الغائبين، واختصار الجهـد إلـى حد بعيد وهناك الآلات الزراعية، التي تقلل الجهد وتزيـد فـي الانتـاج وتوسع رقعة الأرض المزروعة إلى أكبر مدى. مضـافا إلـى الأسـاليب

العلمية لتحسين الانتاج إلى درجة كبيرة بل إنتاج أنواع من الأطعمة و الفواكه ليست معهودة ولا معروفة! و قل نفس الشيء في تحسين الإنتاج الحيواني، و تطويره و توسيعه ...

ولا يخفى ما للعلم من جهود مشكورة في دفع الآفات والأمراض الزراعية والحيوانية وإعطاء أعمق الأساليب وأنجحها لاتخاذ أحسن شكل للانتاج.

وأما الطب فحدث عن انتصاراته على المرض ولا حرج ... وقد تكللت الجهود الطبية بزرع الأعضاء الجديدة في جسم الانسان بدل الأعضاء التالفة فيه. ولعل عملية زرع القلب، هي أهم ما أنجز، في هذا المجال ... بل قد تودع في الجسم الإنساني آلة صماء تقوم مقام العضو التالف لتؤدي نفس وظيفته.

وتربية الجيل الناشىء قد استندت إلى العلم أيضا ... والعلم وحده!! .. فهناك النظريات التربوية التي تطبقها أحدث المعاهد في العالم، بمختلف مستوياتها ... ولا زال العلم يتقدم بهذه النظريات نحو الأفضل.

وتعال بنا إلى الهندسة العمرانية، لنرى أنها إلى أي ارتفاع و دقة وصلت في ميادين هندسة البيوت والمدارس والمستشفيات والأسواق و السجون والمنتزهات وغيرها ... مما يوفر أحسن الرفاه وأكبر الجهود للناس.

وإذا تجاوزنا الجانب الاجتماعي للعلم، إلى الجانب الفكري أو الثقافي ككل، وجدنا بحرا لا ينزف وتفوقا لا يوصف في علوم الذرة والفلك والفيزياء والكيمياء ... وتدقيقا في حوادث التاريخ وقوانينه، وعمقا في المنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. لم تكن البشرية قد بلغته

في أي وقت مضى من حياتها الطويلة ... كل ذلك يؤذن بالخير، وبالمستقبل الزاهر السعيد الذي يقوم على أكتاف العلم والعلماء.

وإذا كان العلم قد وصل إلى مثل هذه المراقي العظيمة إلى العصر الحاضر ... فأحر به أن يصل إلى درجات أهم وأوسع في المستقبل، تكون كافية ... وبكل جدارة لضمان الرفاه وسيادة السعادة والعدل في ربوع البشرية.

ولعل بين أيدينا من المستقبل العلمي أفكارا مهمة وواضحة، ... وإن لم تكن منجزة. فعلا ... إلاَّ أن العلم كفيل بإنجازها في أقرب وقت ممكن.

فمن ذلك سرعة وسائط النقل للركاب أكثر مما هو عليه الآن، وأكثر سلامة ... سواء في ذلك ما بين المدن أو في داخل المدينة ..؛ومن ذلك تحويل الطعام والشراب إلى أقراص أو سوائل قليلة، يوفر لما الفرد عدة ساعات يقضيها عادة في إنجاز الطعام و تناوله.

ومن ذلك تطوير الانسان الآلي، بحيث يمكنه أن يقوم بالخدمات المنزلية والخارجية بشكل أوسع مما عليه الآن، وتوفيره سوقيا على نطاق واسع.

ومن ذلك توسيع السكنى للبشرية إلى الكواكب والنجوم المجاورة!!! عن طريق تكثير رحلات الفضاء وتسهيلها وتخفيض نفقاتها وجعلها متوفرة للركاب.

ومن ذلك التسبيب إلى طول عمر الانسان بالمستوى الصحي الذي يكفله العلم ... حتى يصبح الستين والسبعين عاما، من أعوام الشباب!! ... وأما الشيخوخة فلا تبدأ أول مراحلها إلاَّ بعد المائة.

إلى غير ذلك من النتائج الكبرى المتوقعة للعلم ... ولعمري إن المجتمع

الذي يعيش تحت ظل مثل هذا التقدم العلمي الهائل، لهو مجتمع سـعيد ومرفه.

إذن، فمن المستطاع القول: بأن العلم يكفل للبشرية المستقبل السـعيد ... وإذ يكون العلم دائما في تطور مستمر، إذن فالبشرية صائرة- لا محالة- إلى ذلك المستقبل المجيد.

المناقشة:

إلا أنه من المؤسف!!! أن هذا الكلام بالرغم من أهميته وجمال شـكله!!! لا يمكن أن يكون صحيحا في نتيجته، بأي حال من الأحوال.

فكل هذه التطورات العلمية صادقة ... و لعل فيما أهملناه أهمية مماثلـة أو أكبر مما ذكرناه ... فإننا أعطينا نماذج من ذلك فقـط ... ولعمـري أن للعلم مساعدة فعالة في جلب الراحة إلى الانسان والمجتمع.

لكن ذلك لا يعني بحال، أن العلم وحده من دون ملاحظة شـيء آخـر، يمكنه أن يضمن السعادة و العدل بين الناس. ولا ينبغي لنا أن نبالغ فـي أهمية العلم، مهما كان له في العالم من هيبة وهيمنة وأهمية.

فإن العلم إنما يضمن الجانب المدني والتكنيكي من حياة الانسـان، و لا يتضمن العلم- بمجرده- أي جانب قانوني أو نظامي أو أخلاقـي، كمـا هو واضح ... فإن لهذه الأمور حقولا أخـرى فـي المعرفـة الانسـانية لا تمت إلى العلم بصلة، على الإطلاق.

فإذا استطعنا أن نضم النتائج الرائعة للعلم إلى نظام عادل وقانون سـليم ... استطعنا أن نكفل الرفاه الحقيقي والسعادة الكبرى، إذ تكـون النتـائج العلمية موزعة يومئذ بين البشر بشكل متساو ومتكافئ بدون إجحاف أو

ظلم.

وأما إذا نظرنا إلى العلم وحده، وتوقعنا منه أن يكون صانعا لسعادة المستقبل مع إسقاط النظام عن نظر الاعتبار ... فهذا يعني الوصول إلى نتائج وخيمة مروعة في غاية السوء والاجحاف.

منها: أنه يمكن للعلم أن يكرس طاقاته الهائلة في فناء البشرية وإضرارها إلى حد كبير ... في وضع الأسلحة الفتاكة والسموم القاتلة، ووسائل التعذيب اللاإنساني للآخرين. وهذا ما هو حاصل في العصر الحاضر، وهو يتقدم ويتزايد بتقدم العلم وتزايده ... وتبذل الدول في سبيله الملايين.

ومنها: أن هذا الرفاه يكون خاصا بالمتمولين، الذين يستطيعون استغلال النتائج العلمية في مصلحتهم ... أما الأعم الأغلب من الناس في العالم، وهم متوسطو الحال وذوو الدخل المحدود والفقراء، فلن يستطيعوا الحصول على شيء مهم من نتائج العلم.

فإن قال قائل: إنه يمكن توفير الرفاه العلمي لأكبر كمية من الناس و بأرخص ثمن ممكن ... وبذلك تتسع رقعة المستفيدين من نتائج العلم الكبرى.

قلنا: إن هذا لا يكون إلاَّ تحت نظام خاص وفي ظل نظام معين يكفل ذلك ... ولا يمكن للعلم وحده أن يكفل هذه الجهة.

ومنها: ان العلم إذا لم ينضم إلى القانون الصالح، لا يمكن أن يضمن زوال الاعتداء بين البشر بأي شكل من الأشكال. ومن الواضح أن التطور العلمي لا يعني تطور الجانب الانساني من الانسان، بل يمكن أن ينسجم أعلى أشكال الانتاج العلمي مع أقسى أشكال الأنانية و العدوان.

ومع كل ذلك ... ومع غير ذلك ... كيف يمكن للفرد أن يتفوه بهذا الكلام على أنه حقيقة نهائية، وهو أنه يمكن للعلم وحده أن يضمن المستقبل السعيد للعالم.

ومعه، ... تكون هذه الأطروحة المادية الأولى، قد فشلت في قيادة البشرية نحو المستقبل السعيد ... فهل يمكن للأطروحة الثانية أن تضمن ذلك؟! ..

الأطروحة الثانية المستقبل السعيد بتطور الفكر القانوني

بعد أن ثبت بوضوح فشل الأطروحة العلمية لقيادة العالم، وان المهم في الأمر هو وجود النظام الصالح والقانون العادل الذي ينسق شئون المجتمع والبشرية ويسهل حصولها على آمالها وإزالة آلامها. إذن فالقائد الرئيسي للبشرية نحو الأفضل هو القانون نفسه ... وهو الذي سيكفل للبشر مستقبلهم السعيد.

فإن البشرية كانت ولا زالت، تمر في تاريخها الطويل بتجارب ومشاكل، تكون هي الكفيل الأساسي لرقي الفكر القانوني. وذلك بعد مرور الفكر القانوني بمرحلتين:

المرحلة الأولى: التعرف بوضوح على المشاكل العامة والخاصة السائدة في المجتمع، ومحاولة فهمها فهما عميقا كاملا والاطلاع بها على أسبابها ونتائجها بكل دقة.

... وكلما اتسع الوعي الفكري للانسان على واقعه بما فيه من مشاكل وآلام، كلما ساعد ذلك على تربية الجانب القانوني فيه.

المرحلة الثانية: محاولة التعمق، في معرفة الحلول الممكنة لهذه المشاكل المعروضة، والاطلاع على أساليب عامة وفعالة في إزالة المصاعب وتذليل العقبات، ومن ثم إلى إيجاد الرفاه والعدالة في المجتمع.

فإذا استطاع المفكر القانوني، أن يمر بكلا المرحلتين، بشكل دقيق وشامل، استطاع- لا محالة- أن يصل إلى وضع القانون العادل الذي يكفل السعادة والرفاه الدائم.

وقد كان ولا زال الفكر القانوني البشري، في طريق التربية والتكامل باستمرار، من كلتا الجهتين، نتيجة لما تعطيه التجارب الاجتماعية من دقة و ثراء.

وبذلك يثرى الفهم الفقهي القانوني ... فتعطى التعاريف والتفاسير بشكل أدق وأشمل شيئاً فشيئاً، سواء في ذلك من ناحية القانون المدني أو العسكري أو الدولي، أو قوانين العقوبات أو الأحوال الشخصية ... أو غيرها.

وقد وصل القانون في العصر الحاضر إلى مراق عليا ... حتى أصبح من أدق العلوم الانسانية. و إذا كنا قد نجد فيه بعض النواقص والاختلافات بين المفكرين في جملة من حقوله... فإن التكامل التدريجي للقانون، من خلال التجارب الطويلة، كفيل بأن يزيل هذه النواقص ويزيد في إدراك الفكر القانوني لذينك المرحلتين الأساسيتين، مما يفتح أمام القانون فرصة الوصول التدريجي إلى إدراك العدل الحقيقي، والتذليل الكامل للمشاكل البشرية.

وحيث لا يكون المقصود، تعيين فترة معينة لهذا التكامل ... فإن من

الممكن أن يصل القانون إلى تلك النتيجة الكبرى، في فترة مقبلة من الدهر، مهما طالت.

وإذا وصل القانون إلى درجة الفهم الكامل للعدل ... وأمكن تطبيقه في المجتمع البشري، كان هذا هو المستقبل السعيد (الموعود) الذي يعم فيه الرفاه والسعادة ربوع المجتمع البشري كله.

وبهذا يتم البرهان على صحة الأطروحة الثانية ...

المناقشة:

غير أنه يمكن المناقشة في هذه النتيجة بالرغم من أهميتها، بعدة مناقشات أساسية:

فإننا إذا تجاوزنا المناقشة الرئيسية التي تم البرهان عليها في بحوث العقائد الاسلامية، وهي عجز الفكر البشري القانوني عن إدراك مصالحه الحقيقية وإدراك العدل ... وبالتالي انه يتعذر عليه تغطية المرحلتين المشار إليهما بالدقة المطلوبة والمتوقعة لا حراز العدل الكامل.

بل ينحصر تغطية ذلك عن طريق الحكمة الالهية والوحي من وراء الطبيعة. وأما الفهم البشري المنفصل عن الوحي- كما هو مفروض هذه الأطروحة-، فيتعذر عليه ذلك بأي حال. وسيأتي في القسم الثالث من هذا الكتاب[١] ما يلقي ضوءاً كبيراً على ذلك.

فإذا تجاوزنا ذلك، بقيت عدة مناقشات نذكر منها ما يلي:

المناقشة الأولى: إنّه من الصعب أن نتصور أن في مستطاع الفكر

---

(١) أي كتاب اليوم الموعود الجزء الرابع من موسوعة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

القانوني البشري أن يثرى ويتكامل باستمرار، حتى يصل إلى إدراك العدل المطلق.

وذلك لأن المفكر القانوني، فرداً كان أو جماعة، فإنه يحيا في المجتمع كأي إنسان آخر، له مصالحه وارتباطاته وعلاقاته وموارده الاقتصادية، وغير ذلك. وهو يود في كل ذلك- طبقاً لحب الخير لنفسه- أن ينجح في كل الحقول وأن يتوفق فيها أحسن توفيق، ويتقدم على غيره من الناس، مهما أمكن.

وإذا كان المفكر القانوني، ذو اتجاه عقائدي أو سياسي معين، كان- لا محالة- متحمساً لذلك الاتجاه، يود فوزه وسيطرته على الآخرين... ويرى اندحاره وخيبته كابوساً مزعجاً.

وعلى كل حال، يكون الفرد القانوني، التكوين النفسي والاتجاه الاجتماعي المعين الذي يستحيل عليه أن يعزله عن فكره القانوني... وعن إدراكه للمصالح والمفاسد العامة. ومهما حاول الفرد اتخاذ المسلك الموضوعي والتجرد عن الأنانية والتعصب... وتصور مصالح الآخرين بمعزل عن مصالح نفسه... فإنه فاشل وخاطىء... فإن اللاشعور والضغوط والملابسات العامة والخاصة والتاريخ الذي عاشه، يفرض نفسه عليه من حيث يدري ولا يدري.

ومن المتعذر بل المستحيل أن نجد فرداً أو جماعة، في الفكر القانوني البشري، ذا تجرد كامل وحقيقي ... ولن يوجد مثل هذا الفرد على مر التاريخ. فإن لكل زمن ملابساته ولكل تاريخ تأثيره على الفرد و الجماعة... على حين لا يمكن للعدل الحقيقي إلاَّ أن يوجد من زاوية الادراك الكامل المجرد لمصالح البشر ومفاسدهم وآلامهم وآمالهم...

وهذا ما لا يحصل لأي فرد على مر التاريخ.

ومعه فكيف نتوقع للقانون أن يثرى ويتكامل تدريجاً، على مر التاريخ حتى يصل إلى إدراك العدل المطلق ... إن ذلك لا يحصل إلاَّ إذا حصل الفرد المتجرد المطلق ... وهو مستحيل الحصول من الناحية المادية.

المناقشة الثانية: إن النظرية القانونية، مهما تصاعدت وتكاملت، ليست وحدها الكفيلة بسيادة السعادة والعدل ما بين الناس ... وإنما، لا بد أن تأخذ طريقها إلى التطبيق في عالم الحياة، لتستطيع أن تؤتي ثمارها ناضجة شهية.

وبالطبع ... فإن القانون العادل الشامل، يحتاج إلى أن يشعر كل الأفراد بالمسؤولية تجاه تطبيقه، ولا يكفي أن يأخذ الجهاز الحاكم بزمام المبادرة إلى ذلك، مع كون الأفراد نافرين عنه منكمشين منه ... فإنه في مثل ذلك لن يكتب له النجاح، مهما كانت النظرية صائبة وصحيحة.

ولعمري... إنه من المتعذر جدا، أن يجد القانون البشري تجاوباً عاماً من الشعب على هذا المستوى الواسع ... فلئن تنزلنا- جدلاً- عن المناقشة الأولى، وفرضنا واضع القانون البشري مجرداً عن الهوى بدرجة كاملة، فإننا لا يمكن أن نفرض الأفراد كلهم مجردين وموضوعيين أيضا!! وإنما لا بد أن ننظرهم من زاوية الواقع، وهو وجود الأنانية وحب المصلحة الشخصية في كل فرد منهم. فلا يطيعون القانون إلاَّ من هذه الزاوية وبالمقدار الذي تقتضيه. وأما حين لا توجد المراقبة القانونية، كان الفرد مخلى بينه وبين مصالحه، لا يعترف بقانون ولا نظام.

ولا يستطيع أي قانون بشري أن يتابع الفرد في خلواته وزواياه، ليضمن

التطبيق الكامل لفقراته وبنوده في كل وقت. ويستحيل على الدولة بكل هيمنتها وهيبتها ومؤسساتها، أن تضمن ذلك.

ولئن ضمنته حينا، فلن تستطيع ذلك دائما ... ولئن استطاعته دائما، في فرد أو جماعة معينة، فلن تستطيعه في كل الشعب. كما لن تستطيع تطبيق القانون من قناعة عامة به وعن تجاوب قلبي معه. وإنما سوف يطبق القانون بمقدار ما تقتضيه القوة من ناحية، والمصالح الشخصية للأفراد من ناحية أخرى ... يدفعون به عن أنفسهم العقاب، أو ينالون به شيئاً من الفوائد.

وإذا كان الناس هكذا... وهم دوماً لهم نفس الموقف تجاه القانون البشري... إذن فلا يمكن أن نتوقع لهذا القانون في يوم من الأيام، أن يضمن لنفسه التطبيق الكامل المطلوب.

المناقشة الثالثة: إن التكامل في الفكر القانوني، كما شهدناه في عالم الأمس واليوم أصبح ذا شعب وانشقاقات، فما هو عدل عند هؤلاء هو ظلم عند آخرين... وما هو مصلحة عند قوم هو مفسدة لدى آخرين... وما هو تجرد وموضوعية عند بعضهم، هو عين الأنانية والتعصب عند البعض الآخرين... وهكذا.

يكفينا انشقاق القانون المدني، إلى روماني وجرماني، وهما يختلفان في المفاهيم الأولية لتفسيرها وتعريفها، فضلاً عن التفاصيل. وكذلك انشقاق الاتجاه الاقتصادي إلى رأسمالية واشتراكية، وهما يختلفان في وجهة نظرهما إلى الانتاج والتوزيع اختلافاً جوهرياً. وكذلك اختلاف الدول- وإن اتفقت في المبادئ- في قوانين الأحوال الشخصية وقوانين العقوبات وغيرها.

فأي هذه الانشقاقات يرجى له الكمال؟! ان النظر العقلي المجرد لا يرى أحد الشقين أو أحد الخصمين أو التفسيرين أولى من الآخر. وأما الفرد المؤمن بأحدهما فيرى قانونه هو الكامل ويتعصب له. ويبقى التكتل والانشقاق بين البشر موجوداً ... ومع تفشيه يستحيل الوصول إلى العدل العالمي المطلوب.

ومن المتعذر حقا، أن نزعم أن الفكر القانوني بتكامله ومروره بالتجارب المتكثرة، سوف يتوحّد في العالم، ويرتفع الخلاف بين القانونيين... إن هذا الافتراض مخالف لطبيعة الأشياء وطبيعة الإنسان.

ولئن وجد ذلك في جيل معين- جدلاً- بقيت الآراء الأخرى السابقة لها احترامها، بطبيعة الحال، فلا يكون الفكر القانوني موحداً حقيقة... كما أن وحدة الفكر لن تدوم طويلاً، ويوجد حتماً، الكثير من المناقشين والطاعنين في صلاحية هذا القانون الواحد، لتكفل العدل ورفع الظلم.

وإذا لم توجد الوحدة في الفكر القانوني، وإذا كان من المتعذر وجودها، كان من المتعذر وجود المجتمع العالمي العادل تحت ظل القانون البشري، بأي حال من الأحوال.

إذن، فالأطروحة الثانية، القائمة على الأساس المادي المنفصل عن عطاء السماء، لا يمكنها القيام بالمسؤولية الكبرى المطلوبة»[١].

---

(١) اليوم الموعود ص ١٣ ـ ٢٣.

خاتمة الفصل:

بعد قراءة هذه الإشكالات العامة لعله صار واضحاً لكم أنَّ أكثر شبهات الإلحاد ما هي إلاَّ شبهات مجترة من الزمن الماضي ولكن بصياغات جديدة، وكلها مدروسة ومردودة من قبل علمائنا الأعلام قدس الله أسرارهم.

إلا أن الذي يخدمهم في دعاياتهم الإلحادية عدة أمور أذكر بعضها:

أولاً: الدعم الإعلامي لهم في وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، حيث أن المال يصنع كل شيء إلاَّ ما شاء الله.

ثانياً: جهل أكثر الناس بردود علمائنا على شبهاتهم مما يجعلهم يظنون أنها حديثة وجديدة.

ثالثاً: الإنبهار عند الناس بأسماء هؤلاء الملاحدة ووظائفهم العلمية التي يستغلونها في نشر الدعوة الإلحادية. إلاَّ أن الذي يهون الخطب وجود علماء بنفس المستوى العلمي أو أعلى منهم يدافعون عن الدين والمتدينين.

وهذا منبه جليٌّ على أنَّ الدين حق صريح، ولو كانوا هم الحق لكانوا في كل عام يأتون بنقض علمي واضح على الدين من دون أن يُرد من قبل المتدينين ولما كانت شبهاتهم مجترةً من الماضي.

الفصل السابع

شبهات خاصة على الدين الإسلامي

شبهات خاصة على الدين الإسلامي

الشبهة (١) هل في القرآن الكريم اخطاء نحوية؟

هذا ما يحاول أثباته بعض الملحدين عبر الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية التي يزعمون أنها تخالف قواعد النحو واللغة ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ**﴾[1] والنحو يقول: إنّ ﴿إنْ﴾ من أدوات النصب فيكون المعنى الموافق للقواعد هو (إن هذين لساحران) واللام في ﴿لساحران﴾ فارقة لا عمل لها ولا تتعلق بها الشبهة.

والجواب على هذه الشبهة يكون بعدة نقاط:

النقطة الأولى: إن النحو علم أسس لأجل الحفاظ على قراءة القرآن بصورة صحيحة وعليه فإن أي قاعدة نحوية مخالفة للقرآن فهي بالأساس ليست بصحيحة أو أنها على غير لغة قريش التي نزل بها القرآن.

النقطة الثانية: أن علم النحو علم استقرائي مستنبط من كلام العرب، بمعنى

---

(١) طه ٦٣.

أنه تكوَّن من خلال استقراء كلام العرب الأوائل الذين لم تفسد ألسنتهم مخالطة العجم، ثم جمعوا أحكامه من كلامهم الذي كان العرب ينطقون به على السليقة دون تكلفة ولما سمعوا ان العرب ترفع الفاعل وتنصب المفعول وتجر المضاف اسسوا قواعد النحو.

فالعالم بالنحو لو تجرد من أي ارتباط ديني فإنه سيقول بأن القران مصدر من مصادر كلام العرب الأوائل وهو من مضان استقراء القواعد النحوية ولو أراد أن يستدل على إعراب جملة فإنه قد يحتاج إلى القرآن باعتباره شاهد على صحة الإعراب، كما قال النحاة:

«فلما جاء الإسلام واختلطت العرب بالأعجام عرض لألسنها اللحن والفساد فاستدعى الحال إلى استنباط مقاييس من كلامهم يرجع إليها في ضبط ألفاظ اللغة وأول ما وضع في ذلك علم النحو، وواضعه أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة بأمر الإمام علي عليه السلام»[١].

النقطة الثالثة: أن الجمل القرآنية المخالفة للقواعد العربية إنما خالفتها لعدة أسباب منها بلاغية كالمخالفة من أجل الاختصاص والتنبيه، ومنها نحوية وقد قال السيّد الصدر قدس سره:

«﴿إن هذان﴾ سقطت عن العمل بالسكون فلو أرجعناها إلى أصلها أعملناها «إن هذين لساحران» كما عليه بعض القراءات»[٢].

---

(١) القواعد الأساسية للغة العربية ص ٩.

(٢) ما وراء الفقه ج ١ ق ٢ ص ١١٥.

وكذا وجه بقية الآيات من هذا القبيل.

إلا أن السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لم يُعرِ لهذا التوجيه أية أهمية باعتبار أن القرآن الكريم حاكم وليس محكوم عليه بحيث نبرر لمثل هذه الآيات نحوياً وإذا تأملت النقطتين الأولين تعرف أحقية ما يقول.

وإذا أدركت ما تقدم تعلم أن هؤلاء الملحدون إنما يشككون ويطعنون بكتاب الله ورسوله لا من منطلق علمي بل يقودهم إلى ذلك جهلهم وحقدهم على الإسلام وإلا فمثل هذا الاشكال واضح بين على كل من له نصيب من العربية فهذا ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبًا﴾[1].

هل القرآن حجة أم قول النحاة؟

قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«انه من المتسالم عليه ان كلام القرآن الكريم حجة اكثر من أي شيء مما ورد من النصوص العربية، والنحاة لابد [أنهم] يذعنون بان القرآن الكريم أقوى وأعلى من آرائهم وقواعدهم، بل أقوى وأعلى من كلام العرب أنفسهم. فلو خالف القواعد القطعية كان هو المتقدم والمفصح وكان غيره هو المخطئ، فضلا عما إذا كان كلامه قابلاً للتوجيه.

وهذا قد ينتج ان لنا ان نخالف القواعد العربية ونتّبع قواعد القرآن

(١) الكهف ٥.

الكريم، لو صح التعبير. في حدود ما دلنا عليه من أسلوب في الكلام العربي»[١].

توضيح ذلك: هذا التسالم على حجية القرآن الذي ذكره السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لا يختص بالمسلمين فحسب، بل تسالمت كل علماء اللغة العربية على كون القرآن حجة لغوية نعم قد اختلفوا هل هو حجة دينية أم لا؟

وعليه فكل قاعدة نحوية تخالف القرآن فأنها ستكون خاطئة؛ لأن بعض القواعد العربية جمعت ودونت بعد أن اختلطت الألسن وفسد الكلام، أما القرآن الكريم فهو قد صدر قبل ذلك، فالمخالفات النحوية للقران تكشف بطلانها لا بطلان القرآن الكريم.

والاعتراض على القرآن بأنه فيه أخطاء نحوية كاشف عن جهل هؤلاء في علم النحو؛ لأن النحاة يستشهدون بأشعار العرب غير المولدين[٢] على صحة اعرابهم من خطأه فإن خالف الشعر فهو خطأ وإن وافقه فهو صحيح والقرآن الكريم كما قال الفراء:

«الكتاب أعرب وأقوى حجة من الشعر»[٣].

---

(١) ما وراء الفقه ج ١ ق ٢ ص ١١٤.

(٢) قَسَمَ اللغويون الشعراء إلى قسمين غير موالدين وهم الذين لم تختلط ألسنتهم بألسنة العجم وقد جعلوا أشعارهم حجة على النحاة، وآخرين مولدين وهم الذين خالطت ألسنتهم العجم فلا تكون أشعارهم حجة ومن الشعراء المولدين المتنبي وأبو فراس الحمداني ومن هم دون عصرهم أجمع.

(٣) فقه اللغة ص ١٨.

فالقرآن يعرض عليه كلام العرب فما أنكره القرآن كان شاذاً وما وافقه كان صحيحًا عند العرب.

الشبهة (٢) : هل الاكتشافات الحديثة تنقض القرآن؟

في بعض المواقع العلمية التي تعتني بالاكتشافات الحديثة والبحوث العلمية الأخرى، أرى الملاحدة والمؤمنين يتصارعون على القرآن الكريم، فالملحد يبحث في القران عن آية يحاول من خلالها اثبات ان القران مخطئ والعلم الحديث اكتشف خطأ القرآن، والمؤمن يبحث في الاكتشافات الحديثة ويربطها بآيات القرآن الكريم ليقول إن هذا الاكتشاف الذي اكتشف مؤخراً قد تحدث عنه القرآن منذ زمن بعيد! وقد يكون كل من المسلم والملحد مخطئان!!

وفي مقام الرد على الاثنين كذلك سيكون القرآن الكريم محورنا وقد نبحث مثلهم في القرآن ولكن لا لأثبت او أنفي ما يقول المسلم والملحد بل للرد على الاثنين ووجدت خير آية تفي بالغرض المطلوب هي قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ** ﴾[1].

نعم إن المسلم الذي يقفُ ما ليس له به علم فالزيغ في قلبه واما الملحد فالزيغ فيه تحصيل للحاصل؛ لأنه لم يبحث في القرآن بحث المستفيد بل بحث

---

(١) آل عمران ٧.

الناقد، ونحن لا يمكننا ان نفسر أي آية متشابهة على نظرية علمية؛ لأن النظريات العلمية تتغير بتغير السنين وتطور الأبحاث ونحن نعتقد أن الحقائق القرآنية ثابتة لا تتغير، فالعلم الحديث قائم على نظريات، ونظرية تُسقط نظرية أخرى وكلام الخالق فيه حقائق لا نظريات!!

نعم يمكننا أن نفسر الظواهر العلمية بآيات قرآنية بشرط ان تكون الآية واضحة الدلالة أو ان تكون مفسرة من عدل القرآن ووهم الراسخون بالعلم من محمد وال محمد عليهم السلام وإلا فبغير هذين الطريقين فمن يحاول تأويل الآيات على النظريات العلمية بدون علم فهو يسيء إلى الإسلام وهو يظن أنه ينفع!!

وقد وصف السيّد محمّد الصدر قدس سره كل من يفسر القرآن تفسيرًا ماديًا بالأعمى حيث تلا قوله تعالى ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1] وقال قدس سره:

«ما هو الذي يعمى، هو هذا الذي يعمى[2]، هو هذا الذي يضخ الدم يعمى؟! إذن أنت أعمى، وكل من يفهم هذا الكلام هو أعمى، معنى ذلك القرآن يصطلح على القلب، أو بالقلب على وجود آخر غير هذا الوجود الذي يضخ الدم»[3].

والسؤال هنا لماذا هجم السيّد محمّد الصدر قدس سره على من يفسر القلب بمعناه

(١) الحج ٤٦.

(٢) يشير إلى قلب الإنسان المادي.

(٣) منبر الصدر ص ١٨٠.

المادي ووصف كل من يفهم ذلك من القرآن فهو أعمى؟!

والجواب: لأن هذا النمط من التفسير غير اسلامي بل هو من تأثيرات الفكر الغربي والفلسفة اليونانية الباطلة على المسلمين.

فقد أثرت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلومها إلى العربية فهم معاني الآيات والمفاهيم القرآنية تأثيراً بعيد المدى، فقد دخلت في التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية التي لا تمت إليه بصلة، وحملت عليه حملاً لا يمكن تقبلها لو تجردنا عن الإتجاه الفلسفي اليوناني.

واشتغل بعض المفسرين في التوفيق بين النظريات العلمية الحديثة والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وكانت محاولتهم فاشلة بعد تبدل النظريات العلمية والمكتشفات التجريبية.

ولما توسعت الدول الأوربية من ناحية البحث العلمي والتطور التقني وكثرت النظريات العلمية عندهم وصدروها إلى الشرق ممزوجة بشيء من سوء الظن بالنسبة للمسائل الدينية والأصول المذهبية؛ ذلك لأن اوربا اتخذت التجربة والحس قاعدة أساسية لعلومها.

وأهملت اهمالاً كلياً كل ما يتعلق بما وراء الطبيعة وربما عملت على إنكارها وإبادتها وإبعادها عن المجالات العلمية، وذلك ما دعا البعض إلى الابتعاد عن الدين، والإلحاد فيه، كما دعا البعض الآخر إلى تأويل الآيات بما يوافق الاتجاه الفكري المعاصر، وآل بهم الأمر أن يأوّلوا الآيات المصرحة بمعاجز الأنبياء، والروح، والجن، والبرزخ، بتأويل يوافق الأُسس المادية والطبيعية كما هو الحال

في تفسيري السيّد أحمد خان الهندي، والطنطاوي[١].

وقد عدّ السيّد محمد الصدر قدّس سرّه هذا الإتجاه التفسيري من التأثر بالفكر المادي المعاصر إذ قال:

«تظهر النزعة المادية الشعورية بوضوح في تلك الفلسفات المادية الإلحادية التي تحاول ـ صراحةً ـ الإستدلال على أن ليس وراء هذا الكون سوى المادة الصمّاء، ولا يحتوي على أيّ قوانين سوى قوانين الطبيعة العمياء... والباحثون الإسلاميون المعاصرون ـ بصفتهم أبناء هذا العصر، وقد نهلوا عنه أفكارهم، وتلقوا على يده علومهم ـ لم يفتهُم وجود هذه الروح المادية في أحشاء الفكر الحديث»[٢].

لذا فإن منهج السيّد محمّد الصدر قدّس سرّه في التفسير ليس منهجاً مادياً، حيث قال قدّس سرّه عن القلب مثلاً:

«والقلب لا يُراد به ذلك العضو المادّي أو الجسدي المسمّى بالقلب؛ لأنّ هذا القلب المادّي ـ وبتعبير العلم القديم «الصنوبري»؛ لأنَّه على شكل صنوبرة ـ وظيفته ضخّ الدم، وليس له ربطٌ بهذه الأُمور»[٣].

ولا يصح تفسير القرآن مادياً لأن أوائل آيات القرآن تقول: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ**

---

(١) مفاهيم القرآن ج ٣ ص ٢٩ – ٣٠.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٤٦.

(٣) منة المنان في الدفاع عن القرآن ج ٤ ص ١٠٣.

بِالْغَيْبِ... ﴾[١].

وصاحب التفسير المادي لا يؤمن بالغيب لذلك فسر القرآن تفسيراً مادياً، وبالتالي ستكثر اشكالات الملحدين ويكون المفسر ممن فسر القرآن برأيه وهو مذموم وقد ورد في الأثر عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله:

«من فسر القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ»[٢].

ولا داعي لزج القرآن بالقضايا والنظريات الحديثة، لأنه ليس بكتاب فيزياء أو كيمياء بل هو كتاب هداية كما قال قدس سره:

«القرآن في الحقيقة ليس كتاب قصة ولا تاريخ، وإنما له غرضٌ معين، وهو هداية العالم، فما يرتبط بالهداية يقوله، وما لا يرتبط بالهداية فلا حاجة إلى التعرض له»[٣].

ومع ذلك فإنّا لا ندعي عدم وجود اكتشافات علمية في القرآن مطلقاً بل توجد عدة اكتشافات من هذا القبيل كأطوار خلق الإنسان[٤] وكون الأرض متحركة[٥] وغيرها ولكن القرآن لم يتعرض لها لكي يبرز عضلاته العلمية بل تعرض لها لأجل وجود مصلحة الهداية فيها، وقد ذكرت بعض هذه الاكتشافات

---

(١) البقرة ٣.

(٢) انظر: مناهج التفسير ص ٤٧.

(٣) منة المنان في الدفاع عن القرآن ج ٥ ص ٣٢٤.

(٤) المؤمنون ١٢ — ١٤.

(٥) النمل ٨٨.

في بعض كتاب العقائد الحديثة.

وقد وصف السيّد محمد الصدرقدس سره أن تأثر بعض المفكرين الإسلاميين بالأفكار المادية حتى على صعيد الأمور الغيبية الروحية من استسلامهم أمام الفكري الغربي المادي إذ قالقدس سره:

«إلا أن أغلبهم ممن قويت عقيدته ورسخ إيمانه وتشرّب روح الإسلام وأفكاره الصافية من منبعه الصحيح[1]، لم تؤثّر فيه هذه الماديّة ولم تسيطر على ذهنه مثل هذه الأفكار، وإنما اعتبر هذه الأفكار إحدى نقاط الضعف التي يتّصف بها الفكر الحديث، وإحدى الهنات التي حدثت فيه من جرّاء عجزه عن الصعود إلى الأُفق الروحي الرحب، إلاَّ أن آخرين من الباحثين الإسلاميّين قد استسلموا إلى هذه الماديّة، واستطابوا العيش في ظلالها، وتأثروا بها تأثراً بالغاً، فاتصفت بحوثهم الإسلاميّة وأفكارهم عن الإسلام بمسحةٍ صارخةٍ من هذه الروح الماديّة اللاشعورية»[2].

ولله در أبان بن تغلبرحمه الله حيث جاءه شاب فقال له: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد مع علي بن أبي طالبعليه السلام من أصحاب النبيصلى الله عليه وآله ؟ فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي بمن تبعه من أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله، فقال الرجل: هو ذلك، فقال أبان:

---

(١) نلاحظ أن أكثر من مال إلى هذا الاتجاه المادي من المفسرين هم من غير مدرسة أهل البيتعليهم السلام، ولعل هذا ما أراد الإشارة إليهقدس سره.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٤٦.

«والله ما عرفنا فضلهم إلاَّ بإتباعهم إياه»(١).

هذا الحال مع القرآن الناطق، وكذا الحال مع القرآن الصامت فنحن نعرف فضل العلم بأتباعه للقرآن ولا نعرف فضل القرآن بأتباعه للنظريات العلمية!!؛ ولهذا أعتبر السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن عدم إدراك الأفكار المادية للقرآن من نقاط ضعفها هي وليس من نقاط ضعف القرآن الكريم.

وأخيراً أنوه على أن هذا المنهج التفسيري المادي قد أخذه المسلمون المتأثرون بالحضارة المادية من المستشرقين الذي تقدم الكلام عنه، وقلنا هناك أنهم درسوا الإسلام ليبثوا فيه الشبهات ويجعلوه في نظر مثقفي العالم دين خرافي كباقي الأديان والقرآن لا يختلف عن الانجيل والتوراة، قال السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ :

«ويستدل أُولئك الباحثون الإسلاميون من ذوي اللاشعور المادّي الحديث، تبعاً للمستشرقين من أعداء الإسلام، يستدلوا بالقرآن على نفي أن يكون رسول الإسلامصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد أتى بأيّة معجزة سوى القرآن الكريم»(٢).

ذلك لأن الفكر المادّي لا يؤمن بالمعجزات أصلاً.

الشبهة (٣) العنف في أحكام الإسلام

يعتقد كثير من الملحدين بأن الدين سبب من أسباب العنف والحقد بين

---

(١) معجم رجال الحديث ج ١ ص ١٣٣.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ١٦٣.

الناس، وآخرون يعتقدون بأن الحدود الموجودة في الإسلام لا تمت بصلة إلى الإنسانية والفطرة السلمية فهي وحشية وكاسرة، ونحن هنا سنذكر الجواب عن الحد والقصاص في الإسلام وفيما يلي نناقش بأن الدين لا يدعو للعنف.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(١).

أنَّ الأعمال التي توجب ضرراً شخصياً كشرب الخمر والزنا وغيرها من المعاصي السرية لا يحدد لها الشارع الإسلامي عقوبة؛ لأنها بين العبد وربه وعقابه عليها أخروي.

بل إذا فضح أحد مذنباً في سره أستحق الفاضح الإثم، بل والعقوبة المادية أحياناً. ويترقى الشرع في ذلك فالشخص الزاني ـ والعياذ بالله ـ لو أقر بزناه مرة واحدة لا يُعاقب، بل لا بد له من الاقرار اربعة مرات كيما يصح الأخذ بقوله ويقال إن اقرار العقلاء على أنفسهم حجة، فيثبت عليه حد الزنا، إلاَّ أنه مع هذا كله لا يجوز له شرعاً ذكر المرأة التي زنا بها سراً وإن ذكرها عوقب على فضحها وذكرها؛ لأنها لم تقر على نفسها بذنبها الذي اقترفته، قال السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّه في المنهج:

«لا يعتبر في الإقرار بالزنا تعيين المرأة المزني بها. بل يكفي الإجمال. بل لا يجوز شرعاً ذكرها وإلا كانت غيبة محرمة وقذفاً يستحق عليه

---

(١) البقرة ١٧٩.

الحد. وكذا الرجل»[١].

أي وكذا لو أقرت المرأة بالزنا فأنه لا يجوز لها ذكر الرجل الزاني بل إن شهد شاهد واحد على زنا شخص فأنه إن لم يُثبّت قوله ـ بأربعة شهود وتأخذ شهادة كل واحد منهم على حدة، ولم تختلف شهاداتهم ـ فلن تُقبل شهادتها؛ لأن الدين الإسلامي ليس هدفه تعذيب الناس واذيتهم بل هدفه المحافظة على الجو الديني العام من دون فضح وتشهير.

ومن هنا فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]»[٣].

فإن العقوبات في الإسلام لا تكون إلاَّ في الأمور التي توجب المفاسد الاجتماعية، ولعله يخفى على الكثير أن الشرع لم يمنع حرية أي شخص حتى بالأمور المحرمة شريطة ان تكون سرية لا علنية فإنها إن كانت كذلك فأنه يستحق عليها عقوبة الله وغضبه يوم القيامة بينه وبين ربه، وإن كانت علنية استحق العقاب الدنيوي راعية للنظام العام ولكي لا يتجرأ الناس على المعاصي التي تفسد النظام.

بل الشارع أعطى أهل المعاصي السرية الحصانة؛ بأن حرم فضحهم وإعلانهم أمام الناس وأعدَّ لفاضحهم العذاب الأليم كما هو واضح في رواية الإمام

---

(١) منهج الصالحين ج ٥ ص ٩٠ مسألة ٣١٨.

(٢) النور ١٩.

(٣) الكافي الشريف ج ٢ ص ٣٥٧.

الصادق عليه السلام التي تقدمت.

فما يريده الإسلام هو عدم خرق القوانين الاجتماعية ومن هذه الناحية لا يفرق بين العبد المذنب وبين من يصدح في فضيحة الناس بذنوبهم ومعاصيهم؛ إذ كلاهما يخرقان القانون الإسلامي الذي هدفه هو المحافظة على الجو الديني.

بل إن في القصاص المحافظة على أمن الناس وسلامة مالهم وعرضهم من اللعب والعبث ففي القصاص حياة كما قال تعالى ومن حكمة هذه الحياة كما قال السيّد محمّد الصدر قدس سره:

«لأنه قاطع للجريمة مع توقعه كسائر أنحاء العقوبات. وقال في بعض الأدعية: ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته. وإنما تبدأ الذنوب والجرائم من حيث حصول الأمان النفسي من العقوبة، ومن القصاص أيضاً. والقصاص فقهياً لا يكون إلاَّ مع الاعتداء العمدي، وأما مع الخطأ وشبه العمد، فتتعين الدية»(١).

ومن حكمة عدم وجوب العقوبة مع الخطأ وشبه العمد ـ كمن دهس أحداً في سيارته من دون قصد ـ فلأنه لم يقصد الجريمة ولم يهتك النظام العام، ومن حكمة تعيين الدينة فلكي لا يظلم المقابل فيضيع حقه، والدية عوضاً له مما حل به من الأذى.

لذا فلا ينبغي لشبابنا المحترم أن يصدق دعاوى اعداء الإسلام بأن الإسلام يدعو إلى العنف وهو إرهابي، ومبني على الحدود والتعزيرات، فإن أي نظام سواء

---

(١) ما وراء الفقه ج ٩ ص ١٣٣ – ١٣٤.

كان إسلامياً أو علمانياً يُعاقب المخترق لقوانينه، ثمّ إنّ العقوبات التي شرعها الإسلام تصب للأفراد تصب في صالح المجتمع؛ لأن افرد إذا أحس بالخطر من الجرائم التي أوعد الإسلام عليها العقاب الدنيوي فإنّه سوف يرتدع عنها أكيداً ما لم يؤمن عدم وصولها إليه، وفي هذا الصدد يقول شهيدا الصدر قدس سره:

«العقوبات التي يفرضها الإسلام على العاصين لأوامره والخارجين على حقوق الآخرين. فإن هذا العقاب وإن كان مؤلماً لهم، إلاَّ أنه في صالح الهيئة الاجتماعية، من حيث كونه رادعاً للآخرين عن السقوط في هذا المهوى الوضيع، بل وفي مصالحهم أيضاً من حيث كونه تطهيراً لهم مما ارتكبوا، ورادعاً لهم عن السقوط مرة أخرى في حضيض الجريمة. ومن هنا كان القيام بمعاقبة هؤلاء شيئاً حسناً يرضاه الإسلام ويثبت عليه»[1].

وقد كتب السيّد محمّد الصدر قدس سره تقريراً للسيد الخميني قدس سره أمراً يكشف حيل دعاة نبذ الإسلام بسبب أحكام القصاص التي فيه إذ يقول:

«قالوا: إنَّ الأحكام الجزائيّة الإسلامية تّتسم بالعنف، حتى قال بعضهم بأنَّ هذا العنف ناشئٌ من طبيعة الأعراب، مع أنَّهم كانوا يقتلون عشرة أشخاص إزاء تهريب عشرة دراهم من الهيروئين (الحشيشة). ولكن إذا ضرب شارب الخمر ثمانين سوطاً، كان ذلك عنفاً عندهم!»[2].

(١) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ٤٨.

(٢) كتاب البيع ج ٨ ص ١٦٠.

الشبهة (٤) حد الردة من مثالب أحكام الإسلام

يصور بعض الملاحدة أن حد الردة من المثالب على الدين الإسلامي، إلاَّ أنَّه ليس بشعاً كما يصورره؛ لأنه لا يعني قتل كل من اعتقد بعدم وجود الله ـ تعالى عمّا يصفون ـ بل يعني قتل المتجاهر بمعتقده هذا، فلو انكر أحد وجوده سبحانه بينه وبين نفسه لا يقام عليه الحد ابداً، وقد تسأل لماذا كل هذه الشدة من قبل الإسلام على المرتد؟!

والجواب: إن معظم المنظومة الأخلاقية للمجتمع المسلم مبنية على أساس وجود مثيب ومعاقب، وإنكاره والتجاهر بالإنكار يُولد مفسدة اجتماعية وخللاً في النظام الإسلامي، وإلا فالإسلام لا مشكلة عنده في شخوص الملحدين إن لم يتجاهروا بإلحادهم بما يسبب تعرقل النظام الاجتماعي والمنظومة الأخلاقية. وهذا كما يتحقق بالإلحاد يتحقق كذلك بالانتقال إلى غير دين الإسلام؛ لأن المنظومة الاخلاقية الإسلامية تختلف عن باقي المنظومات، وبالانتقال إلى غير دين سيفسد ذلك الانتقال في نظام المسلمين.

ولعلك لا تتصور أن الإسلام قد حافظ حتى على دماء الملحدين والمرتدين من القتل ما داموا لم يهتكوا نظامه قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«ونحن نعرف بضرورة الفقه ان المرتد بحكم المسلم... أي يجب عليه وعلى غيره تطبيق حكم الإسلام عليه، لا تطبيق حكم دينه الجديد. سواء من تلك الأحكام التي في مصلحته أو التي تخالف مصلحته. فلا يكون

مورداً لقاعدة الإسلام من حيث كونه مرتداً»[١].

ومن تلك الأحكام أنه لا يجب له تعريض نفسه للقتل بأن يخبر الحاكم الشرعي المبسوط اليد بأنه مرتد فيقتله، بل يسكت عن ذلك ولا يذكره ويراعي التقية، أما إذا تاب الملحد أو المرتد بعد ذلك فهل تقبل توبته؟ قال قدس سره:

«ولا يقال: أن المرتد لا تقبل توبته. فان الظاهر انها مقبولة أمام الله سبحانه»[٢].

ولكن عليه أن لا يذكر أمر ارتداده؛ لأن فيه خرقاً للنظام وتشجيعاً للارتداد.

وليت شعري فهل يوجد مثل هذا النظام يحكم العالم؟! فإن أي نظامٍ في العالم حالياً لا يراعي الخارجين عن قانونه بهذه الطريقة، فإن كل الأنظمة في العالم تقتل من تعرف أنه يخالفهم الرأي وإن لم يقر لهم بذلك بل بمجرد أن تُشم منه رائحة المخالفة، بل وتسلط عليه الجواسيس والعيون لغرض الإطاحة بمن خالفهم سراً، أما الإسلام فقد شرع حتى للملحدين كيفية المحافظة على أنفسهم في دولة الإسلام، بل ولا يحق للحاكم قتل أحد بتهمة الإلحاد ما لم يقر هو بنفسه ومن دون ضغط وتعذيب.

وإن كان هو كافراً في واقعه ومؤمناً بلسانه فقط فهو في مأمن من القتل ومن هنا ورد في الدعاء:

---

(١) ما وراء الفقه ج ١٠ ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق ج ٨ ق ١ ص ٣١ هامش رقم ١.

«فإن قوماً آمنوا بألسنتهم ليحقنوا به دمائهم فادركوا ما أملوه»[١].

وكل هذا يدل عليه قول السيّد محمد الصدر قدس سره:

«والدين حينما خير المشركين[٢] بين الإسلام والقتل، كان يعلم ذلك. ومعناه أن المشرك إذا أظهر الإسلام كفي في حرمة قتله وصون نفسه وماله وعرضه. وإنما يفرق ذلك، أعني جهة الجبر والاختبار، في آخرته. فإن كان عن قناعة واختيار فاز في الآخرة بالثواب. وإن كان عن جبر وإكراه سقط ثوابه. ومن المعلوم أن الفقهاء في الفقه يحسبون حال نظام الدنيا في أمثال هذه المسائل، بغض النظر عن الآخرة»[٣].

الشبهة (٥) : الإسلام وإقرار نظام العبيد

بالرغم من أن مسألة الرق ليست من مختصات الدين الإسلامي بل إن أقرب دين يعطي للإنسان كرامته هو الإسلام إلاَّ أن بعض الملاحدة يشنعون على ديننا الحنيف أن في فقهه يجوز اتخاذ الإنسان عبداً لنظيره الإنسان.

فمثلاً قد أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سبياً في الحرب، فجعلت للعبري أن يستعبد العبري إذا افتقر، فيبيع الفقير نفسه لغني، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفي له الثمن، ويبقى عبداً له ست سنين ثم يتحرر.

ففي سفر الخروج:

---

(١) مفاتيح الجنان ص ٣١٠، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) ولا يختلف حكم الملحد من هذه الناحية.

(٣) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣١١.

«إذا اشتريت عبداً عبرياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجاناً».

وإذا سرق العبري ماشية وذبحها، أو أي شيء استهلكه، ولم يكن في يده ما يعوض به صاحبه يباع السارق بسرقته، وأباحت التوراة للعبري أي يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها .

أما الاسترقاق سبياً في الحروب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم، وقد نص العهد القديم على ما يلي:

«حين تقرب من مدينة لكي تحل بها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك»[١].

وأما المسيحية فلما جاءت كانت عبودية الإنسان شائعة في كل العالم، نقل الدكتور جوزيف بوست، أحد رجال الجامعة الأمريكية الأولين في بيروت، أن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي، ولا من وجهها الاقتصادي، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية، حتى ولا على المباحثة فيها، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد،

(١) مقارنة الأديان، الإسلام ص ٢٣٣.

ولا حركت العبيد إلى طلب التحرر، ولا بحثت عن مضار العبودية، ولا عن قسوتها، ولم تأمر بإطلاق العبيد أصلاً، وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية بين الولي والعبد بشيء، بل على عكس ذلك أثبتت حقوق السادة وواجبات العبيد.

وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيّد المسيح، فقال في رسالته إلى أهل إفسس.

«أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح، عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حرا».

وأوصى بطرس الرسول بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيّد الأعظم[(١)].

إلا أن هذه النصوص مع قسوتها وكون الإسلام لا يقول بها لا نجد من يشنع ضدها ويتهم ويحط من سمعة من يدين بها! بل الإسلام الدين الوحيد الذي يبحث المغرضون في فقهه وتعاليمه ويفهمونها فهماً ملتوياً ليشنعوا عليه.

والسيّد محمد الصدرقدس سره يُبطل هذه التهمة المثارة حول الدين الإسلامي إذ يقول:

«رغم ما يُقال من أنَّ الإسلام يميل إلى إقرار الرقّ والاعتراف به، فإنَّ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

الإسلام إنَّما اعترف بالاسترقاق في ظروفٍ يكون فيها الرقّ خير حلّ للمشكلة القائمة، ويكون هو الموافق لمصلحة الإسلام والمجتمع الإسلامي، ثُمَّ إنَّ الإسلام بعد ذلك حثّ على العتق وأكّد عليه، بل أوجبه في كثير من الموارد.

فالإسلام لم يعترف بالرقّ إلاَّ ما كان ناشئاً من أحد سببين لا ثالث لهما في الإسلام، وكلّ شخص يحاول أن يتجاوزهما وأن يسترقّ شخصاً بسببٍ آخر، يكون معتدياً عليه، وخارجاً على تعاليم دينه الحنيف.

وهذان السببان هما:

السبب الأول: كون الفرد مولوداً من أبوين رقّين لم ينعتق منهما شيء.

السبب الثاني: ما يستولي عليه الجيش الإسلامي الفاتح من الأسارى، ضمن ما يستولي عليه من غنائم، إذا اختار الإمام عليه السلام «رئيس الدولة الإسلامية» استرقاقه؛ فإنَّ للإمام عليه السلام أن يختار في الأسارى إحدى ثلاث خصال:

فإمّا أن يطلق الأسير ويدعه يذهب إلى بلاده سالماً، وأمّا أن يفديه بأن يشترط على إطلاقه عوضاً، وأمَّا أن يسترقّه.

وفي هذا التشريع غاية الإنصاف والإنسانيّة في مثل هذه الظروف؛ فإنَّ الإمام ينظر بثاقب نظره إلى ما هو الصالح للمسلمين من هذه الخصال. فإن أطلق كان متفضلاً.وإن فدّى كان الفداء من جملة أموال المسلمين التي تصرف في مصالحهم. وإن استّرق الأسرى، ذهبوا إلى دار الإسلام، ورأوا عدالة المجتمع الإسلامي ورفاهه، وعرفوا تعاليم الإسلام

وأحكامه، فلعلّهم يؤمنوا به ويهتدوا بنوره[(١)].

وأمّا أنصار الفكر الحديث ودعاته، فما الذي يعملونه في هذا الموقف؟ ليس عندهم سوى القتل والإبادة الجماعيّة لجموع الأسارى الذين غنمهم الجيش المنتصر، على أساس أنّ هؤلاء من الجانب المعادي لهم ولا بدَّ من قتلهم![(٢)].

وغاية ما توصّل إليه الفكر الحديث في الأيام المتأخرة، هو فكرة «تبديل الأسارى» بأن تعطي إحدى الدولتين ما غنمت من الأسارى وتأخذ لقاءهم عدداً مساوياً من أسراهم من الدولة الأخرى. وهذه الفكرة على ما فيها من رحمةٍ بالإنسان وتحفّظ على النفس البشرية، فإنَّها ليست إلاَّ فداء الإنسان بالإنسان[(٣)].

أما طرق الإسلام إلى العتق فهي كثيرة، نذكر منها على وجه الإختصار:

المكاتبة: وهي أن يعاقد السيّد عبده، على أنَّه إذا جاء بكميّةٍ معيّنةٍ من المال في مدّةٍ معيّنة، فهو حرٌ.

التدبير: وهو أن يقول المولى لعبده: أنت حرٌ بعد وفاتي، فيتحرّر بعد

---

(١) كان أمامنا زين العابدين عليه السلام يشتري العبيد ويعلمهم تعاليم الدين الإسلامي وبعدها يعتقهم ويوفّر لهم سبباً يعيشون فيه، وخرج منهم رجال صالحون كثر.

(٢) ألف عالم الرياضيات والناشط في مجال حقوق الإنسان ومتابعة جرائم فرنسا الاستعمارية جاك موريل كتاباً بعنوان «روزنامة جرائم فرنسا في عالم ما وراء البحار» موثقاً فيه أعمال الإبادة التي أوقعتها فرنسا في مستعمراتها في القرن الماضي فيحسن لمن أراد معرفة مجازرهم مراجعة الكتاب المذكور.

(٣) وهو مشرع في الدين الإسلامي قبل أن يشرعه الأوربيون.

وفاته.

يتحرّر العبد إذا انكل به مولاه، أو إذا أُقعد أو أصيب بالعمى أو الجذام.

يتحرّر العبد إذا اشتراه ابنه أو بنته، أو أحد أبويه أو أحد أجداده أو أحفاده، فإنَّ الشخص لا يملك أولاده وإن نزلوا، ولا آباءه وإن علوا.

تتحرّر الجاريّة إذا أصبحت أمّ ولد، بأن تلد ولداً من مولاها، فإنَّ الولد يكون حراً؛ لأنَّ المولود يتبع أشرف الشجرتين، ثُمَّ هو يرث أُمّه بعد وفاة أبيه فتنعتق من نصيبه من الأرث؛ لأنَّه لا يمكن أن يملك أُمه. وهي في أثناء حياة سيّدها، يحرم بيعها، لأنها متشبّثة بالحرية.

وهناك عدّة من المحرّمات الإسلاميّة التي إذا أرتكبها الفرد، فإنَّه يجب أن يعتق عبداً، كفارةً له عن عصيانه لأوامر الإسلام، كالظهار وقتل الخطأ وإفطار يومٍ من أيّام شهر رمضان.

وهناك وراء ذلك كله النداء العامّ الذي وجّهه الإسلام لإعتاق العبيد وتحريرهم، قال النبيصلى الله عليه وآله: «من أعتق مؤمناً أعتق الله العزيز الجبّار بكلّ عضوٍ عضواً له من النار...ومن هنا يتبين أن الإسلام دين حرية للعبيد وليس دين رق ولا استعباد كما يريد أن يؤكد عليه المغرضون من دعاة الإلحاد»[1].

الشبهة (٦) قسوة حكام المسلمين

بعضهم يصف الدين الإسلامي بالعنف لأنه رأى بعض الموصوفين به من الجبارين والمنحرفين إلاَّ أنه لا يخفى أن من يمثل الإسلام في الدرجة الأولى هو

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥، نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ٣١ ـ ٣٢.

الإمام المعصومعليه السلام، ويأتي بعده علماء الدين المتوفرة فيهم الشرائط، فمن أراد الاهتداء إلى الدين عليه ان يتوجه من بوابة هؤلاء قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[(١)].

وباتفاق جميع المسلمين أن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله هو المدينة المعرفية لله وعليعليه السلام بابها، فمن اراد الاسلام فليأته من بابه ليُفلح وليس من البر أن يأتيه من وراء ظهره.

فـ(أنتوني فلو) الذي تقدم ذكره قد رفض جميع الأديان لعدم موافقتها للعقل إلاّ أنه من المؤسف أنه رفض الإسلام لأنه فيه صدام حسين!! قال الدكتور عمرو شريف:

«فهو يرفض الإسلام لاعتقاده أن تصوره عن الله يشبه تصور اليهودية في أنّه إله منتقم جبار شديد البطش لا يعبأ بمخلوقاته. ويصف فلو موقفه هذا بأنه لا يستطيع أن يؤمن بصدام حسين على مستوى كوني، يبطش بالإنسان ويناصر الإرهاب !!»[(٢)].

لقد فات «فلو» أن صدام عدو الإسلام وقاتل علماء الدين وهو لا يمثل الإسلام أطلاقًا، بل الذي يمثل الإسلام هو الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام وهو رئيس الدولة الإسلامية الحقيقي الوحيد دون غيره وبه يقاس الإسلام لا بمن هو

---

(١) البقرة ١٨٩.

(٢) رحلة عقل ١٨٦.

دونه.

قد انكر «فلو» تجسيد الإله ولم يدرِ أن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصل في انكاره لعقيدة التجسيد وقال:

«لا يتغير الله بتغير المخلوق كما لا يتحدد بتحديد المحدود، أحد لا بتأويل عدد، صمد لا بتبعيض بدد، باطن لا بمداخلة، ظاهر لا بمزايلة، متجلٍ لا باشتمال رؤية...الخ»[(١)].

وإن تصوير الإسلام للإله ليس كتصوير اليهود وصدام له بل إن الله عندنا سبقت رحمته غضبه وكيف يوصف بالبطش فقط وسوره في القرآن كلها تبدأ بـ«**بسم الله الرحمن الرحيم**» ما خلا التوبة وقد أعاضها بسورة النمل!!

إننا لا ننكر كونه تعالى منتقماً ولكن لأجل أن يتحقق مفهوم الاله العادل فلا بد من جنبة انتقامية وقاهرية، ولو لم تكن هناك هذه الصفات لردع المجرمين لكان الإله غير عادل وعابث «وفلو» لا يقول بعبثية الله بل يؤمن بغائية الخلق.

وقد ورد في الدعاء الشريف المروي عن الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف:

«وايقنت أنك أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة واشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة واعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة»[(٢)].

---

(١) تحف العقول ص ٦٠.

(٢) مفاتيح الجنان: دعاء الافتتاح.

فجنبة الرحمانية للمؤمنين الصالحين وجنبة القاهرية والانتقام لأهل الفساد والشر، ورسول ربنا صلى الله عليه وآله هو الذي قال الله سبحانه فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

والإمام علي عليه السلام هو الموصوف بأمير المؤمنين وهو القائد والرئيس الحقيقي الذي يمثل الإسلام لا غيره ممن يرتكب السوء وبالتالي يصد الناس عن دين الله تعالى، ومن هذا المنطلق قال السيّد محمد الصدر قدس سره :

«بل إن رئيس الدولة الإسلامية خاضع إلى قانون المساواة، المساواة أمام العدالة، والمساواة في الحالة الاقتصادية، بل إنه أولى من سائر الشعب بذلك وأجدر، لأنه مَثلٌ أعلى للشعب من ناحية فيجب أن يتعلمون منه الخصال الحميدة العالية، وهو من ناحية أخرى رئيس للدولة، فيجب أن يشعر مثل هذا الشخص بآمال وآلام شعبه، ويعيش حالته الأقتصادية كأقل فرد في الشعب لئلا ينسى حالة الفقراء والمعوزين والمظلومين، ولئلا تبطره النعمة، فيستسلم إلى عالم الأحلام. ولقد كان سيد الأوصياء أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً رائعاً في ذلك حين نراه يقول: «ولو شِئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مُصَفَّى هذا العسل ولُبَاب هذا القمح، ونسائج هذا القَزِّ. ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز أو اليمامة مَن لا طمعَ له في القرص، و لا عهد له بالشِّبع، أو أبيتُ مِبطاناً وحولي بُطونٌ غَرثَى وأكبادٌ حَرَّى، أو أكونُ كما قال القائل:

---

(١) التوبة ١٢٨.

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة   وحولك أكبادٌ تحنُّ إلى القدِّ

أأقنع مِن نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكارهِ الدهر، أو أكون لهم أُسوةٌ في جُشُوبَةِ العيش»[(١)].

السلام عليك يا سيدي ومولاي يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، لقد ضربت بكلماتك السامية مثلاً إسلامياً رائعاً في العدالة والمساواة، وعرّفت البشر كيف يجب أن يعيشوا، وكيف يجب أن يسلكوا حتى يحيوا متحابين متآلفين تسودهم العدالة، ويرفرف فوق رؤوسهم الرفاه والسلام»[(٢)].

وقال قُدِّسَ سِرُّهُ :

«أنه يلقب بأمير المؤمنين وهو لقب خاص به ولا يحق لأي شخص آخر التلقب به وورد النهي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في ذلك والظاهر أن أول من خرج على هذا التعليم الإسلامي المحمدي هو معاوية بن ابي سفيان لعنه الله ودوافعه في ذلك اطماع دنيوية معروفة واستمر الحال عليه في كل سلسلة الخلفاء الذين جاؤوا بعده»[(٣)].

وقد استنكر السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ هذه التسمية لغير أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه هو الوحيد الذي يمثل الرئيس الحقيقي للإسلام أما غيره من

---

(١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده ج ٣، ص ٧٣

(٢) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ٣٣- ٣٤.

(٣) منبر الصدر ص ٣٩٣.

الظالمين فليسوا كذلك فلا ينبغي أن يقاس الإسلام حسب حكامه إلاَّ بأمير المؤمنين عليه السلام.

الشبهة (٧): التدّين سبب للغلاظة

قال السيّد محمّد الصدر قدس سره :

«أن الناس الطيبين يؤمنون بالله، وإن غير الطيبين لا يؤمنون بالله ـ مختصر مفيد ـ أن المؤمنين عندهم إنسانية، وعندهم إنصاف، وعندهم طيبة، وعندهم إخلاص...وبالمقابل فإن الذين لا يؤمنون بالله يجرحون وجهك ويدك ورجلك، مكرة فسقة منحرفون ظلمة، إلى أخره، حينئذٍ معنى ذلك أن الإيمان بالله هو حصة الطيبين، وإنكار الله سبحانه وتعالى، هو حصة الفاسدين، ويكفينا هذا دليلاً على وجوده جل جلاله، وعلى لطفه وقدرته»(١).

إن دوكينز في كتابه «وهم الإله» يحرص على تصوير الديانات بأنها منبع ومصدر للعنف في المجتمعات وفي القضاء على الدين يُقضى على العنف الحاصل في المجتمعات، ذلك لأنه يأخذ نماذجاً من تشدد بعض المنتمين إلى الإسلام كداعش وتنظيم القاعدة وما شابه ذلك ويعزو أن العنف الصادر من هذه المجموعات سببه تدينهم.

وفي مقام إثبات كلام السيّد الصدر قدس سره بأنه هل فعلاً أن الإيمان بالله من حصة المتدينين أم لا ؟

---

(١) المصدر السابق ص ١١٦.

قال ماكغراث[(١)]:

«في تشرين الأول ٢٠٠٦، في غضون أسبوع على نشر كتاب «وهم الإله» من المثير للاهتمام، تظهر الحادثة الجانبين الإيجابي والسلبي للدين، رجل مسلح مع نوع من الضغينة الدينية «كان غاضبًا على الله» اقتحم مدرسة أميش في بنسلفانيا وأطلق النار فقتل خمس طالبات في الحادثة. والأميش مجموعة دينية بروتستانية ترفض أي نوع من العنف على حساب فهمها للسلطة الأخلاقية للإنسان وتعاليم يسوع الناصري. رغم مقتل أولئك الطالبات، حثَّ مجمع الأميش على المسامحة. فلم يحصل أيّ عنف أو انتقام بل دعت الجماعة إلى الغفران، تحدثت أرملة المسلح بشكل مؤثر مع جزيل من الشكر حول كيفية أنَّ هذا الأمر منحها وأطفالها المعافاة التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها»[(٢)].

ولا شك أن الإيمان بالآخرة كحقيقة قائمة سيدفع الإنسان إلى العطاء رغبة في الجنة، كما يمنعه عن ارتكاب الجريمة رهبة من جهنم.

ونظرة إلى المجتمعات التي قامت على أساس الإيمان بالآخرة، تكفي لإيقافها على مدى السعادة التي يخلقها الإيمان.

فهذا الإمام علي عليه السلام رئيس دولة تمتد من ليبيا إلى أوساط الأتحاد السوفيتي

---

(١) هو عالم فيزيائي الايرلندي الملحد اولاً، والعالم اللاهوتي المؤمن ثانيًا، أستاذ اللاهوت في جامعة اكسفورد وكامريدج وكلية ريجنت، له ثلاث شهادات دكتوراه : في الفيزياء الحيوية والجزئية وفي علم اللاهوت وفي الآداب والتاريخ الفكري.

(٢) وهم دوكينز ص ٧٩.

يدفعه إيمانه بالآخرة إلى أن يخرج ليلاً وعلى ظهره جراب فيه التمر والدقيق ويبحث عن بيوت الفقراء والمساكين ليعطيهم ذلك..

ولنتصور أن «هتلر» و «ستالين» و «روزفلت» و «تشرشل» كانوا يؤمنون بالآخرة هل كانت الحرب العالمية الثانية تطحن ٧٠ مليون إنسان؟[١].

قد يُشكل على ذلك ويقال : بأن حرب الجمل وحروب معاوية مع أمير المؤمنين قد أوقعت الخسائر كذلك وطحنت آلاف الناس، فلا فرق إذاً بين من يؤمن بالآخرة وبين الملحد الذي لا يؤمن لا بالله ولا بالآخرة!!

والجواب بنقطتين:

النقطة الأولى: إن من أشعل فتيل الحروب ليس أمير المؤمنين عليه السلام المؤمن بالآخرة بل أعدائه الذين لا يؤمنون أو الذين فهموا الدين بشكل خاطئ وقد قلت مرات عديدة سابقاً أن السبب الرئيسي في مشاكل العالم أمران:

الأمر الأول: عدم الإيمان بالآخرة: وهو يسبب كوارث ككارثة الحرب العالمية الأولى والثانية.

الأمر الثاني: فهم الدين بشكل خاطئ: وهو يسبب كوارث أخرى ككارثة حرب الجمل وحروب معاوية وغيرها.

فالذي تكلمنا به هنا هو الإيمان العلوي فأمير المؤمنين عليه السلام ذاك الذي يوصي ولداه بالرفق بقاتله ابن ملجم وان يطعماه من طعامهما وإذا مات الإمام بضربته

---

(١) الإسلام منهج الحياة ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

يضرباه ـ يضربا بن ملجم ـ ضربة واحدة ولا يمثلا به، أنى لمن بعظمته هذه أن يوقع الناس بمثل هذه الحروب؟!.

بل نجده عليه السلام يصرح بهدفه جلياً من وراء الحروب التي أقامها اعدائه عليه والتي كان لا يبدأهم بقتال إلاَّ ان يبدأوه إذ كان يقول في حرب صفين:

«فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلاَّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إليَّ من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها»[١].

وإنَّا نقول كذلك والله ما دفع الملحدين والمستعمرين إلى الحرب إلاَّ وهم يطمعون بفرض سيطرتهم على الناس ولا يبالون لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة أن يقتلوا الناس جميعاً.

النقطة الثانية: إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قاتل من قاتل إما لأن من قاتلهم لا يؤمنون بالآخرة وخطر من لا يؤمن بها كخطر من أحدث الحرب العالمية الأولى والثانية، وقاتل ايضًا من فهم الدين بالخطأ لأنهم سيحدثون خطراً كخطر الحركات المتطرفة الإسلامية وغيرها، وكما حدث فعلاً فالخوارج كانت سيرتهم كسيرة ما يسمى اليوم بـ«داعش» يكفرون كل المسلمين، وهذا المعنى نستظهره من قوله عليه السلام «إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي».

إذن فوجود الجهاد وأمثاله في أحكام الدين الإسلامي لا ينافي كونه من حصة الطيبين ومن هنا قال السيّد محمد الصدر قدس سره:

---

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج ٤ ص ١٢٩.

«ليس القتال مع أي جماعةٍ أو مجتمعٍ في الشريعة إلاَّ لمصلحة هداية ذلك المجتمع وإرادة الخير له في الدنيا والآخرة؛ لأن المجاهدين يعتقدون بوجود الحق في عقيدتهم وسلوكهم، وهم يريدون للبشر أن يكونوا على خيرٍ وحق.

فالجهاد مع المشركين أو أضرابهم إنَّما هو من باب الأبوّة لهم، كما يؤدب الأب ابنه أو يؤدب العالم الجاهل، وليس للسيطرة ولا للطمع في شيءٍ من عروض الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1]»[2].

الشبهة (٨): تشريع قتل ملايين البشر من المشركين

هذا العنوان ذكره السيّد محمّد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ في فقه الأخلاق ورد هذه الشبهة بعدة ردود، قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

يوجد على فكرة الجهاد المقدس في الإسلام إشكال معتد به نسبياً قلما يلتفت إليه الناس. أود الان أن أواجهه بقوة قلب وثقة بالرب. بأن نذكره ونناقشه.

وحاصله متكون من مقدمتين:

المقدمة الأولى: انه يجب قتل المشرك مهما كان دينه ومذهبه. ولا يمكن أقراره على دينه وطقوسه بحال من الأحوال. ولعل هذا من

---

(١) البقرة ١٩٣.

(٢) ما وراء الفقه ج ٢ ق ٢ ص ٢١٦_٢١٧.

واضحات الفقه، وإجماع علماء المسلمين عليه.

وهذا من النقاط الأساسية التي يختلف فيها المشرك عن الكتابي. فبينما نرى أن التعاليم الدينية في الإسلام، تحفظ للكتابي حياته وأمواله وعائلته، وتقره على تعاليم دينه، وتعتبره (ذمياً) يعني في ذمتها المحافظة عليه. فان كل ذلك غير موجود بالنسبة إلى المشرك، ولا يمكن أن يكون (ذمياً) بحال.

المقدمة الثانية: ان عدد المشركين على وجه الكرة الأرضية، الآن وفي أكثر الأجيال المنظورة في الماضي وفي المستقبل، عدد كبير جداً. بل لعله يمثل أكثر من نصف البشرية، أو الأكثرية فيها.

إذن، نعلم من هاتين المقدمتين، أن الدين الإسلامي أجاز قتل أكثرية البشرية ولم يحفظ لهم حقوقهم في الحياة والعيش الرغيد. وأن ذلك يؤدي حتماً إلى وجوب قتل الملايين وإبادة شعوب بكاملها ما داموا مشركين.

وجواب ذلك، يكون في عدة نقاط:

النقطة الأولى: أنه لم يرد في الدين وجوب المبادرة إلى قتال المشركين أو قتلهم. بل ذلك غير جائز حتى تعرض عليهم تعاليم الإسلام وهداه ومحاسنه. وينبغي أن ينتظر فيهم مدة كافية حول ذلك. فأن اهتدوا وأسلموا فهو المطلوب. وإلا كانوا معاندين يستحقون القتل.

النقطة الثانية: أنه لم يرد في الدين وجوب المبادرة إلى قتال المشركين أو قتلهم. ما لم يبدؤوا هم بالقتال. فإن بدأوا كانوا محاربين فعلاً، وكان مقتضى ذلك وجوب الدفاع حتى وإن لزم من ذلك إبادتهم جميعاً.

وهذا لا يعني أن الشعوب الآمنة والبلدان الهادئة للمشركين، يجب المبادرة إليها وقتل أهلها جملة وتفصيلاً. فإن هذا لم يحدث فيما سبق ولم يقره تشريع ديني.

النقطة الثالثة: إن الحكم الأصلي في الشريعة قابل للتخصيص أو التقييد بمقتضى الولاية العامة في كل عصر للفقيه أو للقائد. فهو يرى مقتضى المصلحة من جميع الجهات، قبل أن ينفذ الحكم المشار إليه في السؤال. مع العلم أنه قلما تقتضي المصلحة ذلك في المستقبل المنظور.

النقطة الرابعة: إن الفقهاء قسموا الجاهل إلى قاصر ومقصر. فالمقصر الذي يستطيع أن يتعلم ولم يتعلم. والقاصر هو العاجز عن التعلم. والقاصر معذور فيما يجهله، بخلاف المقصر فإنه غير معذور ومستحق عقوبة الدنيا والآخرة.

وبالتأكيد فإن كثيراً من هؤلاء الذين نعدهم مشركين، قاصرون عن التوصل إلى الحق والإيمان به، فيكونون من هذه الجهة معذورين. وإذا كانوا معذورين لم يستحقوا القتل إلاَّ بعد الإيضاح والتنبيه والتعليم.

وهذه الصفة لا شك عامة لكثير من عمال المعامل ومزارعي الريف، والموجودة مدنهم وقراهم في مناطق نائية يصعب الوصول إليها، ونحو ذلك. لا يختلف في ذلك وجود أمثال هذه الطبقات في الصين أو الهند أو استراليا أو غيرها.

وعلى أي حال، فلا يحتمل أن يحكم الدين المقدس العادل، وجوب قتل أمثال هؤلاء، ما داموا على قصورهم وقلة ثقافتهم وتدني تفكيرهم.

إذن، فما قاله السائل من أن الحكم الفعلي في الدين هو قتل الملايين، مما لا أساس له من الصحة.

نعم، لو تم تنبيه المشرك أو المشركين إلى الإسلام وتعليمه لكنه أستمر على غيه وعناده، فإنه يعتبر جرثومة سيئة في المجتمع، لا يمكن استتباب العدل فيه ولا استقرار الأمور به، إلاَّ بالتخلص من هذه الجرثومة وقطع شأفتها، والتخلص من شرها ومن هنا كان الحكم بوجوب القتل صحيحاً وعادلاً تماماً[١].

الشبهة (٩) : انتشار الإسلام بالسيف

يقول «دوكينز»:

«وبعد مئات السنين عاد محمد وأتباعه للجذور اليهودية التوحيدية الصارمة، بدون أن يأخذوا خصوصيّاتها العرقيّة، ونشأ دين الإسلام على كتاب مقدس جديد اسمه القرآن، والذي احتوى على توجّه فكري جديد، ألا وهو نشر الدين بالقوّة العسكرية»[٢].

انظر إلى سوء سريرته حول الإسلام فقد وصمه بأنه ذا توجه فكري جديد وهو نشر الإسلام بالسيف! مع أن المسيحيين كانت لهم معارك طاحنة بالسيف من أجل التبشير المسيحي كما هو يعترف بنفسه، فلماذا قال إنَّ هذا توجه جديد بالدين الإسلامي!!

فهل صحيح أن الإسلام قد انتشر بقوة السيف؟ أم كان يستخدم السيف على من اعتدى عليه فقط في بداية دعوته كما هو واضح لمن قرأ السيرة النبوية أو غير

---

(١) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) وهم الإله ص ٣٩.

ذلك يحدثنا الشهيد الصدر عن كيفية الدخول إلى الإسلام ونشر دعوته والأهداف من وراء القوة العسكرية الإسلامية إذ يقول قدس سره:

«أن الدين الإسلامي لا يجيز البدء بالقتال، قبل الدعوة إلى الإسلام، وإرشاد المعسكر الآخر إلى العقائد الإسلامية والعدل الإسلامي، وإيضاح ذلك في أذهانهم. وهذا ما يعمله الإمام عليه السلام في كل غزو يقصده، مضافا إلى أساليبه العامة في عرض الأطروحة العادلة الكاملة على العالم ككل، وهي أساليب واضحة وصريحة وواسعة الانتشار»[١].

وقد أنتقد قدس سره الفتوحات التي كانت بعد العهد النبوي وعهد الخلفاء إذ قال:

«وبهذا نرى ان حوادث الفتح، مختلفة اختلافاً أساسياً عن مفاهيم الفتح الاسلامي الواعي الاصيل، فالغزو اصبح للتجارة والحصول على الغنائم، حتى ان القائد الغانم كان يساوم عليه بخمسة عشر الف دينار فلا يقبل.

ولم تكن الدعوة إلى الاسلام قبل البدء بالقتال موجودة ولا متبعه، مع ان وجوبها من واضحات الشريعة. كما ان الاسرى كانت تقتل، خلافاً لتعاليم الاسلام.

كما ان البلاد المفتوحة لم تكن تدخل على اثر الفتح في مجموعة البلاد الاسلامية، بل كان القواد بمجرد ان يحصلوا على أرباحهم يتركون البلاد تنادي بالويل والثبور، ويرجعون، من دون ان يجعلوا عليها والياً اسلامياً، أو يطلبوا من أهلها الدخول في دين الاسلام أو دفع الجزية. كما ان الروم، وهم عبارة عن الافرنج عامة والبزنطيين خاصة؛ حين كانوا يرون

---

(١) تاريخ ما بعد الظهور ص ٣٧٨.

ان الفكرة الاساسية للجهاد في ذلك الحين هو النفعية، كانوا هم أيضا يقومون بنفس العمل، فيغزون البلاد الاسلامية و يقتلون جملة من أهلها، ويكسبون الربح التجاري ويرجعون. فهم كالمسلمين، من حيث العدة والعدد، فلما ذا يمتنعون عن ذلك؟!

وماذا يميز المسلمين عنهم من الوعي المقدس الذي كان قد تبخر وانتفى. ومن ثم نجد ان الجيش الاسلامي ليس هو الغالب دائماً في هذا العصر الذي نؤرخه، بل هناك انتصارت يحرزها الروم، كما سبق ان سمعنا.

كما ان الفتح كان، في الأغلب مستقلاً عن خلافة بغداد، وعن رأيها واذنها، وانما كان القواد وحكام الاطراف يقومون به كل حسب رأيه ومصلحته. ولم نسمع أرسال الخليفة أحدا للغزو إلاَّ فيما سمعناه من المنتصر حين أغزى وصيفاً التركي، على ان هذه الحادثة الوحيدة، لم تكن في سبيل اللّه، وانما كانت ايفاء للاحقاد والتباغض الذي كان بين وصيف واحمد بن الخصيب»[1].

وبهذا المقطع يتضح بشكل جلي أنَّ الإسلام والفتوحات (الشرعية) لم تكن للتجارة والقتل بالسيف، وإنما كانت لأجل انعاش تلك البلدان من أوضاعها المأساوية وخير شاهد على ذلك هو فتح الأندلس فراجع عنوان: «التجربة الأندلسية» لترى حقيقة ما نقول.

(١) تاريخ الغيبة الصغرى ص ٩٨ ـ ٩٩.

الشبهة (١٠) : الجهاد يقتضي الإكراه في الدخول بالإسلام

وهذا العنوان كذلك من الشبهات التي أُثيرت حول الدين الإسلامي، وأنَّه دين يقتضي الأكراه الناس على الإيمان به، وقد دفع السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ هذه التهمة وقال:

«إنه قد يخطر في البال في الجهاد بأنه يقتضي الإكراه والاضطرار للدخول في الإسلام. بالنسبة إلى الشعوب المشركة الذين لا يقرون على أديانهم، بل يدور أمرهم بين الدخول في الإسلام أو القتل والإبادة. وليس حالهم حال أهل الكتاب الذين يمكن في الدين إقرارهم على دينهم وإقامة شعائره في الجملة، وعدم إلزامهم بالدخول في الإسلام[1]. ومن الواضح أن المسألة أمام المشركين ستكون: إما الإسلام أو القتل. وليس هناك إكراه عرفي أو عقلاني أشد من القتل. فإذا قيل لشخص أعطني ألف دينار أو أقتلك فإنه يدفع الألف لينجي نفسه. فكذلك الحال

---

(١) قد يقول المستشكل أنّه بأي حق يؤخذ من أهل الذمة الجزية؟ والجواب عن ذلك أنّه في كل الأنظمة والقوانين الوضعية تفرض على سكان بلادهم ما يعرف عندهم بـ(الضرائب) إذن فليس من العقل أن نرى أن الضرائب أمر يقبله العقل والجزية في الإسلام مرفوضة جملة وتفصيلاً!! بل أن المال يؤخذ حتى من المسلمين أنفسهم ولكن بعنوان (الزكاة والخمس) وحينئذٍ فلا يكون في ذلك أي ظلم لهم، ولعل تشريع الجزية لهم من باب أنهم لا يؤمنون كالمسلمين بدفع الخمس والزكاة، لذلك فتركهم في البلاد دون دفع ما عليهم من حقوق يكون بمثابة الظلم للمسلمين، بل لعله يسبب ارتداداً لبعض المسلمين فيدعي اليهودية أو المسيحية من أجل الهروب من الضرائب. كما أن هذه الضرائب لا تصرف إلاَّ في قضاء حوائج الناس ونحوها من الأمور المقررة في الكتب الفقهية.

في الدين. ومن المعلوم أن الدخول في الدين بالإكراه لا أثر له لا شرعاً ولا عقلائياً، ولا ينتج الهداية ولا العدل ولا التكامل. فما الفائدة من ذلك.

ويمكن أن يجاب ذلك على عدة مستويات:

المستوى الأول: أن الفقهاء عموماً قالوا، وقلنا أيضاً فيما سبق، بضرورة عرض الإسلام عليهم قبل مناجزتهم القتال. وهذا لا يصدق إلاَّ بأمرين:

أولهما: أن الإسلام يعرض بجميع تشريعاته المهمة، أي بمحاسنه وعدله ولطفه، بحيث يكون كل ذلك مما يفهمه أكثر الناس هناك.

ثانيهما: أن يمضي زمان كاف لأجل إمكان تحصيل هذه النتيجة. ولا يجوز تضييق الوقت عليهم وتهديدهم بمناجزة القتال في وقت سريع.

ومن المعلوم أن أكثر الشعوب الآن وفي المستقبل المنظور هم جاهلون بمفاهيم الإسلام وعدله ولطفه. وإنما هم مقلدون لآبائهم في تعصبهم لعبادة الأصنام وغيرها. فإذا اتضح لهم ذلك، فالمظنون جداً جداً أنهم سيميلون إلى الإسلام ميلة واحدة ويدخلون فيه أفواجاً. وكفى الله المؤمنين القتال.

المستوى الثاني: إننا بعد أن نعلم أنه لا أثر للدخول بالجبر والاضطرار إلى الدين. وهذا ما أدركه الإسلام حين قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

إذن فهذا مما لا يطلب منهم، بل يقال لهم بصراحة ادخلوا في الدين الإسلامي عن رغبة وقناعة. ويشرح ذلك عن طريق الإيضاح والدليل.

إذن ستكون النتيجة هي نفس المطلوب شرعاً.

---

(١) البقرة ٢٥٦.

المستوى الثالث: لا يبعد القول في هذا المورد أن أي مشرك دخل في الإسلام قبل إسلامه. لا نسأله عندئذ هل أنت مجبور على إسلامك أو راغب به. بل نحمله على الصحة ونعامله معاملة المسلمين، حتى لو كان في باطن نفسه مجبوراً. وهذا المعنى كما يعم الواحد، يعم المجتمع ككل.

والدين حينما خير المشركين بين الإسلام والقتل، كان يعلم ذلك. ومعناه أن المشرك إذا أظهر الإسلام كفي في حرمة قتله وصون نفسه وماله وعرضه. وإنما يفرق ذلك، أعني جهة الجبر والاختبار، في آخرته. فإن كان عن قناعة واختيار فاز في الآخرة بالثواب. وإن كان عن جبر وإكراه سقط ثوابه. ومن المعلوم أن الفقهاء في الفقه يحسبون حال نظام الدنيا في أمثال هذه المسائل، بغض النظر عن الآخرة.

المستوى الرابع: إن المجتمع إن كان قد دخل في الإسلام بالإكراه، أو آمن به في أقل المجزيء، لو صح التعبير، فيقبل منه مجرد إظهار أصول الدين ولا يكلف عملياً بفروعه، أعني الصلاة والصوم ونحوها. يعني أن ذلك ليس له دخل في الجهاد. بحيث إنهم إذا لم يصلوا أو يصوموا وجب قتالهم. كلا بل يحرم ذلك ماداموا قد دخلوا في الإسلام والتزموا بأصول الدين. كل ما في الأمر أنهم سيكونون مسلمين فسقة. وهذا أمر له علاج آخر غير القتال.

المستوى الخامس: إن المجتمع وإن كان قد دخل في الإسلام بالإكراه، ونحوه، إلاَّ أنه لن يبقى على هذا الحال طويلاً بعد أن تستمر الهداية والتعليم. وسيبدأ أفراد المجتمع بالتدريج بالاقتناع بذلك والتحمس له. بعد زيادة الوضوح والتفصيل.

المستوى السادس: إن الهدف الإسلامي من الجهاد المقدس لبلاد المشركين أمران:

أحدهما: هداية المجتمع، وهو هدف أساسي وأصيل لا محالة.

وثانيهما: بسط العدل الإسلامي والحكم الإسلامي على أكبر منطقة ممكنة في البشرية أو قل على ذلك المجتمع الذي ذهب إليه المسلمون أياً كان.

ومن المعلوم أنه على تقدير انتصار المسلمين، فإن الهداية محتملة الحصول. إلاَّ أن بسط العدل أكيد الحصول سواء دخلوا في الإسلام عن قناعة أو دخلوا عن أكراه أو لم يدخلوا فيه إطلاقاً. وسينبسط العدل عليهم بمقدار ما يناسب حالهم من الأحكام الشرعية. وهذا هو الهدف الأهم الاستراتيجي بطبيعة الحال»[1].

الشبهة (١١) : جواز قتل الأسير

بالرغم من أن تعالم الدين الإسلامي ترفق بالأسارى إلى أبعد الحدود، كما لا يخفى على من طالع كتاب الجهاد ورأى أحكام التعامل معهم، وفي المقابل كان الصليبيون وحشيون أمام الأسارى حتى قال «جيبون»:

«إنَّ الحملات الصليبية الأولى تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحيي الشرق. فإن الصليبيين خدام الرب يوم أن استولوا على بيت المقدس في ١٥ / ٧ / ١٠٩٩ م رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم لم يرحوا الشيوخ

---

(١) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣١٠ – ٣١٢.

ولا الأطفال الرضع فقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعاقل والحصون، وشيّ الرجال على النار، وبقر بطون الحوامل ليروا أهل ابتلع أهلها الذهب واستمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام ولم تنته إلاّ لما أعياهم الاجتهاد من القتل، وقد شوهد القاصد الرسولي مندوب البابا وهو يشارك في هذا الانتصار»[(١)].

يروي ابن الأثير هذه الحادثة قائلاً: وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم أخذوا تنور من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء[(٢)].

هذه المأساة وغيرها وفي العصر الحديث عصر الاستعمار فقد قتل المستعرون أضعاف هذا العدد بعد أن وقع في أيدهم أدوات الحرب الحديثة وقد جمع «جاك موريل» جرائم الاستعمار الفرنسي في كتاب يبلغ عدد صفحاته **٢٣٢** تحتوي على تقريرات بأعداد من قتلوا من العزل وغيرهم على أيدي المستعمرين!

إلا أن الأعلام المعادي لا يوجه الأنظار إلى تلك الجرائم بل همه البحث عن كل ما يظن أنه مثلبة على الإسلام، وبعد أن رأيت معاملة أؤلائك للأسارى بل

---

(١) ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين ص ٢٠٠.

(٢) الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٨٤.

والعزل سنرى الآن معاملة الإسلام مع الأسارى إذ يقول السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«هناك إشكال آخر من ضمن أحكام الجهاد، قد يلتفت أليه البعض: يحسن عرضه ومحاولة الجواب عليه والدفاع عنه. وهو جواز قتل الأسير مع العلم أنه لا شك في الذوق العالمي المعاصر، أن ذلك من أشد الإجرام.

ويحسن في هذا الصدد قبل التصدي للجواب نقل أحكام ذلك من الناحية الفقهية من كتابنا «منهج الصالحين» لنكون على بينة من أمرنا قبل التصدي للتفاصيل، حيث قلنا هناك:

الأساري: وهم إما ذكور أو إناث، فإن كانوا إناثاً لم يجز قتلهن ولو كانت الحرب قائمة، وإنما يملكن بالسبي ويقسمن تقسيم الغنيمة الذي سيأتي. وكذلك الحال في الذراري غير البالغين والشيوخ ... وإذا شكوا بحصول البلوغ كانت العلامة الفارقة هي الإنبات. بمعنى أنبات الشعر الخشن على العانة. فمن لم يثبت بلوغه وجهلوا ذلك منه ألحق بالذراري.

وإذا كان الأسرى ذكوراً بالغين، سواء كانوا تحت السلاح أم لا، فمقتضى القاعدة هو وجوب قتلهم إلاَّ إذا أسلموا ما دامت الحرب قائمة، ولكن يمكن الخروج عن هذه القاعدة لعناوين ثانوية قد تقتضيها المصلحة العامة التي يراها الإمام أو نائبه.

وإن تم أسرهم بعد انقضاء الحرب لم يجز قتلهم، ما لم تكن هناك مصالح عامة ثانوية. وكان الإمام مخيراً بين المن والفداء والاسترقاق.

والمن هو إطلاق السراح مجاناً. والفداء هو إطلاقه مقابل مبلغ من المال.

والاسترقاق هو اعتباره رقاً مملوكاً. وهو السبب الوحيد للاسترقاق في الإسلام. وهذا التخيير ثابت ضد الأسير ما لم يسلم. فإن أسلم بعد حكم الإمام بأحدهما وتطبيقه فلا إشكال. وإن أسلم بعد الحكم وقبل التطبيق فكذلك على الأظهر. وإن أسلم قبل الحكم فالأقوى وجوب إطلاقه مجاناً وسقوط الحكم في حقه. وإن كان هو مقتضى الاستصحاب. انتهى.

نعم نسب إلى بعض الفقهاء أنه جعل تخيير الإمام بعد الحرب بأربعة أمور: المن والفداء والاسترقاق والقتل. بإدخال القتل زيادة على الاحتمالات الثلاث الأخرى. إلاَّ أن مشهور المتأخرين، بل المشهور عموماً لا يفتي به، واحتجوا على هذا الحكم بأنه لا دليل عليه لا في كتاب ولا في سنة. ولا ملازمة بين جواز القتل خلال الحرب وجوازه بعده. وإذا لم يثبت جواز القتل حرم بطبيعة الحال.

ومن هنا يتضح أن المورد الوحيد لجواز قتل الأسير في الإسلام، هو ما إذا كانت الحرب قائمة. بل قالوا عندئذ وقلنا بوجوب القتل خلالها ما لم توجد مصلحة ثانوية مهمة يراها الإمام في الحفاظ على حياة الأسير أو الأسرى.

إذن، فالقتل، عموماً، خلال الحرب واجب وبعد الحرب حرام. في حين أن الرأي العام المعاصر على قبحه وعدم صحته حتى لو كانت الحرب قائمة.

وجواب ذلك على عدة مستويات:

المستوى الأول: المنع من قتل الأسرى ليس جهة عامة واعتقاداً سائداً بين كل أجيال العقلاء والبشر المتفهم. بل هم مختلفون في ذلك. ويكفي الشك في ذلك لمنع قبحه ومنعه عقلانياً.

إذن فمن يعلمه أو يأمر به لا يكون عمله شنيعاً كما يميل إليه السائل. فإذا عرفنا مع ذلك وجود الحكمة والحق في التشريع الإسلامي ارتفع هذا الإشكال أساساً.

المستوى الثاني: أن هذا الاعتقاد بقبح قتل الأسرى ناشئ من أحد سببين كلاهما أوروبي أو غربي. وليس له منشأ ديني إطلاقاً فهو إما يعتبر مادة من مواد إحدى الدول أو مادة من مواد نظام الأمم المتحدة ونحو ذلك. ومعه لا يكون مسؤولاً من يكون تحت رعاية تلك الدولة أو من يعترف وينصاع للأمم المتحدة، ومن غيره. ومن المعلوم أن الدين الإسلامي في حل من ذلك.

وهو قد يكون مجرد إشاعة غربية ضد أعدائهم. عندما يريدون أن ينبزوهم بكل داهية، فيقولون عنهم إنهم يقتلون الأسرى. في حين أن قتل الأسرى في دولهم نفسها وفي حروبهم فيما بينهم، وخاصة فيما يسمى بالحربين العالميتين الأولى والثانية، كان أمراً سائغاً ومستمراً ولا غبار عليه!!؟

المستوى الثالث: إننا سمعنا قبل قليل أن نسبة معتداً بها من الأسرى لا يجوز قتلها إطلاقاً، كالنساء والأطفال والشيوخ والعبيد وغيرهم. إذن فالقول حتى مع التنزل عن الأجوبة الأخرى بأن الإسلام يجيز قتل الأسرى عموماً، افتراء باطل. وإنما هو على أقصى تقدير يجيز قتل البعض فقط.

المستوى الرابع: كذلك سمعنا أنه أنما يجوز قتلهم خلال كون الحرب قائمة دون ما بعدها، فالقول بأن الدين يجيز ذلك مطلقاً أيضاً افتراء

باطل.

المستوى الخامس: إننا سمعنا أيضاً قتل الأسير فيما إذا أسلم عن طواعية وقناعة مما لا يجوز. إذن فالقول بجواز قتل عموم الأسرى كاذب أيضاً.

المستوى السادس: إن حالة الحرب لا شك أنها صعبة من كثير من الجهات. ولا شك أن قتل الأسرى مما يخفف هذه الصعوبة من أكثر من جهة.

أولاً: لاحتمال أن يهرب الأسير أو تحصل خيانة أو رشوة في تهريبه. فيعود حاملاً سلاحه ضد المسلمين. ومن هنا يكون قتله قاطعاً لمثل هذا الاحتمال.

ثانياً: إن الأسير ما دام موجوداً فلا بد من قضاء حاجاته الضرورية من طعام وشراب ولباس وغيرها. وهو مما قد لا يتوفر في حالة الحرب. فيكون قتل الأسير توفيراً لكثير من هذه الجهود والأموال.

المستوى السابع: إننا وأن قلنا بوجوب قتل بعض الأسرى كما سبق إلاَّ أن هذا الوجوب طريقي وليس نفسياً[(١)] كوجوب الصلاة والصوم. بل هو أهون من ذلك لو صح التعبير. ومن هنا قلنا بأن للحاكم الشرعي أو الإمام أن يفعل ما يرى فيه المصلحة من القتل أو عدمه. فيما إذا رأى أن الحفاظ على حياة البعض أو الكل هو الأوفق بالمصلحة.

ولعل من جملة المصالح هي موافقته الرأي العام، في قبح قتل الأسرى

---

(١) المقصود من الوجوب الطريقي هنا أي أن قتلهم يكون طريقاً لإحراز مصلحة معينة كالأمن من هجومهم أو تكاثرهم وما شابه ذلك، أما لو أمن من ذلك ولم يكن هناك مصلحة من قتلهم فللحاكم الشرعي أن يتركهم.

والمنع عنه، قطعاً لجانب التشنيع والدعاية المضادة[١].

الشبهة (١٢) : تحريم قراءة كتب الضلالة

من الإشكالات التي يطرحها الملحدون أن المسلمين يحرمون قراءة فكر الملحدين؛ لأن دينهم أساسه هش فمن اقتنع بأفكار دوكينز أو غيره سيترك الإسلام لذلك حرموا قرائتها..

ووصف بعض المسلمين أن عدم نشر كتب الملاحدة وآرائهم في الاوساط الاسلامية منافٍ للحرية الفكرية.

وقريب من ذلك ما ذهب إليه بعض المفكِّرين المعاصرين، مثل الدكتور حسن حنفي حيث قال: أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجوز أن ندخلهما في عالم المفاهيم والأفكار، وهما من الأمور الاجتماعيَّة؛ لأننا إذا أقحمنا فكرة الأمر بالمعروف في قضايا الفكر والثقافة والخلاف العلمي فسيوجب ذلك سلب الحُرِّيات.

فكلُّ شخصٍ يختلف مع الآخر يجب أن يقمعه ويصادر حرِّيته؛ لأنَّه يعتقد بأنَّه يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر. وهذا ما سيؤدِّي إلى سدِّ باب الاجتهاد في الفقه والتاريخ والكلام والفلسفة وعلوم التفسير والحديث والأصول والرجال، وسائر العلوم الإنسانيّة[٢].

والصحيح: أنا لسنا ضد الحرية الفكرية، ولكنا ضد نشر الأفكار المخالفة

---

(١) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣١٣ _ ٣١٦.

(٢) مجلة نصوص معاصرة عدد ٤٦.

لمعتقداتنا المثبتة بالكتب الاعتقادية مع ادلتها وبراهينها؛ لأن أكثر الناس لم يطلعوا عليها فإذا ما نشرت وراجت الافكار المخالفة للمذهب او العقيدة اعتقد الناس بها على غير علم بما هو الموجود في اصول دينهم وعقائدهم فينحرفون على غير علم.

فمثلاً نرى الشريعة لم تحرم كتب الضلالة مطلقاً بل حرمتها مع التأثير إذا قرأها غير المتثبت في دينه كما قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ:

«يحرم حفظ كتب الضلال وقراءتها مع احتمال ترتب الضلال على نفسه أو على غيره. فلو امن من ذلك، أو كانت هناك مصلحة أهم جاز. وإذا أحرز المكلف كونها سببا لمفسدة دينية، وجب عليه إتلافها.
وكذا يحرم بيعها وشراؤها وثمنها سحت. ما لم يكن البيع من يطمئن من نتائجها لديه. لا يختلف في ذلك الكتب الدينية الباطلة وغير الدينية، القديمة منها والحديثة، بل يكفي صدق العنوان ولو مع وجود بعض التشكيكات فيه وعدم استطاعة عامة المجتمع الجواب عليه»[1].

فالفرد المنصف كما عليه ان يدافع عن حرية الرأي والفكر كذلك عليه أن يدافع عن عقائد الناس وصيانتها عن الانحراف واقصد بالانحراف هو تأثر غير الواقفين على عقائدهم بالأفكار الجديدة والتي بعضها يحتوي على مغالطات وتناقضات لا يفهمها إلاَّ ذوي الاختصاص.

ونلاحظ ان علماءنا الأعلام قد انصفوا إلى درجة منعوا جملة من الناس من

---

(١) منهج الصالحين ج ٣ ص ١٨ مسألة ٤٨.

قراءة حتى مؤلفاتهم؛ خوفاً من علوق الإشكالات المفترضة في ذهن القارئ دون معرفة الجواب!

لذلك فالسيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عندما ألف كتاب «منة المنان في الدفاع عن القرآن» لم يجوز قراءته لبعض الناس بل اشترط لقراءته مرحلة علمية معينة ولا يحق لمن هو دون تلك المرحلة العلمية قراءته حيث قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

«لكن ينبغي الالتفات سلفاً إلى أنّي لم أكتب هذا الكتاب لكلّ المستويات، ولا يستطيع الفرد المُتدّني الاستفادة الحقيقيّة منه، وإنّما أخذت بنظر الاعتبار مستوىً معيّناً من الثقافة والتفكير لدى القارئ.

وأهمّها أن يكون في الثقافة العامّة على مستوى طلاب الكليّات ونحوه، وأن يكون من الناحية الدينيّة قد حمل فكرةً كافيةً، وان كانت مختصرةً عن العلوم الدينيّة المتعارفة، كالفقه والأُصول والمنطق وعلم الكلام والنحو والصرف ونحوها، ممّا يُدرس في الحوزة العلميّة الدينيّة عندنا في النجف الأشرف.

فإن اتّصف الفرد بمثل هذه الثقافة، كان المتوقّع منه أن يفهم كتابي هذا، وإلاّ فمن الصعب له ذلك، ولكن لا ينبغي أن يأنف من عرض ما لا يفهمه من الكتاب على من يستطيع فهمه وإيضاحه.

فإن لم يكن على أحد هذين المستويين، فلا يجوز له شرعاً أن يقرأ هذا الكتاب[١]؛ لأنّه يوجد احتمال راجح عندئذٍ أن يفهم السؤال ولا يفهم

---

(١) هذه فتوى شريعة لأن هذا الكتاب الجليل سيكون كتاب ضلال لمن يفهم الإشكال دون الجواب.

الجواب؛ فتعلق الشبهة في ذهنه ضدّ القرآن الكريم، ممّا قد يكون غافلًا عنه أساساً، فيكون هذا الكتاب قد أدّى به إلى الضرر بدل أن يؤدّي به إلى النفع، وبالتالي يكون قد ضحّى بشيءٍ من دينه في سبيل قراءة الكتاب، وهذا ما لا يريده الفرد لنفسه، ولا أريده لأيِّ أحد، بل لا يجوز حصوله لأيِّ أحد.

وأعتقد أنَّ هذا التحذير كافٍ في الردع عن الاطّلاع على هذا الكتاب من قبل الأفراد العاديّين في الثقافة، فإن حاول أحدٌ منهم ذلك وحصلت له أيّة مضاعفات فكريّة غير محمودة في دينه أو دنياه، فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه، وقد برأت الذمّة منه؛ لأنَّني ذكرت ذلك الآن بوضوحٍ، وأقمت الدلالة عليه»(١).

فعلى الذين يدافعون عن حرية الفكر والرأي أن يراعوا ظروف نشر افكارهم وظروف المتلقي وتشخيصه وإلا كان دفاعهم عن الفوضى لا عن حرية المعتقد والفكر.

ولعل الكل يبصر الواقع اليوم فإن الناس أبعد ما يكون عن دراسة معتقداتهم الدينية وفهمها وهم مع هذا القصور يصدقون بكل شبهة تثار ضد الدين ويكذبون بسببها كل ما هو ثابت وضروري مهما كانت تلك الشبه المثارة بسيطة وواهية.

لذا قال السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن حرية نشر الآراء:

«والواقع أن إطلاق العنان للحرية المطلقة في نشر الأفكار لا يعني إلاَّ

---

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن ج ١ ص ٣٣- ٣٤.

بلبلة الأذهان، وضياع الحق من الوسط الفكري، واختلاطه بـأكوام نَتِنَـةٍ من الباطل. وجعل الرجل العادي متحيِّراً لا يدري إلى أين يتَّجـه لكثـرة الأصوات والدعوات التي يراها تنطلق حولـه، لـذا نـراه يتوجـه نحـو الصوت الأقوى والدعاية الأوسع»(١).

الشبهة (١٣) : قتل من تظاهر بالإسلام

يقول «دوكينز» :

«آوغستين عاشق... والذي حكم عليه بالموت في فيصل آباد عام ٢٠٠٠ م... كمسيحي لم يكن مسموحاً له بالزواج من حبيبة قلبـه لأنهـا كانـت مسلمة ـ وبشكل لا يصدق ـ لا يسمح القانون الباكسـتاني (الإسـلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم. وبالتالي حـاول أن يعتنـق الإسـلام وعندها أتهم بأنه يفعل ذلك لدوافع أخرى [فحكموا عليه بالقتل]»(٢).

لرد هذه الشبهة نعرض ما قلناه سابقاً من أنه هل أن الفرد إذا دخل في الإسلام وشك في نفسه دون أن يظهر شكوكه يحكم الإسلام بقتلـه؟! يقـول السيّد محمـد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«أن المشرك إذا أظهر الإسلام كفي في حرمة قتله وصون نفسـه ومالـه وعرضه. وإنما يفرق ذلك، أعني جهة الجبر والاختبار، في آخرته. فـإن كان عن قناعة واختيار فاز في الآخرة بالثواب. وإن كان عن جبر وإكراه

---

(١) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٨.

(٢) وهم الإله ص ٢٩٠.

سقط ثوابه. ومن المعلوم أن الفقهاء في الفقه يحسبون حال نظام الـدنيا في أمثال هذه المسائل، بغض النظر عن الآخرة»[١].

إن قتل هذا الرجل العاشق الذي دخل الإسلام حرام في الشريعة المقدسة، وإن كان دخوله لأسباب دنيوية، وقتله لا يشكل نقضاً على أحكام الدين الإسلامي؛ لأن الدين أصلاً لا يقبل بقتله.

وأما الإشكال على القتل بشكل عام وإن كان بتطبيق صحيح فقد رددناه في الشبهة رقم (٤) تحت عنوان «حد الردة من مثالب أحكام الإسلام» فراجع.

الشبهة (١٤) : الاقتتال الطائفي من أسباب التدين

يقول «دوكينز» :

«العراق وكنتيجة للغزو الأمريكي البريطاني في ٢٠٠٣ تفسخ إلى مجموعات طائفية في حرب مذهبية بين السنة والشيعة، هذا أوضح الأمثلة على النزاع الديني بالرغم من ذلك فإن جريدة الانتدابات في عددها الصادر في ٢٠ آيار ٢٠٠٦ وبالخط العريض على الصفحة الأولى وصفت ما يحصل بـ(التطهير العرقي). أرادوا تلطيف الموضوع بإحلال كلمة (عرقي) بينما ما نراه في العراق هو تطهير ديني واضح»[٢].

من المؤكد أنك سترى في الرد على هذه الشبهة بعد غور السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ وتطلعه للمستقبل البعيد، إذ أن دوكينز هذا قد كتب كتابه «وهم الإله»

---

(١) فقه الأخلاق ج ٢ ص ٣١١.

(٢) وهم الإله ص ٢٤.

في سنة ٢٠٠٦ م والسيّد محمد الصدرقُدّس سرّه في سنة ١٩٦٥ م قد عرف مآربهم وأهدافهم وكيف ستجعل الطائفية ذريعة لدعاة الإلحاد بأن يشنعوا بها على الدين إذ قال قُدّس سرّه:

«إن هذا الخلاف يضع أمام الدول المستعمرة وأمام المبادئ الكافرة والدعوات الإلحادية، وأمام الأطماع الدولية، نقطة ضعف واضحة، يسهل على أيٍ من هذه الجهات استغلالها بكل بساطة ويسير إلى النفوذ إلى بلادنا والتأثير على قلوبنا وعقولنا...» [1].

فأنك رأيت بعينك الآن كيف استغل زعيم الملحدين «دوكينز» الخلاف الطائفي في كتابه «وهم الإله» ليكون هذا الخلاف أحد الدعايات لرفض الدين وإنكار الإله تعالى.

إلا أنك ومن يستحق الخطاب يعلم أن اقتتال أي طائفة مع الأخرى لا يعني فساد الدين وبطلان الألوهية، بل أن ذلك ربما يعود إلى أسباب نفسية لا ربط لها بالدين أساساً.

وقد ذكر السيّد محمد الصدرقُدّس سرّه أن الصراع الطائفي غير مرضي للإسلام ولا يجلب إلاَّ شق الصف الإسلامي إذ قال :

«إن هذه الأعمال، لا تجلب إلاَّ شق الصفوف، وزيادة الإختلاف وهي ـبكل تأكيدـ غير مرضية من وجهة نظر الإسلام، ولا من قبل الأئمة الهداةعليهم السلام، أولئك القواد الإسلاميين المقدسين، الذين سلموا ـ في

---

(١) الطائفية في نظر الإسلام ص ٣١.

الغالب ـ الدولة الإسلامية القائمة على انحرافها وفسقها، وعدم رضائهم عنها؛ حقناً لدماء المسلمين، وابعاداً عن الفتنة، وتوخياً لوحدة الصف، لئلا يضعف أساس الإسلام، فيفتح منه عدة أبواب لدخول الأغيار وشيوع آراء الإلحاد»[1].

وأكدّ أن هذا الخلاف الطائفي ليس من الإسلام بشيء إذ قال قدس سره :

«أما أنه خلاف ممقوت في نظر الإسلام، وغير صحيح بحسب تعاليمه وإرشاداته، فلأن الإسلام دعا إلى وحدة الصف والتآلف ورص صفوف المسلمين بنص كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّـتُكُمْ أُمَّـةً واحـدةً وَأَنَـا ربُّكُـم فاعبدون﴾[2]»[3].

فإذا خالف المسلمون تعاليم الإسلام فالويل والثبور عليهم لا على الإسلام إذ أنه غير مسؤول عن الخطأ في تطبيقه!!.

وقد أشار قدس سره إلى أن هذا الخلاف تقف وراءه دول استعمارية ونعرض على ذلك شاهدين:

الشاهد الأول: قد سأل أحد الرجال شخصية بريطانية عن كيفية حكم المسلمين مع أنّهم كثرة فقال البريطاني :

---

(١) الطائفية في نظر الإسلام ص ٤٤.

(٢) الأنبياء ٩٢.

(٣) الطائفية في نظر الإسلام ص ٢٢.

«إنّا نستخدم سياسة (فرق تسد) فنلقي المنازعات بين الشعب الواحد، وهذا ما يجعلنا قادرين على السيادة علهم لأنهم بعد الفرقة والاختلاف، يقل عددهم ويصبحون أقلّ منّا عدداً، فإنّا لا نحكم على ألف مليون مسلم بل نحكم على مليون ومليونين فقط بسبب تفرقتهم واختلافهم»(١).

وانت لاحظ بنفسك ستجد أن كل من يثير الطائفية بين المسلمين ويحث على الخلاف الفاحش يسكن في بريطانيا في لندن بحماية تلك الدول المستعمرة، ومن أمثلك هؤلاء المدعو «ياسر الحبيب» والمدعو «عبد الحليم الغزي» اللذان لم يتركا رمزاً وعلماً مسلماً إلاَّ دنساه بكلامهما وأكالا له أنواع القذائف والتهم، ولم يسلم من شر لسانهما عالماً شيعياً إلاَّ من ندر.

الشاهد الثاني: هناك حادثة توضح بتفصيل دقيق كلمة السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ قد ذكرها السيّد محمد الشيرازيقُدِّسَ سِرُّهُ إذ يقول: طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية إبَّان العهد الملكي أن تسنَّ قانوناً جديداً يدعم المصالح البريطانية في العراق، ولكن الحكومة العراقية امتنعت عن تلبية الطلب خوفاً من رد فعل الشعب.

وذات يوم وقع نزاعٌ في أكثر شوارع بغداد ازدحاماً بالمارة والسيارات وهو شارع الرشيد، وكان وراء هذا النزاع أسباب طائفية، حيث جرح عدد من المتشاجرين من السنّة والشيعة، وكان كل طرف يتّهم الطرف الآخر بأنَّه تعرضَّ لمقدساته بالإهانة والسب، وكادت هذه الفتنة الطائفية أن تنتشر في أرجاء العراق، لو لا قيام السلطات بالإسراع لإخمادها وإلقاء القبض على المسببين لها.

---

(١) لكيلا تتنازعوا ص ١٢١.

وعندما تم استجواب المعتقلين، أبدوا عدم علمهم بأسباب النزاع، وقالوا بأجمعهم: أنهم لا يعرفون خلفية النزاع إلاَّ أنهم مروا بالمكان فوجدوا نزاعاً بين السنة والشيعة فلم يتمالكوا أنفسهم، حيث وجدوا أنفسهم مشتركين في النزاع دون إرادتهم.

وبعد التحقيق الطويل، توصلت السلطات أن السبب المباشر للنزاع هو شخصان أحدهما سب أمير المؤمنين عليه السلام والثاني سبّ عمر بن الخطاب، وبعد التحقيق مع هذين الشخصين تبين للشرطة أنّهما مسيحيان. وأنهما ليسا من أنصار الإمام علي عليه السلام ولا من أنصار عمر.

لذا أطلقت الحكومة جميع المعتقلين الأبرياء ممن ألقت القبض عليهم والذين أصبحوا ضحية لكيد هذين المسيحيين.

وفي نهاية المطاف تبين للناس أن السفارة البريطانية هي وراء هذين المسيحيين، وأن النزاع هو أمرٌ مفتعل قامت به السفارة البريطانية؛ انتقاماً من الحكومة الملكية؛ لرفضها الطلب البريطاني[1].

الشبهة (١٥) : التساؤل عن علل الأحكام

ذكر السيّد محمّد الصدر قدس سره أنه من جملة ما يستشكل فيه على الدين الإسلامي هو إشاعة التساؤل عن علل الأحكام إذ قال:

«**فكانوا من جملة ذلك أن بثوا التساؤل وأشاعوا التساؤل عن الحِكَم والأسباب للأحكام الشرعية، وهم يعرفون أن أغلب الناس والعوام لا**

(١) المصدر السابق ص ١٨٩.

يستطيعون الجواب عليها، فيكفي أن تبقى الشبهة في النفس للطعن بحكمة الله وقدرته، ومن ثم تسبب الشبهات ارتداد الفرد والمجتمع عن دينه، فنكون نحو أسوأ حالاً من شعوبهم بكل تأكيد، فإنهم قد يتمسكون بدينهم، ولو من الناحية الشكلية، وأما نحن فتكون النتيجة أننا براء من الدين واقعيًا وشكلياً»(١).

وقد قال السيّد محمّد الصدر قدس سره في صدد الكلام عن عدم الاستفهام عن علة الأحكام:

«على أننا من الناحية التشريعية والأخلاقية بكل تأكيد، ليس من حقنا التساؤل عن الحكم على الإطلاق.

وإنما شغل العبد المؤمن هو التعبد بالتعاليم الشرعية على واقعها، ثقة بعدالة مشرعها، ذي العدل اللانهائي جل جلاله.

وعدم إساءة الأدب بالاستفهام عن المصالح والحكم فيها ولا شك أن مثل هذا الاستفهام من الناحيتين الأخلاقية والعرفانية ذنب كبير، يستحق عليه الفرد ما يشاء الله سبحانه وتعالى من العقوبة. وإنما انبثقت أمثال هذه التساؤلات، نتيجة للجهل المتفشي في المجتمع. وأجج أوارها التشكيك الوارد من قبل الاستعمار والاستعماريين ضد الدين والمتدينين»(٢).

---

(١) منبر الصدر ص ٣١٤.

(٢) فقه الأخلاق ج ١ ص ٢٧٧.

وفي يوم كنا جالسين عند السيّد عبد الستار الحسني قدس سره المحقق والأديب والنسابة المعروف فقال في هذا الصدد:

إن الله سبحانه وتعالى لم يبين للناس بعض علل الأحكام وفوائدها لكي يأتي العبد بها بمحض القربة لله، أما إذا عرف فوائد الأحكام وعللها فإنه سيأخذ بها طمعاً في فوائدها وقد يعبد الله لا لله بل لفوائد عبادته، والأقرب إلى الله أن يعبد الله لذاته ونفسه لا لشيء آخر(١).

ولعل هذا هو المقصود من قول السيّد محمّد الصدر قدس سره بأن الاستفهام عن علة الاحكام ذنبٌ من الناحية الأخلاقية والعرفانية ويوجد دليل على ذلك وهو قوله في الفقرة السادسة من فقه الأخلاق حيث قال قدس سره:

«دلت الآية الكريمة الآتية وغيرها، على أن من قصد بعبادته هدفاً معيناً، حصل عليه، ولم يكن مستحقاً لما فوقه. فلو قصد من عبادته سعة الرزق، ولم يكن له الثواب في الآخرة. ومن قصد في تأليف كتابه السمعة، حصل له ولم يكن له الثواب الأخروي، وهكذا. لأنه يقال له في يوم القيامة: أنكم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾(٢) ومن هنا فقد يكون من الأرجح للفرد المؤمن أن يدع مقدار

---

(١) حصل هذا اللقاء عام ١٤٣٧ هـ في نهاية التعطيل الصيفي للمدارس الاكاديمية حيث كانت مؤسسة أنامل الهداية في رحلة إلى النجف الأشرف وسكنوا عدة أيام في المدرسة المهدية المجاورة للروضة الحيدرية فسأل الأستاذ سجاد الفقيه السيد (حفظه الله) بسؤال عن علل الأحكام فكان هذا جوابه.

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٠.

ثوابه على عمله الصالح، موكلاً إلى رحمة الله سبحانه التي وسعت كل شيء والتي لا نهاية لها، كما لا نهاية لكرمه سبحانه ولا مانع لعطائه»[١].

فمن قصد العبادة لآثارها وعللها مُنع من العطاء الكثير لذلك لم يبين الله سبحانه أكثر العلل لكي يأتي بها عباده له مخلصين فيستحقون بها الثواب الأوفى.

وقال قدس سره في ما وراء الفقه مكملاً لهذا الموضوع :

«ولكن مع ذلك، قد يحسن لأجل تلطيف الجو أمام إيمان بعض المؤمنين ان يحاول الفرد ذلك غير يائس. لأن المصالح على تفاصيلها وان لم تكن معروفة ومكشوفة، إلاَّ ان جزءاً منها قد يكون قليلاً للإدراك. مع الاعتراف بان المصالح الإلهية قد تختلف اختلافاً أساسياً عما يدركه عقلنا وتناله أذواقنا وتقاليدنا. ولكن إذا كان هذا الذي ندركه من المصالح، في حال قصورنا وتقصيرنا، هو أمر عظيم وفهم جليل نحمد به المشرع الكامل كما هو أهله، فكيف بالمصالح الواقعية الإلهية التي هي أحسن مما نتصور والطف مما نتذوق. وقد قيل قديما: ان الله سبحانه ارحم بالفرد من أمه وأبيه وهو- كما نعلم- ارحم الراحمين»[٢].

وهذا الجواب كافٍ لرد شبهاتهم وليس علينا الرد أكثر من ذلك، لأنهم من الاساس لا يؤمنون بالله تعالى، والمناقشة بالأحكام فرع الايمان بالله، فإذا آمنوا به أمكن نقاشهم بالفرع وهي الاحكام، وهذا النقاش كافٍ للمؤمنين.

---

(١) فقه الأخلاق ج ١ ص ٣٦.

(٢) ما وراء الفقه ج ٢ ق ٢ ص ٨٨.

الشبهة (١٦) : التقليد بالعقائد (الإيمان التلقيني)

يقول «دوكينز» :

«المسيحية تماماً كالإسلام تعلم الأطفال بأن الإيمان دون سؤال هو فضيلة. لا يجب عليك أن تجادل بما تؤمن به احد»(١).

ومن ألاعيبه هنا أنه قال المسيحية كالأسلام، ولا يخفى أن التشبيه بالكاف يعني أن المشبه به أسوء من المشبه، فأنَّه لو كان صادقاً فيما يقول لقال: الإسلام كالمسيحية لا العكس؛ لأنّ المسيحية أقدم من الإسلام، إلاَّ أنّه لا يمكنه أن يقول هكذا مراعاة لعقيدته الأم وهي المسيحية.

وهذه التهمة تعود في الأصل إلى مغالطة التعميم بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، التي تقدمت في الفصل الأول من هذا الكتاب. ومن الواضح دينياً أن الإسلام ليس كالمسيحية كما يدعي «دوكينز» بل هو يرفض من آمن به من دون معرفة وتعقل، بل لا يعترف أصلاً بمن آمن من دون نظر وأدلة!! وهذا ما وضحه السيّد محمد الصدر قدس سره إذ قال:

«ان التقليد في أصول الدين ممنوع، لأنه منهي عنه بصراحة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(٢).

وقوله عز وجل: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

---

(١) وهم الإله ص ٣١١.

(٢) المائدة ١٠٤.

آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[١].

وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]. وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٣].

وإنما التقليد خاص بفروع الدين، وما يخص الفتاوى العملية. وأما شموله لأصول الدين فلا. بل لابد لكل فرد ان يكون مجتهداً في الاعتقاد بهذه الأصول. فان الاجتهاد ضد التقليد، لأن الفرد أما مجتهد وأما مقلداً ولا ثالث لهما. فإذا حصل المنع من التقليد تعين الاجتهاد.

مع العلم أننا إذا التفتنا إلى الأكثرية الكاثرة في المجتمع من متوسطي الثقافة والعقلية والمتدنين فيها، يستحيل عليهم عادة ان يدركوا أو يستوعبوا البراهين على أصول الدين لكي يكونوا فيها مجتهدين ومحققين. بل هذا متعذر عند الأغلب بأي من مقدماته وتفاصيله ناهيك عن الجميع.

فكيف الحال بمن لا يقرأ ولا يكتب، ولم يمر على القرآن الكريم ولا السنة الشريفة ولا المصادر الرئيسية في الدين. ونحوهم بعض النساء العاطلات اللاتي لا يفهم منهن الكلام ولا يعرف لهن مرام.

ومثل هؤلاء الناس عاجزون جزماً عن الاجتهاد في أصول الدين. وتكليف العاجز مستحيل عقلاً. إذن، فتكليفهم بذلك مستحيل. إذن، فكل من الاجتهاد والتقليد في أصول الدين منسد بابه في حقهم. مع العلم

---

(١) البقرة ١٧٠.

(٢) الزخرف ٢٢.

(٣) الزخرف ٣٢.

أنها واجبة عليهم إجمالا، ولا يحتمل سقوطها عنهم لأن ذلك يعني خروجهم عن الدين وهو ممتنع. فما العمل بعد انسداد كل الاحتمالات. وجواب ذلك: ان الشيء الذي يمكن التنزل عنه نظرياً في هذا الصدد هو وجوب الاجتهاد مع العجز عنه أكيداً. إلاَّ ان هذا لا يعني جواز التقليد. بل يمكن ان ننتقل إلى حالة ثالثة هي الاطمئنان بصحة أصول الدين والاطمئنان حجة كافية ومعتبرة شرعاً. من أي كان سبب حصوله. وأما إذا لم يحصل للفرد الاطمئنان بأصول الدين فهو مما لا سبيل إلى الاعتراف بإسلامه»[١].

وبعد هذا البيان والإستدلال القرآني نسأل: من أين جاء دوكينز وشبه وزعم أن الإسلام كالمسيحية؟! أنَّه لا يخلو أما فهم الإسلام من كتب المستشرقين لا من كتب المسلمين، أو أنه كذب على الدين الإسلامي لمجرد الطعن فيه، أو لأنه لا يعرف عن الإسلام شيئاً أصلاً.

ونسأل دوكينز كذلك هل هو كذلك لا يعترف بالملحدين الذين ألحدوا دون أدلة؟ أم أنه كالإسلام يشترط في الإلحاد الفكر والنظر أو الأطمئنان؟!!

الشبهة (١٧) : القرآن لا يذكر الطائرات!

هناك شبهة قرأها أحد أصدقائي في أحد المواقع التي تشكك في الدين والقرآن الكريم، وحاصل هذا الإشكال أن القرآن لكل العالم من الزمن الماضي وإلى الزمن الحاضر، فلماذا لم يذكر القرآن الطائرات والأقمار الصناعية وغيرها

---

(١) ما وراء الفقه ج ١٠ ص ٣٠٨ ـ ٣١٠.

من الأمور؟ لماذا اقتصر في الكلام على الأشياء الموجودة في زمانه؟ أليس من حق المؤمنين به في زمن التطور أن يذكر لهم أشياء من صميم واقعهم؟!.

ولا أتذكر ما كان جوابي له في ذلك الحين، إلاَّ أنني وجدت جواباً لهذا السؤال في كتاب «الإشراقات الفكرية» وحاصل الجواب أنهقدس سره يقول:

«قانون (كلم الناس على قدر عقولهم)، وهو قانونٌ عرفيٌّ وعقلائيٌّ صحيح، وقد التزمت به النصوص الدينيّة الإسلامية بدقة، ومن هنا لم يكن من المعقول الإشارة في الكتاب الكريم والسنة الشريفة إلى الطائرات أو الكهرباء أو الأقمار الصناعية أو الكمبيوتر وغيرها، ممّا حصل في القرون المتأخرة عن عصر الصدور»[1].

بل يمكن أن نقول أن ذكر الطائرات والأقمار الصناعية ونحوها في القرآن يخالف كونه صادراً لكل زمان ومكان؛ لأن هذه الأشياء لو ذكرت لما كنت صالحة الذكر لأولئك الأقوام الموجودين في عصر النبيصلى الله عليه وآله والذين لا يفقهون شيئاً عن هذه الأشياء!

بل الأنسب للقرآن الذي هو صالح لكل زمان ومكان أن يذكر أشياءً يفهمها الناس في مختلف عصورهم القديمة والحديثة فمثلاً قوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

خير من قول: «والسيارات والطائرات والأقمار الصناعية لتركبوها»؛ لأن الأول

---

(١) إشراقات فكرية ج ٢ ص ٢٤٢.

(٢) النحل ٨.

يفهمه من في العصر الماضي ومن في العصر الحاضر، أما الصياغة الثانية فلا يفهمها إلاَّ أهل عصرها، والحال أن القرآن لكل العصور وليس لأهل هذا العصر فقط! وهذا ما أراد الإشارة إليه قدس سره بالقانون الذي ذكره من أن النصوص الدينية ألتزمت بالتكلم مع الناس على مستوى عقولهم.

بل أن الصياغة الأولى وهي الآية الكريمة أشارت إلى أن الله يخلق ما لا تعلمون، فنفهم منها أنها تخاطبهم بما يعلمون حتى تذكرهم وتنصحهم وترشدهم من خلاله، أما ما لا يعلمون كالصياغة الثانية فالتكلم بها في تلك العصور يعد لغواً كما ترى!

الشبهة (١٨) : الدولة الإسلامية فاشلة

يقول «دوكينز» :

«وكأنها انعكاس لصورة الدولة الإسلامية الفاشلة التي الكثير يطمحون لها في اركان أخرى من العالم»[١].

تقدم في الفصل الأول تحت عنوان «التجربة الأندلسية» كيف أن الدولة الإسلامية كانت سبباً لتطور الغرب ولم تكن فاشلة كما يدعي، وتقدم أيضاً أننا مع ما حققناه من نتائج في الدولة الأندلسية إلاَّ أننا نقول أن هذه الدولة ليست هي دولة العدل التي تحقق العدل التام.

لذلك سأستعرض أسس الدولة من الناحية النظرية كما يراها السيّد محمّد الصدر قدس سره حسب القواعد العامة المبنية على الفكر الإسلامي إذ يقول:

---

(١) وهم الإله ص ٢٩٦.

«إن الإمام المهدي عليه السلام في دولته العادلة العالمية، سوف لن يلغي الإذاعة ولا التلفزيون ولا المسرح ولا السينما ولا المصايف ولا المسابح ولا المدارس ولا المستشفيات ولا البنوك ولا الصحف ولا المجلات ولا المسلسلات.

فإن اساس الفكرة من وجود كل هذه الأمور انها موجودة لخير البشرية وتسهيل الحاجات الاجتماعية والفردية، فمن الطبيعي ان تأخذ دولة العدل بزمام المبادرة لاتخاذ هذه الأمور وسيلة نحو التكامل وزرع الأخلاق والفضيلة والتكافل والتراحم بين البشر، وبالتالي وسيلة لتربية البشرية بشكل عام، والوصول بها الى كمالها الأعلى المنشود.

فالإذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما والصحف، ستكون وسائل لنشر الأفكار الهادية العادلة، وللترفيه البريء. والمصايف والمسابح ستكون موجودة بدون الانحدار اللاأخلاقي، بل مع الارتفاع بها إلى مستوى العدل والمصلحة الحقيقية. فإن الترفيه غير مقتصر على الانحدار الحيواني ومباشرة الرذيلة كما هو معلوم. فإن في صور الطبيعة الكونية من العجائب والطرائف ما يعجب النفس ويسر الخاطر ويبهج الفؤاد، الشيء الكثير، ولا يكون الاقتصار على الترفيه المنحدر، إلاَّ نتيجة لسوء السلوك وقصور التصور، وبالتالي لنتيجة الفشل في التمحيص العام.

وأما المدارس على اختلاف مستوياتها وأنواعها ... فستكون طرقاً لتربية الفرد وتثقيفه وتكامله، بالشكل الحق الذي يربط الكون بخالقه العظيم ايجاداً وتشريعاً، ربطاً وثيقاً، والسير بالبشرية في التكامل في هذا الطريق... وتهمل كل الجهات التي تحمل الفرد على الانحراف

واللاأخلاقية والعنصرية وعبادة المادة. ومجمل القول: أن مناهج المدارس بشكل عام ستحافظ على شكلها المنهجي الأكاديمي، ولكنها لن تحافظ على شكلها العقائدي والإيديولوجي المعاصر، بل ستتصف بالشكل العقائدي الجديد العادل المطلوب لتربية البشرية في خطها الطويل.

وسيكون سفور النساء، بمعنى انكشافهن لأعين الرجال بشكل لا اخلاقي ولا إسلامي، ممنوعاً بطبيعة الحال ومعاقبا عليه، فضلا عن الانحدار نحو الرذيلة بأي شكل من أشكالها.

ولكن ذلك لن يمنع بأي حال من دراسة المرأة لأعلى العلوم وتلقيها لأدق المعارف، وحصولها على أحسن وأوسع النتائج. ولا يمنع حفاظها من قيامها بأي شكل من أشكال التجارة والعمل، ولا يمنع اتصالها بالمجتمع وإزجائها لحاجاتها المشروعة، مع الرجال والنساء معاً. وستنظم الدولة العلاقة الاجتماعية بين الجنسين بقانون.

وسيكون التحاقد الطبقي منعدماً في المجتمع المهدوي، باعتبار ما سنعرف من توفير الدولة فرص العمل للجميع بسخاء وترتيب، وما سيناله كل فرد من أرباح وما يتقاضاه من الدولة من هبات، ما يغنيه عن التفكير في الحقد الطبقي أساسا. فضلا عن التثقيف الإيديولوجي ضد هذا المفهوم الذي يتضمن الانشقاق الاجتماعي المروّع.

وسيكون التحاقد العنصري بين ذوي اللغات المختلفة، غير موجود أيضا بل سيكون الجميع أخوة في العقيدة والهدف، أخوة في الايمان العمل،

لا تفاضل بينهم إلاَّ بحسب ما يناله كل فرد من كمال حقيقي»[(١)].

فإذا توفرت دولة بهذه النظرة الإسلامية وفشلت أمكن لدوكينز وأمثاله أن يطعنوا في الدين الإسلامي بدولته ويصفونها بالفشل، أما أن ينظروا إلى دويلات إسلامية لا يعترف بشريعتها الإسلام والمذهب الإمامي الحق فهذا لا يمكن قياس الإسلام على بطلانه!.

وسيكون من نتائج الدولة الإسلامية العادلة وفق القواعد الإسلامية ما ذكرهقدس سره إذ قال:

«هذا وينبغي الإلماح إلى الجيش والشرطة والسجون ستذوب أهميتها تدريجاً أيضاً، نتيجة للتربية المركزة المستمرة التي تقوم بها الدولة المهدوية للبشرية، بحيث تصل بها إلى مستوى عال من الفهم والإخلاص.

ولعل الجيش هو أسرعها ذوباناً، لأن المفروض كونه سندا للدفاع الخارجي، ضد اعتداء الدول الأخرى. ومع وجود الدولة العالمية، لا توجد دول أخرى على الإطلاق... فتنتفي الحاجة إلى الجيش من هذه الناحية.

وأما الشرطة والسجون، فستذوب تدريجاً بذوبان الجريمة الذي هو النتيجة الطبيعية لوصول البشرية في تربيتها الى درجة عالية من الكمال. غير أن هذا المستوى لن يحدث- عادة- في حياة الامام المهديّعليه السلام. وإن كان لن يحدث أيضاً إلاَّ طبقاً للأسس التربوية العامة التي هو

---

(١) تاريخ ما بعد الظهور ص ٤٦٦.

يضعها، من أجل إيصال البشرية الى الكمال»[١].

هذه الدولة الإسلامية المترقبة، وهي بعيدة كل البعد عن الفشل، بل أن الأنظمة العلمانية وغيرها هي الفاشلة والبعيدة عن هكذا مستوى من الكمال.

الشبهة (١٩) : العقائد الإسلامية ليست فلسفات يونانية

قد يقرأ الإنسان أشياء من الفلسفة اليونانية ويظن أنَّ الإسلام إنما أستقى عقائده الإسلامية من تلك الفلسفات، كما كان يدعي المستشرقون من أن القرآن الكريم إنما أُخذ من التوراة والأنجيل.

إلا أن السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يدفع هذا الإشكال حيث عرض بعض من خصائص أمير المؤمنينعليه السلام وقال:

«ومنها الفلسفة ويكفينا من ذلك خطبته المشهورة التي اختارها الشريف الرضي لتكون أول خطب نهج البلاغة، والتي يقول فيها: (أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيده. وكمال توحيده الاخلاص له. وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه. ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله. ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار إليه فقد حده. ومن حده فقد عده، ومن قال فيم فقد ضمنه. ومن قال علام فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم . مع كل شيء لا بمقارنة.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦٥.

وغير كل شيء لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة. بصير إذ لا منظور إليه من خلقه. متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاء. وابتدأه ابتداء. بلا روية أجالها. ولا تجربة استفادها. ولا حركة أحدثها. ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها. ولأم بين مختلفاتها. وغرز غرائزها وألزمها أشباحها «يعني أجسامها طبعاً» عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها. عارفا بقرائنها وأحنائها) (خلي يجيبون) الفلاسفة شيء من هذا القبيل، متحيرين بتفسير كلامه سلام الله عليه»[(١)].

ومن راجع كلمات فلاسفة اليونان حول الصانع تعالى وصفاته تجدهم يتخبطون فيها أيما تخبط بسبب عدم أمكنهم لأدراكها فيقعون بالضلال وهم قد يقصدون الحق! كما أن بعضهم كافلاطون قد يصيبه إلاَّ أن اكثرهم يخطأون.

وأحيل القارئ في ذلك إلى مطالعة أحوال اليونانين في البحث عن الله تعالى إلى بدايات كتاب «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» فقد ذكر المؤلف هناك جلياً هذا التخبط الذي وقعوا فيه، وبين من أصاب منهم.

وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقل ما قاله لإطلاعٍ على تراثهم وأقوالهم بل هو من ألهم الله وشأن الإمامة كما قال السيّد محمد الصدر قدس سره:

«مع الإلتفات بوضوح إلى أن العلوم اليونانية والفارسية لم تكن قد ترجمت أو جُلبت إلى البلاد الإسلامية في ذلك الحين، ولم يكن

---

(١) أضواء على منبر الصدر ج ٣ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

لأفلاطون ولا لأرسطو أي ذكر في ذلك الحين، إذاً فكل علم جاء به أمير المؤمنين عليه السلام إنما هو بتفهيم من الله وإلهام، حسب تلك الطاقة الضخمة العقلية والروحية التي اتصف بها سلام الله عليه، والتي تفوق كل تصور»[١].

فلو كانت تلك الفلسفات موجودة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام لكان بالإمكان الإشكال المذكور بأن يقال ولو احتمالاً أن العقائد الإسلامية نتائج للفكر اليوناني.

(١) المصدر السابق ص ٤٦٤.

الفصل الثامن

طرق التحصين والمواجهة

طرق التحصين والمواجهة

في هذا الفصل نبحث عن الطرق التي يمكن من خلالها أن نواجه هذا المد الإلحادي الجارف ونحافظ من خلالها على ديننا، وقد وجدت في كلمات السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عدة سبل وطرق يمكننا من خلال تفعيلها صد ومواجهة هذا التيار المنحرف، ونحن نذكرها في هذا الفصل كالآتي:

الطريق الأول: تطوير أساليب الدعوة للإيمان

ذكر السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في كتاب «إشراقات أدبية» وهو يتحدث عن «الأدب الإسلامي الملتزم» وضرورة تفعيله ونشر أفكار الإسلام وأطروحاته حيث قال:

«وهنا تبرز أمامنا جليةً واضحةً، فائدة الأدب الإسلامّي الملتزم، ومدى خدمته الفعالة في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولا بد لنا في هذا المقام أن نقف لحظاتٍ لتمييز معالم هذا الأدب الذي ندعو إليه.

بين يدينا هذه الجماهير، نراها لا تأنس إلاَّ بهذا الأسلوب السهل المبتذل، الذي تنشره المجلات والصحف والكتب الصغيرة المبسطة، وتنطق به الإذاعات ومحطات التلفزة، مشفوعةً بالصور الخلابة في أغلب

الأحيان، ففي هذه الأساليب ما يريحها أثناء الاسترخاء، بعد الكدح من أجل الحياة ـ ويسلّيها بعد التفكير المضني، ويقتل وقتها بسهولة ويسر. أما ما يبعث على التأمل والتفكير، فهو يفقد هذه المميزات ويدعو إلى التعب وبذل كميةٍ من الطاقة الذهنية، وإن كان في هذه الجماهير أفرادٌ تحاول أن تقرأه وتفهمه»[(١)].

وقد ألتفتت مجلة «الأضواء النجفية» إلى مدى فعالية النتاج الأدبي في نشر الدعوة الإسلامية، حيث كانت لقصائد حسان بن ثابت ودعبل الخزاعي، والكميت الأسدي، الأثر الكبير في المجتمع آنذاك لصد الشبهات المثارة حول النبي صلى الله عليه وآله ودحضها تماماً.

فقامت تدعو إلى الإسلام بنفس ما كان يدعوا إليه الشعراء المذكورين وتنشر أشعارهم وأشعار على وزانها ونحو ذلك.

إلا أن السيّد محمد الصدر قدس سره أشكل عليهم قائلاً: إنّ الزمان قد اختلف، فالناس آنذاك كانت تأنس بقصائد الكميت ودعبل وحسان وأمثالها، أما الآن فالناس تنفر من قراءة هكذا قصائد، ولا بد من إبداع طريق جديد للدعوة إلى الإسلام.

كما نجده قدس سره يقول:

«كانت [مجلة الأضواء] غافلة أو أنها تغافلت عن أن هؤلاء الشعراء إنَّما خاطبوا جماهير زمانهم، وتكلموا معهم على الطريقة التي يفهمونها،

---

(١) إشراقات أدبية ص ٨٤

وبالفكرة التي يستسيغونها، وكانت هذه القصائد حينئذٍ مؤثرة وفعالة، وتحمل شحنةً إسلاميةً قوية، وتغافلت عن أنَّ عليها أن تخاطب جماهير القرن الرابع عشر الهجري، وتتكلم على طريقتهم وبالأُسلوب الذي يفهمونه ويلذّون له، كما كانت جماهير القرون الإسلامية الأُولى تفهم حسان بن ثابت ودعبل وتلذّ لهما؛ لتنال الأضواء مثل ما نالا من الإعجاب والإصغاء»[1].

كما وقد انتقدقُدِّسَ سِرُّهُ المقالات الإسلامية الداعية لله وللإسلام بعبارات جامدة إذ قال:

«لن يفيد مقالٌ جامدٌ صلبٌ، كأنَّه يشرح أعقد النظريات العلمية وأدقها»[2].

واستثنى من ذلك ما كان في البحوث العلمية التي يقرأها أهل الأختصاص.

ويذكر الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أن الدعوات الإلحادية تخاطب أهل كل زمان بلغتهم التي يأنسوها وبسبب ذلك كانت مؤثرة في أغلب الناس إذ قال:

«وقد كان هذا الأُسلوب السهل المبسط، وهو المسلك الرئيسي في الدعاية لمختلف المبادئ ووجهات النظر المادّية والإلحادية[3]

---

(١) إشراقات أدبية ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦.

(٣) ومن مصاديق ذلك دعوى الملحد «ستيفن هوكنغ» الذي ألف كتاباً عن الثقوب السوداء بعنوان «المصميم العظيم» يشرح فيه أعقد النظريات العلمية بأسهل الطرق والأساليب ويثير فيه مسائل إلحادية؛ لكي يقرأه أي قارئ بأي مستوى من التفكير ويدس في هذا الكتاب الدسائس.

والاستعمارية التي هي تقصد الشر والدمار. فإذا كانت الجماهير بصفاء نفسها وخلوّ ضميرها، ترى أكاسرة الوحوش جميلةً وخلابةً، بمجرد صورة ملونة أو صوتٍ رقيق، فما أحرى ما أن ترى الإسلام أضعاف ذلك الجمال إذا اتَّبع نفس الأسلوب في دعوته»(١).

وقد قرأت على قبر السيّد عبد الحسين شرف الدينقُدِّسَ سِرُّهُ عبارة منسوبة له وهي:

«لا ينتشر الهدى إلاَّ من حيث ينتشر الضلال».

ولعل السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ يقصد بكلامه المتقدم هذا الأسلوب.

ومن مصاديق ما ذكره السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ ما حصل قبل أيام حيث بعثت أمريكا ممثلة هولويود «انجلينا جولي» إلى مدينة الموصل وذرفت بعض الدموع على الدمار الحاصل هناك فانخدع الكثير من المسلمين بدموع التماسيح هذه، وتناسوا أنه بالأمس كانت الطائرات الأمريكية تضرب عدة تجمعات عراقية وتتذرع بأنه قد حصل بالخطأ!

وأننا بتناحرنا وتخالفنا نظهر بعض رموز ديننا وكأنهم وحوش أكاسرة، وهم في تآلفهم الظاهري يظهرون وحوشهم بصور جميلة خلابة.

الطريق الثاني: الحذر من إعلام العدو

يذكر السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ في لقاء له أنّ الصحف والجرائد لا تتحرى

---

(١) إشراقات أدبية ص ٨٤ ـ ٨٥.

المصداقية والمهنية وإنّما الهدف الأساس من إنشائها هو جمع الأموال إذ يقول:

«نحن نعلم بطبيعة الحال على أن الصحف تُشترى بالمال، وكلُّ الصحفيين أوَّلاً لا إخلاص لهم، وأنا أسيء الظن بالصحفة مائة بالمائة، كلُّ صحف العالم لا أستثني منها واحدة إطلاقاً، ولا أستثني أي إنسان، كلها كاذبة ومزورة، وليسمع الناس ذلك، وكلهم أيضاً دنيويين، وكلهم تجار، وأنا أعلم أنّ صحف لبنان اعتيادي تأتي وتقول لهم: السلام عليكم أنا أشتري منك صفحةً واحدة وهذه أموال، هذا شيوعي، وهذا فلاني، وهذا فلاني، فتنسب كل صفحة إلى جهة، ويكتب ما يشاء، حتى لو إلحاد»[1].

ولما كان الإعلام هكذا صفته فقد حاول اليهود وتمكنوا من السيطرة على الإعلام العالمي من أجل تحقيق مآربهم وأهدافهم، وعندما انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» كانت صورة اليهودي في نظر الرأي العام العالمي صورة كريهة؛ فقد كان رمزاً للجشع والطمع، والمكر والخُبث، والأنانية والحقد، وكان اليهود في كل مكان يوجدون فيه موضع احتقار الناس وكراهيتهم؛ بسبب احتكارهم لمعظم الفعاليات الاقتصادية التي تتحكم في أقوات الناس، وكانت الشخصية اليهودية الكريهة مثار التُّندر والتهكم في المجتمعات الأوربية قاطبة، وكان الشعراء والأدباء يكرسون كراهية الناس للشخصية اليهودية في الكثير من شعرهم وإنتاجهم الأدبي، وكانت رواية «تاجر البندقية» لشكسبير، التي يمثل فيها التاجر شيلوك الشخصية اليهودية الجشعة الحاقدة، أبرز مثالٍ على ذلك.

---

(١) مواعظ ولقاءات ص ٣٦.

وقد أبدى زعماء بني صهيون اهتماماً كبيراً بدراسة ظاهرة انتشار موجة الكراهية للشخصية اليهودية.. فرأوا أنّ السيطرة على وسائل الإعلام -وخاصة التي كانت أقوى قنوات الاتصال الجماهيري آنذاك- ستُعطيهم مجالاً واسعاً لعملية غسل الدماغ وقلب الحقائق، وتمخّضت آرائهم عن عدة قراراتٍ أدرجت تحت البند الثاني عشر من مقررات المؤتمر الصهيوني الأول وهي التالية:

١ـ أن القنوات (أي وسائل الإعلام) التي يجد فيها الفكر الإنساني ترجماناً يجب أن تكون خالصة في أيدينا. إنّ أي نوع من أنواع النشر أو الطباعة يجب أن يكون تحت سيطرتنا، الأدب والصحافة هما أعظم قوتين إعلاميتين وتعليميتين خطرتين، ويجب أن تكونا تحت سيطرتنا.

٢ـ يجب ألا يكون لأعدائنا وسائل صحفية يعبّرون فيها عن آرائهم، وإذا وجدت فلا بدّ من التضييق عليها بجميع الوسائل؛ لكي نمنعها من مهاجمتنا.

٣ـ لن يصل طرفٌ من خبر إلى المجتمع من غير أن يمر علينا؛ فالأخبار تتسلمها وكالات قليلة تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم، وحينما نسيطر عليها، لن تنشر إلاَّ ما نختاره نحن من هذه الأخبار.

٤ـ لا بدّ لنا من الهيمنة على الصحافة،الدورية؛ حتى تصبح طوع بناننا، تُهيج عواطف الناس حين نريد، وتثير المجادلات الحزبية الأنانية التي تخدم مصالحنا حين نريد، ونسيطر بواسطتها على العقل الإنساني[(١)].

وما نشاهده من هجمات إعلامية في مواقع الأنترنت وشاشات التلفاز كلها

---

(١) قوى الشر واستراتيجيات إقصاء العقل ص ٨٥_٨٧

مؤسسة من أشد الناس عداوة للذين آمنوا وهم اليهود.

الطريق الثالث: معرفة أسباب قوة العدو

قد ذكر السيّد محمد الصدرقُدّسَ سِرُّه عدّة من الأسباب التي تجعل القوى الكافرة أكثر قوة من المسلمين، فإذا عرفناها أمكننا اتخاذ اللازم اتجاهها وسأذكرها مع بعض التعليقات عليها:

السبب الأول:

كون العقائد الكافرة متحصنة بدول كبرى وصغيرة مدججة بالسلاح، تعصف أمامها القنابل الذرية وتئز الصواريخ[(١)].

أي أنّ الدول التي تدعم هذه الأفكار المنحرفة ليست بالدول الضعيفة بل هي منفردة بالقوة الشاملة الفتاكة، وهي تسعى جاهدة لحصر القوة المدمرة لها، وتحارب كل من يمتلك قوة غيرها بدعوى أنّها «تمتلك سلاح دمار شامل» وكأنهم هم الملائكة الذين لا يضرون الناس إن أمتلكوا تلك الأسلحة وكل دولة غيرهم تمتلكها تكون مهددة للأمن العالمي مع أنّ تلك الدول المستعمرة أكثر تهديداً للأمن العالمي من غيرها، ومن الطريف عن أمتلاك الأسلحة الفتاكة ما ذكره الدكتور عبد الوهاب المسيري إذ يقول:

«وكنت مرة أجلس مع ابني، وهو بعد طفل، نشاهد التلفزيون، وسمع من المذيع أن الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفي لتدمير العالم أكثر من مائة مرة، ففوجئت به يضحك ملء شدقيه ويخبرني بشيء

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

بديهي فاتني، وهو أنّه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لا يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكي حول العقلانية العجيبة للعالم الغربي (المتقدم)»[١].

إنّ هذا السلاح الذي تصرف عليه دول الغرب المسماة بـ«العظمى» والذي هو ليس من جيوبهم الخاصة بل من دول العالم المنهوبة، هذا المال الذي يصرف لغرض الأسلحة الفتاكة كان بإمكانه إطعام آلاف الشعوب الجائعة، ولكن لا أحد من «المثقفين» ينتقد هذه الظاهرة؛ لأن سبب الجوع هو بناء المساجد في نظرهم فقط!

السبب الثاني:

كون العقائد الكافرة تنتشر بتصميم دقيق، وتنظيم مدروس حكيم، مستقىً من تجارب طويلة وعلوم كثيرة، بمشاركة الكثيرين من الاختصاصيين المفكرين والمصلحين المنفذين[٢].

فليس الاعداء الماكرين سذج حتى يأتون إلينا بدعوات علنية بأنّ يظهر شخص منهم يقول: أنّ الدين الإسلامي باطل، وأنّ محمدﷺ ليس برسول، وأنّ الأحكام الإسلامية كلها باطلة، بل هم يتخذون إسلوب الصديق في طرح الشبهات والأفكار المنحرفة، فيلبسون الباطل لباس الحق ويظهروه للناس ويكون ذلك عن طريق الدراسة الكثيرة للإسلام ـ كما مر الكلام عنه عند التعرض للمستشرقين ـ

---

(١) من ثمار رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية ص ١٠٥.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

وبمشاركة الأساليب الحديثة في نشر الشبهات التي تناغم العقول _كما مرّ الحديث عنه في الطريق الأول من هذه الطرق_، وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه:

«وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى»(١).

فيجب أن يلتفت الفرد المسلم الواعي أنّه ليس كل دعوى تشبه الحق فهي حق، بل لا بدّ من التعمق والتفكير في الدعاوى المنتشرة في زماننا والسؤال أهل الدين والعلم والورع عنها ليبينوا لكم ضلالها ووجه انحرافها.

ويرجع بعض المفكرين الإسلاميين السبب وراء التحذير من فتن آخر الزمان إلى كون الشيطان وأعوانه بسبب إغوائهم المستمر للبشرية منذ زمن آدم عليه السلام وإلى يوم الوقت المعلوم قد صاروا أكثر خبرة وتجربة في إغواء الناس وتعقدت الفتن جراء ذلك، يقول الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي «حفظه الله»:

«فمقارعة الفتنة ليست بالأمر الهين؛ لأنّ خطط الشياطين معقّدة، لا سيما في عصرنا هذا بعد أن اكتسب إبليس وأعوانه (من الجن والإنس) من التجارب الكثيرة على مدى بضعة آلاف من السنين تراكمت يوماً بعد آخر منذ زمان أبينا آدم عليه السلام إلى يوم الناس هذا. فخططهم قد أضحت على جانب من التعقيد حتّى أنّ أشدّ الناس حنكة ودهاءً يسقطون في

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٩٠.

حبائلهم»[(١)].

السبب الثالث:

كون الفرصة سانحة للعقائد الكافرة أن تغزو أي بلاد من هذا العالم الواسع، رغم الحدود والسدود عن طريق ملايين الصحف والنشرات وعن طريق أجهزة الإذاعة والتلفزة بما يضاعفها عدداً وعدة[(٢)].

وفي زماننا عن طريق الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وقد تقدم التحذير من الوسائل الإعلامية، وكيفية سيطرة قوى الشر عليها.

السبب الرابع:

ومما يساعد على انتشار العقائد الكافرة في بلاد الإسلام، هذا الفراغ العقائدي المروع الذي يتصف به شرقنا الإسلامي على وجه العموم، مما يجعل الطريق رحباً والعوائق قليلةً أمام تغلغل العقائد الكافرة فينا واستشرائها بيننا، ذلك الفراغ العقائدي الذي بذل الغرب جهداً مضاعفاً لأجل تنميته وسرعة نضجه؛ لكي تخلو الأذهان من العقيدة الإسلامية، ويخلو الطريق أمام مفاهيم الغرب الحضارية الحديثة[(٣)].

وقد مرّ بما عدّة مرات الإشارة إلى ذلك الفراغ الذي سعى إليه الغربيون عن طريق عملائهم «المستشرقين» و «الشرقيين» الذين يقتفون أثرهم، وبينا هناك

---

(١) أمواج الفتن وسفينة النجاة ص ٢٧٤.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

(٣) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

كيف أنشأت المدارس لهذا الغرض.

السبب الخامس:

كون العقائد الكافرة توفر لمعتقديها ضماناً ملموساً، من المال والمنصب والشهرة وما يشاء من إشباع الرغبات النفسية والغريزية، كلٌ بحسب مزاجه وقابليته[1].

فهم يروجون للشخصيات المنحرفة أشد الرواج ويصدرونها للناس على أنّها عقول مفكرة جبارة، ويسلمون لهم مناصب مرموقة في مجال الصحافة والإعلام، وكذلك يعطونهم كل ما يستحقون من غرائز وشهوات، وقد نقل الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي جانباً من توفير الرغبات الشهوانية إليهم إذ يقول:

«في إحدى المرات كنت مدعواً لإلقاء محاضرة في فيلادليفيا، وسمحت الفرصة آنذاك للتجول في بعض مدنها ومن جملتها واشنطن، وكان ذلك في سيارة معاون أحد الوزراء، وعندما وصلت بنا السيارة إلى تقاطع يوجد بالقرب منه مكتبة جميلة جداً فقلت عندها : أحب أن ألقي نظرة على هذه المكتبة، إلاَّ أن المعاون رفض وقال: ليس من المناسب أبداً أن نترجل من السيارة هنا، وعندما سألته عن السبب أجاب: هذه المكتبة للشاذين جنسياً.!! وقد رأيت على جنب ذلك التقاطع رجالاً كثيرين يتزيون بزيّ النساء، ويعرضون أنفسهم باللباس القصير، ومختلف

---

(١) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

الأدوات التجميلية النسائية»[١].

السبب السادس:

ما توفره العقائد الكافرة من إمكانية العمل السياسي لمعتنقها؛ فإن في نفس كل فرد من أفراد عصرنا الحاضر توقاناً غريباً، للاعتقاد بأمرٍ من الأمور، والدفاع عنه، والسعي في نشره والمحافظة عليه، ولو كلّفه ذلك حياته[٢].

ولا يُقصد من العمل السياسي هو خصوص المشاركة في الحكومات، بل الأعم من ذلك كالمعارضة وغيرها، ومنها السعي وراء جعل الشرقيين غربيين فكراً ومبدءً، ويحاربون كل ما هو شرقي من تقاليد وعادات بغض النظر عن كونها صالحة أو طالحة، يقول الدكتور أحمد إدريس الطعان:

«الغرام والهوى قد يدفع صاحبه إلى الجنون أو الخبل، لقد كان مجنون ليلى يُقبل الجدران لأن ليلى سكنت وراءها، ويذوب قلبه عندما تُذكر أمامه محبوبته، وهكذا كان حال مجنون إنكلترة أو مجنون أوربا فقد قال: (وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة، القبعة هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر... ونحن إذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوربا فقط، بل نصطنع لباساً اتفق المتحضرون على وضعه على رؤوسهم... فإنّ للمتحضرين

---

(١) تحديات ومواجهات ص ١٧.

(٢) إشراقات فكرية ج ١ ص ٢٤٦.

عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات... إننا سنبقى في نظر أنفسنا ونظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا ونعلن انسلاخنا من الشرق) إن القبعة -بنظر بعض الكتاب العلمانيين- تجعل الأحمق عاقلاً يقول: (لغرامي بالحضارة الأوربية فإني أحث بني وطني أن يلبسوا القبعة... لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية))»[1].

وهذا الوله سبب لأنتشار الأفكار الغريبة والفلسفات الأوربية الهدامة التي هي على مشارف الأنقراض في الدول الأوربية! إلاَّ أنّهم لا يزالون يعتقدون أن كل ما هو أوربي فهو أفضل مما هو عربي أو إسلامي!.

الطريق الرابع: الوحدة الإسلامية

أننا المسلمون نرى أنفسناً طرائق قدداً، إلاَّ أن عدونا المشترك لا يرانا كما نرى نحن أنفسنا، بل يرانا وكأننا رجلٌ واحد، ويضربنا كأننا رجل واحد، أنه لا يرى شيعياً ولا يرى سنياً، كما ولا يرى صدرياً ولا سيستانياً ولا شافعياً ولا حنبلياً، بل يرى أن هؤلاء يكنون الولاء لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

فلو كنا نحن نرى أنفسنا كما يرونا هم وتمسكنا بالدين المشترك بيننا وهو الإسلام لرددنا كيدهم إلى نحورهم، ولما أمكنهم أن يكسروا شوكتنا بل لكنا شوكة في عيونهم، والوحدة لا تعني الذوبان في مذهب التشيع أو التسنن بل هي كما قال السيّد محمد الصدر قدس سره:

---

(١) العلمانيون والقرآن الكريم ص ١٤٦.

«ليس معنى الوحدة الاتفاق على مذهب معين من مـذاهب الإسـلام، لا السني ولا الشيعي؛ فإن ذلك يتعذر في المستقبل المنظور، وإنما المهـم الآن دفع العدو المشترك الذي يترصد لنا بمختلف الأسـاليب والحبائـل والخدع، بل أساليب القتل والفناء. وهذا هدف لو كـان علـي بـن أبـي طالبعليه السلام لاهتم به، ولو كان عمر بن الخطاب لاهتم به، وقد اتفقا فعـلاً (ظاهراً) في حياتهما وتاريخهما بهـذا الهـدف، فلمـاذا لا يكونـان لنـا أُسوة؟!»[(١)].

وإنّما يُقصد من الوحدة الإسلامية هو المحافظة على العقائد المشتركة بيننا والالتفات إلى مكر العدو المشترك والقضاء عليه، كما يقولقدس سره:

«الوحدة بين المسلمين تقوم كشيء أساسي على الجانب الأهـم، وهـو محاربة العدو المشترك، والاختلاف بـين الجـانبين -أعنـي: المـذاهب الإسلامية- وإن كان موجوداً، وإلا أنه يجب تناسي ذلك لأجل الحفـاظ على أصل الإسلام المشترك الصادق بيننا وبينهم. ويكفـي فـي الاتحـاد على هذا الهدف وجود عناوين عامة مشتركة، كالكتاب والسنة والقبلـة، وبعض أصول الدين، وأكثر فروع الدين، مع غض النظر عـن التفاصـيل طبعاً، ومع تناسي الماضي وليس نسيانه؛ لأنَّ نسيانه الواقعي يعني إسقاط المذهب عن نظر الاعتبار»[(٢)].

ومن هنا كان السيّد محمد الصدرقدس سره يؤيد دور التقارب بين المذاهب حيث

(١) تعليقات على كتاب الشيعة والسنة ص ١٦. وهذا الكلام من باب الإلزام لا من باب الاعتقاد.

(٢) تعليقات على كتاب الشيعة والسنة ص ١٥.

قال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«قال أحد عضاء دار التقارب بين المذاهب الإسلامية[1] ما مضمونه: (أنه ليس المراد في هذه المرحلة من العمل والتفكير هو أن نجعل الشيعيين سنيين، وإنما المهم هو التمسك بالدين المشترك، وهو الإسلام، والقيام ضد العدو المشترك، وهو الكفر والإلحاد المتمثل بالإستعمار). وبطبيعة الحال فإن مجرد التفكير في هذه الوحدة قلبياً وعقلياً، لهو مرحلة مهمة وجيدة ونافعة، تكفي في نتائجها عدم توجيه الحقد والعداء ضد بعضنا البعض ـ والعياذ بالله ـ من مختلف مذاهب الإسلام، وإنما اختصاص توجيه الحقد والعداء ضد من هو أهل لذلك وهو العدو المشترك المتمثل بالكفر والإستعمار»[2].

ثم ينتقد السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ من يؤسس جمعيات للوحدة العربية ويصفها بأنها من صنائع الغرب، وإلا فنحن أصحاب الوحدة الإسلامية لا الوحدة العربية. ويقول قُدِّسَ سِرُّهُ:

«ابتدع الغرب لعبته الأخرى التي نجح فيها إلى حد بعيد وتتمثل في

---

(١) جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة. أنشئت هذه الجماعة في القاهرة سنة ١٩٤٨ م واستمرت حتى عام ١٩٧٠ م حيث أمر بإلغائها جمال عبد الناصر، على أثر خلاف بين إيران ومصر. كانت هذه الجماعة باباً عظيماً لتأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم، وجمعهم على كلمة سواء، ونبذ التعصب البغيض الذي يفرق شمل الأمة. وقد جمعت هذه الجماعة صفوة من أهل العلم والدين والرأي عند أهل السنة والشيعة (أضواء على منبر الصدر ج ٣ ص ٦١).

(٢) منبر الصدر ص ٤٣١.

إثارة لغة الدين والتركيز عليها من أجل الوصول إلى مصالحه. ومن هنا أعلن (عبد الناصر) شعار الوحدة العربية والقومية العربية وتأسست الجامعة العربية كمدافعة عن (العرب) في الوجود والتقدم مع العلم أن اللغة لا تعني أكثر من وسيلة للتفاهم من دون أن يكون من المفروض لشعوبها تاريخ مشترك أو مصالح مشتركة أو علاقات أو أي شيء آخر.

غير أن التركيز المستمر في الثلاثين سنة الأخيرة هو الذي أوحى لملايين الناس حكاماً ومحكومين هذه الشبهة الضخمة. كما أن تأسيس إسرائيل كان له اليد الطولى في ذلك.

حيث وقفوا في وجهها بصفتهم (عرب) لا بصفتهم (مسلمين) وهم قد خدموها بذلك من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

أما هي ـ أعني قادتها ـ فيعلمون بذلك علم اليقين. ولم يقتصر الأمر على (العروبة) بل أكّد (الشاه) في ايران على لغة الفرس والتاريخ الفارسي والمملكة الفارسية المستمرة قبل أربعة آلاف سنة.

هذا مع العلم أن الدول الأخرى بما فيها دول الشرق والغرب والعالم الثالث ليس للقومية فيها أي أثر، فهناك أقوام ينطقون بلغة واحدة مع كونهم محكومين بحكومات متعددة كالنكَليز والهنود.

كما أن هناك حكومات تحكم عدة مجموعات لغوية كحكومات وسط أوربا الشرقية والغربية على السواء، هذا ولم يُلفت ذلك أنظارهم أو يثير أسفهم بعد أن كانت مصالحهم المنظورة لهم مضمونة ومتوفرة نسبياً.

وإنما خطط الغرب ذلك ليجعله في الشرق هدفاً وشعاراً بمعزل عن دين هؤلاء الشعوب ومصالحهم الحقيقية.

إن إسرائيل تحاربهم بصفتهم يهوداً والدين إنما يمكن مقابلته بالدين

وليس باللغة، فلو كان اليهود يحاربون بصفتهم (عبـريين) لصـح نسـبياً مقابلتهم بصفتهم (عرباً) أما حين يتخذون صفة اليهودية فليس مـن أداة الحرب سوى الإسلام...

وإذا تمت الملاحظة الدقيقة وجدنا أن شعار العروبة قد أستغل لفترة من الزمن (كهدف) مضافاً إلى كونه (شعاراً). فكانت (الوحدة العربية) هدفاً للناصرية[١] وغيرها، في حين أن شعار الإسلام يقترن بكونـه هـدفاً فـي نظرمن تبناه من دول الشرق ولم ينادِ أحدٌ بـ(الوحدة الإسـلامية) وهـذا مفهوم جداً من وجهة نظر الغرب وعملائهم لأن هذا الهدف هـو العـدو الأكبر الذي يحاربونه ويحاولون القضاء على كل من يستهدفه في حـين أن (الوحدة العربية) لم تكن كذلك»[٢].

الطريق الخامس: معرفة ثوابت العقيدة

في عصر الأنترنت والفيس بوك بين فترة وأخرى تطرح علينـا أفكـار جديـدة لم نكن قد سمعنا بها قبلاً، فينساق جملـة مـن النـاس إلـى تصـديقها، ونفـي عقائـد قديمة لمجرد كونها قديمة!

وقد رأيت مقطعاً فيديوياً لا يتجاوز الخمس دقائق ينفي البرزخ وعذاب القبـر وقد رتب بعضهم عليه الاثر، ولعمري أنى لخمس دقائق تنفي تراث كامـل يـتكلم عن البرزخ والقبر!!

(١) أي اتباع جمال عبد الناصر.

(٢) نظرة في فلسفة الأحداث ص ١٤ ـ ١٦.

مع العلم أن صاحب هذا المقطع رجلاً متهكماً قد كذب في أشياء ضمن كلامه ومع ذلك انصاعوا له بالقبول!!

وما ينبغي أن يُعلم هنا أنَّه ليس كل جديد معناه أنه الحق، بل كثير من الأمور الجديدة هي ضالة ومنحرفة، ويجب أن نقف أمام الجديد موقف الممحِص لا موقف المتلقي.

يحدثنا السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ عن أثر الحرية في نقل الآراء التي اشاعت الالحاد في الغرب قائلاً:

«ما زلنا نرى أثر هذه الحرية التي حصل عليها الأوروبيون، من تحلُّل خُلُقي واجتماعي وتفشِّي العقائد الإلحادية والدعوات المتضاربة المتناقضة في المجتمعات الأوربية وغير الأوربية، بل إن كل مفكر يَبرُز إلى الوجود يكون له رأي جديد ووجهة نظر جديدة، وتفسير جديد للكون والحياة، مما يجعل الناس في حيرةٍ من أمرهم بعد أن تتبعثر عقائدهم ويضيع معهم يقينهم واطمئنانهم(١). وكان من جملة تلك الدعوات الإلحادية، الدعوة الماركسية التي وَجَدَت من الإنفجار الثوري الذي حصل في موسكو على أثر الضغط القيصري التعسُّفي على الشعب الروسي، مستنقعاً خصباً للتوالد والإنتشار»(٢).

فعلينا أن لا نقف موقف المتحيرين أمام هذه الآراء الجديدة بل يجب

(١) وهذا النوع من الحرية المذمومة قد أدخلها الغرب إلى البلدان الإسلامية عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي تلقي كثير من الشبهات حول ثوابت الدين من دون رقيب ولا حسيب.

(٢) نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان ص ١٠٧.

الرجوع إلى أهل الأختصاص من العلماء وطلبة العلم المشتغلين لحلها وعلاجها لتنقشع ظلمة الشكوك والظنون.

إلا أنهم ـ ومع الأسف الشديد ـ لما أثاروا هذه الشبهات الإلحادية، أثاروا معها ـ بجرحة كبيرة ـ موجة تشكيكية برجالات العلم والعلماء، مما يجعل الفرد أكثر تلقياً وقبولاً لتلك الشبهات، ولا يرجع إلى العلماء ورجال العلم لحلها لأنه ـ وبسبب تلك الجرعة ـ حكم عليهم مسبقاً بالضلال والأنحراف، وبالتالي سيقع في شراك ذلك الفخ المنصوب، قال السيّد محمّد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ :

«أهم أهداف الاستعمار الغربي هو صرف المسلمين والشيعة بالخصوص عن دينهم؛ لأنهم وجدوا أن التقليل العددي للبشر لا يُجدي عن طريق الحروب ونحو ذلك، وإنما الذي يُجدي فيه الأكثر هو حملهم على الأهواء والشهوات والانحرافات.

وحينئذٍ أحسن شيء وموقف يتخذه الفرد لنفسه هو مطالعة الكتب الأساسية في أصول الدين وأصول المذهب، من قبيل مؤلفات السيّد عبد الحسين شرف الدين، والشيح عبد الحسين الأميني، ومحمود ابو رية، وعبد الفتاح عبد المقصود، ومحمد التيجاني، والسيّد عبد الله شبر وآخرين، وكذلك كتب التفسير القديمة والحديثة.

وكذلك بعض كتب العقائد، من قبيل فلسفتنا، ومن قبيل عقائد الأمامية، ومن قبيل أصل الشيعة وأصولها، ونحو ذلك من الأمور. ولربما مؤلفاتي ايضاً تدخل في هذا الصدد، ولربما مؤلفات أخرى...»[(١)] .

---

(١) مواعظ ولقاءات ص ١٠٦.

إلا أن القراءة لدى الناس مهجورة، بل بعضهم يروج لقراءة الروايات الرومانسية أو الترفيهية ونحوها فيعرض أكثرهم عن قراءة كتب عقيدتهم الدينية مع حاجتها الملحة في وقتنا الحاضر وكل وقت.

وللوقوف على كلامه المتقدم نقول ما يلي:

تنقسم الحرب بالاصطلاح الحديث إلى قسمين:

القسم الأول: الحرب الصلبة: وهي التي تستعمل الآلات الحربية الحديثة ونحوها في فرض سيطرتها على الدول المستعمرة عن طريق القتال والتقليل العددي للبشر بقتلهم والتنكيل بهم.

القسم الثاني: الحرب الناعمة: وهي القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً عن الإرغام وهي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج والأهداف المتواخاة بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل والوسائل العسكرية الصلبة(١)، وهذا معنى قوله قُدِّسَ سِرُّهُ:

«وجدوا أن التقليل العددي للبشر لا يُجدي عن طريق الحروب ونحو ذلك، وإنما الذي يُجدي فيه الأكثر هو حملهم على الأهواء والشهوات والانحرافات».

وبالحقيقة فإن السبب من تحول الاستعمار الغربي من الحرب الصلبة إلى

---

(١) هذا تعريف البروفيسور جوزيف ناي وهو صاحب هذا الاصطلاح، وهو استاذ العلوم السياسية وعميد سابق لمدرسة جون كيندي الحكومية في جامعة هارفارد (الحرب الناعمة ص ١٠).

الحرب الناعمة التي تسعى إلى تغيير افكار المسلمين من اجل السيطرة عليهم، يرجع إلى عدة عوامل نذكر منها ما يلي:

العامل الأول: أن الهدف الأساسي عند المستعمرين هو السيطرة على الشعوب بأي طريقة كانت، إلاَّ أنها كلما كانت أيسر كانت أفضل عندهم؛ فإن الحروب قد تكلفهم ضحايا وأموال ومشقات، أما الحرب الناعمة فأقل من الحرب الصلبة كلفة وأكثر فائدة لهم.

العامل الثاني: في الحرب الصلبة قد يخسر الاستعمار فيها عدداً من جنده بينما في الحرب الناعمة قد يكسب الاستعمار فيها أشخاصاً كثر عن طريق اقناعهم بفكرهم ومناهجهم، وكسب الأعداء عن طريق الإغراءات ونحوها خير من فقد الأصدقاء، فهم يبثون الخلاف والتخاصم بين المسلمين ليظهر الدين الإسلامي في نظر المسلم عاجزاً عن مسايرة الحياة الهانئة ومبتلياً بالتعصب الطائفي ونحوها فيأتي الغربي بنظرة المتحضر الذي عنده كل الحلول فينخدع أكثر المسلمين يقول السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ:

«أن نفس هذا الخصام، يكون مادة دسمة لهذه الجهات الكافرة المستعمرة، لوضع الحلول والشعارات البراقة الخلابة، لجلب البسطاء من الفريقين إلى صفها والتأثير عليهم في سبيل الدخول تحت لوائها، ويكون هذا الخلاف مستنقعاً جيداً لصيد مثل هذه الأسماك»[(١)].

وقد ذكرنا سابقاً كيف استغل الملحد الأمريكي «دوكينز» الخلاف الطائفي

---

(١) الطائفية في نظر الإسلام ص ٣٢.

في العراق من أجل أن يؤثر الناس الإلحاد على الإسلام والدين عموماً.

وبالتالي فإن هذا أهون ـ كما ترى ـ من الحروب ومشقتها ومعاناتها وكفى الله المشركين شر القتال!!

العامل الثالث: إن الحروب الصلبة تُضفي على الاستعمار صفة الاحتلال والوحشية التي باتت منبوذة عالمياً، أما في الحروب الناعمة فيمكنهم من خلالها التخلي عن هذه الصفة بأن يكونوا «قوات التحالف» أو «قوات صديقة»!! وكل مقاوم لهم يطلق عليه «ميليشيا» كما يروج له الإعلام المعادي، وبالتالي فإن سلب عنوان الاحتلال منهم يعطيهم الشرعية عالمياً في فعل ما يحلو لهم في البلدان الإسلامية من صناعة الصراعات الداخلية والطائفية ونحوها التي تجعل المسلمين يقتل بعضهم بعضاً من دون أن تتكلف القوى العالمية بالحرب بنفسها. وهذا ما ذكره قُدِّسَ سِرُّه في بعض رسائله إذ يقول:

«التفات القوى العالمية (اليهودية والمسيحية) بأن الشيعة يمكن أن تصدر منهم (الأذية) والتمرد والقلاقل.. إذن فلا بد من استئصالهم عن بكرة أبيهم وتحطيمهم حالاً ومالاً، وحيث أن الشيعة متواجدون في الأغلب في العراق وإيران ولبنان إذن فلا بد من افتعال حروب تقوم بدورها باستئصالهم من دون أن يكون الجرم منسوباً إلى القوى العالمية التي تلبس قميص الإنسانية والدفاع عن السلام»[1].

العامل الرابع: إن القتل العددي من المسلمين سيولد للاستعمار اجيالاً تتربى

---

(١) قناديل العارفين ص ١٥١ ط الرابعة.

على بغضه وأجيلاً تحرص على أخذ الثأر منه وسيولد لهم الكثير من المشاكل التي تحول بينهم وبين سيطرتهم التامة، فتحاشياً لهذه الأزمات المستقبلية وجدوا أن القدوم بهيئة الصديق آمن وأسلم وأنفع لمخططاتهم الخبيثة من القدوم بصفة العدو.

العامل الخامس: إن الحروب التي قادتها دول الاستعمار لم تأتِ أكلها، كما يطلبون فمن هنا أرادوا تغيير نمط المعارك الاستعمارية من نمطها القديم إلى نمط آخر وهذا ما صرح به وزير الدفاع الامريكي «روبرت غيتش» في كلمة له بتأريخ ٦ /١١ /٢٠٠٧ إذ يقول : إن القادة الامريكيين أدركوا أن طبيعة الصراعات تحتاج منهم إلى تطور القدرات والمؤسسات الأساسية «غير العسكرية»[(١)].

وعليه فحمل الشعوب المستعمرة على الاهواء وبث الانحلال الخلقي والعقائدي في اجوائهم أفضل من مقاومتهم بالسلاح على المستوى الداخلي كشعوب أو العالمي، وبه كذلك تتحقق غاياتهم بأبسط طريقة وبأقل الخسائر وأكبر النتائج.

الطريق السادس: المحافظة على القدوة

من جملة الأمور التي يحاول الغرب الكافر إسقاطها هو إتباع القدوة! وهم العلماء والمفكرين في كل زمان ومكان، وقد أكَّد بعض المفكرين أن اسقاط القدوة أحد طرق تهديم الحضارة.

فإذا نحن كنا على قدر من الوعي والمسؤلية لنحافظ على مقام قدواتنا من

---

(١) الحرب الناعمة الاهداف وسبل المواجهة ص ٢٤.

العلماء والقادة والمفكرين، وسيمكننا ذلك من صد موجات الإلحاد والتشكيك.

لذا نجده(قدس سره) يقول عن من يثير الشبهات حول القائد الإسلامي المختار الثقفي(رحمه الله) ما نصه:

«وهم طبعاً يريدون إفشال كل قادة الشيعة، من معصومين وغيرهم، والإعلام ضدهم. ونحن إذا طعنّاً بالمختار فقد أعنَّا أعداءنا على أنفسنا»[1].

فعلى من لهم حظ من الوعي الديني أن لا يصدق كل ما يثار حول الشخصيات الإسلامية من تسقيط وتشكيك لأن التصديق بكل شيء يفضي بالآخر إلى نبذ الدين وإسقاط أهميته.

وإني شخصياً أعرف جماعة كثر بدأ شوط انحرافهم من الطعن بالعلماء والمراجع والقادة والمفكرين ثم توسطوا بانتقاد كلمات المعصومين(عليهم السلام) وبعضهم ترك حتى الصلاة! بعد أن كانوا مؤمنين ومتدينين.

والغرب الكافر وأعداء الإسلام عموماً إنما هدفهم من إسقاط قدواتنا هو أزالة إيمان المؤمنين عن قلوبهم، لذا نجد السيّد محمد الصدر(قدس سره) يقول:

«في حدود فهمي: فان الاستعمار يخطط أنواع المخططات والأساليب لسلب ديننا منا وإبعادنا عنه والتوصل إلى عصياننا لتعاليمه وتخلينا عن عدله، لكي نكون مثلهم في التسيب الأخلاقي والمالي والجنسي ـ كما هو الغالب في بلادهم ـ فلا نشعر بالمسؤولية وتأنيب الضمير والخوف

---

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين(عليه السلام) ص ١١٧.

من الله سبحانه.

ونحن إذا فعلنا ذلك، مما حاولوا نشره في المجتمع المسلم والمتـدين، فقد اطعناهم وأعناهم على نجاح مخططاتهم وأهـدافهم. وبالتـالي فقـد سرنا في الاتجاه المعاكس لديننا وأخلاقنا والعدل المرجو منا.

وكذلك نكون قد أعنا أعدائنا ضد أنفسنا بعد أن نعلم أن السلوك الديني هو السلوك الصالح والسلوك الآخر هو السـلوك الظـالم. وان التمسـك بالسلوك الصالح أفضل للفرد والمجتمع من السلوك الطالح والظالم»[1].

وقال السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ :

«الحوزة مصونة ومقدسة، وكل ما كان مقدساً لا يجوز الإعتداء عليه ولا مسه بسـوء، لا بالقليـل ولا بـالكثير، لكنـه حينمـا تقتضـي المصـالح الاستعمارية غير ذلك، والقضاء علـى بعـض رمـوز الحـوزة وعظمـاء الحوزة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هو شيء لم يكن متوقعاً في السابق ولا متوقعاً في اللاحق في الحقيقـة، وإن كان مع وجود الإستعمار الغربـي والثـالوث الشـرير فـي الحقيقـة الأمريكي الإسرائيلي البريطاني يتوقع كل شـيء؛ لأن مكـرهم وحـيلهم الدنيوية والشيطانية أوسع مما تتصور، ونحن لا نعلم أنـه الكمبيـوترات الأمريكية والأسرائيلية ماذا مخزون؟!.

ولكنه مع ذلك أنا أقول أنّ هذا شيء ظلـم محـض، والحـوزة مصـونة أساساً من كل سوء دينياً ـ وسبحان الله ـ رجال دينهم مصونين ورجال

---

(١) مسائل في حرمة الغناء ص ٣٨.

ديننا غير مصونين ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[(١)] من قبيل يقال في العامية: (سطح وهوائين ما يصير).

رجال الدين مصون حتى من لبس العسكرية بالقانون، فكيف أن لا يكون مصوناً عن القتل[(٢)] وعن الذل وعن الهوان، هذا شيء غير جائز بطبيعة الحال، ويكون طبعاً حرمان للمجتمع من فوائده، ومن دروسه ومن تأليفاته ومن نصائحه بطبيعة الحال.

ولربما يقصدون وجود هذا الحرمان، يريدون أن يحرمونا من علمائنا ومن قادتنا ومفكرينا، وقد فعلوا بطبيعة الحال، المهم هو الله تعالى هو الحافظ ونحن لا نقول إلاَّ ما قال عبد المطلب (رضوان الله عليه): للبيت ربٌ يحميه»[(٣)].

وفي ضمن المخطط في إسقاط القدوة ذكر الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي موقفاً حصل معه أيام طفولته من محاولات لتسقيط العلماء إذ قال:

«قبل ما يقارب من سبعين عاماً عندما كنت طفلاً في الخامسة أو السادسة من العمر كانت صحيفة تنشر يوميّاً مقتطفات عن بعض القضايا الدينيّة لا سيما بخصوص علماء الدين والمعمّمين. نشرت هذه الصحيفة ذات يوم صورة عن حوض حمام عامّ وقد استقرّ عالم دين بلحية طويلة ورأس أصلع في الحوض وهو يحاول أن يغترف من ماء

---

(١) النجم ٢٢.

(٢) إشارة إلى مقتل الشهيدين الشيخين البروجردي قدس سره والغروي قدس سره.

(٣) مواعظ ولقاءات ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

الحوض ليشربه.

ثم صورت في الجانب الآخر من الحوض بعض الصبيان والأشخاص وهم يغسلون أجسامهم الوسخة في ماء الحوض، أو طفلاً يتبول داخل مائه والشيخ في الطرف الآخر يريد شرب الماء من نفس الحوض!

لقد كانت حمّامات السوق متعارفة في الماضي غير البعيد. وكان آنذاك عرف سائد وهو أنّه عندما ينزل جماعة إلى حوض الحمام صباحاً يقدّم كلّ واحد منهم غرفةً من ماء الحوض إلى الآخرين للشرب. سبب ظهور هذا العرف غير معلوم، ولعلّ منشأه حديث مضمونه أنّه ينبغي أن يكون ماء الغُسل نظيفاً إلى درجة أن الشخص يمكنه شربه.

وقد تحوّل شيئاً فشيئاً إلى عُرف بأن يقدّم كلّ من يدخل إلى حوض الحمام صباحاً غرفةً من مائه إلى الآخرين.

تلك الصحيفة كانت تحاول الإيحاء بأنّ علماء الدين كانوا يشربون من هذا الماء القذر عند النزول إلى الحوض وتدّعي بأنهم يصرون على الإبقاء على أحواض الحمّامات العامّة رغم إصرار دائرة الصحة على ضرورة استعمال الدوش بدلاً عنها كي يسلم الناس من هذه الأقذار والأمراض. إذن على هذا النحو وأمثاله كان يحقَّر علماء الدين ويصورون بهذا البله والحمق في أعين الناس»[1].

وأنت لاحظ الآن بأم عينك، ستجد أن أشرس رجلين يطعنون بعلماء الدين

---

(١) أمواج الفتن وسفينة النجاة ص ١٧٥.

وقدواتنا يسكنون في «بريطانيا» كياسر الحبيب وعبد الحليم الغزي، اللذان ما تركا عالماً إلاَّ مزقاه بأسلوب متعجرف ينم عن خستهما ودناءتهما.

وأقول بكل وضوح أن هؤلاء عملاء للثالوث الاستعماري أما مباشرةً، أو بطريق غير مباشر، فالسيّد محمد الصدرقُدّسَرّهُ له تفسير آخر للعمالة حيث يقول:

«أنا لم أقول هو رأى يهودياً وجعل معهم محادثات لا، وإنما بمعنى آخر إنما هو نصر للاتجاه الإسرائيلي... وإنما كل من يكون ضد الحق هو هكذا يكون بطبيعة الحال»[1].

الطريق السابع: الجهاد التثقيفي

من الأمور التي تجعل الحركات الفكرية المنحرفة رائجة في أواسط المجتمع هو السكوت عن الجهاد التثقيفي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروط باحتمال التأثير فإن لم يكن التأثير محتملاً لم يجب، إلاَّ أن الكثير منا قرأ هذا الشرط قراءة مقلوبة، وصاروا يتذرعون لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة عدم احتمال التأثير، ولو قرأنا هذا الشرط بقراءة صحيحة لكان معناه مختلف عما في أذهان الكثير.

أن هذا الشرط لا يقول أترك الأمر بالمعروف في حالة احتمال عدم التأثير، بل يقول اترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حالة عدم احتمال التأثير.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٥.

والفرق بين القراءتين هو: أن صاحب القراءة الأولى الخاطئة يقول: يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاحتمال، وصاحب القراءة الثانية الصحيحة يقول: يجب الأمر والنهي بالاحتمال، وشتان بين الأمرين! ومن هذا المنطلق يقول السيّد محمد الصدر قدس سره:

«وأمّا الجهاد العقائديّ التثقيفيّ، فهو وإن كان منوطاً باحتمال التأثير، فإن لم يكن التأثير محتملاً لم يكن هذا الجهاد واجباً، إلاَّ إنَّ ذلك إنَّما يتصوّر في تثقيف الفرد الواحد، وأمّا في التثقيف العامّ للمجتمع، فهو يقيني التأثير والإنتاج في الجملة، بالنسبة إلى عددٍ من الأفراد قليلٍ أو كثيرٍ، من طالبي الحقيقة في المجتمع»[١].

فهناك جماعة غير قليلة في المجتمع ممن يعثون في عقائد الناس فساداً لا بد من ردعهم فكرياً وعلمياً، أما إذا سكتنا عنهم فسيشكل هذا السكوت أهمية لهم، وقد يصدقهم بعض الناس عندما لم يجدوا لهم من يردعهم، وبالتالي سوف يكثر عددهم في المجتمع.

فاحتمال التأثير في الفرد الواحد قد لا يتحقق أما في الجميع فيمكن أن يوجد احتمال التأثير ولو لفرد واحد، كما ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله:

«فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم»[٢].

---

(١) الإمام المهدي المنتظر ص ١١٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٢١ ص ٣.

إلا أن بعضهم ـ وللأسف الشديد ـ يعامل الأمة معاملة الفرد الواحد في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظن أن احتمال عدم التأثير في فرد واحد سيجعل الكل غير متأثرين.

وقد تناسى هؤلاء بأن هذا الشرط الفقهي له بعدان، بعد شخصي وبعد اجتماعي، وهؤلاء يطبقون البعد الشخصي على البعد الاجتماعي.

هذه النظرة الفردية هي التي كان السيّد محمد باقر الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ يسميها بـ«**النزعة الانكماشية في الفقه**» فهناك من يفكر بأن الأحكام تدار بهذه الطريقة تطبيقاً، بينما يلزمنا أن نفكر ونحن نتعامل مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوصفنا جماعة كبيرة منتشرة في الأمة، كل فرد من أفراد هذه الجماعة يأمر وينهي واحداً أو اثنين.

وهنا يمكن أن أنظر إلى حالتي بوصفي جماعةً، فهل قيام جميع أفراد الجماعة يمكن أن يُحدث تأثيراً على المستوى الفردي أو الاجتماعي، حتى لو كان هذا الفرد أو ذاك في هذه الحالة أو تلك لا يجد احتمال التأثير في هذا الفرد من الناس وغيره؟

إن وجود حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، حتى مع فقدان التأثير الجزئي هنا أو هناك، هو بنفسه له تأثير على الناس، بمعنى أنَّ من يفعل المنكر لا يشعر بطمأنينة نفسية.

وهذا أيضاً شكل من أشكال التأثير، وفكرة التأثير ليس مستندها نص ديني ثابت السند والدلالة يحكي عنها، وإنما عمدتها المقاربة العقلانيّة لطبيعة الفريضة وملابساتها.

إن سكوت الآمرين بالمعروف يجعل شريحة كبيرة من الناس لا تشعر بأنَّ ما تفعله هو ذنب، وهذا معنى الرواية التي قالت:

«كيف بكم إذا صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً»[(١)].

فعندما يسكت الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، يروج الانحراف الأخلاقي والاجتماعي في الأمة، ولا يلتفت الناس إلى أنَّ ما يفعلونه هو المنكر. فنفس وجود ظاهرة الأمر بالمعروف حالةً اجتماعية يؤدّي إلى شعور المذنبين بأنَّ هناك وجهة نطر (على الأقل) تقول بأن ما يفعلونه غير صحيح[(٢)].

وكذلك السكوت عمّن يقبل الأفكار المنحرفة الالحادية ويستهزئ بالمبادئ الإسلامية الحقة والصحيحة، وعدم الجهاد التثقيفي ضد هذه الظواهر سيجعل الكثير منهم لا يشعر بأن ما يفعله خطئ وبالتالي سيبني عليه إلى آخر عمره مما يضر بدينه وبدين المجتمع على العموم.

وكذلك يدخل ضمن الجهاد التثقيفي ما أرادقُدِّسَ سِرُّهُ تطويره في داخل الحوزات العلمية الشريفة من وهو دراسة أفكار الغربيين وتقويمها ورد شبهاتها وبيان موضع الخلل فيها إذ قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

«حاجة المجتمع تقتضي التكثير في الثقافة العامة والتكثير أيضاً في الثقافة الخاصة يعني بالتثقيف بالعلوم واحدةً واحدة يكفي أن نسأل هذا السؤال أنّه رد الفلسفات الأوربية المعادية، مناقشة المسيحية، مناقشة

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ١٢٢.

(٢) مجلة نصوص معاصرة عدد ٤٦ مقال للشيخ حيدر حب الله.

اليهودية، مناقشة الوجودية، مناقشة دون فلسارتر، مناقشة جون لوك، مناقشة سبينوزا، وفلان، وفلان، وفلان، ديكارت مثلاً، أو أي واحد نناقشه بأحكام الحيض والإستحاضة؟!! أليس هذا الكلام عيباً؟! أكيداً لا بطبيعة الحال، وإنما ينبغي أن نناقشه بأسلوبه وبفكرته وبالمقدمات التي توصل إلى الانتقاد الحقيقي له وإقناع الفكر المعاصر لو صح التعبير بشيء يفيد، وأما نحن لا دخل لنا ونحن علينا بالإستخارة وصلاة الجماعة، هذا كله ينبغي أن يختص بهم، أنا تبرأت منه، الله تعالى أعاذني من هذا الإتجاه العجيب الغريب»[1].

إلى هنا تم الكلام في كتاب **الإلحاد برؤية السيّد محمد الصدر**قُدِّسَ سِرُّهُ وذلك في تاريخ ٢٤ ذي الحجة عام ١٤٣٩ للهجرة النبوية المباركة، وكان ذلك في النجف الأشرف في جوار الروضة الحيدرية على ساكنها ألف التحية والسلام.

---

(١) مواعظ ولقاءات ص ١٣٩.

الملاحق

ملاحق

الملحق رقم (١) : ترجمة أبي القاسم الزهراوي

إنما اخترت هذه الترجمة لأنها تعرض بشكل واضح أحد الشخصيات الأندلسية التي لا زال العالم المعاصر إلى الآن يأخذ من نمير علمها ويقيمون الدراسات حولها، مع أنها انتجت من رحم الإسلام الذي يصفونه بالمتخلف، ومع أنها ولدت من أحدى الدول التي فتحتها قوات الإسلام، بينما نجد بشكل واضح وملموس أن كل الدول التي استعمرتها الدول الأوربية لم تنتج شعوبها إلاَّ التخلف الفكري والأخلاقي، الأمر الذي يوضح للقارئ أن الفتوحات الإسلامية كانت ترقي المجتمعات وتطورها، بينما الاستعمار الغربي كان ولا يزال سبباً من أسباب نشر التخلف في الشعوب المستعمرة، ونشر الأمراض والأوبئة الخطرة وما غيرها من المساوئ التي لا تخفى عليك.



صورة لأحد مؤلفات الزهراوي

ترجمته: أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (المتوفي بعد سنة ٤٠٠

هـ/١٠١٣ م) المعروف في العالم الغربي باسم Albucasis، هو طبيب عربي مسلم عاش في الأندلس. يعد أعظم الجراحين الذين ظهروا في العالم الإسلامي، ووصفه الكثيرون بأبي الجراحة الحديثة.

أعظم مساهماته في الطب هو كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، الذي يعد موسوعة طبية من ثلاثين مجلداً. كان لمساهماته الطبية سواء في التقنيات الطبية المستخدمة أو الأجهزة التي صنعها تأثيرها الكبير في الشرق والغرب، حتى أن بعض اختراعاته لا تزال مستخدمة إلى اليوم. ويعد الزهراوي أول طبيب يصف الحمل المنتبذ، كما أنه أول من اكتشف الطبيعة الوراثية لمرض الناعور (الهيموفيليا).

سيرته: ولد الزهراوي في مدينة الزهراء، وترجع أصوله إلى الأنصار. عاش الزهراوي في قرطبة، حيث درس وعلّم ومارس الطب والجراحة. ولم يتم الإشارة لاسم الزهراوي إلاَّ من خلال كتابات ابن حزم الذي عدّه من ضمن أعظم أطباء الأندلس. أما أول من كتب سيرته الذاتية فهو الحميدي في كتابه «جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس»، الذي كتبه بعد ٦٠ عامًا من وفاة الزهراوي حيث قال عنه أنه: «من أهل الفضل والدين والعلم».

وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «كان طبيبًا فاضلاً خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تام في معناه.» ووصفه غوستاف لوبون بأنه: «أشهر جراحي العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص، فعُدّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ».

أعماله: تخصص الزهراوي في علاج الأمراض بالكي، كما اخترع العديد من أدوات الجراحة كالتي يفحص بها الإحليل الداخلي، والذي يدخل أو يخرج الأجسام الغريبة من وإلى الحلق؟ والتي تفحص الأذن وغيرها، وهو أول من وصف الحمل المنتبذ عام ٩٦٣ م. كما أنه أول من وضّح الأنواع المختلفة لأنابيب البذل، وأول من عالج الثؤلول باستخدام أنبوب حديدي ومادة كاوية، وهو أول من استخدم خطافات مزدوجة في العمليات الجراحية، وأول من توصل إلى طريقة ناجحة لوقف النزيف بربط الشرايين الكبيرة قبل باري بستمائة عام. وقد وصف الزهراوي الحقنة العادية والحقنة الشرجية وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، والجفت وكلاليب خلع الأسنان، ومناشير العظام والمكاوي والمشارط على اختلاف أنواعها.

الزهراوي أيضًا أول من وصف عملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وهو الذي أجرى عمليات صعبة في شق القصبة الهوائية، وكان الأطباء قبله مثل ابن سينا والرازي، قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها. وابتكر الزهراوي أيضًا آلة دقيقة جدًّا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول، كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام. والزهراوي هو أول من صنع خيطانًا لخياطة الجراح، واستخدمها في جراحة الأمعاء خاصة، وصنعها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخييط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مُثبَّت فيهما، وهو أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط، وأول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية.

وللزهراوي إضافات مهمة جدًّا في علم طب الأسنان وجراحة الفكّيْن،

وكتب في تشوهات الفم وسقف الحلق، وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصًا به، شرح فيه كيفية قلع الأسنان بلطف، وأسباب كسور الفك أثناء القلع، وطرق استخراج جذور الأضراس، وطرق تنظيف الأسنان، وعلاج كسور الفكين، والأضراس النابتة في غير مكانها، وبرع في تقويم الأسنان. وفي التوليد والجراحة النسائية، وصف وضعية فالشر للولادة، إضافةً إلى وصف طرق التوليد وطرق تدبير الولادات العسيرة، وكيفية إخراج المشيمة الملتصقة، والحمل خارج الرحم، وطرق علاج الإجهاض، وابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت، وهو أول من استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وآلات لاستئصال أورام الأنف وهي كالسنارة، وآلات لاستخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت عن طريق المهبل، وأول من بحث في التهاب المفاصل والسل في فقرات الظهر، قبل برسيفال بوت بسبعمائة عام، وأشار إلى استخدام النساء في التمريض، وهو أول من استعمل القطن لإيقاف النزيف. كما صنع الزهراوي أول أشكال اللاصق الطبي الذي لا زال يستخدم في المستشفيات إلى الآن.

كتاب التصريف: أتم الزهراوي كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» عام ١٠٠٠ م، وهو من ثلاثين مجلد من الممارسات الطبية والذي جمع فيه العلوم الطبية والصيدلانية في زمانه، والذي غطى نطاق واسع من الموضوعات الطبية منها طب الأسنان والولادة التي جمع معلوماته على مدى ٥٠ عامًا من ممارسته للطب، واحتوي على وصف تشريحي وتصنيف لأعراض حوالي ٣٢٥ مرض وعلاجاتها، والجوانب الطبية المتعلقة بالجراحة والجراحات التجبيرية والصيدلة وغيرها، إلاَّ أن محتواه الأبرز كان في الجراحة. الذي قال عنه ابن حزم: «ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع، لنصدقن»، والذي

ترجمه جيراردو الكريموني إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، والذي ظل يستخدم لخمسة قرون في أوروبا العصور الوسطى، وكان المصدر الأساسي للمعرفة الطبية بأوروبا، واستخدمه الأطباء والجراحون كمرجع لهم، وظل الكتاب متداولاً ويعاد طبعه حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

حلَ كتاب الزهراوي في الجراحة محلَ كتابات القدماء، وظل المرجع في الجراحة حتى القرن السادس عشر، وقد اشتمل هذا الكتاب على صور توضيحية لآلات الجراحة؛ وقد ساعدت آلاته هذه على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا. وصف الزهراوي في كتابه أدوات الجراحة التي صنعها ورسمها، وحدد طريقة استعمالها، وشرح ما يفسد الجراحات وما يتوقف عليه نجاحها. وقد وصف كتاب التصريف ما عُرف بعدئذ بطريقة كوخر لمعالجة خلع الكتف، ووضعية والشر للولادة. ووصف كذلك كيفية ربط الأوعية الدموية بخيوط من الحرير لإيقاف النزف منها قبل أمبرواز باريه، وهو أول كتاب يوثّق أدوات طب الأسنان، ويشرح الطبيعة الوراثية للناعور. ووصف الزهراوي كيفية استعمال الملاقط في الولادات الطبيعية، وصنع ملقط لاستخراج الجنين الميت من الرحم. كما وصف تقنية للاستئصال الجراحي للتثدي.

في كتاب التصريف، وصف الزهراوي أيضًا كيفية ربط الأوعية الدموية قبل حوالي ٦٠٠ عام من وصف أمبرواز باريه لها عبر الكي، وهو أول كتاب يصف عدد من أجهزة طب الأسنان، وشرح الطبيعة الوراثية لمرض الناعور. كما وصف طريقة جراحية لكيّ الشريان الصدغي لعلاج الصداع النصفي أيضًا قبل باريه بستمائة عام. كما اخترح أكثر من ٢٠٠ أداة جراحة. استخدم الزهراوي خيوط من أمعاء القطط في الجراحات الداخلية، حيث أنها المادة الطبيعية الوحيدة التي

تتحلل ويتقبّلها الجسد البشري. اخترع الزهراوي أيضًا ملقطًا جراحيًا لاستخراج الأجنة الميتة، ووصفه في كتابه.

في علم الصيدلة، كان الزهراوي رائدًا في تحضير الأدوية باستخدام تقنيات التسامي والتقطير. كان كتابه الذي ترجم إلى اللاتينية تحت اسم « Liber Servitoris» له أهمية خاصة، لأنه يمد القاريء بالوصفات والشرح لكيفية تحضير عينات من العقاقير المركبة. وقد قال عنه ابن أبي أصيبعة أنه كان خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة.

عارض الزهراوي في كتابه رأي القدماء في قولهم بأن الكي لا يصلح إلاَّ في فصل الربيع، وقال بأنه صالح طوال العام. وعارض أيضًا رأيهم بأن الذهب الأفضل للكي، حيث قال بأنه يفضل استخدام الحديد كونه أنجح من الذهب في تلك الممارسة. وفي حديثه عن كي ذات الجنب، ذكر الزهراوي خطأ القدماء في الكي بالحديد المُحمّى حتى الاحمرار للوصول إلى الخراج وانتزاعه، قائلاً بأن ذلك خطير وقد يؤدي للوفاة أو أن الخراج قد يعود للظهور في نفس المكان.

وللزهراوي غير هذا الكتاب مؤلفات أخرى، مثل «مقالة في عمل اليد» و«مختصر المفردات وخواصها»، وقد قال الزركلي أنه اقتنى للزهراوي مخطوطة مغربية بخط أندلسي مرتبة على الحروف من الألف إلى الياء، بعنوان «كتاب فيه أسماء العقاقير باليونانية والسريانية والفارسية والعجمية، وتفسير الأكيال والأوزان، وبدل العقاقير وأعمارها، وتفسير الأسماء الجارية في كتب الطب».

أثره: يعد الزهراوي أكبر المرجعيات الجراحية في العصور الوسطى. وصف دونالد كامبل مؤرخ الطب العربي تأثير الزهراوي على أوروبا: «ألغت طرق

الزهراوي طرق جالينوس، وحافظت على مركز متميز في أوروبا لخمسمائة عام. ... كما ساعد على رفع مكانة الجراحة في أوروبا المسيحية، ...» وفي القرن الرابع عشر، استشهد الجراح الفرنسي (غي دي شولياك) بكتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» أكثر من ٢٠٠ مرة. ووصف بيترو أرغالاتا (المتوفي عام ١٤٥٣ م) الزهراوي بقوله «بلا شك هو رئيس كل الجراحين». وقد ظل تأثير الزهراوي حتى عصر النهضة، حيث استشهد الجراح الفرنسي جاك ديلشامب بكتابه التصريف. وقد كرمته إسبانيا بإطلاق اسمه على أحد شوارع قرطبة القريبة من جامع قرطبة.

معلومات: استعمل الزهراوي في علاجه آلات جراحية مبتكرة مثل العقافة والمبرد والكلاليب ومنها ما تدل ملامح بعضها على أنها أسلاف بدائية للأدوات الحديثة المستخدمة الآن منها؛ مشرط بتر، مقص لا يصدأ للخيوط الجراحية، مشرط مفصل الركبة، مشرطان مطليان بالنيكل، مشرط ضيق صغير لشق الجروح، كلاب - ماسك - شرياني، مبعدة ذاتية - لإبقاء جانبي الجرح مفتوحين أثناء العملية الجراحية[1].

الملحق رقم (٢) : مبحث الفطرة وآثرها في العقيدة الإلهية والتوحيد

هذا البحث وإن استشهدنا في بعض مفرداته في فصول هذا الكتاب، إلاَّ أنني أجد أن عرضه كاملاً بالتسلسل الذي ذكره السيّد محمد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ أفضل وأنفع للقارئ الكريم، بل هو يعتبر بحثاً كاملاً لإثبات وجوده تعالى، كما أني ذكرت بعض الاشارات إليه في فصول هذا الكتاب لا تفهم إلاَّ بمراجعة هذا الموضوع

---

(١) موسوعة ويكبيديا العالمية.

كاملاً.

قال قدس سره : في هذه الآية الكريمة من الذكر الحكيم [وهي قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾(١) التي هي مورد البحث]، ركيزة أساسية جعلها الإسلام دليلًا على عقيدتيه الرئيسيتين، اللتين بنى عليهما سائر عقائده وتعاليمه، هما العقيدة الإلهية والتوحيد، أي الاعتراف بوجوده وتوحيده.

فالإسلام حين جاء بهاتين العقيدتين المقدستين، وحين كلف البشر

جميعاً بالنظر فيهما والتدبر في شأنهما لعلهم يهتدون، لم يطلب منهم شيئاً فوق طاقتهم ولا كلفهم الخروج عن طبيعتهم ومن آفاق تفكيرهم، ولم يأمرهم في سبيل البرهنة عليها أكبر من الرجوع إلى صميم ضمائرهم وتلمس حقيقة فطرتهم، ليجدوا هناك جذوة الإيمان متقدة في الأعماق تنشر دفء الإيمان وحرارة اليقين في ربوع النفس، فالنفوس كلها مطبوعة على الحق ومفطورة على الاعتراف بوجود الله تعالى والخضوع له، وعلى الإيمان بتوحيده.

فالدين إذن فطرة اودعها الله عز وجل في نفس الإنسان لترشده إلى الحق ولتهديه إلى الصراط المستقيم، ومن ثم كان الخلق وكان الدين أمراً فطرياً قد جُبِل عليه الفرد في أصل تكوينه وخلقته، ومن ثم أيضاً كانت النفس هي الهادية والمرشدة إلى ذلك الحق لمن يصغي إلى ندائها ويستجيب لأمرها، ولم يكن لأحد إنكار هذا النداء أو التمرد عليه، فضلاً عن تغييره والتصرف بمحتواه، فإنه فطرة الله التي

---

(١) الروم ٣٠.

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، وإن الإنسان لأعجز من أن يغير من ذلك شيئاً إلاَّ إذا استطاع أن يغير شيئاً من واقعه التكويني.

ولا شك أن هذا النداء الصادر من أعماق النفس، هو ألصق النداءات بالإنسان وأبلغها أثراً في نفسه، وان الوصول إلى الحق عن هذا الطريق لهو أيسر الطرق وأسهلها، لذا فقد كان الاعتراف بالإسلام وبعقائده سهلًا يسيراً وموافقاً للبداهة والفطرة، وللبرهان العقلي الصحيح، هذه هي حكمة الإسلام، وهذا هو المغزى العميق الذي أشارت إليه الآية الكريمة.

ولكن ما هي الفطرة؟

وما الذي عناه الإسلام؟

وما الذي قصده منها على وجه التحديد؟

وما هو محل الفطرة من الغرائز الإنسانية والملكات النفسية ومن العقل البشري؟

وما هو تأثير أحدهما بالآخر؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذه الأسئلة، ونحن بصدد الكلام حول هذه الآية الكريمة، لنعرف في النهاية مدى الصواب بنظر في اعتماده على الفطرة، ومدى عمق الحكمة التي نظرت إليها الآية حين تكلمت عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يمكن أن نقسم الفطرة بلحاظ ما تدركه من الأمور إلى ثلاثة أقسام، نصطلح عليها بهذين العناوين الثلاثة، فهناك فطرة ذاتية، وفطرة كونية، وفطرة عقلية، وهي واحدة بالجنس وإن تعددت بلحاظ ما تتعلق به لأن هناك قضايا فطرت النفس

على إدراكها تلقائياً من صميم ذاتها، من دون أن تجد نفسها بحاجة إلى البرهنة عليها بأي شكل من أشكال الاستدلال.

الفطرة الذاتية: أما الفطرة الذاتية فتشير إلى ما ثبت في محله من الفلسفة الإسلامية، من أن النفس تدرك ذاتها وتدرك علتها وتدرك معلولاتها، وإن هذا الإدراك قائم في النفس ملازم لوجودها لا يمكن أن ينفك عنها ما دامت النفس موجودة، فهي تشعر بذاتها، أي بالحصة الوجودية التي تتصف وتختص بها، من دون كل الموجودات، وهي تشعر بعلتها بلحاظ هذه الحصة من الوجود التي تتصف بها، فهي تدرك علتها من خلال هذه الحصة وعلى مقدارها، ومن ثم فهي لا تدرك علتها على سعتها وشمولها، وإنما تدركها بالقدر الذي يسمح لها وجودها أن تدركه وهي تدرك معلولاتها، وهي الأفعال التي تقوم بها النفس بصورة مباشرة، كالأفكار والخيالات والصور الذهنية، وحركات الجسم ما دامت الحركة موجودة.

وليست معرفة النفس بهذه الأمور إلاَّ معرفة بسيطة ساذجة وإدراكاً صرفاً غير مشعور به، وهي ما يسمى بالعلم الحضوري، في مقابل العلم الحصولي وهو العلم المركب المشعور به، وبذلك بأن يشعر الإنسان بأنه يشعر ويعلم بأنه يعلم.

وهذا القسم الثاني من العلم هو الذي نفهمه عادة من لفظة العلم، لمدى وضوحه في النفس لأنه علم مشعور به.

الفطرة الكونية: وأما الفطرة الكونية فهي ما يجده الإنسان في نفسه من الاندفاع إلى التساؤل عن علة كل ما يقع عليه بصره وسمعه وسائر حواسه، وما يعتقده من ان لكل حادث سبباً ولكل ممكن علة، وإن من لغو القول ان نقول بأن شيئاً ما

خرج من العدم إلى الوجود هكذا وبدون أي سبب ولا فاعل، فالإنسان عندما واجه هذا الكون ورأى غريب صنعته وبديع شكله ودقيق قوانينه ونظمه، أخذت هذه الأمور بلبه وحيرت عقله، وخضع خضوعاً تلقائياً فطرياً وآمن إيماناً عميقاً بأن وراء هذه الحوادث الجارية ووراء هذه الأكوان العظيمة خالقاً جباراً قادراً وعقلًا مدبراً حكيماً، خلق هذا الكون وبسط عليه قدرته وأعمل فيه حكمته، فبدا للناظرين بهذه الحلة القشيبة الناظرة.

ووجود الفطرة لدى الإنسان أوضح من ان يحتاج إلى برهان، فإنه يكفي للاستدلال عليها رجوع الإنسان إلى نفسه ونظره إلى باطن ضميره، فإنه سوف يجد نفسه خاضعاً لهذه الفطرة منقاداً لندائها انقياداً تلقائياً، فإن من فطرة الإنسان مثلًا أن يتساءل عن مصدر الصوت إذا سمعه، ولن يحتمل أن هذا الصوت قد ثار من تلقاء نفسه، وإن هذه الفطرة لتبدو في الكون بصورة أوضح وأظهر حيث التنظيم الرائع والجمال البديع والدقة المتناهية، تلك المناظر التي تثير في النفس روعة وإعجاباً وتوحي إليها بوجود تلك العلة اللانهائية الحكيمة التي أوجدت هذا الكون وقامت بهذا التنظيم.

وإنّا لنرد بالإنسانية إلى عصورها الأولى فنستعرضها عصراً عصراً ومجتمعاً مجتمعاً، فلا نجد إلاَّ أقواماً قد أدركوا للكون خالقاً، وأن لهذا التنظيم مدبراً ومنظماً، كل حسب أفق تفكيره وسعة مداركه وثقافته، وليس الإلحاد إلاَّ نابعاً من جملة أشياء متراكمة من المصالح والغرائز والمسبقات الذهنية والثقافات المادية التي تخرج بالإنسان عن طريق فطرته، وتسلك به طريقي الضلال والفساد، وحتى أولئك المفكرين الذين يبجحوا بأنهم ملحدون وبأن قانون العلية لا يقوم على أساس، ومن ثم حاولوا أن يصوغوا من النظريات التي تبرر خلق هذا الكون من

العدم، ما يعوض عن هذا القانون القتيل، ولكنهم في محاولاتهم هذه لإيجاد مثل هذه النظريات، قد اصطدموا، لو كانوا يعلمون بالقانون نفسه، واضطروا إلى الانصياع إلى ندائه، وإلّا فلماذا لم يفترضوا وجود هذا الكون هكذا، وبدون أي سبب وخالق يكون مبرراً لوجوده من دون أن يتجشموا صياغة مثل هذه النظريات المختلفة.

الفطرة العقلية: وأما الفطرة العقلية: فهي ما نعنيه عندما نقول ان للعقل عدّة قضايا معينة لا تحتاج في نظره إلى برهان، بل أنه بذاته مجبول على تصديقها والإيمان بمحتواها ومن ثم فهو لا يحتاج إلى التصديق بها إلى أكثر من تصور طرفيها: (المحمول والموضوع) وفهمهما فهماً صحيحاً، لأنه سوف يرجع تلقائياً إلى فطرته فيجدها موافقة لمضمون القضية مذعنة لمدلولها، ولأجل ما تتصف به هذه القضايا من البداهة والوضوح يجعلها العقل القضايا الأولى التي يقيم عليها أدلته وبراهينه على سائر القضايا النظرية التي تحتاج إلى برهنة واستدلال.

ونحن نرى أنه لابدّ من وجود مثل هذه القضايا البديهية في العقل وإلّا لما أمكن الوصول إلى التصديق بأي قضية على الإطلاق فإنه إذا كانت كل القضايا مشكوكة الصدق فسوف لن نستطيع الوصول إلى اليقين أبداً، لأنه لابدّ للبرهان من أن يعتمد على قضايا يقينية أو مسلمة لكي ينتج نتيجته المقصودة، إما إذا كانت كل القضايا مشكوكة فمن أين تبدأ البرهنة وإلى أين تنتهي، وما الذي سوف يكون الحد الفاصل بصورة قاطعة بين الشك واليقين؟

هذا الحد الفاصل في نظر العقل هو هذه القضايا البديهية الفطرية مثل: لابدّ لكل ممكن من علة، والنقيضان لا يجتمعان، والكل أكبر من الجزء، والعقل بمجرد أن يدرك معنى الممكن ومعنى العلة فإنه يحكم بضرورة العلة بالنسبة إلى

الممكن، وبمجرد أن يتصور معنى النقيضين فإنه يحكم باستحالة اجتماعهما، وبمجرد أن يتصور معنى الكل والجزء فإنه يذعن بأن الكل أكبر من الجزء، مستمداً إذعانه من فطرته الطبيعية.

بعد هذه المرحلة من البحث، وبعد أن عرفنا ما يجب أن نفهمه من الفطرة ينبغي أن ننظر في صحة تقسيمها إلى هذه الأقسام الثلاثة (أولًا)، ثم إلى مدى تأثير الفطرة بأقسامها في الإيمان بالعقيدة الإلهية وعقيدة التوحيد (ثانياً)، ثم إلى مدى تأثير هذه الأقسام بعضها ببعض، ومدى تأثرها بالبرهان الصحيح وبما جاء به الإسلام من ناحية (ثالثة).

أما بالنسبة إلى صحة تقسيم الفطرة إلى هذه الأقسام، فمن الوضوح استقلال القسم الأول وقيامه بنفسه في مقابل القسمين الآخرين، ولكنه قد يثار الشك حول استقلال القسم الثاني، من حيث احتمال اندماجه في القسم الثالث لأن الفطرة الكونية إنما نشأت من إدراك الإنسان بفطرته العقلية أنه لابدّ لكل معلول من علة، فهي إذن مندرجة في القسم الأخير وليست قسماً مستقلًا في نفسه.

ولكن يمكن الجواب على ذلك بأن نشأة الفطرة الكونية من قانون العلية العقلي، وإن كان صحيحاً إلاَّ أنه لا يعني اندماجه في القسم الثالث، فإن مظاهر الكون ونهايته قد أثارت في الإنسان الإعجاب والإحساس بالضعف والضعة، ومن ثم الاعتراف بوجود الخالق القدير، ومثل هذه العواطف ليست من خصائص العقل كما أن الفطرة الكونية ليست إدراكاً عقلياً جامداً بعد اتصافها بهذه العواطف، ومن ثم كانت قسماً مستقلاً من الإدراك الفطري.

وأما بالنسبة إلى ما يمكن أن تدرك بالضبط، هذه الأقسام الثلاثة للفطرة

الإنسانية، من العقيدة الإلهية أي الاعتراف بوجود الله تعالى، ومن التوحيد.

فإننا يجب أن نعرف أولًا أن الإنسان مزيج غريب من العقل والعاطفة والغريزة والفطرة، وملكات أخرى كثيرة، ولهذه الملكات من التأثير في بعضها البعض الشيء الكثير، بحيث ان ما يقوم به الإنسان من الأفعال سواء في دخيلة نفسه كالتفكير أو في الخارج من سائر أفعاله وأقواله، إنما هي منبثقة من هذا المزيج الغريب، لا عن عاطفة معينة بخصوصها، وإنما قد تنسب فعلاً أو قولاً ما إلى أحد هذه الملكات على سبيل التجوز من باب العاطفة على مدى الفعل، ومن هنا كان الالتفات إلى ما تدركه الفطرة فقط من دون جميع الملكات مجرداً عن تأثيراتها، أمراً في غاية الصعوبة، إلاَّ أنه يمكن القول بأن الفطرة هي أعمق الملكات النفسية وأخفاها وأبسطها علماً وإدراكاً، وإن إدراكها ساذج بسيط غير ملتفت إليه، أي أنه ليست علماً مركباً من ناحية، وغير معقد يعمد إلى تسطير المقدمات واستنتاج النتائج من ناحية ثانية.

ولكنها رغم كل ما تتصف به من الخفاء والسذاجة ألصق من جميع الملكات بتكوين النفس وأدخلها بوجودها، ولن يضير الفطرة خفاءها ولا سذاجتها، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما خلقها في النفس لكي توحي بمستلزماتها وأوامرها إلى العقل لكي يقوم العقل بدوره بما ينبغي أن يقوم به من إدراك الحق ورفض الباطل، وكأنه يقوم به من تلقاء نفسه بدون أي إيحاء أو تأثير، وليس للعقل حاجة إلى الالتفات إلى الفطرة بعد أن يكون قد أطاع أوامرها ونواهيها، بل لعل خفاء الفطرة أبعث على إيمان العقل واطمئنانه، مما إذا كان ملتفتاً إلى مصدر الصوت وعارفاً به، لأنه يظن أنه يدرك ذلك من تلقاء نفسه.

أما ما تدركه الفطرة الذاتية من العقيدة الإلهية، فقد سبق أن أشرنا إلى المقدار

الذي تدركه النفس من علتها الأولى، وأوضحنا كيف أن ذلك مساوق لوجودها ولإدراكها لنفسها، وهي إنما تدرك علتها بالقدر الذي تسمح به الحصة الوجودية التي تتصف بها، فالنفس إذن تدرك وجود الله عَزَّ وَجَلَّ إدراكاً تلقائياً ذاتياً، كما تدرك نفسها وأفعالها، لأنها معلولة له عز وعلا ومن فيض وجوده وإحسانه.

أما بالنسبة إلى إدراك الفطرة الذاتية لعقيدة التوحيد، فإن لهذا الإدراك مرتبة أعمق وأكثر غموضاً في باطن النفس، بل أن تسميتها إدراكاً لا يخلو من مسامحة في التعبير، فإن النفس - كما سبق - تدرك علتها من خلال حصتها من الوجود، وذلك يعني أنها لا تدرك لها علتين، فالفطرة وإن لم تكن تدرك بوضوح أن علتها واحدة، ولكنها في واقع أمرها لا تدرك إلاَّ علة واحدة، وهذا هو نوع من الإدراك لعقيدة التوحيد، وهذا يعني أن عقيدة التوحيد فطرية ذاتية في نفس الإنسان.

وأما ما تدركه الفطرة الكونية من هاتين العقيدتين الرئيستين في الإسلام، فقد سبق وإن أشرنا إلى وجه إدراكها للعقيدة الإلهية، وإن ما في الكون من كمال وجمال ودقة وإحكام في الصنع والتدبير قد أثار عجب الإنسان واستغرابه من ناحية، والإحساس بضعفه وقلة خطره، لأنه ليس إلاَّ جزءاً بسيطاً من هذا الكون، وليس هو من أهم أجزائه لأن كثيراً من حوادثه يمكن أن تطيح بحياته من ناحية أخرى. وعزت فهمه للجمال والكمال اللانهائي المطلق عن طريق انتقاله بقانون تداعي المعاني من هذا الكمال القاصر إلى ذلك الكمال المطلق من ناحية ثالثة، وقد ساعدت هذه الإدراكات الثلاثة منظمة متعاضدة على إدراك الإنسان لعظمة الله عَزَّ وَجَلَّ ووجوب عبادته والخضوع له.

وقد استخدم القرآن هذه الفطرة الكونية للبرهنة على وجود الله عز وعلا، فقد عمد إلى جمال الكون وحس متعته فوضحه وفضل القول فيه ليزيد من عجب

الإنسان وإعجابه وليقربه عن هذا الطريق إلى دوران صانع هذا الكون الكبير، وهو بذلك ينقل تلك الفطرة الغامضة العميقة من مرحلة الشعور البسيط الغامض إلى سطح الإدراك الواضح والشعور الجلي.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

فكل هذه المظاهر الكونية، أو هي ما بين ما يعيشها الإنسان بنفسه وتجري حوادثها بين سمعه وبصره، وبين ما تجري بعيدة عنه فيعجب بها ولا يعرف كنهها، كل هذه الأمور، إنما هي بالفطرة، آيات ودلائل على وجود مبدعها ومدبرها.

ومن هنا نرى الإسلام قد دعا إلى التفكير في خلق الله تعالى، وإمعان النظر فيما احتواه من جمال وكمال، لكي يستطيع الفرد أن يعيش فطرته من خلال هذا التفكير، متى بدا له أن يعيشها، ولكي يتميز قدرة الله تعالى التي أبدعت هذا الكون العظيم، فقال عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ

---

(١) الروم ٢١ ـ ٢٤.

وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ﴾[١].

أما إدراك الفطرة الكونية للتوحيد، فهو كما سبق أن أشرنا في إدراك الفطرة الذاتية لهذه العقيدة غامض وعميق، ولكنه في نفس الوقت ثابت راسخ، فإن الإنسان عندما واجه هذا الكون وخطف قلبه وخلب لبه ما فيه من مناظر وحوادث، حكم بأن لهذا الكون خالقاً ومدبراً حكيماً، ولم يحكم بأنه له أكثر من خالق، ولم يدرك ذلك في خلده في يوم من الأيام، فكأنه يدرك ضمناً بأن مثل هذا النظام الكامل والقوانين الدقيقة لا يمكن أن يتم إلاَّ في يدي إله واحد، لما سوف يحل به من التبعثر والخراب لو كان محكوماً لألهين، لأنهما سوف يتعارضان بالإرادة ويتنافيان في طريقة التنظيم، وان بين يدي الإنسان أمثلة كثيرة على ذلك، ومنه ما يضر به الناس من مثل قائلين: إذا كثر ملاحوا السفينة فأنها سوف تغرق.

وقد حاول القرآن التأكيد على هذا المعنى، عن طرق نقل هذا الإحساس الفطري الغامض إلى مرحلة الشعور الواضح، فقال عز من قائل: **﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن**

---

(١) الروم ٨.

يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(1).

الممكن لكل هذه المخلوقات ولكل هذه النعم الإلهية ولكل هذه النظم الدقيقة، أن تصدر بالفطرة، إلاَّ من إله واحد، يدبر أمرها بحكمته ويدير شؤونها بقدرته، وأن من لغو القول أن ننسب خلق ذلك وتدبيره إلى إلهين أو أكثر لأنهما حتماً سوف يتعارضان ويتخالفان ويحاول أحدهما السيطرة إلى الآخر، قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وأين يكون النظام في ظل هذا الصراع الرهيب العجيب؟!

لا يمكن الاعتراض على دلالة الفطرة الكونية على التوحيد، بما شاع بين بعض الجماعات من البشر من الاعتقاد بتعدد الآلهة، فإن هذا الاعتقاد غير ناشئ من الفطرة، كما انه ليس دليلًا على بطلان دلالتها على التوحيد، فإن هذا الاعتقاد إنما ترعرع في الأوساط المتخلفة البدائية الضيقة التفكير المؤمنة بالخرافات والأساطير ولازالت مثل هذه البيئات هي التي تعتنقه وتعتقد به، وأنه لبعيد كل البعد عن الأفكار الثاقبة والنظر البعيد والرأي السديد.

وإن للإشراك بالله تعالى صوراً متعددة، لكل منها دوافع وأسباب مختلفة، وهي ترجع في الغالب في أصولها العميقة وأسبابها الأولى إلى غريزة التوحيد

---

(١) النمل ٥٩ ـ ٦٤.

نفسها، فإما عبادة الأصنام والشجر والحيوان، فإن كل قبيلة، كانت تدرك فطرتها إله الكون الواحد وتندفع إلى عبادته اندفاعاً تلقائياً، ولكنها لما كانت لا تتصور- لقلة مدركاتها وضألة تفكيرها وارتباط معقولاتها بمحسوساتها- إمكان عبادة المجرد، فقد جسمته صنماً أو تمثيله متجلياً في بعض الحيوان أو النبات أو الحوادث الطبيعية، وعبدت ذلك الشيء رمزاً عن ذلك الإله العظيم.

ومن ذلك قول قريش الذي نقله عنهم الله ﷻ في كتابه الحكيم، فقال عز من قائل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1] ، وبهذا كان لكل قبيلة إله معبود، ولما توالت الأجيال واعتاد الناس على الخضوع إلى هذه الآلهة المزعومة، نسي المعنى الفطري الذي أنشأت بسببه هذه العبادات، واعتقد بتعدد الآلهة.

هناك أسباباً أخرى لنشوء قسم من عبادات المجسمات، لا تمت في واقعها بسبب إلى التأليه، وإنما هو أن تصنع القبيلة لرئيسها أو جدها الأعلى تمثالًا رمزاً لحبهم وإخلاصهم له، وحين يموت هذا الشخص يبدأون بتعظيم تمثاله كرمز لتعظيم ذلك الجد، ثم ينتقل على مدى الأجيال هذا الإخلاص الرمزي إلى الإخلاص إلى هذا التمثال بالخصوص، ثم يبدأ هذا الإخلاص بالانتقال إلى نوع من التقديس ثم إلى نوع من العبادة والخضوع، ويبدأون بالاعتقاد بأن هذا التمثال ليس إلاَّ تمثالًا لإله الكون الذي يدركونه ويخافونه بفطرتهم.

وأما الاعتقاد بوجود آلهة لكل ظاهرة كونية ولكل معنى من معاني الكمال، كما كان شائعاً في بلاد اليونان القديمة، فهناك- بزعمهم- إله للريح وإله للمطر وإله للأرض وإله للبحر، كما ان هناك إله للجمال وإله للحب وإله للخير من ناحية

---

(١) الزمر ٣.

أخرى. فلعله ناشئ من اعتقاد هؤلاء البشر، من قصر نظرهم وسوء تفكيرهم، بأنه يناسب أن تكون ظاهرة كونية إلهاً مستقلاً منفرداً بإرادتها وتدبيرها، بزعم عدم إمكان صدور هذه الظواهر المتعددة جميعاً من إله واحد.

وقد كان اعتقاد هؤلاء الناس بالأرواح والعفاريت، واعتقادهم أن لها أعمالًا تقوم بها لإزعاج البشر ومضايقتهم، الأثر الكبير في تأكيد هذه العقيدة في نفوسهم، ومن ثم نرى أن هناك خلطاً كبيراً في أذهان هؤلاء بين تلك الأرواح وهؤلاء الآلهة، فليست الآلة في نظرهم إلاَّ نوعاً من تلك العفاريت والأرواح.

أما بالنسبة إلى الاعتقاد بوجود آلهة لكل معنى من معاني الكمال، فقد يكون ذلك ناشئاً من تداعي المعاني الذي سبق إن أشرنا إليه، من أن الذهن ينتقل في تصور الكمال الناقص الذي يراه إلى تصور الكمال المطلق، ولكنهم إنما تصوروا الكمال لكل معنى على حدة. وهذا مشابه لنظرية المثل الأفلاطونية التي بزغت في ذلك المحيط نفسه، ولعلها تأثرت وأثرت في هذه العقائد، وفحواها ان لكل نوع من الأنواع فرداً كاملًا يتصف بجميع ما يمكن ان يتصف به ذلك النوع من الكمال، ويتجرد عن كل ما يمكن أن يلحق بنوعه من النواقص والأسوأ يسميه أفلاطون بالمثال، ثم أن هناك فرداً أكمل لمجموع هذه المثل بصفتها نوعاً واحداً، هو المثال المطلق للخير والكمال، وهذا المثل لا يمكن أن يكون إلاَّ واحداً؛ لأن الكمال المطلق لا يمكن أن يكون إلاَّ واحداً، كما ان مثال كل نوع لا يمكن أن يكون إلاَّ واحداً أيضاً؛ لأن الكمال لكل نوع لا يتعدد، وبهذا نرى أفلاطون يصل بنظريته إلى الاعتراف بالله ﷻ وتوحيده، على طريقته الخاصة، في حين لم يصل أولئك الرعاع إلى مثل هذا المرتقى الدقيق.

وأما الاعتقاد بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر، فهو ناشئ من الاعتقاد

بتناقض الخير مع الشر، وعدم إمكان صدور المتناقضين عن إله واحد، فاستنتجوا من ذلك ضرورة وجود إلهين للكون يكون أحدهما خالقاً للخير والآخر خالقاً للشر.

ونحن- بهذا الصدد- نراهم قد حكموا بتناقض الخير والشر، وفي هذا اتباع للفطرة العقلية التي تحكم باستحالة اجتماع النقيضين، كما سبق أن أشرنا، وحكموا بأن للخير إلهاً كما أن للشر إلهاً واحداً أيضاً، وفي هذا اتباع لفطرة التوحيد على شكل مغلوط.

وقد تصدى الفلاسفة المسلمون لحل هذه الإغلوطة، فأوضحوا بأن الخير عبارة عن الكمال وهو عبارة عن الوجود، فالخير والكمال إنما يمثلان القسم الوجودي في هذا الكون، وأن الشر عبارة عن النقص والنقص عبارة عن العدم، وعدم الكمال، والعدم ليس أمراً وجودياً لكي يخلق، فالله‎ﷻ خالق للوجود، أي للأمور الكمالية، وليست الشرور إلاّ من أثر عدم خلقه للكمال المطلق، على تفصيل مذكور في محله في الفلسفة الإسلامية.

وأما القول بالثالوث المسيحي، فهو ناشئ من أثر تحريف المسيحية عن واقعها النازل من الله‎ﷻ، ولعل اعتقاد المسيحيين بألوهية المسيح، وأنه جاء من استغرابهم من طريقة حمل مريم لابنها، مع عدم إمكان الاعتقاد بأن ذلك ناشئ عن طريق غير شرعي لأنه نبيهم ورئيس عقيدتهم، إذن فلابدّ أن يكون ذلك ناشئاً عن طريق الإعجاز، وكأنهم فكروا أنه لا يمكن لأحد القيام بالمعجزة إلاّ إذا كان إلهاً، غافلين عن إمكان ذلك لأي بشر مع إقدار الله تعالى له وتوفيقه إياه، وليست هذه العقيدة صادرة من قبل المسيح نفسه، فإن عيسى بن مريم على نبينا وآله وعليه السلام، لأجل قدراً وأبعد نظراً من أن يدعي الألوهية في قبال الله‎ﷻ، وأن

يأمر اتباعه بعبادته مع عبادة الله تعالى، وإنما كان ذلـك بدعـة اختلقهـا المسـيحيون ومسخوا بها دينهم بعد أن رفعه الله إليه.

وقد تصدى القرآن لمناقشة هؤلاء الناس في عقيدتهم تلـك، مـع إثبـات كـل معاني الشرف والفضيلة إلى المسيح وأمه، فقال عز من قائـل: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْـنُ مَـرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾[١]، فهو ليس إلهاً، بل رسولاً من الله ﷻ، أرسـله الله بشـريعة معينـة وبـالاعتراف بوجـود الله وتوحيـده، ليهـدي البشـر ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلالة إلى نور العلم والإيمان، وقد جعل أسلوب حمله وكلامه في المهد صبياً آيتان مّن الله عليه بهمـا، لتأييـد صـدق بعثتـه وإتمـام الحجة على قومه.

وقال أيضاً تبارك وتعالى: ﴿**مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ**﴾[٢]، فالمسيح إذن رسول كمـن سبقه من الرسل، وأمه صديقة لأنهـا امـرأة صـالحة مقربـة مـن الله عـز وعـلا، وقـد خصها الله بهـذه الكرامـة حيـث جعلهـا أمـاً لنبـي مـن أنبيائـه، وأجـرى عليهـا هـذه المعجزة الفريدة، وليس هو وليست أمه إلهين لأنهما كانا يأكلان الطعـام بـاعتراف المسيحيين أنفسهم، وليس من شأن الإله أن يحتاج إلى الطعام فيأكلـه، وأن يكـون محلاً للحـوادث والعـوارض التـي هـي مـن صـفات الممكنـات ويتنـزه عنهـا مقـام الربوبية.

---

(١) النساء ١٧١.

(٢) المائدة ٧٥.

أنظر كيف يخاطب القرآن الناس على مقدار مداركهم، وكيف خص الطعام بالذكر لأنه أقرب الأفعال إلى الإنسان وأدلها على الضعف والحاجة، لما يعلمه الإنسان بما سوف يصيبه لو أمتنع عن تناوله.

وأننا لنرى علماء المسيحيين ومفكريهم قد حاروا، بعد أن عرفوا استحالة وجود أكثر من إله واحد بالفطرة والدليل العقلي، حاروا في اتباع أي من القولين أو في تأويل ثالوثهم المقدس بشكل يرضي الحكم العقلي والفطري، وقد انشعبوا في ذلك مذاهب متكثرة عديدة، ليس في المقام مجال لذكرها.

كما أننا نرى من ناحية أخرى ان العلماء المحدثين المختصين بأي فرع من فروع العلم، إنما هم علماء موحدون رغم نشأتهم في بيئة مسيحية، فهم يرجعون الظواهر الكونية التي يدرسونها إلى إله حكيم، وهو أيضاً إله واحد، ولا يمكن أن يكون إلاَّ كذلك، وفي كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)، وكتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) أكبر دليل على ذلك.

ولا يبقى بعد ذلك إلاَّ حفنة ممن أعماهم الضلال ورانت على عقولهم الشبهات وأخذ بمجامع قلوبهم التعصب الأعمى، فادعوا الإلحاد وتبجحوا به، في حين لم نر أن مفكراً واحداً أدعى الثنوية أو التثليث، أو أفتخر بهما على الإطلاق.

والآن يجب أن ننظر إلى القسم الثالث من الفطرة، وهي الفطرة العقلية، وإلى ما يمكنها أن تدركه من العقيدة الإلهية والتوحيد، وهي التي سبق أن أشرنا إلى أنها عبارة عن القضايا التي لا يحتاج العقل في تصديقها والإيمان بمقتضاها إلاَّ إلى إدراك وفهم موضوعها ومحمولها، وأشرنا أن العقل يجعل هذه القضايا، الركيزة الأولى لبراهينه واستدلالاته على سائر القضايا المحتاجة إلى الاستدلال.

وأشرنا أيضاً إلى أن جملة من القضايا الأوليات، هي إدراك العقل بأنه لابد لكل ممكن من علة، ومن هذه القضية يستنتج العقل الإيمان بوجود الخالق عز وعلا؛ لأن هذا الكون ممكن لأنه متجدد بالحوادث وكل حادث منه مسبوق بعدم، وكل ما كان كذلك فهو ممكن أي متساوي طرفي الوجود والعدم، لا اقتضاء له بذاته إلى أحدهما وما دام هذا الكون ممكناً فهو محتاج إلى علة، طبقاً للقاعدة التي يدركها بفطرته من احتياج كل ممكن إلى علة، إذن فهناك علة خالقة لهذا الكون.

ومن هذا المنطلق يبدأ العقل بالبرهنة على صفات هذه العلة الخالقة للكون، فيثبت عن طريق البرهان، أنها يجب ان تكون واجبة الوجود لذاتها، وأنها يجب أن تكون كاملة من جميع جهات الكمال، وأنها يجب أن تكون منزهة عن كل النواقص والصفات العدمية الإمكانية التي تزري بذلك المقام الرفيع، على تفصيل مذكور في محله من الفلسفة الإسلامية، حتى يصل الإسلام بالخالق العظيم إلى أوج التنزيه والكمال.

أما التوحيد فأننا لا نحتاج في إثباته إلى البرهنة والاستدلال، فإنه أيضاً من الأمور النظرية المرتكزة في كيان العقل، فإن العقل إنما حكم بوجود وجود العلة بالنسبة إلى الممكن توصلًا لإيجاده، ولم يحكم بوجوب وجود علتين، ولم يكن له أن يحكم بذلك للبرهان الفلسفي القائم على استحالة صدور الشيء الواحد من علتين تامتين، ومن ناحية أخرى، يدرك العقل عطفاً على ما تدركه الفطرة الكونية من عظمة الخالق وكماله، ان الكامل المطلق لا يمكن أن يكون إلاَّ واحداً، لأن الكمال المطلق الذي يتصوره ليس إلاَّ واحداً ولا يمكن أن يتعدد.

ولئن كان إدراك الفطرة للتوحيد هو الدليل الرئيسي عليه، وهو الذي اعتمده

القرآن في الاستدلال عليه، كما سبق أن أشرنا إليه، فإن ذلك لا يعني عدم وجود براهين مطولة فلسفية وكلامية على هذه العقيدة الرئيسية في الإسلام، فإن للفلاسفة والمتكلمين المسلمين طرقاً كثيرة إلى إثبات ذلك، ولكن أقرب تلك الأدلة إلى الوجدان ما كان منبثقاً من فطرة النفس ونابعاً من صميم الضمير.

بعد هذه الجولة المفصلة في البحث عن ماهية الفطرة ومدركاتها، يمكننا أن نميز بوضوح تام، مدى صحة وجهة النظر الإسلامية، في إيكال عقائده الرئيسية إلى الفطرة النفسية النابعة من باطن العقل، فإن هذا الصوت الداخلي لهو أقرب الأصوات إلى الإنسان وادعاها بالإطاعة والإمتثال، كما ان الاستجابة إليه هي أقرب الطرق إلى الوصول إلى الحق، إلى الإسلام، فالإسلام لم يدع في عقائده الرئيسية إلاَّ إلى ما تدعو إليه الفطرة والجبلة الإنسانية، كما أنه لم يذهب في تفاصيلها إلاَّ إلى ما يدعو إليه البرهان العقلي الصحيح المعتمد على تلك المدركات الفطرية الأولية.

هدانا الله إلى هداه ووفقنا إلى رضاه، ويسر لنا الإصغاء إلى نداء الحق المنبثق من داخل ضمائرنا أنه ولي الهداية والتوفيق[١].

الملحق رقم (٣): علم الكلام المعلوماتي

يقول الدكتور عمرو شريف : يقوم علم الكلام على بحث ودراسة مسائل العقيدة الإسلامية، بإيراد الحجج العقلية وعرض الأدلة على إثباتها، ودحض ونقد الشبهات التي تثار حولها، ودفعها بالحجة والبرهان. ويعرف هذا العلم أيضاً بعلم

(١) الأنظار التفسيرية ص ٢٤١ ـ ٢٦١.

التوحيد وعلم الأصول الديني والفقه الأكبر وغيره من الأسماء، ويقابله علم اللاهوت في المسيحية...

ومع تقدم العلوم الطبيعية، بدأ استعمال مفاهيمها وحقائقها في الإستدلال على قضايا الربوبية، حتى ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى إنشاء علم كلام جديد يقوم على العلوم الطبيعية لما لها من حجة وقوة برهان، خاصة مع ازدياد الشُّقة بين إفهام الناس وبين علم الكلام التقليدي[(١)].

في كتاب (الإلحاد برؤية السيّد محمد الصدر) ذكرت موقفين للسيد الشهيد الصدر تجاه العلوم الحديثة:

الموقف الأول: أنه قدس سره يرفض أن تفسر المفاهيم العقائدية تفسيراً مادياً، كالذين يفسرون الشياطين بالبكتيريا والروح ومعاجز الأنبياء بتفسيرات تتلاءم مع العلوم العصرية كما فعل السيّد أحمد خان الهندي والشيخ الطنطاوي.

وسبب رفضه لهذا الإتجاه هو أن العلوم العصرية الحديثة متغيرة غير ثابتة ففي كل سنة تقريباً أو اكثر توجد اكتشافات جديدة تدعم الإكتشافات السابقة أو تبطلها وإذا فسرنا القرآن الكريم ونحوه بهذه التفسيرات ثم تطورت العلوم وأبطلت هذه التفسيرات حصل الشك في القرآن الكريم وفي ثوابت العقيدة.

يقول قدس سره: «**تظهر النزعة المادية الشعورية بوضوح في تلك الفلسفات المادية الإلحادية التي تحاول – صراحة– الاستدلال على أن ليس وراء هذا الكون سوى المادة الصماء، ولا يحتوي على أيّ قوانين سوى قوانين**

---

(١) المعلوماتية ص ١٦٥.

الطبيعة العمياء... والباحثون الإسلامويون المعاصرون -بصفتهم ابناء هذا العصر، وقد نهلوا عنه أفكارهم، وتلقوا على يده علومهم- لم يفتهم وجود هذه الروح المادية في أحشاء الفكر الحديث»[1].

الموقف الثاني: لا يخفى على من طالع كتابات السيّد الشهيد الصدر أن عقليتهقدس سره (عقلية أطروحية) بمعنى أنه يجعل كل تفسير لظاهرة معينة وجهاً من الوجوه فيحتمل أن يكون هو الواقع لهذه الظاهرة وهذا في تفسير الظواهر الكونية لا في تفسير الآيات والأحاديث تفسيراً مادياً.

يقولقدس سره : «**فإذا دلتنا التجارب المتكثرة والوقائع المتعددة، على صحة قانونٍ من القوانين، كقانون (التجاذب العام) الذي قال به نيوتن، عرفنا طبقاً لذلك أنَّنا قد أطلعنا على إحدى جهات القدرة الإلهية، لأننا لا نستغني بهذا القانون عن وجود هذه القدرة العظيمة.**

فإذا تعاقبت الأجيال، واندحر هذا القانون، بفعل التجارب الكثيرة، وثبت ـ مثلاً ـ أنَّ (النظرية النسبية) هي القانون الصحيح وليس قانون التجاذب، عرفنا أنَّنا كنا واهمين في اعتقادنا الأول؛ لأن مستوانا الذهنيّ لم يكن مساعداً على إدراك كل الحقيقة، وأنَّ القانون الحقيقي هو (النظريّة النسبية) دون قانون التجاذب، وقلنا أنَّ هذه النظرية هي القانون الذي سنّه الله تبارك وتعالى في كونه لا ذاك، كلّ ما في الأمر أنَّ معرفتنا بهذه القدرة العظيمة قد تعمقت وتأكّدت.

---

(١) اشراقات فكرية ج ١ ص ١٤٦.

وإذا ثبت بطلان النظرية النسبية، وجاء الفكر البشريّ بنظريةٍ أكثر عمقاً وشمولاً، فقد أصبح هذا الفكر مؤهلاً لإدراك جوانب أكثر وأعمق للقدرة الإلهية، وإن القانون النافذ في الكون هو ذاك دون النظرية النسبية»[١].

يوجد في كتابه منهج الأصول ما يوضح سبب ذهابه إلى هذا الموقف في تفسير الظواهر الكونية حيث يقولقُدِّسَ سِرُّهُ: «**ان أنصار العلم الطبيعي الحديث يعترفون بأن النظريات العلمية، مهما كانت مؤكدة فهي مبنية على الاحتمال أو على (حساب الاحتمالات).**

وهم لا يستبعدون تجاه أي حقيقة علمية عندهم، ان توجد نظرية أخرى مضادة لها تنفيها وتكذبها.

وان أهم وأعم نظرية مشى عليها العلم الطبيعي الحديث هو النظرية النسبية. حتى أنهم يسمونه بقانون النسبية، يعني أنها ارتقت من مرحلة النظرية ووصلت إلى درجة القانون. كما يعبرون عن الجاذبية بقانون الجاذبية.

وهي اعني النسبية ناجحة لديهم في كل التطبيقات الدقيقة التي يعيشونها في اختصاصاتهم. مع انها أيضًا ثابتة لديهم بالاحتمال، وان اول من حاول الخروج عنها أو عليها، هو واضعها نفسه: انشتاين. الذي كان يطمع ببديل لها اشمل واضبط منها، سماها بنظرية المجال الموحد. ولكنه

---

(١) اشراقات فكرية ج ٢ ص ٣٦٦.

لم يستطع وضعها إلى ان مات. وحسب علمي انها لم توضع لحد الآن»[1].

ومن هنا يظهر لنا أن السيّد الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ لا يعارض علم الكلام المعلوماتي بل هو يؤيده ويعتبره مظهراً من مظاهر معرفة القدرة الإلهية بشرط أن يكون التفسير لهذه الظاهرة الكونية تفسيراً أطروحياً قابلاً للنقد والتبديل لكي لا نتحول بسبب سلوكنا هذا المسلك كالكنيسة في العصور الوسطى التي تبنت بعض أفكار ارسطو وقتلت غاليلو بسبب تبنيه فكرة مغايرة لها.

الملحق رقم (٤): الدكتور عمرو شريف والسيّد محمد الصدر

بعد أن عرضت رأي السيّد الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ بخصوص (علم الكلام المعلوماتي) بالموضوع السابق جرت محاورة مع الدكتور حول رأي السيّد الشهيد الصدرقُدِّسَ سِرُّهُ.

قال د. عمرو شريف: أتفق مع الإمام الشهيد في عدم تفسير قضايا العقيدة، وأيضاً الغيبيات، تفسيراً مادياً وقد آصبح هذا الأسلوب هو منهجي في التعامل مع هذه القضايا ...

أختلف مع الإمام الشهيد في اعتباره أن جاذبية نيوتن قد ثبت خطأها، الصواب أن النسبية قد جعلت من جاذبية نيوتن حالة خاصة ...

لست متحمساً لاتخاذ موقف متحفظ من «الحقائق» العلمية

وينبغي الاستشهاد بهذه الحقائق في إثبات الوجود الإلهي، وهذا عملاً بنص

---

(١) منهج الأصول ج ٣ ص ١٦٩ _ ١٧٠.

القرآن الكريم: ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق...**﴾

ولو افترضنا جدلاً، ثبوت خطأ بعض ما اعتبرناه حقائق واستشهدنا به، فليس هناك إشكالية في أن نقول: اجتهدنا وأخطأنا، وتبقى المفاهيم المقدسة على قدسيتها.

فقلت له: نعم انا لاحظت في كتاباتكم التعريض بمن يحاول لي اعناق الآيات الكريمة ليثبت مدعاه والسيّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه ذكر نظرية نيوتن واينشتاين كمثال ولم يكن في صدد تصحيح أحد النظريات على الأخرى...

والسيّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه كذلك مع مفاد الآية بأن الله يرينا آياته في الآفاق وأن الكون كما تعبر عنه انت ايها الاستاذ النبيل بـ(كتاب الله المنظور) ولكنه يقول أن الحسم والاعتقاد بأن هذا التفسير هو الصحيح دون غيره ليس بصحيح اذ لعل في المستقبل يكشف شيء اخر والقطع بان المستقبل لا يكتشف شيئاً مغايراً رجم بالغيب نعم هوقُدِّسَ سِرُّه يعترف ان في زماننا أرانا الله تعالى قدرته بحسب ادراكنا لهذا القانون ولهذه النظرية واذا تغيرت هذه النظرية او القانون يقول السيّد الصدرقُدِّسَ سِرُّه ان الله أرانا قدرته بشكل مختلف.

فقال د. عمرو شريف: بالفعل، الصواب هو اعتبار أن العلم منظومة متطورة دائماً...

الملحق رقم (٥) البرهان الأخلاقي:

من ضمن البراهين التي استند إليها في إثبات وجود الله تعالى هو البرهان

الأخلاقي وكثيراً ما يستشهدون له بكلمة دوستوفيسكي إذ يقول: (إذا لم يكن الله موجوداً فهذا يعني أنّ كل شيء مباح)، ويقصد أنّ الإيمان بالله يمنع الإنسان من الظلم والبغي خوفاً من العقاب الإلهي الذي يترتب على الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى.

ولكن هذا البرهان لا يستند إليه علماء العقائد إلا من باب الإقناع كما كان يقول السيد محمد الصدر: «**ان المؤمنين بالله عندهم انسانية وعندهم انصاف وعندهم طيبة وعندهم اخلاص نحو ذلك من الصفات التي تتوخى ونتمناها لأي انسان، في مقابله الذين لا يؤمنون بالله، حبيبي، يخرمشون وجهك ويدك ورجلك، هذا هوه، مكرة فسقة منحرفين ظلمة الى آخره هذا هو... زين ، حينئذ معنى ذلك ان الايمان بالله هو حصة الطيبين وانكار الله سبحانه وتعالى هو حصة الفاسدين ويكفينا هذا دليلاً على وجوده جل جلاله وعلى لطفه وقدرته هذا هو**»[(١)].

وكان ذلك في معرض وعظ الناس وينقل حادثة أنّ هناك فرداً لم تقنعه كل البراهين الفلسفية والكلامية إلا هذا الدليل الأخلاقي الإقناعي... وقد دأب أصحاب الشبهات إلى تحطيم هذا البرهان الأخلاقي عملياً وذلك بتضخيم أخطاء المؤمنين بوجود الله تعالى من المتطرفين وتصديرها إلى الإعلام على أنّها نتيجة طبيعية لإيمانهم!! وكأنّ الإيمان هو الذي أمرهم بالتطرف والقتل والذبح وليس ذلك ناشئ عن سوء فهم للدين الإسلامي دأب العلماء كثيراً لبيان خطأه وانحرافه عن الدين الحق.

---

(١) الجمعة رقم (٩).

وفـي المقابـل يـدعم الإعـلام المضـلل الحـالات الإنسـانية التـي يقـوم بهـا الملحدون ويظهرهم بغاية اللطافة والأخلاق وغاية ذلك توجيه ضـربة قاضـية لهـذا البرهان بأنّ الـدين لـيس هـو المصـدر الأسـاس لتحسـين أخـلاق النـاس وأنشـأت مدارس عدة بأسم (الإنسانية/ الهيومانيسم) نستلهم الأخلاق من غير الدين.

بالإضافة إلى ظهور مؤمنين بالله تعالى يسمون بالـ(ربوبيون) يؤمنون بوجود الله تعالى ولكنهم ينكـرون الأديـان والبعـث والعقـاب وكـان مـن ضـمنهم الفيلسـوف البريطاني (انتوني فلو) الـذي كـان ملحـداً ثـم آمـن... هـؤلاء الـذين جمعـوا بـين الإيمان وعدم الاعتراف بالآخرة لا يخـافون مـن عقـاب ولا يعملـون لثـواب لكـي يجعلوا من البرهان الأخلاقي برهاناً مقبولاً.

لذلك كان الشيخ محمد جواد مغنيـة يـرى أنّ البرهـان الأخلاقـي أقـرب إلـى إنكار الإله من إثباته فنجده يقول: «**وهذا الدليل في واقعه أقـرب إلـى انكـار الخالق من الاعتراف به، إذ يكون الإيمان بالله، والحال هذه، وسيلة لا غاية، بحيث لو افترض وجود إنسان يفعل من تلقائه ما ينبغي فعلـه، ويتـرك مـا ينبغي تركه لما وجب عليه الإيمان بالله.. وليس من شك أن جعـل الله أداة أقبح من إنكاره**»[(١)].

ولعله يقصد تلك النظرية الاجتماعية القائلة بأنّ الإيمان ضروري لكونه يُعطـي النفوس إطمئنانـاً ويبعـدها عـن الكئابـة والانتحـار... وهـم بـذلك لا يفرقـون بـين الإيمان الحق والباطـل فكـل الأديـان تبعـث فـي الإنسـان روح الأمـل، ومـن هـذا المنطلق يثبتون وجود الله تعالى لتحقيق هذا الهدف الاجتمـاعي فيكـون الله تعـالى

---

(١) التفسير الكاشف ج ١ ص ٦٢.

أداة لتحقيق غايتهم! وهذا وإن كان صحيح اجتماعياً إلا أنّه لا بد أن يكون البحث عن الإيمان والدين من خلال براهين وأدلة صحيحة لكي لا يشترك مع الإيمان بالأديان الخرافية.

وبذلك يعلم.. أنّ أفعال المؤمنين المتطرفة لا تدل على عدم وجود الله تعالى إذ انّ البرهان الأخلاقي ليس برهاناً بل هو دليل خطابي للإقناع لا أكثر ولا أقل، وكذلك أفعال الملحدين الأخلاقية لا تدل على عدم وجود الله تعالى لنفس العلة المذكورة فإنّ الملاحدة كذلك يستغلون البرهان الأخلاقي لغرضهم كما هو واضح وصارخ في كلماتهم كما يقول دوكنز: «**من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الإيمان بشيء**»[1].

فجعل الحروب كلها بسبب الإيمان... وقد تغافل عن أنّ الإتحاد السوفيتي الملحد -الذي قتل المليارات أكثر مما يقتل بسبب دين أو عقيدة- لم يكن يؤمن بشيء إطلاقاً إلا الإلحاد، ولو تنزل المنصف غير المتحيز لقال: إنّ إستغلال الدين لأجل الحروب ليس عاراً على الدين بل عار على المستغلين فقط!!

---

(١) وهم الإله ص ٢٨٢.

المصادر والفهارس

مصادر الكتاب:

القران الكريم.

نهج البلاغة.

مفاتيح الجنان.

١. منة المنان في الدفاع عن القرآن للشهيد السيّد محمد الصدر.
٢. منبر الصدر للشهيد السيّد محمد الصدر.
٣. ما وراء الفقه للشهيد السيّد محمد الصدر.
٤. منهج الأصول للشهيد السيّد محمد الصدر.
٥. فقه الأخلاق للشهيد السيّد محمد الصدر.
٦. موسوعة الإمام المهدي للشهيد السيّد محمد الصدر.
٧. مواعظ ولقاءات مجموعة اللقاءات والصوتية للسيد الشهيد الصدر تحت إشراف هئية تراث الشهيد الصدر.
٨. مسائل في حرمة الغناء للشهيد السيّد محمد الصدر.
٩. نظرة في فلسفة الأحداث للشهيد السيّد الصدر.
١٠. إشراقات فكرية للشهيد السيّد محمد الصدر.
١١. رفع الشبهات عن الإنبياء للشهيد السيّد محمد الصدر.
١٢. كتاب البيع للسيد الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ تقرير السيّد محمد الصدر قُدِّسَ سِرُّهُ.
١٣. مسائل وردود للشهيد السيّد محمد الصدر.
١٤. فقه الطب للشهيد السيّد محمد الصدر.
١٥. منهج الصالحين للشهيد السيّد محمد الصدر.

١٦. بحث ولاية الفقيه للشهيد السيّد محمد الصدر.

١٧. شذرات من تاريخ الحسين عليه السلام تقريراً لمحاضرات السيّد محمد الصدر.

١٨. الإمام المهدي المنتظر (مختصر الموسوعة) للسيد محمد الصدر.

١٩. نظرة عامة في إعلان حقوق الإنسان للشهيد السيّد محمد الصدر.

٢٠. الطائفية في نظر الإسلام للشهيد السيّد محمد الصدر.

٢١. تعليقات على كتاب السنة والشيعة لأحسان إلهي ظهير للسيد محمد الصدر.

٢٢. الكلمات القصار للشهيد السيّد محمد الصدر إعداد مؤسسة المنتظر لأحياء تراث آل الصدر.

٢٣. الأنظار التفسيرية تراث المرجع الديني الكبير السيّد محمد الصدر إعداد مؤسسة المنتظر لأحياء تراث آل الصدر.

٢٤. أضواء على منبر الصدر للشيخ عبد الرزاق النداوي.

٢٥. مجلة الرصد العدد (١٧) بعنوان الحرب الناعمة، للمركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.

٢٦. قوى الشر واستراتيجيات إقصاء العقل للشيخ أيمن المصري.

٢٧. الفلسفة الإسلامية للشيخ محمد رضا المظفر.

٢٨. ثمار رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية للدكتور عمرو شريف.

٢٩. تحف العقول عن ال الرسول للشيخ ابن شعبة الحراني.

٣٠. هداية الأمة لأحكام الأئمة للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

٣١. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للشيخ محمد بن الحسن

الحر العاملي.
٣٢. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي.
٣٣. الطفل بين الوراثة والتربية للشيخ محمد تقي فلسفي.
٣٤. قصة الإيمان بين الفلسفة والعقل والقران لمفتي طرابلس ولبنان الشمالي الشيخ نديم الجسر.
٣٥. موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي.
٣٦. الإلحاد مشكلة نفسية للدكتور عمرو شريف.
٣٧. مناهج التفسير للشيخ جعفر السبحاني.
٣٨. مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني.
٣٩. الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى المطهري للمركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
٤٠. نهاية حلم وهم الإله للشيخ أيمن المصري.
٤١. مجلة الرصد العدد (١٥) بعنوان هوليود تستهدف الدين للمركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
٤٢. كتاب التوحيد للشيخ الصدوق.
٤٣. الإسلام يقود الحياة للسيد محمد باقر الصدر.
٤٤. الإلحاد في الغرب للدكتور رمسيس عوض.
٤٥. رحلة عقل للدكتور عمرو شريف.
٤٦. موسوعة ويكبيديا العالمية (موقع أنترنت).
٤٧. تحديد النسل فكرة غربية للسيد محمد الشيرازي.
٤٨. معجم رجال الحديث للسيد الخوئي.

٤٩. حادي العقول للدكتور عمرو شريف.
٥٠. الإسلام منهج الحياة للسيد هادي المدرسي.
٥١. نقد فلسفة دارون لأبي المجد الشيخ محمد رضا النجفي الأصفهاني.
٥٢. مجلة الأستغراب العدد ٧ للعتبة العباسية المقدسة.
٥٣. المنهج الجديد في تعليم الفلسفة للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي.
٥٤. عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر.
٥٥. فقه اللغة للدكتور حاتم صالح الضامن.
٥٦. القواعد الأساسية للغة العربية للسيد أحمد الهاشمي.
٥٧. خرافة الإلحاد للدكتور عمرو شريف.
٥٨. الكافي الشريف للشيخ محمد بن يعقوب الكليني.
٥٩. الإسلام والحضارة الغربية للسيد مجتبى الموسوي اللاري.
٦٠. وهم الإله لريتشارد دوكينز.
٦١. الإسلام في الغرب لروجيه غارودي.
٦٢. النظام السياسي في الإسلام للشيخ باقر شريف القرشي.
٦٣. الفقه الإسلامه تأسيسه اصالته مداركه للشيخ باقر شريف القرشي.
٦٤. مجلة نصوص معاصرة العدد ٤٦.
٦٥. موسوعة الإمام علي بن أبي طالب للشيخ محمد الريشهري.
٦٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي.
٦٧. مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي.
٦٨. أجوبة الشبهات الكلامية للشيخ محمد حسن قدردان قراملكي.
٦٩. شبهات وردود للشيخ جعفر السبحاني.

٧٠. لكيلا تتنازعوا للسيد محمد الشيرازي.
٧١. ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين للسيد محمد الشيرازي.
٧٢. الحلقة الثالثة في أسلوبها الثاني للشيخ باقر الإيرواني.
٧٣. العلمانية في الإسلام لإنعام أحمد قدوح.
٧٤. رجال ونساء أسلموا إعداد وترجمة د. عرفات كامل العشي.
٧٥. جدلية الدين والفلسفة للشيخ حسن الكاشاني.
٧٦. الفهرست ، لأبن النديم.
٧٧. نقض المسيح للفيلسوف الألماني نيتشه.
٧٨. الدين حدوده ومدياته لمصطفى كريمي.
٧٩. المستشرقون وموقفهم من التراث الإسلامي، البحوث التي ألقيت في المؤتمر العلمي الأول لكلية الفقه الجامعة المستنصرية ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م للمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية.
٨٠. الآلي المصنوعة لجلال الدين السيوطي.
٨١. روزنامة جرائم فرنسا لجاك موريل.
٨٢. جامع أحاديث الشيعة للسيد حسين البروجردي.
٨٣. كتاب الآمالي للسيد المرتضى علم الهدى.
٨٤. البراهين الواضحة للشيخ علي أكبر سيفي المازندراني.
٨٥. أنا تتحدث عن نفسها للدكتور عمرو شريف.
٨٦. ميزان الحكمة للشيخ محمد الريشهري.
٨٧. الحوار بين الحضارات في الكتاب والسنة للشيخ محمد الريشهري.
٨٨. المصمم الأعظم للدكتور حسين بن أحمد اللواتي.

٨٩. مناهج المستشرقين لكمال الدين خليل.
٩٠. العلمانيون والقرآن الكريم للدكتور أحمد إدريس الطعان.
٩١. نقد الخطاب الإستشراقي للدكتور ساسي سالم الحاج.

المحتويات

الفصل الثاني

أدوار بث الفكر الإلحادي

الفصل الثالث

مباحث الاعتراف بوجود الله تعالى

الفصل الرابع

مناقشة الأدلّة على نفي الخالق

الفصل الخامس

مباحث في التوحيد

الفصل السادس

شبهات عامة يطرحها الملاحدة

الفصل السابع

شبهات خاصة على الدين الإسلامي

الفصل الثامن

طرق التحصين والمواجهة

ملاحق

تم بحمد الله تعالى